6701
-51A

كتاب
الحلة السيراء

لأبي عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي
المعروف بابن الأبار
(٥٩٥ - ٦٥٨ هـ / ١١٩٩ - ١٢٦٠ م)

الجزء الأول
ويضم تراجم أهل المئات الأولى والثانية والثالثة والرابعة

حققه وعلق حواشيه الدكتور
حسين مؤنس
أستاذ التاريخ الإسلامي بكلية الآداب بجامعة القاهرة
ومدير معهد الدراسات الإسلامية بمدريد



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

تمهيد :

عاش أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي المعروف بابن الأبار بين سنتي ٥٩٥/١١٩٩و٦٥٨/١٢٦٠ ، أي ثلاثاً وستين سنة هجرية (إحدى وستين سنة ميلادية) ، وهو عمر طويل نسبياً ، وأتيحت له الفرصة ليصيب من العلم أوفر نصيب سمح به زمانه ، ووصل إلى الوظائف الكبرى فى عنفوان شبابه ، وظل بعد ذلك صدراً فى بلده بلنسية وفى كل مكان حل فيه ، وأوتى من الذكاء وبعد الفهم وقوة الذاكرة وبلاغة اللسان ما كان كفيلا بأن يهيئ له حياة سعيدة ، أو مستقرة على أقل تقدير ، ولكنه خُلق ذا طبع قلق ونفس حائرة وقلب ذى طماح بعيد المطارح ، فلم يقر له حال منذ أيفع إلى أن مات ، ولم يسعد من حياته الطويلة إلا بفترات قصار معظمها وهو دون الثلاثين ، ثم ما زالت الخطوب تنزل بساحته وما زال يعينها على نفسه حتى تكدرت حياته ما بقى له من أيام العمر بعد ذلك ، وانتهى به الأمر إلى مصرع فاجع على يد من خدمه وملأ الصفحات بمديحه ، فلو أننا بحثنا عن مثال لرجل لم ترحمه أيامه ولا رحمته نفسه لما كان هذ المثال خيراً من ابن الأبار .

ولكن الأجيال التالية لعصر ابن الأبار كانت أرفق به من أيامه ومن نفسه ، فتعاقب الناس على إنصافه وتكريمه والإشادة بذكره ، فترجم له أبو العباس أحمد بن أحمد بن عبد الله الغبريني (ت ٧١٤/١٣١٤ — ١٣١٥) فى «عنوان الدراية» (ص١٨٣—١٨٧) وابن خلدون فى تاريخه (٦/٢٨٣—

٢٨٥) ، والمقرى فى « نفح الطيب » (٣/٣٤٦-٣٤٧) و « أزهار الرياض » (٣/٢٠٥) ، وأبو على محمد بن إبراهيم اللؤلؤى الزركشى فى «تاريخ الدولتين» (ص ٢٠ – ٢٧) ، ومحمد بن شاكر الكتبى فى « فوات الوفيات » (بولاق ، ٢/٢٨٢-٢٨٤) ، وذكر حاجى خليفة بعض مؤلفاته فى أربعة مواضع من كشف الظنون (٢/١١٥ و٢٣٦ ، ٣/٥٢٧) .

هؤلاء جميعاً أثنوا على ابن الأبار وقدروه قدره الصحيح كواحد من أكبر من أنجبهم الأندلس فى ميادين التاريخ والأدب وعلوم الإسلام ، وأنصفوه من قاتله وأجمعوا على أنه قتل مظلوماً ، بل وصفه بعضهم بالشهيد .

وفاقت عنايةُ المحدثين بابن الأبار عنايةَ الأقدمين ، فتبينوا من فضائله كمؤرخ وكاتب أكثر مما تبينه السابقون ، وصاحب الفضل فى ذلك دون شك هو المستشرق الهولندى المعروف راينهارت پيتر – آن دوزى ، فقد وقف عنده وقفة طويلة فى كتابه الصغير المسمى « مقدمة للبيان المغرب » :

Introduction au Bayan al - Moghrib, Leyde 1848.

وقرر أنه مؤرخ ثبت دقيق جدير بكل ثقة ، وأنه حافظ جمع فأوعى ، وحفل صدره من العلم بالمغرب والأندلس وبتاريخ الإسلام عامة ما لم يصل إليه إلا القلائل من علماء القرن السابع الهجرى ، وأن أسلوبه الأدبى قوى جميل فيه فحولة ندرت بين أهل عصره .

ثم عاد فأكد هذا الرأى ووفى ابن الأبار حقه من التقدير فى تعليقاته على الترجمة اللاتينية للنصوص الخاصة ببنى عباد أصحاب إشبيلية :

Scriptorum Arabum Loci de Abbadides. (Lugdon Batavorum, 1852) II, 46—47.

ونشر تراجم الأندلسيين من الحلة السيراء فى كتابه المسمى :

Notices sur quelques Manuscrits Arabes (Leyde, 1847—1851) pp. 29 sqq.

مع مقدمة قصيرة عن ابن الأبار أحال فيها إلى ما كتبه عنه فى مؤلفاته الأخرى .

وكان نشر دوزى لهذه القطعة من الحلة ، بالإضافة إلى ما نشره منها فى جامع الكتابات عن بنى عباد منبهاً لأهل العلم إلى قيمة ابن الأبار وأهمية ما كتب ، فأقبل الناس يبحثون عما بقى من آثاره يدرسونها بالعناية الجديرة بها وينشرون ما تيسر لهم منها . وأول من فعل ذلك بعد دوزى ماركوس چوزيف مولر فى كتابه المسمى :

Beiträge Zur Geschichte der Westlichen Araber. (München, 1866) Heft I, 161—192; heft II, 193—360.

ووقف مولر بتراجمه عند أحمد بن أبى الأغلب محيلا بعد ذلك إلى قطعة من « الحلة » كان قد نشرها أمارى فى المكتبة الصقلية (ص ٣٣ وما يليها) .

وواضح أن مولر كان ينوى متابعة نشر تراجم أهل المغرب من « الحلة » فى جزء ثالث من كتابه ، ولكنه لم يفعل ، فبقيت هذه التراجم دون نشر.

وكان دوزى قد نشر بضع تراجم أندلسية من « الحلة » ذيولا على بعض أبحاثه فى كتابه المعروف :

Recherches sur l'histoire et la Littérature de l'Espagne pendant le moyen-âge, 3e éd. Paris, Leyde 1881. Vol. I., appendices X, p. XIX; XX, p. XLVIII; XXIV, p. LVI — vol. II, appendices II, p. XXVII; IX, p. XLVI.

وكان الراهب اللبنانى ميخائيل الغزيرى نزيل إسبانيا وواضع الفهرس الأول للمخطوطات العربية فى مكتبة الإسكريال قد نبه إلى أهمية مخطوط « الحلة السيراء » الموجود بهذه المكتبة ونشر ترجمة لاتينية لقطعة صغيرة منه :

M. CASIRI *Bibliotheca Arabico-Hispana Escurialensis*, Vol. II, p. 163, n. MDCCXXV.

ونشر كذلك قطعة من مخطوط كتاب آخر لابن الأبار هو التكملة :

Ibidem, Vol. II, n. MDCCXXX.

ثم عكف المستشرق الإسبانى فرانثيسكو كوديرا على نشر مخطوطين لابن الأبار ، أولها « المعجم فى أصحاب القاضى الإمام أبى على الصدفى » ، المكتبة الأندلسية رقم ٤ :

Bibliotheca Arabico Hispana; tomus IV, Madrid 1886.

وثانيهما كتاب التكملة لكتاب الصلة :

Bibliotheca Arabico Hispana, t. V—VI, Madrid 1889.

وقد نشر فى هذين الجزءين التراجم التى يضمها المخطوطان رقم ١٦٧٥ و١٦٧٨ من مخطوطات مكتبة الإسكريال وهى التراجم من حرف الجيم إلى حرف الميم (عدا بعض الحروف بين العين واللام) . وقد عثر على هذه التراجم الناقصة فى مخطوط يحمل رقم ١٧٣٥ فى مكتبة الجزائر ، فقام على نشرها م . ألاركون وأنخل جنثالث بالنثيا فى مدريد سنة ١٩١٥ :

M. ALARCON y C. A. G. PALENCIA : *Apéndice a la edición Codera de la Técmila de Aben al-Abbar* en *Miscelanea de Estudics y Textos Arabes*, Madrid 1915.

وبقيت الحروف من الألف إلى الثاء ثم من اللام إلى الياء ، فأما الأولى فقد عثر عليها ألفريد بل ومحمد بن شنب فى فاس ونشراها فى الجزائر سنة ١٩٢٠ :

IBN AL-ABBAR, *Técmilat as-Ṣila.* Texte arabe d'après un ms. de Fez, Tome I complétant les deux volumes édités par Codera, Alger 1920.

وعثر محمد بن شنب على قطعة تضم فاتحة التكملة فنشرها فى المجلة الإفريقية سنة ١٩١٨ :

M. BEN CHENEB, *L'Introduction d'Ibn al-Abbar à sa Técmila.* Revue Africaine, 1918 p. 300.

وقد قدم كل من كوديرا وألاركون وجنثالث بالنثيا وألفريد بل ومحمد ابن شنب لما نشروا من نصوص لابن الأبار بمقدمات ودراسات ضافية ، نخص منها بالذكر مقدمتى كوديرا للمعجم ولما نشر من التكملة ، فهما دراستان شاملتان عن ابن الأبار وحياته وأعماله وقدره بين من أنجب الأندلس من أعلام .

وعند ما كتب فرديناند ڤستنفلد كتابه المعروف عن مؤرخي العرب اختص ابن الأبار بمادة طيبة :

F. WÜSTENFELD, *Die Geschichtschreiber der Araber und ihre Werke*. Göttingen, 1882, p. 129.

وفى الترجمة الإنجليزية التى قام بها بشكوال د جيانجوس للمجلد الأول من « نفح الطيب » للمقرى (طبعة أوروبا) تعليق طويل عن ابن الأبار وأعماله :

PASCUAL DE GAYANGOS, *The History of the Mohammedan Dynasties in Spain*, II, 528.

وكتب ميكيلى أمارى مادة قصيرة عن ابن الأبار فى الجزء الأول من تاريخ مسلمى صقلية ، ثم نشر قطعة منه خاصة بفتح صقلية فى المكتبة الصقلية (رقم ٥٢) ، وأشار إليه سيمونيت فى معجمه :

F. J. SIMONET, *Glosario de voces ibericas y latinas usadas entre los Mozarabes*. Madrid, 1888, CCXXIV.

وعندما كتب البارون ڤون شاك كتابه البديع عن شعر عرب الأندلس وصقلية وفنهم ، أشاد بابن الأبار وترجم إلى شعر ألمانى سينيته المشهورة فى استصراخ أبى زكريا الحفصى لنجدة الأندلس :

ADOLPH FRIEDERICH VON SCHACK : *Poesie und Kunst der Araber in Spanien und Sizilien*. 3 Auflage, Stuttgart, 1871.

وعن شعر ڤون شاك ترجم نفس القصيدة إلى شعر إسبانى خوان ڤالبرا عند ما ترجم الكتاب كله إلى الإسبانية :

JUAN VALERA, *Poeséa y Arte de los Arabes en Espana y Sicilia*. 3a ed. Sevilla 1881, I, 162.

وأوفى مادة كتبت عن ابن الأبار فى غير العربية هى تلك التى كتبها پونس بويجس فى معجمه عن المؤرخين والجغرافيين من أهل الأندلس :

FRANCISCO PONS BOIGUES, *Ensayo bio - bibliográfico sobre los Historiadores y Geógrafos arábigo - españoles*. Madrid, 1898, nu. 253 pp. 291—296.

ونضيف إلى هذا العرض لما كتب عن ابن الأبار فى غير العربية مادتى كارل بروكلمان فى تاريخ الأدب العربى، ج١ / ٤١٦ والملحق ١ / ٥٨٠ (يلاحظ أنه أخطأ فى اسمه فجعله أبا على بن محمد بن على بن أبى بكر بن الأبار) ، ومادة دائرة المعارف الإسلامية فى طبعتها الأولى وقد كتبها محمد بن شنب (١/٣٧٤ ب و٣٧٥ ا) ، والفقرة الخاصة به من كتاب تاريخ الفكر الأندلسى (فقرة رقم ٨٦ ص ٢٧٧ — ٢٨٠ من ترجمتنا العربية) ، ثم المادة القصيرة التى اختصه بها كليمان أوار فى كتابه عن تاريخ الأدب العربى (ص ٢٠٤) .

أما المحدثون من العرب ، فأول من نبه منهم إلى مكانة ابن الأبار هو جرجى زيدان فى كتابه القيم عن «تاريخ الأدب العربى» ، فقد اختص ابن الأبار بمادة قصيرة فى الجزء الثالث من ذلك التاريخ (ص ٨٤ من الطبعة الجديدة بتحقيق الدكتور شوقى ضيف) أشار فيها إلى مكانته كمؤرخ ، وهى على صغرها مادة طيبة تضع ابن الأبار فى مكانه بين مؤرخى الغرب الإسلامى فى القرن السابع الهجرى .

ثم تناول ابن الأبار المرحوم الدكتور عبد العزيز عبد المجيد فكتب عنه كتاباً ضخماً (٣٨٤ صفحة) نال به جائزة مولاى الحسن لسنة ١٩٥١ ، ونشر الكتاب فى نفس العام فى تطوان ، وعلى الرغم من أن هذا التأليف كان أول عهد المؤلف بالدراسات الأندلسية ، إلا أنه عرف كيف يجمع الأصول اللازمة للكتابة عن ابن الأبار ويفيد منها . فدرس عصره وشخصيته ومؤلفاته دراسة طيبة تدل على اجتهاد وصبر ؛ وقد أفدنا فائدة كبيرة من هذا الكتاب .

ثم تناول موضوع ابن الأبار الأستاذ ألفريد البستانى فنشر « المقتضب » الذى صنعه أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن إبراهيم البلفيقى لكتاب ابن الأبار المسمى « تحفة القادم » فى مجلة المشرق (السنة الحادية والأربعون ، يوليو — سبتمبر ١٩٤٧) وقدم له بدراسة قصيرة .

وبعد ذلك بعشر سنوات أعاد الأستاذ إبراهيم الإبيارى نشر نفس النص ، وعلى نفس مخطوطة الإسكريال (رقم ٣٥٦) وقدم له بمقدمة طيبة تتضمن بحثاً عن حياة ابن الأبار وأعماله ودراسة لذلك « المقتضب » ، وكلاهما عمل طيب مشكور .

وفى سنة ١٩٥٩ تقدم السيد أنيس عبد الله الطباع ببحث له عن ابن الأبار للحصول على الدكتوراه من جامعة مدريد ، وأجيز عليه ، ثم طبع ترجمة عربية للبحث بعد ذلك فى بيروت .

وأخيراً ، فى سنة ١٩٦١ ، قام الدكتور صالح الأشتر بنشر « إعتاب الكتاب » لابن الأبار ومهد له ببحث مستفيض عن حياة ابن الأبار وعصره ومؤلفاته وكتاب إعتاب الكتاب .

فهؤلاء تسعة عشر رجلا من أهل العلم من المحدثين فى الشرق والغرب عرفوا قدر ابن الأبار وقاموا على خدمة نصوصه وصرفوا من الجهد ما تيسر لهم فى التعريف به وبأعماله وخصائصه وميزاته ، وكلهم أجمعوا على ما قرره دوزى من أنه يعتبر بحق من أكبر من أنجب الأندلس من أهل العلم ومن أولاهم بالثقة والتقدير.

ولم يصب هذا الحظ من أعلام الأندلس إلا القلائل ، بل كان حظ ابن الأبار من التقدير أكبر من حظوظ مؤرخين يزيدون عنه أهمية مثل أحمد بن محمد الرازى وابن حيان وابن بسام ، فإن واحداً من هؤلاء لم يظفر من الباحثين بكتاب خاص عنه فى حين ظفر ابن الإبار بكتابين : وتلك عناية من القدر بهذا الرجل الذى يشعر الإنسان وهو يقرأ تاريخ حياته أنه لم يعرف قدر نفسه كما عرفه الآخرون .

* * *

حياة ابن الأبار :

وقد قص معظم هؤلاء حياة ابن الأبار فى تطويل أو فى اختصار ، وتتشابه هذه التراجم فى محتواها ، لأن المراجع التى تعتمد عليها فى الترجمة له

متشابهة فى مادتها لا يضيف واحد منها شيئاً جديداً ، وهى لا تخرج عما أتينا به فى الفقرة الخاصة به من «تاريخ الفكر الأندلسى » (ف ٨٦ ص ٢٧٧ — ٢٨٠)، ويبدو من هذه التراجم أن حياة ابن الأبار واضحة خالية من المعضلات ، وربما كان هذا صحيحا عن نصف حياته الثانى ، أى منذ وصوله إلى تونس إلى مصرعه ، ولكن النصف الأول من حياته فى حاجة إلى دراسة ، وخاصة ما يتعلق منه بمأساة بلنسية ونصيب ابن الأبار فى الأحداث التى انتهت بتسليمها.

ونبدأ من البداية ، فنجد الغبرينى يقول إن أصله من أجردة ، وفى نسخة أجره ، ولا نجد قرية أو موضعاً فى إقليم بلنسية بهذا الاسم ، ولكن محمد بن شنب ناشر « عنوان الدراية » يقول فى تعليق له : فى نسختين «أجره» والصواب « تُورِيَة » ، ولا ندرى علام استند فى هذا التصويب ، لأن تورية أو التوريا هو الاسم اللاتينى والإسبانى لنهر بلنسية الذى يسميه العرب بالنهر الأبيض ، ويسمى فى بعض النصوص الإسبانية بهذا الاسم العربى Guadalaviar ، وليست هناك قرية باسم تورية فى ناحية بلنسية . ويضيف الغبرينى عن أجردة هذه : « وهى وما والاها دار القضاعيين فى الأندلس » ، ولم نجد ما يؤيد هذا فى « جمهرة الأنساب» لابن حزم : وصحة الاسم أُنْدَه ، فقد ذكر ابن الأبار فى ترجمته لأبيه (التكملة رقم ١٤٤١) أنه « من أهل أنده وسكن بلنسية » . وأنده Onda اليوم مدينة صغيرة فى مديرية قسطليون Castellón de la Plana ، وتقع على ٢٠ كيلومتراً غربى قسطليون قاعدة المديرية ، وكانت أنده على أيام المسلمين تابعة لكورة بلنسية :

وترجمة ابن الأبار لأبيه تلقى ضوءاً على أصله وحياته الأولى ، فقد كان أبوه عبد الله بن أبى بكر بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أحمد بن أبى بكر القضاعى من أهل العلم والدين ، درس على أجلاء أهل العلم فى عصره وأجاز له الكثيرون منهم رواية كتبهم ورواياتهم ، قال ابن الأبار : « وكتب إليه القاضى أبو بكر بن أبى جمرة يجيز له ولى معه جميع روايته مرتين ،

إحداهما فى غرة رجب سنة ٥٩٧ ، والثانية فى منتصف ذى القعدة من العام المذكور ، وأنا إذ ذاك ابن عامين . وأشهر مولدى عند صلاة الغداة من يوم الجمعة فى أحد شهرى ربيع سنة ٥٩٥ » . وهذا أدق تحديد وجدناه لتاريخ ميلاد ابن الأبار مع ما فى العبارة من تضارب ، فهو يقول أولا أنه كان فى منتصف ذى قعدة سنة ٥٩٧ ابن سنتين ، أى أنه ولد فى ذى قعدة سنة ٥٩٥ ، ثم يقول إنه ولد فى أحد شهرى ربيع من نفس السنة ، فإذا كان قد ولد فى ربيع الأول منها فإن هذا الشهر يقابل ديسمبر ١١٩٨ ، وإذا كان قد ولد فى ربيع الثانى فهو من مواليد يناير سنة ١١٩٩ .

ثم يقول ابن الأبار عن أبيه : « وكان رحمه الله — ولا أزكيه — مقبلا على ما يعنيه ، شديد الانقباض بعيداً عن التصنع ، حريصاً على التخلص مقدَّماً فى حَملة القرآن ، كثير التلاوة له والتهجد به ، صاحب ورد لا يكاد يهمله ، ذاكراً للقراءات ، مشاركاً فى حفظ المسائل ، آخذاً فيما يستحسن من الأدب ، معدَّلا عند الحكام ، وكان القاضى أبو الحسن بن واجب يستخلفه على الصلاة بمسجد السيدة من داخل بلنسية . قرأت عليه القرآن بقراءة نافع مراراً ، وسمعت منه أخباراً وأشعاراً ، واستظهرت عليه مراراً أيام أخذى على الشيوخ ، يمتحن بذلك حفظى ، وناولنى جميع كتبه ، وشاركته فى أكثر من روى عنه . وسمعته يقول : حضرت شيخنا أبا عبد الله ابن نوح ، وقد زاره بعض معارفه ، فسأله عن أحواله ، وبالغ فى سؤاله ، فجعل يحمد الله ويردد ذلك عليه ، ثم أنشد متمثلا :

جرت عادة الناس أن يسألوا عن الحال فى كل خير وشر
فكلٌّ يقول بخـير أنا وعند الحقيقة ضد الخبر

... حدثنى أبى رحمه الله غير مرة أنه ولد بأنده سنة ٥٧١ (١١٧٥ — ١١٧٦) ، وتوفى ببلنسية وأنا حينئذ بثغر بطليوس عند الظهر من يوم الثلاثاء الخامس لشهر ربيع الأول سنة ٦١٩ (٢١ مارس ١٢٢٢) ، ودفن لصلاة العصر من يوم الأربعاء بعده بمقبرة باب بيطالة وهو ابن ثمان وأربعين

سنة ، وحضر غسله أبو الحسن بن واجب وجماعة معه ، وكانت جنازته مشهودة والثناء عليه جميلا ، نفعه الله بذلك » .

وإذن فقد نشأ ابن الأبار فى بيت علم ودين وعفاف ، ولكنه لم يكن من بيت رياسة وولاية . ولو أن ابن الأبار سار على نهج أبيه ق الانصراف إلى العلم والانقطاع له لانتفع بحياته بأكثر مما قدر له ، ولكنه انصرف وهو فى مطالع شبابه إلى السياسة وطلَبِ الوظائف والجاه فى ظروف ضيقة عسيرة على الحاكمين والمحكومين معاً ، فأصابه من ذلك بلاء شديد .

وقد أحصى الدكتور عبد العزيز عبد المجيد شيوخ ابن الأبار وترجم لكل منهم ، ولهذا فسنكتفى بالقول بأنه أخذ القرآن والقراءات عن أبيه ، وأخذ الفقه والحديث والمسائل وعقد الشروط عن أبى عبد الله محمد بن أيوب بن نوح السرقسطى (٥٣٠ ـ ٦٠٨ / ١١٣٥ ـ ١٢١٢) ، وعن محمد بن محمد بن عبد الله بن محمد بن أبى زاهر (توفى فى رجب ٦٣٤ / ١٢٣٧) ، وأخذ الحديث أيضاً عن أبى الخطاب أحمد بن محمد بن عمر بن محمد بن واجب القيسى (٥٣٧ ـ ٦١٤ / ١١٤٢ ـ ١٢١٧) وعلى هذا الشيخ أخذ « الأخبار » أى درس التاريخ ، وهو العلم الذى بلغ ابن الأبار فيه شأوه ، ولابن الأبار شيخ آخر فى التاريخ هو أبو سليمان داوود بن سليمان .. بن حوط الله الأنصارى (٥٥٢ ـ ٦٢١ / ١١٥٧ ـ ١٢٢٤) ، فقد كان ابن حوط الله من المعنيين بالأخبار وممن كتبوا فهرسة لشيوخهم : وأخذ النحو والأدب عن محمد بن محمد بن سليمان بن محمد بن عبد العزيز الأنصارى (٥٦٣ ـ ٦١٠ / ١١٦٧ ـ ١٢١٣) وعن أبى عبد الله محمد بن إبراهيم بن مسلم البكرى (توفى سنة ٦٢٨ / ١٢٣٠) وأبى عامر نذير بن وهب بن لب بن عبد الملك بن نذير الفهرى (٥٥٨ ـ ٦٣٦ / ١١٦٢ ـ ١٢٣٨) وأبى محمد عبد الله بن محمد بن عبد الله بن مطروح القيسى (٥٧٤ ـ ٦٣٥ / ١١٧٨ ـ ١٢٣٧) ، وقد أورد ابن الأبار فى ترجمته لابن مطروح هذا خبرين لهما أهمية بالنسبة لحياة ابن الأبار نفسه ، ولتاريخ

ببلنسية فى أيامه أيضاً ، وذلك أنه ولى قضاء دانية فى آخر عمره ، ثم عزل عنه وتولاه بعده ابن الأبار سنة ٦٣٣ /١٢٣٥ - ١٢٣٦ ، ثم استعفى ابن الأبار من قضاء دانية ، فعاد إليه ابن مطروح لفترة قصيرة إذ أنه توفى سنة ٦٣٥ / ١٢٣٧ - ١٢٣٨ « والروم محاصرون بلنسية » .

غير أن أكبر أساتذة ابن الأبار وأبعدهم أثراً فى حياته هو أبو الربيع سليمان ابن موسى بن سالم بن حسان الحميدى الكلاعى (٥٦٥ - ٦٢٤ / ١١٦٩ - ١٢٢٧) ، فقد كان أبو الربيع كبير علماء بلنسية فى عصره ، وإليك سيرته كما رواها ابن الأبار فى « التكملة » لتستبين النواحى التى أعجبت ابن الأبار فى شيخه هذا واجتهد فى الأخذ بها ، قال بعد ذكره شيوخه : « ...وعنى أتم عناية بالتقييد والرواية ، وكان إماماً فى صناعة الحديث بصيراً به ، حافظاً حافلا عارفاً بالجرح والتعديل ، ذاكراً للمواليد والوفيات ، يتقدم أهلَ زمانه فى ذلك وفى حفظ أسماء الرجال ، خصوصاً من تأخر زمانه وعاصره . وكتب الكثير ، وكان حسن الخط لا نظير له فى الإتقان والضبط مع الاستبحار فى الأدب والاشتهار فى البلاغة ، فرداً فى إنشاء الرسائل ، مجيداً فى النظم ، خطيباً فصيحاً مفوهاً مدركاً حسن السرد والمساق لما يقوله مع الشارة الأنيقة والزى الحسن . وهو كان المتكلم عن الملوك فى مجالسهم والمبينَ عنهم لما يريدون على المنبر فى المحافل . ولىَ خطابة بلنسية فى أوقات . وله تصانيف قصيرة فى فنون ، وله كتاب « الاكتفاء مما تضمنه من مغازى رسول الله صلى الله عليه وسلم والثلاثة الخلفاء » أربعة مجلدات ، وكتاب حافل فى معرفة الصحابة والتابعين لم يكمله ، وكتاب فى أخبار البخارى وترجمته ، وكتاب « الأربعين » وتصانيف سوى ذلك كثيرة فى الحديث والأدب والخطب ، وإليه كانت الرحلة فى عصره للأخذ عنه . أخذتُ عنه كثيراً ، وانتفعت به فى الحديث كل الانتفاع ، وحضنى على هذا التاريخ (أى كتاب التكملة) وأمدنى من تقييداته وطُرَفه بما شحنته به . مولده فى رمضان سنة ٥٦٥ ، واستشهد بكائنة أنيشة على ثلاثة فراسخ من بلنسية ،

وكان أبداً يحدثنا أن السبعين منتهى عمره لرؤيا رآها ، وهو آخر الحفاظ والبلغاء المترسلين بالأندلس . قلتُ : أكثرُ هذا عن ابن مسدى ، وقال : لم ألق مثله ، كان مبرزاً فى فنون » (ترجمة رقم ١٩٩١ ، التكملة ٢ / ٧٠٨ — ٧٠٩) .

وأبو الربيع سليمان هذا نموذج لطراز من أهل العلم فى الأندلس تستطيع أن تسميهم « شيوخ » العصر أى الذين انتهت إليهم الصدارة فى علوم الدين والفقه والفتيا فى أيامهم ، ويصدق على كل منهم ماقاله ابن الأبار عن أبى بكر محمد بن عبد الله بن الجد : « ... وكان فى وقته فقيه الأندلس وحافظ المغرب لمذهب مالك غير مدافَع ولا منازَع ، لايجاريه أحد فى ذلك ولا يدانيه » (التكملة رقم ٨٢٥ جـ ١ ص ٢٥٩) . والخصائص الرئيسية لأولئك الشيوخ غزارة العلم وصدق الإيمان ، وشرف البيت واتصال الرياسة فيه ، وفصاحة اللسان والقدرة على الكتابة والخطابة فى بلاغة ، ثم الاهتمام بشؤون الجماعة الإسلامية والأخذ من السياسة بنصيب ، مع التزام الحق والسمت والعفاف .

وفى عصور الأندلس الأولى ، أيام الإمارة والخلافة ، كان أولئك الشيوخ عمداً من عمد السلطان ، كما نرى فى حالات عبد الملك بن حبيب ويحيى بن يحيى الليثى وأصبغ بن خليل . أما بعد زوال الخلافة وانتشاب الفتنة وتلاشى السلطان السياسى العام فقد أصبح أولئك الشيوخ رموزاً على السلطان الوحيد الباقى وهو سلطان الدين والعلم ، وصاروا رموزاً على قوة الدين وسيادته ومعقدَ الآمال فى بعث الدولة وعودة هيبة الإسلام فى شبه الجزيرة ، فهم عمد الدين وجماعته، وهم فى واقع الأمر زعماء الجماعة الإسلامية الأندلسية وقادتها الحقيقيون . وكلما زاد السلطان السياسى تخلخلا ازداد أولئك الشيوخ جلالا وزاد شعورهم بمسؤولياتهم ، فلم يعودوا مجرد فقهاء بل زعماء أيضاً يتحلون بما تتطلبه الزعامة السليمة من صدق وإخلاص وجرأة واستعداد لبذل النفس فى سبيل الجماعة الإسلامية ، مع الحرص على العلم وهو عماد سلطانهم الأول .

وقد يتقارب اثنان أو ثلاثة من الفقهاء فى صفاتهم ، ولكننا نجد فى الغالب تسليما لواحد بالرياسة والتقدم . ففى أيام أبى على الحسين بن سكرة الصدفى (٤٥٤–٥١٤/١٠٦٢ – ١١٢١) عاش أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد الجد (٤٥٠–٥٢٠/١٠٥٨–١١٢٦) ولكن الزعامة كانت لأبى على بن سكرة الصدفى ، وقد دفع ثمنها باستشهاده فى معركة كُتُنْدَة . وقد عاصرهما أبو بكر بن العربى ، وكان من أجل العلماء وأوفرهم هيبة ، ولكنه فر من معركة كتندة ثم أقحم نفسه فى السياسة ، ولم يستطع لهذا أن يرث مكان الصدفى وإنما ورثه القاضى عياض بن موسى بن عياض (٤٧٦–٥٤٤/١٠٨٣–١١٤٩ ، ٥٠) ، وقد ثبتت زعامته عند تصديه للموحدين وصموده للحق ونفيه إلى المغرب . ثم كان شيخَ الجيل الثانى أبو بكر محمد بن عبد الله بن يحيى بن الجد (٤٩٦ – ٥٨٦/١١٠٢ – ١١٩٠) وكان رجل الأندلس وشيخه غير مدافع على أيام أبى يعقوب يوسف وابنه أبى يوسف يعقوب المنصور ؛ ثم انتقلت المشيخة إلى أبى الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن رشد الحفيد (٥٢٠ – ٥٩٥/ ١١٢٦–١١٩٩) وكان بينه وبين الموحدين من الخلاف ما أدى إلى الإساءة إليه ونفيه ثم عودته ؛ ثم كان الشيخَ بعد ذلك أبو الربيع سليمان بن سالم الكلاعى (٥٦٥–٦٣٤/١١٦٩–١٢٣٧) شيخ ابن الأبار ، وقد استشهد مجاهداً فى سبيل الإسلام فى معركة أنيشة .

ونصل إلى أيام ابن الأبار ، فنجده سائراً فى طريق أولئك الشيوخ ناظراً إلى سيرهم آخذاً بالأصول التى ساروا عليها ، ولكن الظروف فى الأندلس كانت قد تغيرت مع الأيام تغيراً حاسماً جعل استمرار هذا الخط الجليل مستحيلا ، فإن الجماعة الإسلامية نفسها – التى بقيت متماسكة رغم كل شىء حتى النصف الثانى من القرن السادس الهجرى / العقد الثالث من القرن الثالث عشر الميلادى – أصيبت بكوارث كبرى حلت عقدها وضعضعت كيانها السياسى والاجتماعى ولم يتماسك ما بقى منها فى منطقة غرناطة إلا بعد فترة طويلة من الفوضى والكوارث المتوالية .

ذلك أن الصراع الطويل بين الإسلام والنصرانية حول مصير الأندلس تحدد مصيره بصورة حاسمة فى نهاية العقد الأول من القرن السابع الهجرى إثر معركة العِقاب (١٥ صفر ٦٠٩ / ١٧ يوليو ١٢١٢) بعد قرابة القرنين من صراع ضارٍ أنفق الجانبان الإسلامى والنصرانى فيه أقصى ما استطاعا من الجهد فى سبيل أراض عظيمة وبلاد كبرى أراد القدر أن تحرم ممن ينهض من أهلها لجمع أمرها والدفاع عنها . وقد كان هذا الصراع سجالا بين مد وجزر طالما وقف المرابطون فى الميدان ، ثم مال الميزان وشالت كفة الإسلام بعد زوال أمر هذه العصبة من المجاهدين أولى القوى وحلول الموحدين محلهم .

وقد بذل الموحدون ما استطاعوا ولكنهم كانوا أولا وقبل كل شىء أصحاب إمبراطورية كبرى تمتد حدودها من طرابلس فى الشرق إلى مشارف المحيط الأطلسى من الأشبونة إلى ما يعرف اليوم بالسنغال ، وكان على الموحدين أن يظلوا على أهبة الحرب على هذه الحدود المترامية وفى داخل إمبراطوريتهم نفسها . وكان من المستحيل ماديا أن يستمروا محاربين بنفس القوة فى جبهات متعددة كهذه ، وكانت الجبهة الأندلسية أضعف جبهاتهم وأحفلها بالخطر ، لأن أهل الأندلس أنفسهم كانت قد أكلتهم الحروب والفتن المتوالية وفقدوا روح الوحدة وحرموا القادة الصالحين فى وقت كانوا فيه أحوج ما كانوا إلى قادة قادرين ، لأن ممالك إسبانيا النصرانية كانت تقوى على حسابهم يوماً بعد يوم ، وقد أسعدها الحظ بملوك وأمراء أقوياء ذوى همة ووعى إلى الهدف الذى يجمعهم رغم ما كان بينهم من خلافات .

وخلال القرن الهجرى السادس نرى بوضوح ممالك إسبانيا النصرانية تنتظم وتقوى وتتبت فى أقاليمها وتجمع قواها وتتقدم إلى الجنوب بخطوات ثابتة وعن سياسة واضحة أعانتهم البابوية فى رسمها ، وشدت أزرهم بلاد

أوروبية أخرى نهضت واستقرت أمورها قبلهم ، ومن هنا فقد كان الصراع غير متكافئ بوجه من الوجوه .

وقد تماسكت جبهة الأندلس الإسلامى بعد تضحيات كثيرة أيام خلفاء الموحدين الثلاثة الأول ، ثم تداعت على أيام الرابع منهم وهو محمد الناصر ابن أبى يعقوب يوسف المنصور (٥٩٥ – ٦١١ / ١١٩٩ – ١٢١٥) وظهر هذا التداعى فى صورة انهيار سريع بعد معركة العِقاب ، وقد كانت قاصمة الظهر لدولة الموحدين فى الأندلس والمغرب أيضاً .

كان الناصر يشعر قبل هذه المعركة باستحالة الاستمرار فى الدفاع عن دولة مترامية الأطراف كهذه ينتصب لها أعداء ذوو خطر على كل شبر من حدودها بل فى كل ناحية من نواحيها ، فاختار واحداً من خيرة الموحدين وأقامه حاكما عاما على كل الجناح الشرقى من إمبراطوريته ، وهو أبو محمد عبد الواحد بن أبى حفص (سنة ٦٠٣ / ١٢٠٦ – ١٢٠٧) . وكان هذا الإجراء فى حقيقته تقسيما للدولة إلى دولتين ، لأن أبا محمد عبد الواحد ابن أبى حفص وخلفاءه لم يلبثوا أن أصبحوا دولة قائمة بنفسها .

ولو أن محمدا الناصر استأنى قبل أن يخوض معركة االعقاب لكان من الممكن أن يكون حظه فيها أحسن ، ولكنه سار إليها وقسمة الإمبراطورية ما زالت فى الطريق ، ثم إن فتنة بنى غانية كانت قد أفسدت الجانب الشرقى من الأندلس ، وكان لا بد بعد القضاء عليها من تنظيم وترتيب واستجماع قوى . ولكنه – رغم حسن نيته وإخلاصه للدولة وللإسلام – لم يكن بالقائد العسكرى الذى تتطلبه جبهة مهيضة يقف فيها خصم عنيد أضْرته الرغبة فى الانتقام لهزيمة يوم الأرك .

ودخلت فى المعركة عوامل أخرى كانت كلها على محمد الناصر ، منها أن رؤساء المقاتلين معه – سواء من الموحدين أو الأندلسيين أو جماعات عرب الهلالية – لم يقدروا أهمية المعركة ولم يدر بخلد أحد منهم أن مصير

الأندلس كله كان فى الميزان فى ذلك اليوم ، فانساقوا مع عصبيات ونوازع شخصية وغير شخصية ، ومنها أن صناعة السلاح والدروع وفن الحرب بصفة عامة كان قد تقدم تقدما بعيدا فى إسبانيا النصرانية نتيجة للاتصال الوثيق مع بقية بلاد غرب أوروبا . ومن هنا دارت على المسلمين هزيمة قاصمة واصطلى أبرياء المقاتلين والمتطوعة بنار حاصدة أكلتهم أكلا ، وربما كان عدد من استشهد من المسلمين فى تلك المعركة أكبر من عدد من استشهد فى أى معركة فى تاريخ الإسلام كله حتى ليقول صاحب روض القرطاس إن السائر فى ريف المغرب بعد ذلك كان يقطع المسافات الطويلة دون أن يرى رجــلا ، لأن زهرة الرجال راحت صرعى فى ذلك اليوم الأسيف .

وأمثال هذه المعارك تخلف فى النفوس آثاراً لا تمحى ، فإن القلائل من الأندلسيين الذين نجوا من السيوف فى ذلك اليوم تفرقوا إلى بلادهم وقد استقر فى نفوسهم شعور بأن الأمر قد ضاع ولا حيلة فى تلافيه ، وألا خير يرتجى من الرؤساء والقادة أمام عدو مستأسد متفوق ، أى أن معنوية المناضلين عن الجبهة الإسلامية ضعفت وخامرها الخوف من العدو ، ومن ثم فلا غرابة بعد ذلك أن نجد الفئة القليلة من النصارى تستولى على البلد الإسلامى الكبير دون مشقة بل دون قتال فى كثير من الأحيان ، لأن اليأس والخوف ملأا قلوب الناس ، ولم يعد لهم ما يحفظ عليهم الأمل فى البقاء إلا التفافهم حول من وُجد فى بلادهم من الشيوخ الذين ذكرنا بعضهم .

وفى أيام أبى يعقوب يوسف المستنصر — خليفة الناصر وخامس خلفاء الموحدين — تلاشت بقية الأمل فى الموحدين ، فقد نجم لهم بنو مرين وبدأوا معهم صراع المصير فى المغرب ، ولم يكن للموحدين مفر من أن يتجرعوا نفس الكأس التى جرعوها هم للمرابطين فى مثل هذه الظروف قبل قرابة القرن من الزمان .

وخلال السنوات العشر التى دامها حكم هذا المستنصر تغيرت نفسية أهل البيت الموحدى وأشياخ حركتهم ، فلم يعودوا بيتا متحدا تجمعه معنوية واحدة وإنما أمراء وأشياخا اقتعد كل منهم قاعدة من قواعد الملك الموحدى أو وظيفة من وظائفه الرئيسية فى مراكش وعينه متجهة إلى عرش الخلافة يمنى نفسه بها أو يمنيه بها من حوله ، ويتمنى فى نفس الوقت فساد الأمر على من تولى هذا العرش . وقد ظهرت هذه المطامع بصورة خاصة عند بعض من بقى من أولاد أبى يوسف يعقوب المنصور وأبناء عمومتهم أولاد أبى حفص عمر بن عبد المؤمن .

وقد ابتلى الأندلس فى أواخر القرن السادس وأوائل السابع الهجريين باثنين من أبناء يعقوب المنصور ، هما : أبو محمد عبد الله وكان يتولى مرسية ، وأبو العلا إدريس وكان يتولى قرطبة ؛ وشاركهما فى هذا الطمع وأربى عليهما فيه ابن عمهما عبد الله بن أبى حفص بن عبد المؤمن الذى عرف أهل بيته بالبيّاسيِّين ، وكان يتولى إشبيلية ثم بلنسية ؛ وسار فى طريقه اثنان من أبنائه هما أبو زيد عبد الرحمن وقد خلف أباه فى بلنسية وشاطبة ودانية وجزيرة شُقر ، وأخوه عبد الله الذى اشتهر بالبياسى وكان يتولى إشبيلية . أى أن أولئك النفر من البيت الموحدى كانوا يتقاسمون ملك ما بقى للإسلام فى الأندلس ، ولو أخلصوا وصدقوا وانحلوا لأغنوا فى الحفاظ على هذا الباقى ، ولدام لهم الملك الذى اقتعدوه .

ولكن شيطان الطمع والخلاف غلب عليهم ، فنهض أكبرهم أبو محمد عبد الله بن أبى يوسف يعقوب بن عبد المؤمن وأنكر بيعة الموحدين فى مراكش لعم مسن له هو أبو محمد عبد الواحد ذ ذى الحجة ٦٢٠/ مارس ١٢٢٤ ، ونادى بنفسه خليفة بعد شهرين من ولاية عبد الواحد وتلقب بالعادل ، وأيده أخوه أبو العلا إدريس صاحب قرطبة وابنُ عمه عبد الله البياسى صاحب إشبيلية ، وتوقف عن البيعة له ابن عمه أبو زيد عبد الرحمن

ابن أبى عبد الله محمد بن أبى حفص بن عبد المؤمن صاحب بلنسية وما والاها (وهو أخو عبد الله البياسى) . وعبر العادل البحر وخلع عمه عبد الواحد واستقر خليفة فى مراكش ١٢٢٥/٦٢٢ ، وكان يتوجس خيفة من ناحية ابن عمه أبى عبد الله البياسى ، فأضاف إليه قرطبة استرضاءً له ، ولكنه لم يكن ليرضى بأقل من الخلافة ، فما هى إلا شهور حتى خلع طاعة العادل ، وأيس من عون الموحدين فانضم إلى فرناندو الثالث ملك قشتالة ، وسلم له عددا من بلاد المسلمين منها قَيْجاطة Quesada وباجة Baza ولوشه Loja ، ثم سار بمن معه من القشتاليين ليهاجم أبا العلا ادرس فى إشبيلية ، فثبت له هذا ورده خائبا (صفر ٦٢٣/ فبراير ١٢٢٦) ، فمضى يضرب على غير هدى حتى قام عليه أهل قرطبة وقتلوه ، إذ ترامى إلى علمهم أنه خلع الإسلام ودخل فى النصرانية .

ولم يطل الأمر للعادل بعد ذلك ، لأن خلافا شديدا نجم بينه وبين رجال دولته وقادته من الموحدين فقبضوا عليه ثم قتلوه بعد ١٤ يوما (٦٢٤/ ١٢٢٦ — ١٢٢٧) . وفى هذه الأثناء كان أخوه أبو العلا إدريس قد نادى بنفسه خليفة من إشبيلية ، وتلقب بالمأمون وخاض غمار حروب طويلة مع محمد بن يوسف بن هود الذى كان قد نادى بنفسه أميراً على الأندلس كما سيجىء . ثم صور للمأمون رأيُه الفائل ألا معنى للبقاء فى الأندلس أو محاولة الحفاظ على ما بقى منه ، فجمع مَن عنده من جند فى إشبيلية ومن كان منهم فى قرطبة وجيان وما إليها وعبر البحر إلى المغرب وبويع له بالخلافة فى شوال ٦٢٤/ سبتمبر ١٢٢٧ . ولم يتمتع هذا المأمون بالأمان يوما واحداً ، إذ قام عليه المنافسون من كل ناحية وقضى سنوات حكمه القصير (٥ سنوات و ٣ أشهر) فى حروب وهروب ومنازعات ووقائع حتى أدال الله منه بابنه المسمى عبد الواحد المتلقب بالرشيد .

والمهم لدينا أن الدولة الموحدية انتهت فى الأندلس بتصرف المأمون

هذا ، فلم يبق من أمرائهم فيها إلا أبو زيد عبد الرحمن بن أبى عبد الله ابن أبى حفص عمر بن عبد المؤمن الذى ذكرناه ، وكان يملك بلنسية وشاطبة وجزيرة شقر ؛ أى معظم شرق الأندلس . أما بقية بلاد الأندلس الباقية ، وحدُّها الشمالى مجرى الوادى الكبير ، فقد وقفت مكشوفة لا يدفع عنها أحد ، فتجمع مشايخ كل بلد وذوو الهمة من رجاله وتولوا أمر بلدهم والدفاع عنه قدر الطاقة ، أو اختاروا من يقودهم ، وأظهر أولئك الرؤساء محمد بن يوسف بن هود الجذامى الذى سنتكلم عنه .

وهكذا بدت جبهة الأندلس كلها من مرسية إلى إشبيلية مكشوفة أمام أعداء أقوياء لا ينقصهم الحافز للتقدم والاستيلاء على هذه البلاد الكبيرة التى وقف أهلها والخوف ملء قلوبهم تحت رحمة الأعداء .

وقد سار التقدم النصرانى فى ذلك الحين ، ابتداء من العقد الثالث من القرن السابع الهجرى / العقد الثالث من القرن الثالث عشر الميلادى ، فى ثلاثة تيارات : الأول وجهته غرب الأندلس وتولاه أمراء البرتغال . والثانى وجهته حوض الوادى الكبير وتولاه ملوك قشتالة ، والثالث وجهته شرق الأندلس وتولاه ملوك أرغون . وكانت هذه الممالك الثلاث تختلف فيما بينها وقد تقع الحروب بين جيوشها ، ولكنها كانت تقف صفاً واحداً إذا تعلق الأمر بحرب مع المسلمين . وكانت البابوية تعمل فى جد لصرف ملوكها عن النزاع مع إخوانهم فى الدين وتوجيه أنظارهم نحو الغنائم السهلة التى تنتظرهم إذا ساروا جنوباً .

أضف إلى ذلك أن هذه الممالك الثلاث رزقت منذ النصف الثانى من القرن الحادى عشر إلى منتصف الثالث عشر ملوكا ذوى قدرة وسياسة وتصميم على مواصلة الحرب مع المسلمين ، وطالت إلى جانب ذلك أعمار الكثيرين منهم ، فانفسحت أمامهم الآجال للعمل والتجربة واكتساب الخبرات وتعويض الهزائم إذا وقعت ، ففيما بين سنتى ١٠٧٢ و ١٢١٤ (٤٦٥ —

٦١١ هـ) — أى قرابة القرن ونصف — حكم قشتالة ثلاثة ملوك كبار فى نسق ، لم تتخلل أيامهم إلا خمس عشرة سنة حكمتها الملكة أوراكا بعد ألفونسو السادس ، وهؤلاء الملوك هم ألفونسو السادس والسابع والثامن ، وهذا الأخير حكم وحده ٥٦ سنة (١١٥٨ — ١٢١٤) عاصر خلالها أربعة من خلفاء الموحدين هم يوسف ويعقوب المنصور والناصر والمستنصر ، وفى هذا الحكم الطويل ضاهاه خايمه الأول المعروف بالفاتح ملك أرغون ، فقد حكم ٦٣ سنة (١٢١٣ — ١٢٧٦) وفرناندو الثالث ملك قشتالة فقد حكم ٣٥ سنة (١٢١٧ — ١٢٥٢) .

وفرناندو الثالث هذا يكاد أن يكون أشد ملوك إسبانيا النصرانية عزماً فى مواصلة الحرب ضد المسلمين ، وهو الذى استولى على قواعد الوادى الكبير الرئيسية : أندوخر Andujer وبيّاسة Baeza (٦٢٣ / ١٢١٧) وقرطبة (٢٣ شوال ٦٣٣ / ٢٩ يونيو ١٢٣٦) وجيان (٦٤٤ / ١٢٤٦) وقَرمونة ، ثم استولى على إشبيلية (٦٤٦ / ١٢٤٨) . فأما قرطبة فقد سقطت على أهون سبيل ، وقاومت إشبيلية مقاومة عنيفة ولكنها قصيرة ، أما جيان فقد أخذت دون أن يجرّد سيف من قرابه .

ولم ينجم بين مسلمى الأندلس خلال النصف الأول من القرن السابع الهجرى / الثالث عشر الميلادى إلا مغامرون أوتى بعضهم شجاعة ونجدة ، كان كل منهم يعمل منفرداً ويجرى فى نشاطه على غير هدى ، ولم يسلم واحد منهم مع ذلك من الخصوم والأعداء من إخوانه ، مما ضيع جهودهم وقصّر أيامهم ؛ وأكبر هؤلاء جميعاً محمد بن يوسف بن هود الجذامى ومحمد ابن يوسف بن نصر بن الأحمر .

وابن هود هذا — وقد تسمى بسيف الدولة وتلقب بالمتوكل — نموذج من زعماء الأندلسيين فى ذلك العصر (سيترجم له ابن الأبار فى الحلة) . ظهر وقد نادى المأمون الموحدى بنفسه خليفة فوقعت بينهما حروب طويلة . ثم انسحب المأمون من الميدان فانضم الكثيرون من جند الأندلسيين الذين كانوا يعملون فى صفوفه إلى سيف الدولة المتوكل بن هود ، فاستقل هذا

بمرسية وجمع قوة عسكرية طيبة ودعا للخليفة العباسى وأتته من بغداد الخلعة واللواء ، فحاز شرق الأندلس كله ، ورهبه النصارى وأطلقوا عليه اسم ثافادولا (سيف الدولة) وطرد من مرسية أميراً موحدياً كان يدعيها لنفسه هو أبو العباس بن أبى موسى بن عبد المؤمن ، وهزم السيد أبا زيد عبد الرحمن بن أبى عبد الله بن أبى حفص بن عبد المؤمن صاحب بلنسية واضطره إلى الدخول فى طاعته ، وأصبح زعيما لمن بقى من المسلمين فى الأندلس .

وقد أرخ له ابن الخطيب فى « أعمال الأعلام » بأوفى مما فعل ابن الأبار فى « الحلة » ، ويهمنا من كلامه عنه قوله : « وجرت على ابن هود هزائم شهيرة ووقائع مذكورة ؛ أوقع به السلطان أبو عبد الله (محمد بن يوسف) بن نصر ثلاث مرات آخرهن سنة ٦٣٣ أو ٦٣٤ ، وكان اللقاء بينه وبين المأمون إدريس أمير الموحدين بشرق الأندلس سنة ٦٣٥ ، فهزمه المأمون هزيمة كبيرة ، ولاذ منه بمرسية وامتنع بها ، إلا أن المأمون شغله أمر الفتنة الواقعة بمراكش ، فصرف وجهه إليها ، وثاب الأمر لابن هود . فدخلت فى طاعته المرية ، ثم غرناطة ، ثم مالقة . وفى سنة ٦٢٧ تحرك بفضل شهامته فى جيوش عظيمة من المسلمين لإصراخ ماردة . وقد نازلها العدو وحاصرها ، ولقى جيش العدو بها وطاغيته ، فلم يتأنّ — زعموا — حتى دفع بنفسه العدوّ ودخل فى مصافه ، وفقده الناس لما غاب عنهم . فلم يرجع إلا وقد انهزموا مدبرين ، وكانت هزيمة شنيعة ، واستولى العدو على مدينة ماردة يومئذ ... »

فهذا رجل تصدى للأمر وأثبت شهامة ونجدة ، ولكن أنداده من المسلمين تصدوا له وواقعوه المرة بعد المرة ، ثم خذله جنده ، وكان من الطبيعى لهذا ألا يوفق إلى شىء ذى أثر .

وبينما كان ابن هود يقطع الجزيرة من شرق لغرب كان قائد آخر هو محمد بن يوسف بن نصر بن الأحمر يجمع صفوفه فى بلده أرجونة قرب جيان ويستعد لحربه والحلول محله . ظهر ابن الأحمر سنة ٦٢٩ / ١٢٣١ — ١٢٣٢

ثم تقدم وملك جيان سنة ٦٣٠ / ١٢٣٢ – ١٢٣٣ ثم قرطبة ثم إشبيلية ، ثم استقر فى غرناطة (٦٣٥ / ١٢٣٧ – ١٢٣٨) فضاقت الأمور بين الرجلين ووقعت الحرب بينهما وهلك فيها من المسلمين كثيرون . وكان ابن الأحمر سياسياً بعيد النظر ، استبان من أول الأمر أنه لن يستطيع الثبات فى جهة الوادى الكبير ، ولهذا اتجه نحو غرناطة ، وعول على أن يجعلها قاعدة ملكه مكتفياً بالطرف الجنوبى من شبه الجزيرة ، ولهذا حالف ملوك قشتالة وعاونهم واعترف لهم بالرياسة عليه مما نفر المسلمين منه ، فطرد أهل قرطبة ثم إشبيلية جنده ، فلم يحفل كثيراً وركز همه فى إقليم غرناطة . وعلى الرغم مما وقع بين ابن هود وابن الأحمر من حروب فإنه يمكن القول بأنه لو لم يكن سيف الدولة المتوكل بن هود لما استطاع الغالب بالله محمد بن يوسف بن نصر أن ينشئ مملكة غرناطة ، فقد شغل ابن هود القشتاليين وأخافهم خوفاً شديداً ، وحفزهم على موالاة خصمه ابن الأحمر وتأييده ، وفى ظل هذا التأييد قامت مملكة غرناطة ، وأنسأ الله فى عمرها بعد ذلك قرنين من الزمان .

* *

شرق الأندلس

وكان شرق الأندلس يجتاز فترة قلقة مضطربة من تاريخه منذ ذهاب أمر المرابطين ومجيء الموحدين . فقد نجمت فيـــه سلسلة من أفذاذ القادة والمغامرين أكبرهم أبو عبد الله محمد بن سعد بن مردانيش ، وكان أبوه فى أوليته من قواد المرابطين يعمل فى صفوف يحيى بن غانية ، وكان له بلاء عظيم فى موقعة أفراغة . فلما مات بدا لمحمد بن سعد أن يستقل بشيء من شرق الأندلس . فاستقر فى مرسية وحازها من جمادى الأولى ٥٤٢/ أكتوبر ١١٤٧ . وكان فارسا نجدا عظيم اليأس ، تمكن بالاتفاق مع أكناد برشلونة من أن يسود شرق الأندلس كله لقاء إتاوة سنوية ثقيلة قدرها مائة ألف دينار ، كما يقول ابن الخطيب فى « أعمال الأعلام » ، وشد أمره بمصاهرة نفر من الثائرين بشرق الأندلس منهم يوسف بن هلال وكان قد

استقل بحصن مُطـْرِيش وإبراهيم بن أحمد بن مفرج بن هَمُشْك الذى انتزى ببعض حصون إقليم مرسية مثل شقوبش وشقورة ، ثم انقلبوا عليه ووقعت بينهم فتن طويلة يقص ابن الأبار فى « الحلة » وابن الخطيب فى « أعمال الأعلام » وابن عذارى فى الجزء الثالث من « البيان المغرب » طرفا منها .

ولجأ محمد بن سعد فى أثناء ذلك إلى النصارى فاعتضد بهم واتخذ لنفسه جنداً منهم وأثقل على رعيته بالضرائب ، فنفر منه الناس ، وتخلى عنه أخوه أبو الحجاج يوسف بن سعد بن مردانيش ودخل فى طاعة الموحدين أيام أبى يوسف يعقوب المنصور . ووجد محمد بن سعد نفسه وحيدا دون نصير وقد علت به السن وقاربه الموت ، فكاتب أبا يوسف يعقوب وتخلى له عن مرسية وبقية ما بيده وأرسل أولاده إلى الخليفة الموحدى وأوصاه بهم ، فرق يعقوب المنصور لهذا الصنيع وقرّب أبناء محمد بن سعد وأقام كبيرهم أبا القمر هلال بن محمد بن سعد عاملا على إشبيلية ، وتزوج ابنة لمحمد بن سعد تسمى الزرقاء فى ربيع الأول ٥٧٠/ أكتوبر ١١٧٤ فحظيت عنده وكان لها أبعد الأثر فى بقاء بنى مردانيش فى السلطان . وأقام عمها أبا الحجاج يوسف بن سعد بن مردانيش أميراً على بلنسية وأخاه غانم بن سعد بن مردانيش أميراً على أسطول الموحدين فى سبتة . وبعد موت محمد ابن سعد أصبح رأس البيت أخوه أبو الحجاج .

وفى أيام محمد الناصر هبط أمر أبى الحجاج بن سعد بن مردانيش ، ولكنه ظل أميراً على بلنسية حتى سنة ١١٨٦/٥٨٢ . وكان له أولاد كثيرون أهمهم أبو الحملات مدافع وأبو المظفر غالب وأبو الحارث سبع وأبو سلطان عزيز وأبو ساكن عامر وأبو محمد طلحة ، وكان كل منهم يتولى حصنا أو ناحية من نواحى بلنسية ومرسية :

وفى سنة ١٢١٠/٦٠٧ أقام محمد الناصر أبا عبد الله بن أبى حفص

عمر بن عبد المؤمن واليا على بلنسية ثم خلفه عليها ابنه أبو زيد عبد الرحمن ، والمراجع تخلط بين أبي زيد هذا وعم له يحمل نفس الاسم : ولكن أبا زيد العم لم يكن قط أميرا على بلنسية ، إنما كان أميرا على ميورقة سنة ٥٩٩/ ١٢٠٢ – ١٢٠٣ ثم توفى بعقب ذلك بعد تاريخ طويل فى دولة الموحدين . أما أبو زيد المراد هنا فهو ابن عبد الله بن أبي حفص عمر بن عبد المؤمن ، وهو أخو عبد الله البياسى الذى ذكرناه ، وقد نشأ هو وأخوه وبقية بيته فى بياسة فعرفوا لذلك بالبياسيين ، وكانوا فريقا قليل الإخلاص شديد الأنانية حريصا على الحياة والملك بأى ثمن .

وقد رأينا ما فعله عبد الله البياسى من حرب المسلمين والانضمام إلى القشتاليين ثم الذهاب إليهم جملة ؛ ولم يكن أخوه أبو زيد هذا بأحسن منه ، فقد أمسك ناحيته بعون النصارى وأداء الإتاوة لهم ، وبفضلهم استطاع التغلب على بنى مردانيش ، فاكتفى أكبرهم أبو الحملات مدافع بن أبي الحجاج يوسف بن سعد بن مردانيش بحصن أُبَّدَه ، وقد استشهد فى بعض المواقع شابا ، فخلفه ابنه أبو جُميل زيان بن أبي الحملات وضيق على أبي زيد عبد الرحمن بن أبي عبد الله بن أبي حفص عمر فى بلنسية ، فأيس هذا من المسلمين جملةً ، فهو على خلاف مع الموحدين لا يستطيع طلب عونهم أو اللجوء إليهم ، والمسلمون فى بلنسية كارهون له يتربصون به الدوائر ، ففكر فى اللجوء إلى أنصاره من النصارى وخاصة خايمه الأول صاحب أرغون ، وذهب إليه ليفاوضه فى معاونته ، ولكن خايمه لم يجد فيه ما يستحق العناء ، وإزاء هذا عرض عليه أبو زيد أن ينتقل إلى بعض حصونه ويقيم فيه تابعاً له ، وتم الاتفاق على ذلك ، واستقر فى حصن شُبُرْب ، ويذهب بعض المؤرخين إلى أنه دخل هناك فى النصرانية ، وهو أمر نستبعده ، لأن مفارقة الدين فى سن مثل هذه أمر غير يسير ، خاصة من أمير موحدى مهما كان طبعه ورأينا فيه . واستقر الأمر فى بلنسية لأبي جميل زيان ابن مردانيش :

وقد كتب ابن الأبار لأبى عبد الله والد أبى زيد عبد الرحمن ، ثم كتب لأبى زيد وخرج معه لملاقاة الملك خايمه ، ثم رجع وحده عندما رآه يفضل مباينة دار الإسلام والإقامة فى بلاد ملك أرغون . وقد سكت ابن الأبار عن هذه الواقعة سكوتاً غريباً ، فلم يقل شيئاً ينير لنا هذه النقطة الهامة ، والمهم أنه عاد إلى بلنسية وعمل كاتباً لأبى جُميل زيان بعد ذلك .

وكانت بلنسية إلى ذلك الحين أسعد حالا من غيرها من كبريات مدائن الأندلس ، فقد نفعها قيام بنى مردانيش وابن همشك وبنى هود وابن الأحمر فى إقليمها أو قريباً منها ، لأن أولئك الرجال أخروا سقوطها وصرفوا الغزاة إلى غيرها مما كان أسهل منها ، وأتاحوا لأهلها بضع سنوات من الهدوء والأمان النسبيين ؛ نقول النسبيين لأن الوقائع فى إقليمها كانت على قدم وساق ، وكان أهلها يخرجون للقاء الأعداء كلما أمكنتهم الفرصة .

وكانت سن ابن الأبار إذ ذاك بعد الثلاثين بقليل ، وكان من شخصيات بلده الظاهرين ، فهو واحد من كبار العلماء ورجال الأدب ، وهو كاتب الرسائل للأمير أبى جُميل زيان بن مردانيش ، وكان يلتقى بأصحابه من العلماء وكبار أهل البلد فى قصر الإمارة ، من أولئك العلماء الذين ارتبط معهم برباط الصداقة أبو المطرف أحمد بن عبد الله بن عَمِيرة المخزومى وأبو الحجاج يوسف البياسى .

فأما ابن عَمِيرة فقد ولد فى بلنسية سنة ٥٨٠ / ١١٨٤ أى أنه كان أكبر من ابن الأبار بخمس عشرة سنة ، وقد رحل إلى المشرق للدراسة ولقاء الشيوخ ، وعاد إلى بلده ليتولى القضاء فى شاطبة ثم فى ميورقة حتى سنة ٦٢٧ / ١٢٣٠ إذ حضر تسليم الجزيرة لقوات خايمه الأول ملك أرغون ؛ وكتب كتاباً عن « كائنة ميورقة » بقيت لنا منه فقرات طويلة فى « نفح الطيب » للمقرى ، وقد غادر بلنسية بعد سقوطها سنة ٦٣٦ / ١٢٣٨ ، وتوجه إلى المغرب حيث كتب للرشيد الموحدى وتولى القضاء فى بضع نواح ، ثم انتقل إلى إفريقية حيث كتب للمستنصر الحفصى إلى أن

توفى سنة ٦٥٨ / ١٢٦١ أى فى نفس السنة التى توفى فيها ابن الأبار .

وقد أورد القلقشندى فى « صبح الأعشى » نص رسالة كتبها ابن عميرة هذا عن « طاغية الإفرنج » والمراد به هنا خايمه الأول ملك أرغون الذى استولى على ميورقة قبل أن يستولى على بلنسة . والغالب أن ابن عميرة اضطر للعمل فى الكتابة للملك خايمه بعد سقوط ميورقة وهو فيها ليحقن دمه ، حتى إذا أتيحت له فرصة الخروج منها والعودة إلى دار الإسلام فعل ، والحكاية تبقى رغم ذلك مستغربة مستنكرة من رجل فى مكانة أبى المطرف بن عميرة ، والفرق عظيم على أى حال بينه وبين رجل كأبى الربيع سليمان بن سالم .

وأما أبو الحجاج يوسف بن محمد بن إبراهيم الأنصارى البياسى فقد ولد فى بلنسية فى ربيع الأول سنة ٥٧٣ / ١١٧٧ أى أنه أكبر من ابن الأبار باثنتى عشرة سنة ، وكان أديباً حافظا اتجه إلى الأدب والتاريخ بصورة خاصة ، وهاجر إلى تونس بعد سقوط بلده بلنسية واستقر فى تونس يعلّم ويؤلف ، وأثرت عنه كتب مثل « الإعلام بالحروب الواقعة فى صدر الإسلام » و « الحماسة » وغيرهما ، حتى مات فى ذى الحجة سنة ٦٥٣ / يناير ١٢٥٦ :

* * *

سقوط بلنسية

فى ذلك الحين كان الخطر يقترب من بلنسية يوما بعد يوم ، لأن مملكة أرغون التى اتحدت مع إمارة قطلونية أيام ملكها پدرو الثانى أصبحت خلال النصف الأول من القرن السابع الهجرى / الثالث عشر الميلادى من أقوى ممالك شبه الجزيرة وأهمها ، لأن عرش أرغون كان يضم - إلى جانب إقليم سرقسطة وحوض الإبرُه - دوقيتى پروفنسة وروسيُّون فى جنوبى فرنسا ، وكان ملكها پدرو الثانى قد استولى على طركونة وطرطوشة وأطل على حدود إمارة بلنسية . وتوفى پدرو الثانى قتيلا فى معركة موريت Moret بجنوبى فرنسا مخلفا ابنه الوحيد خايمه أو جاقمه Jaime فى وصاية أمه مارية د مونبلييه ، وكانت

تعيش فى روما منذ طلاقها من زوجها ، فلما ماتت فى أبريل ۱۲۱۳ تركت ولدها فى وصاية البابوية . وكان لهذا الوضع أثره البعيد فى تاريخ مملكة أرغون أيام خايمه الأول ، لأنها اعتُبرت إقطاعية تابعة للبابوية واعتُبرت حروبها مع المسلمين حروبا صليبية ، وكان البابا إنُسِنْتْ الثالث هو الذى تولى بنفسه رعاية شؤون الصبي خايمه حتى بلغ سن الرشد وتولى الملك ، وقد ندب البابا للوصاية على العرش رجلا من رجاله هو پدرو دِ بنِفْنتُو ديّان كنيسة سنتا ماريا دِ أكيرو ، فأقبل واستقر فى لاردة وعقد هدنة مع المسلمين ، وأناب عنه فى الحكم والوصاية على خايمه سانشو دوقَ پروفنسة وكان ابناً لرامون بيرنجير الرابع.

وفى سنة ١٢١٨/٦١٥ بلغ خايمه سن الرشد ولقب بالأول ، وبدأ فى نفس السنة كفاحه الطويل ضد المسلمين ، فسار نحو بنِشْكُلَه Péniscōla واستغلها ، وكانت تلك أول ما سقط فى يده من توابع بلنسية . ثم حفزه نفر من تجار برشلونة ومندوب البابا ونفر من أشراف مملكته على غزو جزيرة ميورقة ، فجرد حملة من مائة فارس وألف راجل ، واعتبرت الحملة حملةً صليبية ، وتمكن من الاستيلاء على الجزيرة بأيسر جهد فى ١٤ صفر ٦٢١/ أول يناير ١٢٣٠ ، والمراجع النصرانية تذهب إلى أن الغزو تم قبل ذلك بشهر أى فى منتصف المحرم/٣١ ديسمبر من نفس السنة . وعلى سهولة هذا الفتح فقد رفع من شأن خايمه - أو « جاقم » كما يسميه ابن الأبار - إلى مصاف كبار الفاتحين ، وأصبح يلقب بالكونكيستادور أى الفاتح . ولم تسقط الجزيرة كلها بسقوط قاعدتها ، إذ استمرت الحرب هناك سنوات تم خلالها القضاء على كل مقاومة .

وعقب ذلك مباشرة اتجهت أنظار خايمه نحو بلنسية . وقد حرضه على هذا آوجو فولكالكير Hugo Folcalquer رئيس فرسان الداوية فى مملكة أرغون ونفر من الأشراف . فسار نحو منطقة بلنسية فى سنة ۱۲۳۲ (٦٣٠ -

٦٣١ هـ) . واستولى على آره Ares ثم مُرِلّه Morella فى نفس السنة .

وفى شوال ٦٣٠/يوليو ١٢٣٣ استولى على بُريانة Burriana بعد حصار بالبر والبحر ، ثم أعاد إخضاع بنشكله وبُولْبِش Polpes وقسطليون Castellón وبريول Borriol وكويڤاس Cuevas وبِن رومان Vinromá وألقلوطن Alcaluten وبيلافورنس Vilafornés ووصلت غارته إلى ضفاف نهر شقر وناحية البلاط Albalate . وفى سنة ٦٣٣/١٢٣٤ استولى على مُصارة بلنسية ، وفى العام التالى حاول الاستيلاء على قُليارة Cullera دون نجاح ولكنه ملك حصنين يشرفان على بقاع بلنسية هما مُنْكاده Montcada ومُشْروس Museros .

وبعد ذلك بثلاث سنوات ، أى فى سنة ١٢٣٨ (٦٣٦ — ٦٣٧) ضرب معسكره بين بلنسية وقرية مجاورة لها تسمى جراو Grau وعول على ألا يريم حتّى يستولى على البلد . وتدفقت إليه النجدات من شتّى البلاد التابعة له ، بل أقبل لعونه مقاتلون من نربونة ونفر من فرسان قشتالة .

ويغلب على الظن أن ذلك الموضع الذى ضرب الملك خايمه معسكره عنده هو جبل أنيشة أو أنيجة الذى يسميه ابن عبد المنعم الحميرى عقبة أنيشة ويسمى فى النصوص الإسبانية إلبويش el Puig وتقوم عليه قرية تحمل نفس الاسم ، وتقع هذه العقبة على ٢٠ كيلومتراً شمالى بلنسية فى الطريق إلى مربيطْرُ التى تعرف باسم سَجُونتو Sagunto . وأحس أبوجُميل زيان بالخطر الداهم ، وانتهز فرصة ابتعاد الملك خايمه عن معسكره ، فخرج فى جمع عظيم من مقاتلى بلنسية فيهم نفر من الشيوخ والفقهاء ، ودارت بين الجانبين معركة عنيفة . وقد استبسل البلنسيون فى القتال ، ولكن أعداءهم أداروا عليهم خدعة كبيرة ، إذ أقبلت طائفة منهم من بعيد حاملة راية الملك وأشاعت أنه عاد بجيش كبير ، ففت ذلك فى عضد المدافعين عن بلدهم وأيقنوا بالهزيمة وأخذ الكثيرون فى الفرار . وفى هذه الفوضى استشهد من المسلمين كثيرون من بينهم أبو الربيع

سليمان بن سالم الكلاعي ، وكان قد بلغ السبعين من عمره ، ولكنه بقى فى الميدان إلى آخر المعركة ، وظل يثبّت الناس ويدعو الفارين إلى العودة حتى قتل ، وكان ذلك فى ٢٠ ذى الحجة ١٣/٦٣٤ أغسطس ١٢٣٧ . وكانت تلك آخر محاولة كبيرة قام بها البلنسيون لإنقاذ بلدهم .

ولم يحضر ابن الأبار هذه الواقعة ؛ إذ لو حضرها لقال ذلك ، فقد ذكرها فى « التكملة » وفى « الحلة » . وأحس أبو جميل زيان أنه لن يستطيع الثبات وحده ، فقرر إرسال سفارة إلى أبى زكريا الحفصى صاحب إفريقية (تونس) وندب لها ابن الأبار ، وتلك هى السفارة التى أنشد فيها ابن الأبار قصيدته المشهورة :

أدركْ بخيلك ، خيل الله ، أندلساً   إن السبيل إلى منجاتها درسا

وهى قصيدة طويلة فيها من التكلف ما يكاد يصرف قارئها عن الحال المحزن الذى قيلت فيه ، ولكنها على أى حال حققت الهدف من إنشادها ؛ فقد تحمس أبو زكريا وأرسل إلى بلنسية بضع سفن مشحونة بالمال والعتاد والزاد .

وكان خايمه قد ضيق الحصار حول بلنسية فى أثناء ذلك ، ووصل الأسطول الحفصى وحاول النزول فى موضع جراو قرب بلنسية فى ٤ محرم ٦٣٦/ ١٨ أغسطس ١٢٣٨ ، ولكنه وجد الموضع حافلا بجند النصارى فأرسل قائد الحملة أبو يحيى بن أبى حفص عمر الهنتاتى المعروف بالشهيد إلى أبى زكريا الحفصى يعلمه بالحال واتجه هو بالسفن إلى دانية وأرسى فيها فى ١٢ محرم ٦٣٦/ ٢٦ أغسطس ١٢٣٨ وترك لأهلها الطعام والسلاح اللذين كان يحملهما ، أما المال فقد عاد به إذ لم يجد من يتسلمه منه . ومن الغريب أن أبا بكر عزيز بن أبى مروان بن خطاب الذى سيترجم له ابن الأبار فى الحلة بايع لنفسه على مرسية فى نفس اليوم الذى وصل فيه الأسطول الحفصى إلى جراو ولقب نفسه بضياء السنة وعلى مسافة قصيرة منه بلد إسلامى يحتضر ! ولو فى هذا الرجل ومن حوله

من السنة أثارة لخف لنجدة إخوانه ، ولكن إلى هذه الحال من سخف العقول وصل الناس فى تلك الأيام ، والدول لا تسقط عن قلة عدد وإنما عن سقوط الهمم وضياع النخوة وموت الإحساس . ومما يستلفت النظر ويدعو إلى الاعتبار أن لسان الدين بن الخطيب سخر من ابن خطاب هذا وقال إنه قبل الإمرة بمرسية «مع قطْع صبيّ المهد ورضيع الثدى بسوء عقبى من يتحمل ذلك يومئذ» ، وابن الخطيب ذاته سيزج بنفسه فى مهالك ومعاطب ومطامع يقطع نفس «صبي المهد ورضيع الثدى» بسوء عقباها ، ومع هذا لم يذكر ولم يتعظ ، وانتهى بنفسه إلى مصرع شبيه بمصرع ابن خطاب.

ويذهب ابن الخطيب إلى أن الحصار طال حتى «نفدت الأقوات واستولى الجوع وضعفت القوى وأكلت الجلود والزقوق» ، والواقع أن الحصار لم يطل حتى بلغت الحال هذا المبلغ ، ولكن القتال كان ضارياً عنيفاً وخاصة بعد معركة أنيشة ، ثم إن فرقاً من فرسان أرغون كانت لا تكف عن الغارة على البلد وانتساف ما حوله من معسكرها عند عقبة أنيشة ، وكانت أعدادهم تتزايد يوماً بعد يوم حتى أصبح معسكر ملك أرغون كأنه مدينة كبيرة خف إليها التجار من كل صوب ، وقد أتى بعضهم من مونبلييه ، وأخيراً استقر رأى أبى جميل زيان على التسليم ، وتم ذلك فى ١٧ صفر ٦٣٦/ سبتمبر ١٢٣٨ ، وقد اشترك ابن الأبار فى المفاوضات وكتب بنفسه العقد كما حكى فى «الحلة»: وقد نص الاتفاق على أن يغادر من أراد من المسلمين بلده خلال ٢٠ يوما بأمواله وأسبابه ، «وابتدئ بضعفة الناس ، فسُيِّروا فى البحر إلى نواحى دانية ، واتصل انتقال سائرهم براً وبحراً ، وصبيحة يوم الجمعة ١٧ من صفر المذكور كان خروج أبى جميل بأهله من القصر فى طائفة يسيرة أقامت معه ، وعند ذلك استولى عليها الروم» .

استقر أبو جميل زيان وابن الأبار معه فى دانية ، ويبدو أن ابن الأبار حاول أن يجد عملا عند بعض الرؤساء فيما بقى من مدن الأندلس ، فقد أورد

المقرى فى «أزهار الرياض» رسائل منه إلى بعضهم (٣/٢١٦–٢٢١)، ولكنه لم يوفق، فعول على مفارقة الأندلس جملة إلى إفريقية والتماس الأمان فى بلد ذاع له فيه صيت منذ زيارته الأولى، وقد فعل فعله أبو المطرف بن عميرة وأبو الحجاج يوسف البياسى وغيرهم كثيرون، ولم يكن الأندلس قد ضاع كله ولا انقطع منه الرجاء، ولكن هكذا كان تصرف الكثير من علمائه وقادة السياسة والرأى فيه : نجوا بأنفسهم مخلفين الصغار والضعفاء وأهل الأرياف والمدن، وهناك فى ظلال الأمن والدعة طفقوا يكتبون مراثى نثرية أو شعرية يعبرون فيها عن أسف متكلف، وليس هناك أبعد عن الصدق من هذه المكاتبات المنظومة أو المنثورة بين ابن الأبار وأبى المطرف بن عميرة فى رثاء بلنسية .

أما أبو جميل زيان فقد تمهد له الأمر فى دانية، ولكن الملك خايمه اتجه إلى الجنوب فاستولى على كَنْدِية Gandía فخاف أبو جُميل وأرسل إليه يعرض تسليم لَقَنْتْ Alicante فى مقابل تنازل الملك عن جزيرة ميورقة، فرفض خايمه لأن الاتفاق كان قد تم بينه وبين ملك قشتالة على أن تكون بلنسية آخر ما يستولى عليه من بلاد المسلمين، والباقى من نصيب قشتاله . ثم حاصر شاطبة حصاراً قصيراً وأقلع عنها عائداً إلى مونبلييه .

وأقام أبو جميل رئيساً لدانية، وما زال يدبر وهو فيها لرئيس مرسية أبى بكر عزيز بن أبى مروان بن خطاب . حتى ثار به الناس وبايعوا لأبى جميل، ثم قتل ابن خطاب فى رمضان سنة ٦٣٦/أبريل ١٢٣٩ فأصبح أبو جميل رئيس دانية ومرسيه . وظل فى الأولى حتى سار فارس ألمانى اسمه Carroz ممن كانوا يعملون فى خدمة الملك خايمه فانتزعها منه سنة ٦٤٢/١٢٤٤ . وأما مرسية فقد ظل أميراً عليها داعياً للخليفة العباسى، ثم دخل فى طاعة محمد بن يوسف ابن نصر بن الأحمر، وظل على هذا وقتاً قصيراً، ثم بدا لابن الأحمر فعزله عنها . فتركها ومضى إلى تونس حيث عاش بقية عمره .

أما هذا الاتفاق الذى أشرنا إليه بين ملكى أرغون وقشتالة فقد تم فى بليدة تسمى المِرسىّ Almirza من أحواز بلنسية فى ٢٥ مايو ١٢٤٤ (ذى القعدة ٦٤١) وهو يدل على أن الاستيلاء على ما بقى من قواعد المسلمين فى شرق الجزيرة لم يعد حربا بل تقسيما ، هذه لهذا وتلك لذاك ، وأدهى من ذلك أن هذا الاتفاق تم بينهما توثيقاً لمصاهرة عقداها ، فقد اتفقا على أن تتزوج الأميرة ڤيولانتِ ابنة خايمه الأمير ألفونسو بن فرناندو الثالث ملك قشتالة ، ونص الاتفاق على أن تكون شاطبة جزءاً من شوار العروس ، ولم تكن شاطبة قد سقطت بعد ! وبعد مفاوضات طويلة كادت تؤدى إلى الحرب استقر الملكان على اتفاقية المرسى هذه ، وقد نصت على أن يعطى خايمه لصهره بِيّانة Villena وساش Sax وكاوديتِ Caudete وبُغَرّس Bugarras وأن يتنازل ملك قشتالة عن إنغيرة Enguera وموشنت Mogente ، وأن تكون بلنسية وتوابعها من نصيب أرغون ، ومرسية وتوابعها وما يليها جنوباً من نصيب قشتالة ، ووضع حد فاصل بين الناحيتين ، فتبعت مرسيةَ بلادُ المنزل Almansa وسَرَذول Sarazul وحوض نهر كبرينول Cabrinol ، وتبعت بلنسية بلاد قسطلة Castalla وأبْيار Biar وريّو Relleu وسشونة Saxona والأرش Alarch وفنِستْرات Finestrat وطُرّش Torres وبولوب Polop ومواله Muela . وكلها مواضع صغيره بين حوضى نهرى شقر Jucar وشقورة Segura .

وقد انتقد مؤرخو قطلونيه ذلك الاتفاق وقالوا إنه أخرج مملكة أرغون من ميدان الحرب مع المسلمين وأقفل فى وجهها سبيل التوسع جنوباً على حسابهم ، ولكن خايمه الأول كانت أمامه مشاكل كثيرة فى بلاده المترامية ، ولم يكن يستطيع المضى فى حرب المسلمين إلى أكثر مما مضى ، ثم إن مرسية وما يليها جنوباً كان أمرها استقر بعض الشيء بعد قيام أبى جُميل زيان بالأمر فيها وبيعته للخليفة العباسى ودخوله فى طاعة محمد بن يوسف بن الأحمر صاحب غرناطة ، وكان مركز هذا قد استتب وأصبح قادرا على مواصلة

الحرب للدفاع عن كيانه ، وكان ابن الأحمر إلى جانب ذلك تابعاً لملوك قشتالة ، فلم تكن مواصلة الحرب معه بالأمر اليسير ، ومهما يكن من الأمر فقد ختم خاتمه أعماله فى هذه الناحية بالاستيلاء على شاطبة فى أبريل ١٢٤٨ (محرم ٦٢٦) ليقدمها فى شوار بنته بعد ذلك .

* * *

ابن الأبار فى إفريقية

غادر ابن الأبار إذن بلاد الأندلس قاصداً بلاد الحفصيين ، ويذهب الغبرينى إلى أنه ذهب أولا إلى بجاية « ودرس بها وأقرأ وروى وسمع وصنف وألف ، ثم استدعاه المستنصر الحفصى ليكتب له » . ويبدو أن إقامته ببجاية كانت قصيرة ، لأنه يذكر فى ترجمة نذير بن وهب بن لُب أن هذا الأخير توفى فى العشر الأواسط من شعبان ٦٣٦ / مارس ١٢٨٩ «بعد ستة أشهر من الحادثة على بلنسية ، وأنا حينئذ بحضرة تونس فى توجهى إليها » أى أنه أقام ببجاية ثلاثة أشهر أو أربعة انتقل بعدها إلى تونس ليكون كاتب المستنصر الحفصى .

وتذهب المراجع إلى أنه تولى كتابة الإنشاء والعلامة ، و « العلامة » هى عبارة التوقيع التى تضاف إلى المكاتبات السلطانية وترفع إلى السلطان ليضع عليها خاتمه ، ويقال إن ابن الأبار كتب العلامة فترة من الزمن وكان يكتبها بخطه المغربى ، ولكن السلطان أبا زكريا يحيى رغب فى أن تكون بالخط المشرقى ، ولهذا أمر بأن يكتفى ابن الأبار بإنشاء المكاتبات ويدع العلامة لأحمد بن إبراهيم الغسانى ، وكان يحسن الكتابة بالخط المشرقى ، فغضب ابن الأبار لذلك واستمر يكتب العلامة على ما ينشئه من رسائل ، فعوتب فى ذلك وروجع ، فاستشاط غضبا ورمى القلم من يده وأنشد :

اطلب العز فى لظَى وذر الذل (م) ولو فى جنان الخلود

وحُمل الخبر إلى السلطان ، فصرفه عن العمل وأمره بلزوم بيته .

هكذا نجد الخبر فى كل مراجعنا على طريقتها فى تعليل الحوادث

تعليلات سطحية ظاهرة التكلف ، والحقيقة أن ما جرى لابن الأبار كان حلقة من حلقات الصراع بين الأندلسيين المهاجرين وشيوخ تونس من موحدين وغير موحدين ، بل حلقة من صراع هؤلاء المهاجرين الأندلسيين مع شيوخ كل قطر نزلوه وعلمائه . فقد كان الأندلسيون يحسون أنهم أعلم من غيرهم وأقدر ، ومن ثم فهم أولى بالتكريم وبالمناصب . ثم إنهم كانوا يتوقعون ممن نزلوا عليهم مراعاة وعطفاً عليهم مواساةً لهم فيما أصابهم فى بلادهم . أما أهل المغرب وتونس ومصر وبقية أهل المشرق فكانوا يرون أن أولئك المهاجرين أولى بأن يتواضعوا ويقنعوا بما وجدوا فى أوطانهم الجديدة ، ثم لماذا يطلبون أن يمتازوا على غيرهم ما داموا قد أصبحوا مواطنين فى البلاد التى نزلوها ؟ هذا كان مدار الخلاف الحقيقى ، نلمحه فى صور شتى فى تراجم الأندلسيين الذين هاجروا إلى بلاد إسلامية بعد ضياع بلادهم ، ويندر أن تقرأ لواحد من أولئك الأندلسيين شيئاً إلا لمسنا فيه المرارة التى نشأت عن خيبة الرجاء فى المهجر ، وأمثلة ذلك كثيرة عند على بن سعيد وأبى الخطاب بن دحية وأثير الدين أبى حيان وأبى بكر الطرطوشى وابن خلدون والمقرى وغيرهم .

ولكن الخلاف بين الأندلسيين والبلديين كان أوسع مدى وأبعد أثراً فى تونس عاصمة الحفصيين ، فقد كان عدد من نزلها من الأندلسيين عظيما ، وكان الكثيرون منهم سلائل أسر عريقة لها فى تاريخ الأندلس السياسى والعلمى أثر بعيد ، وقد ذكرنا أبا المطرف بن عميرة وأبا الحجاج البياسى ويضيف ابن خلدون أبا مروان أحمد الباجى من أعقاب أبى الوليد وأبا عمر ابن الجد من أعقاب أبى بكر بن الجد وغيرهم . وكان هؤلاء يتجمعون عصبة واحدة على العلماء من أهل البلد ومشايخ الموحدين يحاولون الاستئثار من دونهم بالوظائف الكبرى ومراتب الشرف ، وفى أيام أبى زكريا يحيى الحفصى تجمع هؤلاء حول عمه أبى القاسم بن أبى زيد وكان رجلا طامحا إلى السلطان لايخفى مطامعه ، وكان له مع أبى زكريا أخبار ووقائع ، ومن

ثم فقد كان الشك يحوم حول الأندلسيين ، وكانت الوقيعة فيهم تجد أذناً صاغية من هذه الناحية .

وقد حرص معظم من ذكرنا من مهاجرة الأندلسيين على أن يبتعدوا عن السياسة ما أمكن ، وانصرفوا إلى العلم أو غيره من المشاغل التى لا يثير الاجتهاد فيها مخاوف أولى السلطان ، ولكن ابن الأبار لم يستطع سلوك هذا السبيل ، فقد كان بطبعه رجلا طموحاً إلى السلطان والجاه وعرض الدنيا ، ولو رجلٌ غيره حوى فى صدره من العلم ما حوى لحمد الله على الأمان الذى صار إليه والكرامة التى لقيها وانصرف إلى التأليف والإقراء ، ولكن سوء طالعه غلب عليه ، فقد كان إلى طموحه وطمعه سريع الغضب حديد اللسان تصدر عنه المساءة وكأنه لايشعر ، ومن أمثلة ذلك أنه عند ما وصل إلى إفريقية نزل فى ميناء بنزرت ، وكتب إلى أبى عبد الله بن أبى الحسين وزير أبى زكريا الحفصى ينبئه بمجيئه ويمت إليه بصلة صداقة قديمة بدأت عند ما زار ابن الأبار تونس فى المرة الأولى ، وكان يحسب أن والد الوزير متوفى فنعته فى الخطاب بالمرحوم ، فنبهوه إلى أنه فى قيد الحياة ما يزال ، فضحك وقال : « إن أباً لا تُعرف حياتُه من موته لأبٌ خامل » . ولم تعدم هذه الكلمة من يحملها إلى الوزير — طبعاً — فآلمته ، وتحدث إلى السلطان فى أن يستقر ابن الأبار فى بجاية ، وفعلا ذهب ابن الأبار إليها وأمضى فيها بضعة أشهر ثم استقدمه أبو زكريا إلى تونس وألحقه بخدمته .

ولم يقلع ابن الأبار عما جبل عليه من إيذاء الناس بلسانه . ويبدو أنه كان ممن ينبزون الآخرين بالكلام القارص أو النقد المهين فى خفية وتستر حاسبين أن أمرهم لا يفتضح ، وأمرهم فى الحقيقة لا يخفى على أحد ، ومن هنا لقبه خصومه بالفأر ، ويغلب على الظن أن وجهه كان صغيراً نحيلا ومن هنا قال فيه أحد خصومه وهو أبو الحسن على بن شلبون المعافرى البلنسى :

لا تعجبوا لمضرةٍ نالت جميـ ـع الناس صادرةً من الأبار
أوَ ليس فأراً خِلقةً وخليقةً ؟ والفأرُ مجبول على الإضرار

فأجاب ابن الأبار سريعاً :

قل لابن شلبونٍ مقالَ تنزُّهٍ : غيرى يجاريك الهجاءَ ، فجارِ
إنا اقتسمنا خطتينــا بيننــا فحملتُ بَرَّةً واحتملت ، فجارِ !

ثم إن ابن الأبار كان شديد الاعتداد بنفسه دائم الفخر بالأندلس وتفضيله على إفريقية ، قال ابن خلدون : « وكان فى ابن الأبار أنفة وبأو وضيق خلق » ، ومن هنا زهد فيه أبو زكريا الحفصى وأراد أن يبعده عن ديوانه ، وأيده فى ذلك أبو الحسن أحمد بن إبراهيم الغسانى ، فتعلل السلطان بحكاية خط العلامة هذه حتى لا يراه ، إذ كان صاحب العلامة يعرض الكتب عليه ، ولكن ابن الأبار لم يفهم ، وأصر واستمسك ، ثم ذهب به الغضب إلى التمثل بالبيت الذى يفضل فيه العز فى اللظى على الذل فى جنان الخلود ، ولم يكن هذا منه إلا تشدقاً بألفاظ ، فلوكان فى الحقيقة ممن يفضلون العز فى اللظى لأقام فى الأندلس ، فهناك فعلا كان اللظى فى الحروب التى لا تسكن وهناك أيضا كان العز فى ظلال السيوف .

وليت ابن الأبار استمسك بهذه العزة بعد أن أبعِد وألزِم دارَه ! بل سعى سعياً حثيثاً فى العودة إلى الذل فى جنان السلطان ، بل أنفق الوقت فى رسالة استعطاف طالت حتى صارت كتابا هو « إعتاب الكتّاب » تذلل فى فاتحته فأسرف فى التذلل ، ثم أخذ يقص حكايات كتّاب سبق إليهم غضب السلاطين ثم حلت بهم نعمة الرضا فأعتبوهم . وقد استشفع ابن الأبار بولى العهد أبى يحيى زكريا ، وكان فى أيام أبيه شابا مستضعفاً دائم الخوف من إخوته محمد وإبراهيم وعمر وأبى بكر (وكلهم ولىَ بعده) ومن أبناء عمه محمد بن عبد الواحد المعروف باللحيانى لعظم لحيته ، ولهذا كان حريصا على أن يكسب لنفسه أنصاراً يشدون أزره ، فسره أن يستشفع به ابن الأبار فكلم أباه فى أمره فأعاده إلى الرضا .

وشاءت الأقدار أن يموت أبو يحيى زكريا هذا قبل موت أبيه بسنة واحدة (٦٤٦ / ١٢٤٨ ــ ٤٩) وأن يصير الأمر بعد ذلك إلى أبى عبد الله

محمد ثانى أولاد أبى زكريا ، وهو الذى عرف بالمستنصر أو المنتصر ، وظل ابن الأبار فى عمله ولكنه استمر على دأبه فى تنقص الناس وخاصة أبى الحسين أحمد بن إبراهيم الغسانى ، وكان قد أصبح وزير المستنصر ، فاجتهد هذا حتى أصدر السلطان أمره بإبعاد ابن الأبار إلى بجاية ؛ فذهب إليها وانصرف إلى التأليف فترة من الزمن أنجز فيها كتاب « التكملة » الذى كان قد بدأه فى الأندلس ؛ وهذه الإقامة فى بجاية هى التى أتاحت للغبرينى فرصة الترجمة لابن الأبار ضمن من حل من العلماء ببجاية ، وهى أحسن وأوفى ترجمة له بين أيدينا .

وفى هذه الفترة أيضا نعتقد أنه أتم كتاب « الحلة السيراء » ، ومن المقطوع به أنه بدأ يكتبه فى تونس عقب استقراره فيها ، فهو فى فاتحته يتحدث عن شعر للسلطان أبى زكريا يحيى وولى عهده أبى يحيى ، وكانا يقرضان الأبيات منه بين الحين والحين ، وقد صنفه ابن الأبار تمجيداً لشاعرية السلطان وابنه وتدليلا على أن قول الشعر من خصال كبار الخلفاء والسلاطين والأمراء ، فهذا الكتاب ، مثل « إعتاب الكتاب » ، كتاب مناسبة ، ولكنها كانت مناسبة سعيدة ، لأنها أتاحت الفرصة لهذا الحافظ الواعى ليسجل شيئاً من محفوظه الغزير . وفى الكتاب إشارة إلى أنه كان ما زال مشتغلا بكتابته سنة ٦٤٦/١٢٤٨ — ٤٩ وهى السنة التى توفى فيها ولى العهد أبو يحيى ، وربما يكون قد أتمه قبل وفاة أبى زكريا ، ولكن العجلة التى تبدو فى الباب الأخير من الكتاب تدل على أنه أتمه بعد هذه السنة بمدة قصيرة ، وفى الغالب أيام إقامته الثانية فى بجاية .

ولا ندرى كيف وفق ابن الأبار إلى رضى المستنصر ، ويبدو أن ذلك كان نتيجة لرسائل مديح كتبها من بجاية يشيد بالمستنصر وأعماله ، وقد أورد المقرى فى « أزهار الرياض » رسالة لابن الأبار بمناسبة تمام حفر القناة المؤدية إلى الحدائق التى أنشأها أبو زكريا الحفصى خارج تونس ، والرسالة

تدل على أن ابن الأبار كتبها من بعيد وأرسلها إلى السلطان . ولم تكن حال ابن الأبار فى بجاية سيئة ، فقد لقيه هناك على بن سعيد المغربى ؛ وقال بعد أن أشار إلى سينيته وتوفيقه فيها وإعجاب الناس بها : « إلا أن أخلاقه لم تعنه على الوفاء بأسباب الخدمة ، فقلصت عند تلك النعمة ، وأخّر عن تلك العناية ، وارتحل إلى بجاية ، وهو الآن بها عاطل من الرتب ، خال من حلى الأدب ، مشتغل بالتصنيف فى فنونه ، متنفّل منه بواجبه ومسنونه ، ولى معه مجالسات آنق من الشباب ، وأبهج من الروض عند نزول السحاب . . . » (القدح المعلى ، برواية المقرى ، ٢٨٢/٤)

وعاد ابن الأبار من بجاية إلى تونس ، ومن حسن الحظ أنه أنهى هناك كتابيه الرئيسين « التكملة » و « الحلة » ، والغالب أنه ترك نسخاً من هذا وذاك هناك ، فنجا الكتابان من الدمار . وكان حريا بابن الأبار بعد ذلك أن يلين خلقه ويضبط لسانه ويخفف من دعواه ، ولكنه مضى على سابق عهده من الكبرياء وحدة اللسان ، وربما كانت هذه دعوى من خصومه الكثيرين وخاصة أحمد بن إبراهيم الغسانى وزير المستنصر الأثير عنده ، ولم يكن الغسانى ليطمئن له جنب وابن الأبار قريب من السلطان يستطيع الوصول إليه إذا أراد ، وكان المستنصر رجلا كثير المخاوف يتوقع الشر من كل ناحية إذ أن أعداءه والمدبرين عليه كانوا كثيرين ، وكان ابن الأبار قبل ذلك من أتباع أخيه المتوفى ، فلم يكن هناك أيسر على الغسانى من اتهام ابن الأبار بالتدبير على الدولة ، فيحل بذلك دمه للسلطان ويفرغ منه بأهون سبيل :

نقول هذا لأن عقوبة القتل التى أنزلها المستنصر بابن الأبار لا يمكن أن تعلل بما يقال من أنه سمع السلطان مرة يسأل عن مولد ولده أبى زكريا يحيى الذى تولى السلطة بعده وتلقب بالواثق ، فجاء ابن الأبار فى اليوم التالى برقعة فيها تاريخ الولادة وطالعها ، ويضيف بعض مؤرخينا أن هذا

الطالع كان نحساً ، فاستشاط السلطان غضباً من فضوله وتطفله ، وكان ذلك سبب حتفه ؛ نقول إن ذلك كله لا يفسر لنا غضب المستنصر على ابن الأبار غضبا يؤدى به إلى قتله ثم إحراق شلوه وكتبه ، فهذا التصرف لا يصدر عن غضب بل عن خوف ، وأصحاب السلطان فى تلك العصور لم يكونوا يقتلون إلا لخوف على أنفسهم وعروشهم ، أما ما عدا ذلك فيكفى فيه الإبعاد أو السجن أو المصادرة وما إلى ذلك .

ولهذا فلا بد أن التهمة التى دبرت لابن الأبار كانت تهديد السلطان أو الاشتراك مع نفر فى ذلك ، لأننا حتى لو فرضنا أن ابن الأبار قال بيت الهجاء الذى تنسبه إليه المراجع ، فإن ذلك لا يبرر الحقد الذى ظهر من المستنصر . ولا بد كذلك أن السعاية به بدأت منذ عودته من بجاية إلى تونس ، فقد كان السلطان لا يطيق النظر إليه ، فكان يستفتيه فيما يريد من بعيد ، فإذا دخل عليه لم يكلمه أو يلتفت إليه ، وكان ابن الأبار « يشكو من ذلك ويتألم وينعى على الزمان سوء حظه :

علتْ سِنى وقدرى فى انخفاض　　وحُكم الرب فى المربوب راض
إلى كم أسخط الأقدار حتى　　كأنى لم أكن يوماً براض »

ثم تجىء النهاية إثر حادثة مولد ولى العهد وطالعه التى ذكرناها ، ويذهب ابن خلدون بعد ذكرها إلى أن وشايات الحساد أوغرت صدر السلطان عليه وأوهمته أنه يتوقع المكروه للدولة وتهمه بالنظر فى النجوم . فقُبض عليه وقام الكاتب أحمد بن إبراهيم الغسانى بالبحث فى داره وكتبه ودفاتره ، فعثر فيها على بيت شعر يقول :

طغى بتونس خَلَفٌ　　سموه ظلماً خليفة

وعثر عنده أيضا على كتاب فى التاريخ فيه ما يسىء إلى السلطان ، فأمر بضربه بالسياط وقتله وإحراق مؤلفاته ، فقتل ضرباً بالرماح صبيحة

الثلاثاء ٢١ من المحرم سنة ٦٥٨ وأحرق شلوه ، وأخذت مجلدات كتبه وأوراق سماعه ودواوينه فأحرقت معه ، وكانت نحواً من خمسة وأربعين تأليفاً (تاريخ الدولتين للزركشى ، ص ٢٧)

والحق أن الإنسان ليدهش من قسوة ذلك العقاب الذى أنزل بابن الأبار ، فمثل هذه العقوبة ما كانت تنزل إلا بأعداء السلاطين ذوى الخطر ، أو الذين ناوأوهم وحاربوهم وكادوا يقضون عليهم ، ولا نتصور مهما ذهبنا مع الخيال أن ابن الأبار بلغ هذا المبلغ فى كراهة المستنصر والتدبير عليه ، ولكن الذى لا شك فيه أن الوشاية فى حقه صورته فى تلك الصورة ، فكانت النتيجة هلاكه على أبشع هيئة نتصورها ، وهذه واحدة من جرائم أولئك السلاطين ووزرائهم ممن حملوا فى رقابهم من أوزار المساكين ودماء الضحايا ما يصمهم إلى الأبد فى حساب الأخلاق وحساب التاريخ .

عاش ابن الأبار ثلاثا وستين سنة هجرية ، اثنتان وأربعون منها فى الأندلس والباقى فى المغرب ، ولم يسعد فى هذا ولا ذلك ، فأما فى الأندلس فقد عاش مروع السرب يحوم فوقه شبح الموت فى كل حين ، وكتب لرجال لولا سوء الزمان لما كان لهم إلى الإمارة سبيل ، ومدح غيرهم ممن لا يستحقون مجرد الذكر فضلا عن المديح ، ثم فقد وطنه وخرج بما حملت يداه إلى المغرب حيث تلقفه الأعداء وأعانهم على نفسه بسوء خلقه وتطلعه إلى الوظائف والجاه ، فلم يسعد فى وطنه الجديد ولا هدأ باله ، وانتهى أمره إلى هذه النهاية الفاجعة ، ولا عجب أن يلقبه بعض المؤرخين بالشهيد ، وهذه الشهادة لا تحق له لموته مظلوماً فحسب ، بل لأن حياته كلها كانت استشهاداً طويلا على يد الأيام .

* * *

مؤلفات ابن الأبار

ألف ابن الأبار كتبا كثيرة ، أحصى معظمها بروكلمان والمرحوم عبد العزيز عبد المجيد فى كتابه عن ابن الأبار والأستاذ إبراهيم الإبيارى فى

مقدمته للمقتضب من تحفة القادم والدكتور صالح الأشتر فى مقدمة تحقيقه لإعتاب الكتّاب ، وفى ثبت الكتب الوارد فى آخر تحقيقنا هذا ذكر كتب أخرى لابن الأبار ، وله رسائل وأشعار كثيرة أورد الكثير منها من أرخوا له وخاصة المقرى فى « نفح الطيب» و « أزهار الرياض » والغبرينى فى « عنوان الدراية » .

والناظر فى أسماء كتبه التى ضاعت – وعددها ٣٩ – وكتبه التى وصلت إلينا – وعددها ستة – يلاحظ أنها فى ثلاثة فنون : الحديث والأدب والتاريخ . فأما كتبه فى الحديث فلم يصل إلينا منها شىء يعيننا على تقديرها قدرها الصحيح بين كتب هذا الفن ، وربما كان أهمها هو « المأخذ الصالح فى حديث معاوية بن صالح » ، فقد كان معاوية هذا من أوائل فقهاء الأندلس وقضاتها ، وقد ذكره ابن سعد فى طبقاته وأثنى عليه ومن ثم فإن أحاديثه تعتبر من العوالى ، وطالما تأسف من جاء بعده من الأندلسيين على ضياع أحاديثه وعلمه .

وأما كتبه فى الأدب فلم يبق منها إلا مقتضب تحفة القادم الذى عمله البلفيقى ، وهو مختصر سيئ الصنع ، استغنى البلفيقى فيه عن معظم النثر ولم يبق إلا هيكلا جافاً يتكون من أسماء وبضعة أشعار ، وهذه لا تعين على تقدير ابن الأبار بين أصحاب كتب الأدب .

أما ميدان ابن الأبار الحقيقى فكان التاريخ والتراجم بصورة خاصة ، وكتبه الأربعة الباقية فى هذا الفن تشهد بماكة عظيمة فى هذا الميدان ، ولا تتجلى هذه الملكة فى كتاب كما تتجلى فى « الحلة السيراء » وهو غرة كتبه دون جدال ، ولابن الأبار فيه لمحات وإشارات واستدراكات تدل على أنه كان مؤرخاً حقاً عارفاً بتاريخ الإسلام حافظاً له قارئاً لكتبه ، وهو يستدرك فيه على نفر من أئمة المؤرخين أخطاء لا يتنبه لها إلا عالم متمكن ذو ملكة واعية .

وقبل أن نفرغ لكتاب الحلة نقف وقفة قصيرة عند كتابى « التكملة لكتاب الصلة » و « المعجم فى أصحاب أبى على الصدفى » .

واضح أن « المعجم » كتب قبل « التكملة » ، كتبه ابن الأبار بعد أن نضج تكوينه العلمى ، ونظن أن ترتيبه الزمنى بين مؤلفاته يجيء بعد « معدن اللجين فى مراثى الحسين » ، فقد أشار إلى هذا الكتاب فى كتبه التالية ، وموضوع « معدن اللجين » — كما يدل عليه عنوانه — من تلك الموضوعات التى تستهوى أفئدة الشباب بسبب غلبة العاطفة عليهم ، وقد كان ابن الأبار طالبياً ، ولكنه لم يكن شيعياً ، فإن الطالبي هو الذى يميل بعواطفه إلى أهل البيت ويأسى لما أصاب الكثيرين منهم أسى عاطفياً ولا يتعدى ذلك ، ومعظم كبار مؤرخينا على هذا الاعتبار طالبيون ، وأما الشيعى فهو الذى يتبع مذهب الشيعة ويميل عن السنة ، وقد ذهب المقرى إلى أن كتاب « در السمط فى خبر السبط » تشم منه رائحة التشيع ، وقد بالغ فى هذا الوصف ولا شك ، فإن الكتاب بين أيدينا وليس فيه إلا هذه العاطفية البريئة التى نجدها عند المقريزى مثلا .

وكتاب « المعجم فى أصحاب أبى على الصدفى » كتاب فريد فى نوعه من بين ما وصل إلينا من التراث الأندلسى ، لا لأنه لم يؤلف مثله ، بل لأنه أكمل كتاب أندلسى من هذا النوع وصل إلى أيدينا . فقد ألف القاضى عياض كتاباً فى شيوخ أستاذه أبى على الصدفى هذا ، فأراد ابن الأبار أن يكمل العمل بتأليف كتاب فى أصحاب أبى على ، أى تلاميذه ومعاصريه ومن تبادل معهم العلم . ولو وجدنا كتاب عياض لاكتملت لنا مدرسة من مدارس العلم كانت فخراً للأندلس يتوسطها شيخها أبو على بن سكرة الصدفى ومن حوله شيوخه ثم معاصروه وتلاميذه ، والصدفى جدير بهذا التقدير كله ، فإنه لم يكن شيخاً واسع العلم كريم الخلق فحسب ، بل كان مجاهداً باسلا لقى الشهادة فى معركة كتندة على ما ذكرناه .

وابن الأبار فى « المعجم » دقيق الدقة كلها : دقيق فى رسم الأسماء وتواريخ الميلاد وتعداد الشيوخ ، ودقيق أيضاً فى المنهج الذى اتبعه ، فهو يرتب أسماء المترجَم لهم على حروف المعجم (مع بعض خلاف قليل مقصود كإيراد اسم أحمد قبل إبراهيم) ، وهو بعد أن يفرغ من حرف يحصى عدد من ذكرهم فيه ، وإذا أهمل حرفاً نبه إلى أنه لم يجد فيه « معروفاً من هؤلاء الرواة ولا مكثرا » ، أو « ليس فى هؤلاء الرواة من أول اسمه دال أو ذال ، وعدة المذكورين فى الحروف الثلاثة : الجيم والحاء والخاء ثلاثة عشر ، منهم فى التكملة تسعة رجال » . وعدد التراجم التى فى هذا المعجم ٣١٥ .

ويفهم من العبارة السابقة أن كتاب « التكملة » كتب قبل « المعجم » . والراجح — على حسب ما استبان لى — أن كتاب « التكملة » كتب على فترات ، ففيه مواد يبدو بوضوح أنها كتبت قبل سنة ٦٣٠/١٢٣٢ — ١٢٣٣ ، وأخرى كتبت بعد هذا التاريخ وقبل هجرة ابن الأبار إلى المغرب ، وثالثة كتبت وهو فى بجاية . وهذا معقول بالنسبة لكتاب كبير مثل « التكملة » . صحيح أنه يفهم من فاتحة الكتاب — كما نشرها محمد بن شنب فى « المجلة الإفريقية » (سنة ١٩١٨) ص ٣١٧ — أن الفراغ من كتاب « التكملة » كان فى أول المحرم سنة ٦٣١/١٢٣٣ — ٣٤ ولكن فى الكتاب مواد كتبت وابن الأبار فى تونس أو بجاية ، مما يدل على أن ابن الأبار فرغ من صورة أولى من الكتاب فى أول المحرم ٦٣١ ثم عاد إلى الكتاب فأكمله ووضعه فى الصورة التى وصلت إلينـــا وهو فى بجاية للمرة الثانية .

وكتاب « التكملة » استتمام لما بدأ به أبو الوليد عبد الله بن يوسف الأزدى المعروف بابن الفرضى (٣٥١ — ٤٠٣/٩٦٢ — ١٠١٢) من الترجمة لعلماء الأندلس ، وواصل العمل أبو القاسم خلف بن عبد الملك بن مسعود ابن بشكوال الأنصارى (٤٩٤ — ٥٧٨/ ١١٠٠ — ١١٨٢) ثم استتم ما فاته

فى كتاب لم يصل إلينا هو كتاب « ذيل الصلة » يذكره ابن الأبار فى « المعجم » ، ثم جاء ابن الأبار فتصدى لاستكمال ما فات سابقيه ومواصلة التراجم إلى أيامه ، وواصل العمل من بعده محمد بن محمد بن عبد الملك الأنصارى المراكشى المعروف بابن عبد الملك (٦٣٤ – ٧٠٣ / ١٢٣٧ – ١٣٠٣) ثم واصل هذا العمل الجليل أبو جعفر أحمد بن إبراهيم المعروف بابن الزبير (٦٢٧ – ٧٠٨ / ١٢٢٩ – ١٣٠٨) وختمه ابن الخطيب بكتابه « عائد الصلة » .

وتكمل هذه السلسلة مؤلفات أخرى فى نفس موضوع تراجم علماء الأندلس مثل « جذوة المقتبس » للحميدى و « بغية الملتمس » للضبى و « معجم شيوخ ابن العربى » لابن الأبار (لم يوجد إلى الآن) وغيرها .

وهذه الكتب كلها – فيما عدا الذيل والتكملة لابن عبد الملك المراكشى – تتبع منهجاً واحداً فى الترجمة ، فتذكر الرجل باسمه الكامل وكنيته ونسبته وبلده الذى ولد فيه أو الذى منه أصله والبلد الذى سكنه إن كان قد نزل بلداً آخر ثم شيوخه وما قرأ عليهم ، ثم تلاميذه ومن أخذ عنه ، وتختم الترجمة بتاريخ الوفاة ومكانها وتاريخ الميلاد ومكانه إذا تيسر .

وهذه فى الحقيقة ليست تراجم بالمعنى المعروف ، إنما هى سجلات بالأسماء وتواريخ الميلاد والوفاة والشيوخ ، فلا تعطى فكرة واضحة عن المترجم له إلا فيما ندر ، فليس فيها – إلا فى القليل جدا – إشارات إلى حياة الرجل وما وقع له أو صفاته وخصائصه كرجل له صفات وخصائص ، بل ليس فيها – إلا فى النادر أيضاً – تلك الطرائف والحكايات الصغيرة التى نجد نماذج منها فى « تاريخ القضاة » للخشنى أو « رياض النفوس » للمالكى أو « الإحاطة » لابن الخطيب أو سلسلة كتب الوفيات المشرقية التى بدأت بابن خلكان ، ومن ثم فإن قيمتها للتاريخ السياسى والاجتماعى للأندلس محدودة ، بل فائدتها فى التعريف بالرجال أنفسهم قليلة .

ولكنها على أى حال أكثر فائدة من المواد التى يتضمنها الكثير من كتب على بن سعيد وكتاب « الخريدة » للعماد الأصفهانى أوالكنية الكامنة لابن الخطيب ، فهذه مجموعات مختارات وليست تراجم أو مواد ذات قيمة تاريخية .

وفى هذه الحدود تتساوى كتب ابن الفرضى وابن بشكوال وابن الأبار وابن الزبير فى الدقة والإتقان ، وربما شف ابن بشكوال على صاحبيه فى تراجمه بسبب ملكته التاريخية الواضحة . وابن الأبار على هذا الاعتبار واحد من أعلام مؤرخى العلم فى الأندلس ومرجع من المراجع التى لا يستغنى عنها مؤرخ له خلال القرنين السادس والسابع الهجريين بصفة خاصة .

* * *

كتاب الحلة السيراء :

وننتهى إلى كتاب « الحلة السيراء » ، وهو دون شك أحسن كتب ابن الأبار وأعظمها فائدة ، بل هو من عيون ما ألف أهل الأندلس قاطبة ومن المراجع التى لا يستغنى عنها من يؤرخ له أو يكتب فى أى ناحية من نواحى الحياة فيه .

وقد ذهب بعض المحدثين إلى أن عنوان الكتاب الكامل : « الحلة السيراء فى شعر الأمراء » ولم نجد ما يؤيد هذا فى المخطوط ولا عند الموثوق فيهم ممن كتبوا عنه ، ولهذا جعلنا عنوان الكتاب « الحلة السيراء » فحسب ، ولو أن إكماله بعبارة « فى شعر الأمراء » معقول .

وقد قلنا فى أول هذه المقدمة إن صاحب الفضل فى اكتشاف القيمة التاريخية والأدبية لهذا الكتاب كان المستشرق دوزى . وقد أثبتت الدراسات التالية حصافة دوزى عندما أشاد بقيمة الكتاب وخصائص صاحبه . والكتاب الآن بين أيدى القراء يستطيع من يريد منهم أن يستبين بنفسه ما له من قيمة وما يوحى به من ثقة .

ولفظ «السِّيَرَاء» الذى استعمله ابن الأبار فى العنوان لفظ نادر الاستعمال ولكنه جميل أحسن ابن الأبار فى اختياره ، وإليك ما ورد فى «لسان العرب» فى معنى هذا اللفظ :

«. . . وثوب مُسَيَّرٌ وشْيُه مثل السُّيور ، وفى «التهذيب» : إذا كان مخططاً . وسَيَّر الثوبَ والسهمَ جعل فيه خطوطاً ، وعُقابٌ مسيَّرة مخططة . والسِّيْراء والسِّيَرَاء ضرب من البرود ، وقيل هو ثوب مُسيَّر فيه خطوط تعمل من القز كالسيور ، وقيل برود يخالطها حرير ، قال الشمّاخ :

فقال إزارٌ شَرْعَبِيٌّ وأربعٌ من السِّيَرَاء أو اواق نواجزُ

وقيل هى ثياب من ثياب اليمن ؛ والسِّيَراء الذهب ، وقيل الذهبُ الصافى ، الجوهرى ، والسِّيَرَاء بكسر السين وفتح الياء والمد بُرْدٌ فيه خطوط صُفر ، قال النابغة :

صفراءُ كالسِّيَرَاء أُكمِل خَلْقُها كالغصنِ فى غُلَوائه المتأوِّد

وفى الحديث : أهدى إليه أُكيْدِرُ دومة حلة سيَرَاء . قال ابن الأثير : هو نوع من البرود يخالطه حرير كالسيور ، وهو فِعَلَاءَ من السَّير القِدّ . قال : هكذا روى على هذه الصفة . قال ، وقال بعض المتأخرين : إنما هو على الإضافة ، واحتج بأن سيبويه قال : لم تأت فِعَلاءُ صفةً لكن اسماً ، وشرَح السِّيَرَاء بالحرير الصافى ، ومعناه حلة حرير ، وفى الحديث : أعطى علياً بُرْداً سيَرَاء وقال : اجعله خُمُراً ، وفى حديث عمر : رأى حُلَةً سيَرَاء تباع ، وحديثه الآخر أن أحد عماله وفد عليه وعليه حُلة مُسَيَّرة أى فيها خطوط من إبريسم كالسيور» (مادة سير ، ٦ / ٥٧) .

وإذن فالمراد بالعنوان : الحلة ذات خطوط من حرير ، وقد تكون هذه الخطوط صفراء فتشبه الذهب ، وإذا أخذنا برأى سيبويه كان المعنى ثوب حرير صاف . وهو بطبيعة الحال كناية عن مادة الكتاب وما فيه من

الشعر ، وجدير بالملاحظة أن شعر الكتاب ليس كله لأمراء ، بل فيه الكثير من شعر الوزراء والكتاب وأصحاب الجاه والعلماء .

وهذا الشعر كله جيد ، مما يدل على ملكة ابن الأبار كناقد للشعر عارف بالجيد منه وغير الجيد . ولكن أهم من الشعر فى الكتاب نثره ، فهو تراجم غاية فى الفائدة لعدد كبير من الشخصيات التاريخية فى المغرب والأندلس من القرن الهجرى الأول إلى منتصف القرن السابع مع مادة تاريخية لابأس بها عن أعلام مشارقة من أهل القرن الأول كان لهم نصيب فى فتوح المغرب والأندلس .

وفى كل هذه المواد يبدو لنا ابن الأبار مؤرخاً فحلاً واسع الاطلاع نافذ النظر صادق الحكم ، وإذا استثنينا بعض المواد الأولى التى ينسب فيها ابن الأبار شعراً إلى عبد الله بن الزبير وعبد الله بن عمر وعبد الملك بن مروان وبعض أجزاء الباب الأخير الخاص بمن لم يؤثر عنهم شعر ، تبينا أن مادة التراجم كلها متعادلة من حيث القيمة والغزارة والأصالة ، غنية بكل ما ينفع المؤرخ ، ولا أذكر أننى قرأت لغير ابن الأبار فى الأندلس شيئاً يدل على سعة العلم على هذه الصورة ، فهو متمكن غزير المادة سواء أكتب عن خلفاء بنى العباس أم خلفاء الفاطميين أم أمراء الأندلس وخلفائها أم أمراء الطوائف ومن عاصرهم . وهو ليس غزير المادة فحسب ، بل ناقداً يقظاً لا يمر بخطأ فى تاريخ أو اسم إلا استدرك عليه ، وتبدو منه بدوات هنا وهناك تدل على أنه كان بالفعل من أعلم الناس بتاريخ المسلمين السياسى والعلمى والأدبى .

ومن حسن الحظ أن ابن الأبار تخلى عن السجع بعد فراغه من فاتحة الكتاب ، فجاء أسلوبه قوياً رصيناً بليغاً يرتفع إلى أحسن مستويات الأساليب العربية الصافية ، وأسلوبه هنا يشبه أسلوبه فى « إعتاب الكتاب » . ومقارنة بين أساوب الحلة وإعتاب الكتاب ونصوص الرسائل المسجوعة التى كتبها ابن الأبار وأورد المقرى شيئاً منها تعطينا دليلا على جناية السجع

على الأدب العربي ، فهذا ابن الأبار إذا كتب على سجيته دون تكلف أفصح وأبان وأفاد وأمتع ، فإذا تكلف وسجع أسفّ وهبط وضاعت معانيه فى جهد البحث عن السجعات .

وليس هذا موضع تحليل هذا الكتاب ، فهذه دراسة طويلة جديرة بأن يفرد لها بحث خاص ، ومثل هذا الكتاب تتبين مزاياه عند الحاجة إليه والبحث فيه .

* * *

المخطوط :

ولم تُبق الأيام من « الحلة السيراء » إلا نسخة وحيدة هى هذه التى اعتمدنا عليها فى هذا العمل ، وقد وقع فى ظن بعض الباحثين أن هناك نسختين أخريين ، واحدة فى مدريد والثانية فى باريس .

وهذه النسخة الوحيدة الباقية هى المحفوظة فى مكتبة الإسكريال برقم ١٦٥٤ ، وهى نسخة جميلة مكتوبة بخط مغربى على ورق حجمه ٢٧ × ٢٠ سنتيمترا ، فى الصفحة ١٩ سطراً ، وعدد أوراقها ١٩٧ . وفى نفس المجلد ٣ ورقات أضيفت إليه خطأ من تاريخ يظن أنه لأحمد بن أبى الفياض المؤرخ الأندلسى ، والخلاف فى نسبتها شديد بين الباحثين ، انظر :

P. MELCHOR ANTUNA, *Un Fragmento Arábigo – Historico* (Biblioteca del Escurial); en CIUDAD DE DIOS. San Lorenzo del Escurial, tomo CXXXVII, 1921, p. 103 — 114.

وانظر أيضا فهرس المخطوطات العربية بمكتبة الإسكريال الذى وضعه هارتويج ديرنبور وراجعه وأكمله ليفى پروفنسال (باريس ١٩٢٨) ج ٣ ص ١٨٨ — ١٨٩ .

وتنقص المخطوط من أوله ورقتان أو ثلاث على الأكثر فيها خطبة الكتاب وشىء من فاتحته ، وابن الأبار يأتى فيها بنماذج من شعر أمراء من بنى حفص ، والغالب أن بعضها للأمير أبى يحى زكريا الذى كان ولياً للعهد ثم

توفى قبل وفاة أبيه أبى زكريا يحيى بن أبى محمد عبد الواحد بن أبى حفص عمر بن يحيى الهنتاتى فى سنة ٦٤٧ / ١٢٤٩ – ١٢٥٠ وانتقال الأمر إلى ابنه أبى عبد الله محمد الذى لقب بالمنتصر أو المستنصر .

أما النسخة التى ظن بعضهم أنها فى المكتبة الأهلية فى باريس فنسخة حديثة كتبها المستشرق الإسبانى خوسيه أنطونيو كونْدِ وعن هذه نقل المستشرق رينو نسخة صارت إلى ملك الجمعية الأسيوية الفرنسية ، ثم انتقلت إلى المكتبة الأهلية فى باريس (انظر جامع نصوص بنى عباد لدوزى ، جـ ٢ ص ٤٦ – ٤٧) وقد استعان بها دوزى فى نشر ما نشر من الحلة ، ولكن بعضهم حسبها مخطوطة قديمة من الحلة وتحدث عنها بهذا الوصف .

وأما نسخة مدريد التى ذكرها بعضهم على أنها أصل من أصول الحلة فنسختان لا واحدة ، كتب الأولى منهما فى سنة ١٧٩٥ مستشرق إسبانى يسمى خوسيه أنطونيو پيلّثَرْ José Antonio Pellicer وكتب الثانية مستشرق إسبانى آخر يسمى پابلو أودار Pablo Hodar بتوجيه من ميخائيل الغزيرى ، وقد أصبح هذا الرجل بعد ذلك أستاذاً للغة العربية فى جامعة قلمرية Coimbra فى البرتغال ، وتوفى بها سنة ١٧٧٩ (انظر فهرس مخطوطات المكتبة الأهلية بمدريد الذى صنفه جيّنْ رُوبْلِس Guillén Robles ، مدريد ١٨٩٨ رقمى ١٢ و ١٣ ص ٨ و ٩) .

ولا وجود كذلك لأى نسخة أخرى من الحلة فى أى مكتبة عامة أو خاصة أخرى بحسب ما وصل إليه علمى .

وهذه المخطوطة الوحيدة جميلة واضحة الخط ، ولولا هذا الخرم الصغير فى أولها وبعض ثغرات قليلة الأهمية فى سياق النص لكانت من أكمل ما وصل إلينا من المخطوطات . وقد وقع الناسخ أثناء النقل فى خطأ جر إليه السهو ، فانتقل فى أثناء ترجمة أبى عبد الله بن عبد العزيز بن محمد بن عبد العزيز بن أمية بن الحكم الربضى إلى ترجمة أبى عبيد بن عبد العزيز

البكرى ، وكأنه كان ينسخ ترجمة الأول ثم مضى لبعض شأنه وعاد ففتح المخطوط فوقع على ترجمة أبى عبيد بن عبدالعزيز البكرى فلم ينتبه للأمر ومضى ينقل ، وبعد أن فرغ منه تنبه إلى أنه أسقط تراجم معظم أهل القرن الخامس ، فعاد واستتمها ! ومن حسن الحظ أنه لم يسقط شيئاً من الأصل . وقد تنبه إلى ذلك دوزى وبينه فى الكلمة التى صدر بها ما نشر من الحلة ، وراجعتُ الأمر مرة أخرى عند التحقيق ، ونبهت على ذلك فى موضعه .

وقد أفدتُ أكبر الفائدة من عمل دوزى وماركوس مولر فى هذا الكتاب ، وقد جرى الناس على أن يذكروا الأول دون الثانى عند الكلام على الحلة ، مع أن مولر فى الحقيقة خدم ما نشر من النص خدمة طيبة وقد انتفعت من قراءته فى كثير من المواضع ، ومن الحق أن أحيي هنا ذلك الجهد العظيم الذى بذله هذان المستشرقان الجليلان ، لا فى تحقيق ما نشرا من الحلة فحسب ، بل لخدماتهما للدراسات العربية بصفة عامة ، ويكفى أن أحدهما — وهو ماركوس مولر — كان يستحب أن يسمى نفسه امرأ القيس بن الطحان ، لأن امرأ القيس فى رأى البعض تعريب لماركوس أو مرقص ومولر معناه الطحان .

* * *

وبعد فهذا نص « الحلة السيراء » كاملا بين يدى القارئ مخدوماً على قدر ما سمحت به الطاقة وأعان الجهد ، ولقد طالما رجا الباحثون أن يجدوه ميسّراً بين أيديهم ، فعسى أن يكون ما أنفقت من جهد محققاً للرجاء .

وقد أعانني فى ضبط الشعر صديقى وأخى الدكتور محمود على مكى وكيل معهد الدراسات الإسلامية فى مدريد ، وأنا مدين له بهذا الفضل ، ووقف على طبع الكتاب فى القاهرة صديقى مصطفى عبد المجيد صالح أكرمه الله بما صدق ونصح ، وتعاونّا نحن الثلاثة على تصحيح تجارب الطبع ، ونحسب أننا نقدم هنا نصاً يخلو من خطأ مطبعى يستحق الذكر .

وقبل أن أختم هذه السطور يسعدني أن أحيي أخي السيد حسن إيراني ناشر هذا الكتاب فقد أضفى عليه ذوقه وحبه للكتب ، وهو حب جدير بالذكر والتنويه .

والله ينفعنا بجهدنا ويزيدنا من فضله وتوفيقه : وخير ما نختم به هذا الكلام دعاء صادق بالرحمة والغفران لأبي عبد الله محمد بن أبي بكر ابن الأبار .

مدريد في ٢٣ ذي قعده ١٣٨٣
٦ أبريل ١٩٦٤

حسين مؤنس

أستاذ بكلية الآداب بجامعة القاهرة
ومدير معهد الدراسات الإسلامية في مدريد

كِتَابُ
الحُلَّةُ السِّيَرَاءُ

[بسم الله الرحمن الرحيم

... ...

... ...](*)

/بَنَى لِىَ المجدَ آباءٌ كِرامٌ وَرِثْنا مَجدَهمْ باعاً فَباعَا [١-١]

وَهذَّبنى الإباء ففات طِرفى(١) وكلٌّ بَعْدُ يَجرى ما استطاعَا

وقبلَهما مما يصل حبلَهما و يصف فضاَهما :

وما لِلناس مِنا غيرُ رَعْىٍ يُفيدهُمُ رِفاهاً وانتفاعَا

فيمنعهم وما شَعَبُوا مَضَاماً(٢) ويُوسِعهمْ وما سَغبوا انتجاعَا

ولهم رضى الله عنهم ، وسمعت ذلك منهم :

أجِبْ داعِيَيْها فالنجِيبُ يُجيب وشُبَّ لَظَاهَا فالنَّخِيبُ(٣) يَخِيبُ

(*) ذكرنا فى المقدمة أن المخطوط تنقصه أوراق من أوله ، قد لا تزيد على اثنتين ، هما أول الفاتحة ، ويبدأ الكلام فى المخطوطة بهذه الأبيات ، وهما من سعر أبى ركريا الحفصى الذى أهدى إليه ابن الأبار هذا الكتاب . وقد حاولت العثور على أصول هذه الأشعار . فوجدت بعضها ولم أجد الباقى . ومن الواضح أن ابن الأبار تحدث فى الصفحات الضائعة عن سعر الأمراء وكيف أنه دليل على امتيازهم وذكائهم وعلمهم . وهو معنى سيعود إليه أكثر من مرة فى سياق الكلام ، وقد بينا ذلك فى المقدمة . وقد وضعت نقطاً بين حواصر مكان البياضات فى الأصل . واكتفيت بهذه الإشارة هنا تحاشياً لتكرار عبارة . « بياض فى الأصل » .

(١) الطِّرف : الكريم من الخيل .

(٢) فى الأصل : وما سعبوا مضاها ، وقد قومناه كما فى المتن . ومعنى اسعر على هذا هو أنه يحميهم ، ومَن تفرق منهم من السيم (انظر مادة سعب فى لسان العرب ، ١/٤٧٩ – ٤٨٠) .

(٣) النخيب : الجبان .

وَشِمْ عَزمةً لا يَغمِزُ[(١)] العجزُ مَتْنَها ... فَذُو العَزْمِ فى اليوم الصَّعيبِ يُصيبُ
ولا تَبْتَغِ العَليـــاءَ إلاَّ بأبيضٍ ... لِغَرْبَيْهِ فى هامِ الـكُماةِ غُروبُ
وأسمرَ غِرٍّ شَيَّبَ الوقعُ رأسَـــهُ ... ألاَ إنمـا بعد القَشيبِ مَشيبُ
وإن شئتَ قُلتَ النجمُ تَوَّجَ رأسَهُ ... فلاحَ له بينَ القلوبِ ثُقوبُ
يُنَضْنِضُ صِلاًّ ثم يَهْوِى كأنهُ ... رِشاءٌ له قلبُ الـكَمِىِّ قَليبُ
وصَفراءَ رَبَّتْها الجُيُوبُ[(٢)] ورَاوَحَتْ ... ذوائبَهـــا فوقَ الجُبوبِ جَنُوبُ
إذا عِيجَ مَتْنَاها أُقيمتْ شَبَاتُها[(٣)] ... فمنها سَرُوبٌ لا يُرَى ورَسُوبُ
فإن سَدِكَتْ بالـكَفِّ[(٤)] أو فُلَّ خَطْوُها ... نخطْوُ بَنيها فى الحُروب رَحيبُ
وأجردَ يَسْتَجْلِى بأوضاحِهِ الوغَى ... وقد جَنَّها يومَ الرُّكوبِ عكُوبُ[(٥)]

(١) فى الأصل : يغمق ، وقد صوبها ماركوس مولر (ص ١٦٢) : يغمز ، وهو صحيح .

(٢) هذا البيت من مشكلات هذه القطعة نظراً للجناس اللفظى الذى أراده الشاعر . والبيت كله يدور حول القوس ووصفها . وقد ورد لفظ « الجيوب » هنا واضحاً فى الأصل ، فلم نر ما يدعو إلى تغييره . وقد عدله مولر (ص ١٦٢) إلى « الجبوب » . وكذلك جعله حسن حسنى عبد الوهاب عندما أورد هذه القطعة فى كتابه « المنتخب المدرسى من الأدب التونسى » (الطبعة الثانية ، المطبعة الأميرية بالقاهرة ، ١٩٤٤) ص ١٠١ . والجَبوب هو الفرس المجَبَّب أى المحجَّل إلى ركبتى يديه وعرقوبى رجليه . وأعتقد أن الأصوب هنا « الجيُوب » والمراد بها الصدور . وسيرد لفظ الجبوب فى المصراع الثانى من البيت ، وهذا فقد استبعدت أن يكرره الشاعر فى بيت مرتين .

(٣) فى الأصل : بناتها . وقد جعلها حسن حسنى عبد الوهاب بُناتها ، وفسر اللفظ بأنه قوائم الفرس ، وعلى هذا الأساس فسر « سروب » و« رسوب » . وأعتقد أن الشاعر لا يزال يصف القوس ، وعلى هذا فقد صوبت اللفظ إلى « شَباتُها » ، وباقى البيت مفهوم على هذا التفسير .

(٤) أى سُدت باليد .

(٥) العُكوب : الغبار .

إذا ما استحرَّ الضربُ واشتَجَر القَنا ... بدا وهْوَ فى حال [. . . . .]

له من سَعَالِي الجنِّ خَلْقٌ مُطَهَّمٌ[١] ... يَرُوعُ ، وَمِن هُوجِ الرِّيَاحِ هُبُوبُ

بِتِلكَ يُنالُ الوِتْرُ لوْ حال دونه ... سُهوبٌ ، وحالَتْ عن مَدَاهُ لُهُوبُ[٢]

/فدع عنك أبناء الزمان فكلُّهمْ ... لَهُ عِند تمحيصِ الغُيوب غيوبُ [١ - ب]

فلا تُورِدَنْهُ وِرْدَكَ الصَّفْوَ إنَّهُ ... شَرُوبٌ وعِند الحادثات سَرُوبُ

[... ...] ساوى الرجَال فبَاسِمٌ ... لهُ عند هَبَّات الخُطوبِ خطوب

[. . . . .] قربى يعرد هايباً ... ويبأى إذا الحق النؤوب يؤوبُ

[... ... ...] إلى الخليل محلة ... وقد جعلت [... ... ...]

[... ... ...] يديك فإنَّه ... سواء قريب فى الورى وغريبُ

[ألا فـ]ـاسْتَعِنْ واسْتَغْنِ بالله إنَّهُ ... لَفَتْحٌ بتقـــدير الرقيبِ قَريبُ

ولهم — أيدهم الله — فى استقبال حضرتهم العلية من بعض غزواتهم الميمونة :

يَرْجفون عَينيك بالقـــرارِ ... ومِن شرط الهوى رَعيُ الذَّرارى

ألاحَ البرقُ مُعترضاً فغارَتْ ... نجومُ الأفقِ مِن ماء وارِ

خَفَي يسرِي وظَل الدمعُ يجرى ... فوَاحَرَباهُ من ســارٍ وجارِ

وهابَ البدرُ أن يفرى دجاه ... فمال عن السَّرار إلى السِّرَارِ

وساءل مســنداً يَرويه عَنى ... فحدَّثه الزفيرُ عن ادِّكار

سَقى أعــلامَ تونس فالحَنايَا ... فمُقْتبلَ العَشيــرةِ والعَرَارِ

فوا كَبِدَاهُ من شــوق تناءتْ ... نهايتُـــه على قُرب المزرِ

وأبْرَحُ ما يكون الشوقُ يوماً ... إذا دَنَتِ الديارُ من الديارِ

---

(١) كذا فى الأصل . وقد قرأها ح . ح . عبد الوهاب : مطهَّر . وكذلك فعل مولر (ص ١٦٣) .

(٢) لُهوب جمع لِهْب . وهو هنا : مهواة ما بين كل جبلين (اللسان . ١/٢٤١) .

ومن قلائدهم المُزْرِيَةِ بقلائد العِقْيان ، المُرْبِيَةِ على فرائد الجُمان(١) :

وحَوْراءَ تستعلى بنَهدين أُشرِعَا ولا غَرْوَ أن يدعو هواها فأتبعَهْ
تقول ، وقد رقَّتْ لما بى : أجازعٌ وأنت جَرِئٌ والأسِنَّةُ مُشْرَعَهْ ؟
[٢ - ١] /فقلت لها : جفناكِ عزّا تَجَلُّدِى ونَهْداكِ هَدّا نفْسَ هَيَّانَ مُوجَعَهْ
وما زلتُ ألْقَى القِرنَ يَعسِلُ(٢) رمحُه فمن لى بمن يَلْقَى الفؤادَ بأربعَهْ ؟

صدر هذا عنهم ، دامت سعادتهم . وقد أُنشِدَ بمجلسهم العلىّ للقاضى أبى بكر بن العربى فى مُداعبٍ له من فتيان الملثَّمة هز رمحه عليه وأوْمأ به إليه :

يهزّ علىّ الرمحَ ظبىٌ مُهفهَفٌ لعوبٌ بألبابِ البَرِيَّة عابثُ
فلو كانَ رمحاً واحداً لاتَّقيتُهُ ولـكنّه رمحٌ وثانٍ وثالثُ

كذا قرأت فى ديوان شِعرهم ، أدام الله تأييد أمرهم . وهما عندى للقاضى أبى محمد عبد الحق بن غالب بن عطية(٣) ، أنشدنيهما القاضى أبو سليمان داوود ابن سليمان بن حوط الله الأنصارى الحارثى(٤) بمدينة بَلَنْسِيَة ، وهو إذ ذاك يتولى

(١) يشير ابن الأبار هنا إلى كتابى « قلائد العقيان » لابن خاقان و« فرائد الجمان » أو « الفرائد الجمانية » (طبع فى القاهرة سنة ١٩٠١) لمعين الدين أبى نصر أحمد بن عبد الرزاق الطَّنطَرانى المتوفى سنة ٤٨٠ / ١٠٨٧ (انظر بروكلمان ، ملحق ١ ص ٤٤٦) .

(٢) عَسَل الرمح : هزه .

(٣) عبد الحق بن غالب عبد الرحمن بن عطية المحاربى ، من أهل غرناطة ، يكنى أبا محمد . ترجم له ابن بشكوال فى « الصلة » (رقم ٨٢٥ ج ١/ ٣٨٠) ووصفه بأنه «كان واسع المعرفة قوى الأدب ، متفنناً فى العلوم ، أخذ الناس عنه » . توفى سنة ٥٤٢ / ١١٤٧ - ١١٤٨ .

(٤) هو داوود بن سليمان بن داوود بن عبد الرحمن بن سليمان بن حلف . . بن حوط الله الأنصارى الحارثى من أهل أُنْدة (٥٥٢ - ٦ ربيع الآخر ٦٢١) ، من أكبر فقهاء الأندلس فى عصره وأوسعهم علما وأكبرهم رحلة وشيوخاً . وهو من شيوخ ابن الأبار ، وقد ترجم له ترجمة واسعة فى تكملة الصله ، رقم ٢٠٥ ص ٦٣ - ٦٥ . ولم يرد لأبى محمد عبد الحق بن عطية ذكر فى هذه الترجمة ولا فى تكملة الصلة .

قضاءها . قال : « أنشدَنا الشيخُ أبو الحسين سِراجُ بن عبد الله العثمانى[1] — مرّاتٍ — للفقيه القاضى أبى محمد عبد الحق بن عطية » ؛ وذَكَر البيتين ، إلا أن صدر أولهما فى هذه الرواية « يهددنى بالرمح ظبى مهفهف » ، وصدر ثانيهما « فلو كان رمحاً واحداً لاتَّقيته » ، وباقيهما سواء[2] . ولمَنْ كان منهما ذلك فقد عُدل به عن جادة الإجادة والزيادة .

ومن لزومياتهم السنية فى غَزَلياتهم السلطانية :

بدت لك فى ثوب يشفُّ منجَّم … أُزَيْرِق — يا للهِ لِلحُسنِ ! — أزرقا
ولاحتْ ، وبدر الأُفْق فى الأفق كاملٌ … فلم أدر أىٌّ راعنى حين أشرقا
خلا أنه لما رأى حُسنَ وجهها … تأنَّى قليـــلاً حين شام فأبْرَقا
ودونهما صفوُ الغـــدير مسَلسَلاً … فأُقسِمُ لولا رقَّةُ الوصل أحْرقا
ولما رنا نحو السَّجَنْجَل وجهُها … أطلَّ على متْن الغــدير فأطرقا
وزَرَّتْ عليه الشُّهْبُ ثوبَ سمائه … فقارب فى التشبيـــه منها وأغرقا
ونازعها ثوباً ولوناً ورفعــــةً … وبُعــداً وإشراقاً ووجهاً ترقرقا

ومن رفيع الرصف وبديع الوصف قولهم ، لا زال يجارى الأقدارَ عدلُهم ويبارى الأمطارَ طَوْلُهم :

/أعِدْ نظراً حيث الرياض كأنهــا … خدودُ الغوانى أو قدودُ الـكواعبِ [٢ - ب]

(١) سراج بن عبد الملك بن سراج بن عبد الله بن محمد بن سراج من أهل قرطبة ، يكنى أبا الحسين . ترجم له ابن بشكوال فى الصلة (رقم ٥١٤ ، جـ ١ / ٢٢٦) ولم يذكر نسبته العثمانية ، وقال عنه : « وكانت له عناية كاملة بكتب الآداب واللغات والتقييد لها والضبط لمشكلها ، مع الحفظ والإتقان لما جمعه منها » . ولد سنة ٤٣٩/١٠٤٧ وتوفى فى جمادى الآخرة سنة ٥٠٨ / ١٠١٧ .

(٢) روى البيتين المذكورين هنا أحمد بن محمد المقرى فى نفح الطيب (طبعة محيى الدين عبد الحميد ، جـ ٢ ص ٢٣٣ فى ترجمة أبى بكر محمد بن عبد الله بن العربى) بالصورة التى وردا بها فى النص ؛ وقد نسبها إليه .

تميل وليست بين كأسٍ وقينةٍ   ولـكنها بين الصَّبا والجنائبِ
وسال نميرُ الماء بين اخضرارها   فجاء كمثل الفرق بين الذوائبِ
وإلا كما شـق الـكَنَهْوَر بارقٌ   وإلا كمثل الصبحِ بين الغياهبِ
قدِ اطَّرَدَتْ فيـه المذانبُ دائماً   ولم ترَ حُسناً كاطِّراد المذانبِ
وللنَّرجس النَّضْر اصفرارٌ تخاله   كشمس أصيلٍ بين بيض السحائبِ
يَدبُّ إليك الحُسْنُ فى جَنَباتِها   بعقْربِ أصداغٍ منَ الآسِ لاسِبِ
وللياسَمينِ الغضِّ فى خُضْرِ بُسْطِها   نثائرُ دُرٍّ أو سبائكُ ساكبِ
وللسَّوْسَنِ المُبْيَضِّ إصغاءُ آلفٍ   يَحِنُّ فيحْنُو خاشعاً نحو شاربِ
وقد كُلِّلَتْ أغصانُ نارَنْجِها ، فقُلْ   مجامرُ تِبْرٍ جامدٍ غـيرِ ذائبِ
وعطَّر منها النَّشْرُ ما بَلَّل الندى   فنمَّتْ بأنفاسِ الرياحِ الغرائبِ
وللماء فى الدولاب – إن رُمتَ وَصْفَه –   سِهامُ قِسِيٍّ أو مخاريقُ لاعبِ
تضمَّنَ سَقْيُ الروض رفهاً يَعُلُّهُ   وفاءَ فعدِّ القولَ عن قوس حاجبِ
معطرة الأردان يَفْغَم نفحُها   يُحيِّيك عَرفُ الطيب من كل جانبِ
سماءٌ ، وجَرىُ الماء فيها مَجَرَّةٌ   ومن زهرها المفترِّ زُهْرُ الـكواكبِ
فدونَـكَها تختال زهواً ونُضرةً   وترفُلُ تِيهاً فى بُرودِ العجائبِ (١)

ولهم — خلَّد الله سلطانَهم — فى طبق مملوء نثائر زهر النارنج والخابور ، وأكثرُ هذا التشبيه على البديهة :

بعثتها وذَكِيُّ العَرْف ألحفَها   بُرْدين من وَضح الإصباح والشَّـفَقِ
كأنما الزهرُ والخابورُ جزَّعهُ   شَذَرٌ تناثر فى درٍّ من العُنُقِ
قد راق منظره حُسناً لمُلتَفِتٍ   ورَقَّ مَخْبَرُه عَرْفاً لمُنتَشِقِ

(١) ورد هذا البيت الأخير فى الهامش بخط مخالف .

/ ولهم — ظاهرَ اللهُ نِعَمه لديهم — مما كتبْتُه بينَ الكريمتين يديْهم : [٣ - ١]

خُذها كما نَمَّ عَرْفُ الرَّوضِ بالسَّحَرِ　　وأيقظَ الطَّلُّ رَيَّا نائمِ الزَّهَرِ
حمراء ترفُل فى أثوابِ بهجتها　　تَفْتَرُّ عن لؤلؤٍ عَذْبٍ وعَن أَشَرِ (١)
زَفَفْتُها ورَوَاق الليـل مُنْسَدِلٌ　　كأنها شَـفَقٌ فى هالةِ القمرِ

ومن ألغازهم ، وتَممتُ منهم رضى الله عنهم :

سَحَرتْ أعينُ الجآذرِ لُبِّى　　واستباحتْ حِمَى فؤادى وقلبى
[. . . . .] مِنها اشتباهٌ　　فانظرِ التَّصحيفَ مِنْ بعد قَلْبِ

وقد استوفوا حروف المعجم فى هذا الباب ، فأتوا — أيدهم الله — [بما فيه] عبرة لأولى الألباب

ولهم فى الرثاء ، أدام الله أيامهم كما جعل مفاتيحَ الأقاليمِ سيوفَهم وأقلامَهم :

تَصَبَّرْ فإنَّ الصبر أولى بذى حِجْرٍ　　وإن كان حِجْراً فالمَلامُ إلى الحِجْرِ (٢)
وما زالتِ الأيامُ تَعدُو على الفتى　　فطوْراً على بِشْرٍ وطوراً على بِسْرِ (٣)
وإنْ سالَمَتْ ، والظلمُ منها سَجِيَّةٌ　　فلا بدَّ يوماً أن تَغرَّ وأن تُغرِى
مَرَى (٤) الحزنُ دمْعِى أن أمَرَّ حِبالَهُ　　وكان قديماً لا يُمِرُّ ولا يَمْرِى
وعهدى بهذا الدمع يا عينُ وافياً　　فهل لك فى العَذرِ المُبرِّح مِن عُذرِ ؟
ألا مَن لعينٍ لا يُنَهْنِهُ غَرْبَها　　ألا مَن لسَحْرٍ لا يَمَلُّ من السَّحْرِ ؟
ألا تلك شمس الجوِّ فى الدَّوِّ (٥) فاعجبوا　　ألا تِلـكُمُ إدمانةُ العفرِ فى القَفْرِ

(١) تأشير الأسنان تحزيزها وتحديد أطرافها .
(٢) الحِجْر الأولى والثانية بمعنى عقل ، والثالثة بمعنى حرم .
(٣) بَسَر الرجلُ وجهه كَلَح
(٤) مرَى حقَّه : جحده
(٥) هو المفازة .

أأسْلو وهذا شخْصُها حَشْوُ مُقْلتي | وأنْسَى وما تنفكُّ منى على ذِكرِ ؟
لئن ضمَّ منكِ اللحْدُ ذاتاً زكيةً | لقد حُنِيَتْ منى الضلوعُ على جَمْرِ
سأبكيكِ ما أنَتْ فقيدة بِكرِها | وحنَّتْ إلى وَكْرٍ مُطَوَّقَةُ النَّحْرِ
[٣-ب] / أطارِحُها شَجْوِى فيُسْعِدُ شَجوَها | فتحسبُنا إلْفَىْ مُصابٍ لَدَى وَكْرِ
ومَالى ومَا للعيــدِ لولا تَحَفُّلٌ | يُـكلفُنى ما لا أطيقُ من الصبر
فمنْ كان ذا هَدْىٍ وهدْيٍ لعيدِهِ | فعندِى هدْىٌ من مدامعىَ الحُمرِ
يُغادُونها قُرْبَى لنَحْرٍ ثلاثةً | ودمعىَ من تِشكابِهِ الدهرَ فى نحرِ
وعندى ولا رَدٌّ زفــيرٌ مردَّدٌ | تهــدّ لظاه جابَ البِشْرِ
وتصديقُ إيمانٍ وإقرارُ موقنٍ | وتسليمُ مربوبٍ لذى الخَلْق و لأمْرِ

ومن تصنيف لهم فى الزهد جليل ، هو على انفرادهم فى الكمال وسحر الـكلام أوضح دليل :

يَعْجَل الإنسانُ بالشيء ، وهلْ | خُلِقَ الإنسانُ إلا من عجلْ ؟
ولِذِى العدلِ قصاءٌ فى الورى | يتقاضاه كـتابٌ وأجلْ
إنَّ ظُفْرَ الليث يدمى مِن ردًى | مثل خَدِّ الخوْدِ يدمى من خَجَلْ
وأخو الغفــلةِ فى غَفْلَتِهِ | إنْ بكتْ وَرقاء غَنَّى وَارْتَجَلْ

وإنما أورِد منه الفرائد ، وأقصد إليه من القصائد ، وها هى تضيق عنها المهارق(١) ، وتضيء منها المغارب والمشارق ، وإنما هذا إلماع بما أعوز العلماء ، وإسماع لما أسكت الحـكماء .

ولما ظفرتُ من هذا المقصود الأحمد ، وسبقتُ إليه سبق الجواد إذا استولى على الأمَد ، قصرتُه على ملوك إفريقِيَّةَ و بلاد المغرب المصافة إليها ، وقدمتُ

(١) الصحف .

القادمين فى المائة الأولى من السلف الأول عليها ، لأنها من أوائل فتوح الإسلام ، ثم من منازل بدرِ التمام مولانا الخليفةِ الإمامِ ، أدام الله لهم نصر الألوية والأعلام .

وفى المائة الثانية صارت الأندلس دارَ إيمان ، فواليتُ ذكر ولاتها من ذلك الزمان ، ليوقَفَ على جلالة شانهم ، ويُعرف تمكن محلهم من البلاغة ومكانهم ، وذكرتُ أبناءهم ، واختصرتُ أنباءهم ، هربا من التطويل ، ورَهَباً للتثقيل ، إلا نُكتاً لها بانتخابها أحسن المواقع/وعيوناً هى باقتضابها أجْوَلُ فى المحافل [٤-١] وأوْلَجُ فى المسامع . وربما عرض ما يدعو إلى البسْط فانتقض حُكم هذا الشرط ، ولا غرو أن أواقع المحذور ، فللكلام اضطرار يُبيح المحظور .

وأبرزته مَسُوقاً على الحِقَب ، منسوقا بحسب الرُّتَب ؛ أعيِّن للصدور صدرَ كل مائة ، وأبيِّن من تميَّز فى جماعة أو تحيَّز إلى فئة ، ليستوفى المتأدبين ، حتى من المتوثبين .

والذين ما عثرت على أشعارهم ، أفردت باباً لأخبارهم ، ولم أعرض لمن أعرَضَتْ عنهم الدولةُ الحَفْصِيَّة بالخُلْعان ، وانتزعت ما كان بأيديهم تراثاً لها من الملك والسلطان .

ثم [. . . . . .][1] الاسم الذى من خصائصه التأمين والتأمير وأشبهه [... ...][2] النضير والمَشْرَع النَّمير حضرة مولانا الأمير [... ...][3] الأسعد الأطهر الأرضَى أبو يحيي ولى عهد المؤمنين[4] ، وعَهْدُ الولىِّ فى متتابعات السنين ،

---

(١) بياص بقدر كلمتين .

(٢) بياض بقدر كامتين .

(٣) هنا مكان كلمتين مبسورتس من الأصل . وآثار البتر واصحة .

(٤) كذا فى الأصل ، وصحته أبو زكريا يحيى وهو ابن أبى عبد الله محمد الحفصى الملقب بالمستنصر ثانى أمراء الحفصيين (٦٤٧ – ٦٧٥ / ١٢٤٨ – ١٢٧٧) . وفى خدمة المستنصر عمل ابن الأبار . والإشارة هنا إلى ولى عهده أبى زكريا يحيى الذى خلعه على العرش سنة ٦٧٥ / ١٢٧٦ – ١٢٧٧ وتولى بعده ولقب بالواثق . وقد فرغ ابن الأبار من « الحلة السيراء » خلال سنة ٦٤٩ / ١٢٥١ أوبعدها بقليل ، أى أيام كان أبو زكريا يحيى الواثق ولياً للعهد . (انظر : ابن خلدون ، تاريخ ٦/٢٩٦) .

والملى[١] وقد [...][٢] مكارم الآباء بإنجاب كرام البنين . أجْهَدُ فى الاستظهار على شكر نعمته ، وأجهر آناء الليل وأطراف النهار بأن [يكون][٣] العمل خادم النية فى خدمته . وأقصى المأمول أن تأذن له[٤] سيادتُه فى القرب من سُدَّته ، وتقابل وفادته بالقبول ليسعد مداه بسعادة مدته . أبقاه الله ولواؤه منصور ، وكرم الخلال فيه محصور ، وشرف الكمال عليه مقصور ، والعيون والقلوب إليه ميلٌ وصور ، بمنه .

(١) كذا فى الأصل . وصحة هذا اللفظ تتضح إذا عرفنا ما بعده ، وهو مضطرب فى نسختنا .

(٢) بياض بقدر كلمة فى معنى عُهِدَت .

(٣) أضفت هذه الكلمة للسياق

(٤) الضمير هنا عائد على العمل .

المائة الأولى من الهجرة

١ — عَمرو بن العاصى ، أبو عبد الله

قرأت بخط أحمد بن يحيى بن جابر البَلاَذُرِىّ فى كتاب « أنساب الأشراف » من تأليفه : قال محمد بن سعد : قال الواقِدِىّ من خبر عَمرو ابن العاصى إنه قدم على النبى صلى الله عليه وسلم مُسْلِمًا فى صفر سنة ثمانٍ — قبل فتح مكةَ بأشهر ؛ وكان الفتحُ فى شهر رمضان — فوجهه رسول الله صلى الله عليه وسلم فى جمادى الآخرة سنة ثمان إلى ذات السلاسل فى سَرِيَّة ، ومعه أبو بكر وعُمر وأبو عُبَيْدة بن الجَرّاح رضى الله عن جميعهم[1] . قال : ثم بعث به إلى ابنَىْ الجُلَنْدَى بعُمان فأسْلَمَا ، وكان أميراً عليها . فلم يزل عَمرو بعُمان حتى قُبض رسولُ الله صلى الله عليه وسلم .

قال : وعَمرو بن العاصى هو الذى فتح مصر ونواحيها فى خلافة عُمر ، وعزله [٤ - ب]
عثمانُ عنها .

وقال غير البَلاَذُرِىّ : ثم صار من مصر حتى قدم بَرْقَةَ ، فصالح أهلَها على ثلاثة عشر ألف دينار يؤدونها إليه جزية ، على أن يبيعوا من أبنائهم

---

(١) نص طبقات ابن سعد (طبع دار صادر ودار بيروت . بيروت ١٩٥٦) : ١٣١/٢ .

فى [جزيتهم « ما أحبوا بيعه »][1] [وعلى يديه تم فتح المسلمين][2] لبرقة . ثم غزا فى سنة ثلاث وعشرين إطرابلس ، فحاصرها شهراً لا يقدر منها على شىء ، ثم افتتحها فى قصة غريبة ذكرها أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحَكَم فى تاريخه[3] ، وغنم ما فيها ولم يفلت الروم إلا بما خفَّ لهم فى مراكبهم . وأراد أن يُوَجِّه إلى المغرب فكتب إلى عُمر رضى الله عنه : « إن الله عز وجل فتح علينا إطرابلس ، وليس بينها وبين إفْرِيقِيَّةَ إلا تسعة أيام ، فإن رأى أمير المؤمنين أن يغزوها و يفتحها اللهُ على يديه فَعَلَ »[4] ، فكتب إليه عُمر ينهاه عن ذلك .

الظاهر من هذا الخبر تحيُّزُ إطرابلس من إفْرِيقِيَّة[5] ، ولم تزل من أعمالها قديما وحديثا . قال ابنُ عبد الحَكَم : « كان سلطان جُرْجِير من إطرابلس إلى طَنْجَة » . و بهذا الاعتبار ساغ لى ذِكر عَمرو رضى الله عنه فى هذا الكتاب .

ومن شعره يخاطب عُمَارة بن الوليد — أخا خالد بن الوليد — عند النجاشى ،

---

(١) أضفت كلمة « جزيتهم » هنا للسياق ، وأكلت النص من فتوح ابن عبد الحكم (طبعة تورى) ص ١٧٠ - ١٧١ وفتوح البلدان للبلاذرى (القاهرة ، بدون تاريخ) ص ٢٢٤.

(٢) عبارة الأصل هنا مضطربة . فبعد البياض الذى سددناه (راجع الهامش السابق) وردت كلمتا : « لبرقة إطرابلس » ، وهى عبارة غير صحيحة ، لأن برقة — إذ ذاك — لم تكن تابعة لإطرابلس ، ومن ثم فهى لا تنسب إليها . ولما كانت كلمة إطرابلس ترد فى آخر السطر فى المخطوط ، فقد رجحت أن ناسخاً أضافها كعنوان صغير فى الهامش ، ثم أدرجها من أتى بعده فى المتن ، فاختل المعنى . فاستغنيت عنها ، وقومت النص بحسب ما أعرف عن فتح العرب للمغرب .

(٣) راجع هذه القصة فى فتوح ابن عبد الحكم ، ص ١٧١ — ١٧٢ ، وانظر عنها كتابنا « فتح العرب للمغرب » (الطبعة الأولى ، القاهرة ١٩٤٧) ص ٦١ .

(٤) راجعت النص على أصله عند ابن عبد الحكم (فتوح ، ص ١٧٢) وبقية النص : « فكتب إليه عمر : لا ، إنها ليست بإفريقية ، ولكنها المفرقة ، غادرة (أيضاً : الغادرة) مغدور بها ، لا يغزوها أحد ما بقيتُ » .

(٥) يريد أن إطرابلس داخلة فى حوز إفريقية ، أى تبع لها .

وكانت قريش بعثتهما إليه يكلمانه فى مَن قدم عليه من المهاجرين رضى الله عنهم[١] :

تَعَلَّمْ عُمَار أنّ مِن شرّ شُبْهةٍ[٢] لِمثلك أن يدعَى ابن عم له انتَمى[٣]

لئن كنتَ ذا بُرْدَيْن أحوى مرجّلا فلستَ براءٍ لابن عمك مُحرما

إذا المرء لمْ يتركْ طعامًا يُحِبــهُ ولمْ يَنْهَ قَلبًا هائمًا[٤] حيثُ يَمَّما

قَضَى وَطرًا منهُ[٥] ، وغادر سُبَّةً إذا ذُكِرتْ أمثالُها تَملأُ الفَما

وقال أيضاً فى حروب صفين :

شُبَّتِ الحربُ فأعــددتُ لها مفرغ الحارك[٦] مَحبُوكَ السَّبَجْ

---

(١) روى البلاذرى فى « أنساب الأشراف » (طبعة الدكتور حميد الله ، القاهرة ١٩٥٩) ٢٣٣/١ – ٢٣٤ هذه الأبيات فى خبر ما وقع بين عمرو بن العاص وعمارة بن الوليد فى الحبشة . وكان عمرو قد بعثته قريش مع عبد الله بن أبى ربيعة إلى الحبشة ليكيدا للمهاجرين المسلمين هناك ويغريا النجاشى بالتخلى عن حمايتهم ، بل القضاء عليهم . أما عمارة بن الوليد فكان قد خرج إلى الحبشة فى تجارة له ، وركبا نفس السفينة ، وكانت مع عمرو امرأته ، فسعى عمارة فى الاتصال بها . ووقع الخصام بين الرجلين ، فلما وصلا إلى الحبشة استطاع عمارة أن يتصل ببعض نساء النجاشى . ويبدو أنه كان جميلا مفتونا بنفسه ، فلم يزل عمرو بن العاص يحتال عليه حتّى حصل منه على ما يثبت اتصاله بتلك المرأة ، ثم أسرع بالأمر إلى النجاشى ، فغضب على عمارة ويقال إنه قتله . وفى هذه الأبيات يلوم عمرو بن العاص صاحبَه عمارة على ما سولته له نفسه من العدوان على امرأة ابن عمه عمرو . والخبر كله مشكوك فى صحته ، والأبيات – بالتالى – مشكوك فى أصالتها .

(٢) فى « أنساب الأشراف » : شيمة .

(٣) فى « أنساب الأشراف » : ابنما ، وهى قراءة غير صحيحة .

(٤) فى « أنساب الأشراف » : غاوياً .

(٥) فى « أنساب الأشراف » : منها .

(٦) الحارك من الفرس : كاهله .

يَصِلُ الشَّـــدَّ بِشَدٍّ فإذا وَنَتِ الخيـــلُ مِنَ الشَّدِّ مَعَجْ

جُرْشُـــعٌ أَعْظَمُهُ جفرتُهُ فإذا ابتـلَّ مِنَ المـاءِ حَدَجْ[1]

وقال يخاطب معاويةَ بن أبى سفيان رضى الله عنه :

مُعَاوِىَّ إنى بِعْتُ دينى ولم أَنَلْ[2] به منك دنيا[3]، فانظُرَنْ كيف تصنعُ

وما الدين والدنيا سواءٌ ، وإننى لآخـــذ ما تعطى ورأسى مقنَّعُ

فإن تُعْطِنى مصراً فأَرْبِحْ بصفقةٍ أخذتَ بها شيخاً يضر وينفعُ[4]

[٥ - ١] / قال عَمرو هذا لأنه شرط على معاوية لما تحيز إليه — وكان معه فى حروبه لعلىّ رضى الله عنهم — أن يوليه ، إذا ظهر ، مصرَ طُعْمَةً ؛ فوفى له بذلك .

ورُوى أن عُتْبَة بن أبى سفيان دخل على معاوية أخيه وهو يكلم عَمراً فى مصر ، وعَمرو يقول له : « إنما بِعتُك بها دينى » ، فقال له عُتْبة : « أَئْمِنِ الرجلَ بدينه فإنه صاحب من أصحاب محمد »[5] .

---

(١) لم أجد هذه الأبيات فى كتاب « وقعة صفين » لنصر بن مزاحم المنقرى (طبعة عبد السلام هارون) ، القاهرة ١٣٦٥ ، وهو يضم أكبر مجموع من الشعر قيل أثناء معارك صفين

(٢) وردت هذه الأبيات فى « وقعة صفين » ص ٤٤ وقد ورد فيه هذا المصراع هكذا

« معاوىَّ لا أعطيك دينى ولم أنل »

(٣) فى « وقعة صفين » بذلك دنيا ، وفى مخطوط آخر به منك

(٤) وردت هذه الأبيات بنظام آخر فى « وقعة صفين » ، وها هى بعد البيت الاول

فإن تعطنى مصر فأربح بصفقة أخذت بها شيخاً يضر وينفع

وما الدين والدنيا سواء ، وإننى لآخذ ما تعطى ورأسى مقنع

ولكننى أغضى الجفون ، وإننى لأخدع نفسى ، والمخادع يُخدع

وأعطيك أمرا فيه للملك قوة وإنى به إن زلَّت النعل أصرع

وتمنعنى مصرا وليست برغبة وإن بذا الممنوع قدماً لمولع

وورد المصراع الأول من بيت الرابع هكذا

وأُلْفِى به إن زلت النعل أُصْرَعُ

(٥) أورد نصر بن مزاحم المنقرى حديث معاوية بن أبى سفيان مع عمرو بن العاص وكلام عتبة بن أبى سفيان بتفصيل (ص ٤٤) وهو هناك يختلف فى معناه ومبناه عما هو هنا .

فأقام على مصر إلى أن توفى فى خلافة معاوية[١] . ومما يُعزى إليه :

وأغضِى على أشياء لو شئتُ قلتُها ... ولو قُلتها لم أبقِ لِلصُّلح موضعَا

فإن كان عُودِى من نُضارٍ فإننى ... لأكره يوماً أن أحطم خِرْوَعَا[٢]

وأنشد له ابنُ إسحاق صاحب « المغازى » فى يوم أُحُد ما لم أر وجهاً لذكره .

---

٢ — ابنه عبد الله بن عَمرو بن العاصى ، أبو محمد

ذكره أبو بكر عبد الله بن محمد المالكى فى الداخلين إفريقِيَّةَ من الصحابة رضى الله عنهم[٣] ، وهم قريب من ثلاثين رجلا . وكان يخلُف أباه على إمارة مصر ، إذ وَلِيَها عَمرو فى خلافة عُمر بن الخطاب [و] فى خلافة معاوية . وهو صلَّى على أبيه عند وفاته ، ثم صلى بالناس يومَ الفطر . ولم يكن بينه و بين أبيه فى السن إلا اثنتا عشرة[٤] سنة ، وأسلم قبله ، وكان أحد فقهاء الصحابة وفضلائهم ، والمكثرين من الحديث عن النبى صلى الله عليه وسلم[٥] .

---

(١) ورد بالهامش مقابل هذا السطر ما يلى توفى بمصر ليلة الفطر سنة ثلاث وأربعين وهو ابن تسعين سنة ، ودفن بالمقطم من ناحية « الفج » ، وكانت طريق الناس إلى الحجاز صح : من در السحابة للجلال الأسيوطى (كذا)

(٢) جاء فى « اللسان » .. وكل نبت ضعيف يثنى خروع ٩/٤٢٠

(٣) انظر « رياض النفوس » لأبى بكر بن أبى عبد الله محمد المالكى (بتحقيق ناشر هذا الكتاب ، ج ١ ، القاهرة ١٩٥١) رقم ٤ ص ٤٣ — ٤٤

(٤) فى « رياض النفوس » (ص ٤٣) وكان بينه وبين أبيه فى العمر ثلاث عشرة سنة .

(٥) ورد فى الهامش مقابل هذا السطر بخط مختلف عن خط المخطوط « ط توفى بمصر ودفن بداره سنة سبع وسبعين فى خلافة عبد الملك وسنه اثنتان وسبعون سنة . صح . من در السحابة »

قال أبو محمد بن حزم الفقيه : روى عبد الله بن عَمرو بن العاصى سبعمائة حديث .

وفى تاريخ ابن عبد الحَكَم أن عثمان رضى الله عنه كتب إلى عبد الله بن سعد بن أبى سرح يؤمِّره على مصر [سنة خمس وعشرين] فجاءه الكتاب بالفيوم بقرية منها تدعى « دموشة » ، فجعل لأهل الجواب[1] جُعْلا على أن يصبحوا به الفسطاط فى موكبه . فقدموا به الفسطاط قبل أن يصبح [الصبح ، فأشار][2] إلى المؤذن فأقام الصلاة حين طلع الفجر ، وعبدُ الله بن عَمرو بن العاصى ينتظر المؤذن يدعوه إلى الصلاة ، لأنه كان خليفة أبيه ، فاستنكر الإقامة ، فقيل له : صلى عبدُ الله بن سعد بالناس .

قال ابن عبد الحَكَم : يزعمون أن عبد الله بن سعد أقبل من غربى المسجد بين يديه شمعة ، وأقبل عبدُ الله بن عَمرو من نحو داره بين يديه/شمعة . فالتقت [٥ ـ ب] عند القبلة فأقبل عبدُ الله بن عمرو حتى وقف على عبد الله بن سعد فقال : هذا بَغْيُك ودَسُّك ! فقال عبدُ الله بن سعد : ما فعلتُ . وقد كنتَ أنت وأبوكَ تحسدانى على الصعيد ، فتعالَ حتى أوليك الصعيد ، وأوَلِّى أباكَ أسْفَلَ الأرض ، ولا أحسدكما عليه .

وكان عزل عَمرو بن العاصى عن مصر وتولية عبد الله بن سعد فى سنة خمس وعشرين ، صَدْرَ خلافة عثمان رضى الله عنه . ومن شعر عبد الله بن عَمرو فى صفين :

فلو شهِدتْ جُمْلُ مَقامى ومَشْهدى بصفِّين يوماً شابَ منه الذوائبُ
عَشِيَّةَ جا[3] أهلُ العراقِ كأنهم سحابُ ربيعٍ دَفَّعَتْه الجنائبُ[4]

---

(١) فى الأصل : الطواف ، والتصحيح من ابن عبد الحكم وأبى المحاسن بن تغرى بردى.

(٢) سقطت كلمات هنا ، فأضفت ما بين الحاصرتين ليتصل السياق .

(٣) فى « وقعة صفين » لنصر بن مزاحم المنقرى (ص ٤٢١) : غداة غدا .

(٤) فى نفس المصدر : من البحر موج لجه متراكب .

وجئناهمُ نَرْدِي⁽¹⁾ كأنَّ صفوفَنا مِنَ البحرِ مَدٌّ موجُه مُتراكِبُ⁽²⁾
إذا قُلتَ : قد ولَّوْا سِراعاً، بَدَتْ لنا كتائبُ منهمْ فَارْجَحَنَّتْ كتائبُ⁽³⁾
فدارتْ رحانا واستدارتْ رحاهُمُ سَرَاةَ النهار ما تُوَلَّى المناكبُ
وقالوا لنا : إنا نرى أن تُبايعوا⁽⁴⁾ عَليًّا ، فقلنا : بل نرى أن تُضاربوا⁽⁵⁾

هكذا وجدت هذا الشعر منسوباً إليه ، وخلاف هذه الحال كان [... ...]⁽⁶⁾. على أن أبا الفتوح الطائى البغدادى قد حكى فى كتابه « الأربعين حديثاً » مِن جَمْعه أن عبد الله بن عمرو شهد مع أبيه صفين ، وكان يضرب بسَيْفين . والأصح هو الذى رواه أبو عُمر بن عبد البر [فى خبر يسنده]⁽⁷⁾ إلى ابن

(١) رَدَى فى البئر يردى إذا سقط فيها أو تهور من جبل . وفى « وقعة صفين » : نمشى .

(٢) ورد هذا البيت فى « وقعة صفين » هكذا :

وجئناهم نمشى صفوفا كأننا سحاب خريف صففته الجنائب

وبعد هذا البيت بيت لم يورده ابن الأبار هو :

فطار إلينا بالرماح كُماتُهم وطرنا إليهم والسيوف قواضب

(٣) فى نفس المصدر والصفحة ورد هذا البيت هكذا :

إذا قلت يوما : قد وَنَوْا ! برزت لنا كتائب حمر وارجحنت كتائب

(٤) ورد هذا الشطر عند نصر بن مزاحم المنقرى هكذا :

فقالوا : نرى من رأينا أن تبايعوا .

وفى الأصل : أن تضارب ، ولا تستقيم به القافية . فجعلنه كما هو فى المتن .

(٥) أورد نصر بن مزاحم بعد هذا ثلاثة أبيات :

فأُبنا وقد نالوا سراة رجالنا وليس لما لا قوا سوى الله حاسب
فلم أر يوماً كان أكثر باكياً ولا عارضاً منهم كَمِيًّا يكالب
كأن تلالى البيض فينا وفيهم تلألؤ برق فى تهامة ثاقب

(٦) بياض بقدر كلمتين .

(٧) أضفت هذه الكلمات للسياق . والخبر وارد فى « الاستيعاب فى معرفة الأصحاب » لأبى عمر يوسف بن عبد البر النمرى (طبعة المطبعة التجارية على هامش « الإصابة فى تمييز الصحابة » لأحمد بن على بن محمد العسقلانى المعروف بابن حجر . القاهرة ١٩٣٩) ٢/٢٤٠ .

أبى مُلَيكة أن عبد الله بن عمرو بن العاصى كان يقول : « مالى ولصفين ؟ مالى ولقتال المسلمين ؟ والله لوددت أنى متُّ قبل هذا بعشر سنين » . ثم يقول : « أمَا والله ما ضَربتُ فيها بسيف ، ولا طَعنت برمح ، ولا رَميت بسهم ، ولوددت أنى لم أحضر شيئاً منها . وأستغفر الله عز وجل من ذلك وأتوب إليه » . قال أبو عُمر : « إلا أنه ذُكر أنه كانت بيده الراية يومئذ ، فنَدِمَ ندامة شديدة على قتاله مع معاوية . قال : وأقسَم أنه إنما شهدها لعزمة أبيه عليه فى ذلك ، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له : « أطع أباك » . ذكر أبو عُمر هذا[1] فى كتاب « الاستيعاب فى الصحابة » من تأليفه ، ولكن الشعر — مع هذا — مذكور له فى مصنف أبى بكر بن أبى شيبة وغيره .

[٦ - ١] ٣/ — عبد الله بن عباس ، أبو العباس[2]

غزا إفريقيَّة مع عبد الله بن سعد بن أبى سَرْح فى خلافة عثمان سنة سبع وعشرين وشهد فتحها ؛ ذكر ذلك أبو سعيد بن يونس فى تاريخه . ثم وَلىَ إمارة البصرة فى خلافة علىّ رضى الله عنه حين استعمل أخويه عُبَيد الله على اليمن ومَعبدًا على مكة . وكان لعبد الله بن العباس من عُمر بن الخطاب مكان . وقال لعبد الرحمن بن عوف ، وقد كلمه فى حُظوته لديه : « إنه من حيث علمتَ » .

(١) انظر المصدر السابق . ٢/٢٤٠ – ٢٤١ .

(٢) فوق هذا العنوان بخط مختلف عن خط المخطوط : « ط. توفى رحمه الله بالطائف سنة ثمان وستين ، وهو ابن إحدى وسبعين سنة . وكان يسمى البحر لسعة علمه . صح . من در السحابة » .

وكان يقول : « ابن عباس فتى الكهول ، له لسان سؤول وقلب عقول » ؛ ويقول إذا سأل [ابنَ عباس] فى الأمر يعرض مع جلة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : [كيف تلومونني عليه بعد ما ترون ؟][1]

وفى كتاب « الأغانى » لأبى الفرج الأصبهانى أن عُيَيْنة بن مِرْداس [ابن فَسْوَة] الشاعر ، وهو المعروف بأبى فسوة ، أتى عبدَ الله بن العباس — وهو عامل لعلىّ بن أبى طالب على البَصرة ، وتحتـه يومئذ شُمَيْلة بنت جُنادة بن أبى أُزَيْهِر[2] الزهْرانية ، وكانت قبله تحت مُجاشِع بن مسعود السُّلمى — فاستأذن عليه فأذن له ، وكان لا يزال يأتى أمراء البصرة فيمدحهم فيعطونه ويخافون لسانه . فلما دخل على ابن عباس قال له : « ما جاء بك [إلىّ] يا ابن فَسوة ؟ » فقال له : « وهل دونك مقصدًا[3] أو وراءك معدًّى ؟ جئتك لتعيننى على مروءتى وتصل قرابتى » ، فقال له ابن عباس : « وما مروءة مَن يعصى الرحمٰن ويقول البهتان ويقطع ما أمر الله به أن يوصَل ؟ والله لئن أعطيتك لأعيننَّك على الكفر والعصيان ! انطلق ! وأنا أقسم بالله لئن بلغنى أنك هجوت أحدًا من العرب لأقطعنّ لسانك » ، فأراد الكلام فمنعه مَن حضر ، وحبسه يومه ذلك . ثم أخرجه عن البصرة ، فوفد إلى المدينة بعد مقتل علىّ [عليه السلام] ، فأتى الحسن [بن علىّ عليه السلام] وعبد الله بن جعفر [عليهما السلام] فسألاه عن خبره مع ابن عباس فأخبرهما ، فاشتريا عِرضَه بما أرضاه ، فقال يمدحهما ويلوم ابن عباس من أبيات :

---

(١) استعنت فى سد فراغ هذا الخبر بما ذكره ابن سعد فى صفته فى سيرة ابن عباس : «أخبرنا هشيم بن بشير ، قال : أخبرنا أبو بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس . قال : كان عمر بن الخطاب يأذن لأهل بدر ويأذن لى معهم . قال : فذكر أنه سألهم وسأله . فأجابه ، فقال لهم : كيف تلومونني عليه بعدما ترون ؟» الطبقات ٢/٣٦٥ .

(٢) فى الأغانى ١٩/١٤٣ : سمية بنت جنادة بن بنت أبى أزهر الزهرانية .

(٣) فى الأغانى ١٩/١٤٣ : وهل عنك مقصرا .

لقيتُ(١) ابنَ عباسٍ فلم يقضِ حاجتى ... ولم يَرجُ معروفى ولم يَخْشَ مُنكرى

فلو كنتُ من زَهرانَ لم ينسَ حاجتى ... ولكننى مولى جَميلِ بنِ مَعْمَرِ

فليتَ قَلُوصى أغربتْ أو رَحَلْتُها(٢) ... إلى حَسَنٍ فى داره وابن جعفرِ

[٦-ب] /إلى ابن رسول الله يأمر بالتُّقى ... وللدينِ يدعو والكتابِ المطهَّرِ

إلى معشر لا يخصِفون نعالَهم ... ولا يلبسون السِّبْتَ ما لم يُخَصَّرِ

فلما عرفتُ اليأسَ منه وقد بدتْ ... أيادى سَبَا الحاجاتِ للمتذكِّرِ

تسنَّمتُ حرْجُوجاً كأنّ بُغامَها ... أجيجُ(٣) ابنِ ماء فى يراعٍ مفجّرِ

فما زلتُ فى التَسْيار حتى أنَخْتُها ... إلى ابن رسول الأمة المتحيِّرِ

فلا تَدَعَنِّى إذ رحلتُ إليكمُ ... بنى هاشمٍ أن تصدرونى بمصدرِ(٤)

قال أبو الفرج : كان عُيَيْنة هـــذا شاعراً خبيث اللسان مَخُوفَ المعرة فى جاهليته و إسلامه ، وكان يقدم على أمراء العراق وأشراف الناس فيصيب منهم بشعره . قال : وكان حليفاً لجميل بن مَعْمَر القُرَشى . ومن شعر عبد الله بن العباس ، وكان أبوه العباس أيضا شاعراً :

إذا طارقاتُ الهمِّ ضاجَعَتِ الفتى ... وأعمل فكرَ الليلِ ، والليلُ عاكرُ

[وباكَرَنى](٥) فى حاجةٍ لم يجدْ لها ... سواىَ ولا من نكبة الدهر ناصرُ

---

(١) هذه الأبيات واردة فى « الأغانى » ١٤٤/١٩ . ولم يوردها ابن الأبار على تواليها ، وإنما اختار منها .

(٢) عند أبى الفرج الأصبهانى : « فليتَ قلوصى عريت أو رَحلْتُها » . والقلوص من النوق : الشابة .

(٣) الأغانى : أحيح .

(٤) الأغانى : لمصدر .

(٥) بياض بالأصل ، وقد أكملته من كتاب « العمدة » لابن رشيق (طبعة محيى الدين عبد الحميد ، القاهرة ١٩٣٤) ، ٢٣/١ .

فَرَجْتُ بمالى هَمَّـــهُ من مُقامِهِ وزايله هَمٌّ طَروقٌ مســـامِرُ
وكانَ له فضلٌ علىَّ بظنّهِ بِيَ الخيرَ ، إنى لِلّذِى ظَنَّ شاكرُ

وقال أيضا وقد عَمِي فى آخر عمره ، ورُوِى عنه من وجوه : قاله أبو عمر ابن عبد البر وغيره :

إن يأخذِ اللهُ من عينىَّ نورَهما فنى لسانى وقلبى منهما نورُ
قلبى ذكىٌّ وعقلى غيرُ ذى دَخَلٍ وفى فمى صارمٌ كالسيف مأثورُ

وهذا من أحسن ما قيل فى هذا المعنى ، وهو داخل فى باب تحسين ما يَقْبُح . وقد جمعتُ قطعةً من ذلك فى تأليفى للخزانة العالية الإمامية ، الموسوم بـ « قِطَع الرياض فى بِدَع الأغراض » . ومن ذلك قول بشار بن بِرد :

عَمِيتُ جنيناً ، والذكاء من العمى فجئتُ مُصيبَ الظن للعلم مَوْئلاَ
/وغاض صفاء العين للعقل رافداً بقلبٍ إذا ما ضيَّع الناسُ حصَّلا [٧ - ١]
وشِعرٍ كنَوْر الرَّوْض لاءمتُ نَظْمَه بقولٍ إذا ما أحزَنَ الشعرُ أسهلا

وقال آخر ، ويُروى لأبى العلاء ، والصحيح أنه لأبى الحسن الحُصْرِى :

وقالوا : قد عَميت ، فقلت : كلا وإنى اليومَ أبصَرُ من بصيرِ
سوادُ العين زار سوادَ قلبى ليجتمعا على فهم الأمـــورِ

وقال عبد الله بن سليمان القرطبى النحوى — المعروف بدَرودٍ ، ويقال دَرَيْوِد — وكان أعمى[1] :

تقول : مَن للعمى بالحُسْن ؟ قلت لها : كَفَى عن الله فى تصديقه الخَبرَ

(١) ترجم له الحميدى فى جذوة المقتبس رقم ٥٥٢ ص ٢٤٣ - ٢٤٤ والزبيدى فى طبقات اللغويين والنحاة (بتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، القاهرة ١٩٥٥) ص ٣٢٣ ، وقد ورد فى هذا الأخير أن الخليفة عبد الرحمن الناصر استأدبه لأبنائه ، وتوفى سنة ٣٢٤/ ٩٤٥ - ٩٤٦ .

القلب يدرك ما لا عين تدركهُ   والحُسن ما استحسنتْه النفسُ لا البصرُ
وما العيونُ التى تَعمَى إذا نظرتْ   بل القلوبُ التى يَعمَى بها النظرُ

ومن جَيد العذر — لولا شَوْبُه بالهُجْر — قول الآخر :

قالوا : العمى منظرٌ قبيحٌ   قلت : بفقدى لهم يهونُ
تالله ما فى الأنام شىء   تأسَى على فقده العيونُ

كأنه أخذه من قول سعيد بن المُسَيّب وقد نزل الماء فى عينيه ، فقيل له : « لو قدَحْتَهُما » ، فقال : « وعلى من أفتحهما ؟ . . » . ومثل هذا قول المعرى ، وهو عندى من المنشَد :

أبا العـــلاء بنَ سليمانا   إن العمى أولاك إحسانا
لو أبصرتْ عيناك هذا الورى   لم يرَ إنسانُك إنسانا

---

٤ — عبد الله بن الزبير ، أبو بكر وأبو خُبيْب

غزا إفرِيقِيَّةَ مع ابن أبى سَرْح فى خلافة عثمان . وهو الذى وَلىَ قتلَ جرْجير[١] ملكها واحتز رأسه وجعله فى رمحه ، وكبَّر فانهزم الروم فى خبر طويل ذكره مصعب بن الزبير فى كتاب « قريش »[٢] من تأليفه ، فوجه به ابنُ

---

(١) كذا ورد الاسم مضبوطاً بكسر الأول ، والشائع جُرجير بضم الجيم . وهو البطريق جريجوريوس الذى كان قد استبد بأمر إفريقية بعد موت الإمبراطور هرقل وقبيل فتح المسلمين للمغرب .

(٢) يريد أبا عبد الله المصعب بن عبد الله المصعب الزبيرى وكتابه « نسب قريش » (نشره ليڤى بروفنسال ، سلسلة ذخائر العرب ، رقم ١١ — القاهرة ١٩٥١ وأعاد نشره فى صورة أكمل ومع فهارس أوفى الأستاذ عبد السلام هارون ، القاهرة ١٩٦٢) والخبر وارد فيه فى ص ص ٢٣٧ — ٢٣٩ .

أبى سرح / بشيراً إلى عثمان ، فقدم عليه ، فأخبره بفتح الله ونصره ، وخطب [٧ – ب] يومئذ بذلك فى مسجد المدينة على المنبر . قال مصعب : وبُشِّر عبدُ الله مقدَمَه من إفْرِيقِيَّة بابنه خُبَيْب بن عبد الله ، وهو أكبر وَلَده .

وقال ابن عبد الحَكم : « بعث عبدُ الله بن سعد بالفتح عُقْبَةَ بنَ نافع ، ويقال بل عبد الله بن الزبير ، وذلك أصح — فيقال إنه سار على راحلته إلى المدينة من إفْرِيقِيَّة فى عشرين ليلة »[1] . قال : « وقد قيل إن عبد الله بن سعد كان قد وجه مروانَ بن الحكم إلى عثمان من إفْرِيقِيَّة ، فلا أدرى أفى الفتح أم بعده ؛ والله أعلم »[2] .

ثم وَلِىَ ابنُ الزبير الخلافة بالحجاز والعراق وأكثر الشام ، بعد موت معاوية ابن يزيد بن معاوية . وكان قد خرج من المدينة مع الحسين بن علىّ — إثر موت معاوية بن أبى سفيان ، ممتنعا من بيعة ابنه يزيد — وأقام يسلَّم عليه بالخلافة تسع سنين ، ثم قتله عبدُ الملك بن مروان على يد الحَجّاج سنة ثلاث وسبعين من الهجرة .

وحكى الزبير بن بَكّار فى كتاب « نسب قريش »[3] له ، عن هشام بن

---

(١) انظر ابن عبد الحكم : «كتاب فتوح إفريقية والاندلس ، طبعة جزئية من فتوح ابن عبد الحكم اقتصرت على فتح إفريقية والأندلس نشرها ألبير جتو ALBERT GATEAU مع ترجمة فرنسية عنوانها : *Conquète de l'Afrique du Nord et de l'Espagne* وهى المجلد الحادى عشر من سلسلة Bibliothèque Arabe-Française تنشر فى الجزائر ، وهى طبعة جيدة ، تمتاز بتعليقات وشروح قيمة وفهارس دقيقة . والخبر المشار إليه وارد فيها فى ص ٤٨ .

(٢) نفس المصدر ، ص ٥٠ .

(٣) المراد كتاب «جمهرة نسب قريش وأخبارها» لأبى عبد الله الزبير بن بكار (١٧٢ – ٧٨٨/٢٥٦ – ٨٧٠) وهو ابن أخى أبى عبد الله المصعب بن عبد الله الزبيرى (١٥٦ – ٧٥٤/٢٣٦ – ٨٥٦) صاحب كتاب «نسب قريش» الذى سبقت الإشارة إليه . وقد نشر =

عروة ، قال : كان أول ما أفصح به عمى عبدُ الله بنُ الزبير — وهو صبى — السيف ، وكان لا يضعه من فمه . فكان الزبير بن العوام إذا سمع ذلك منه يقول : أما والله ليكونن له منه يوم ويوم وأيام .

ومن شعره المشهور عنه :

وكم من عدوٍّ قد أراد مساءتى بغَيبٍ ، ولو لاقيتُه لتندّما
كثير الخَنا ، حتى إذا ما لقِيتُه أصرَّ على إثمٍ وإن كان أقسما

وقال أيضا ، أنشده له أبو على الحسن بن رشيق فى كتاب « العمدة » من تأليفه ؛ قال غيره : ويُروى لعبد الله بن الزَّبِير (بفتح الزاى وكسر الباء)[1] :

لا أحسبُ الشرَّ جاراً لا يفارقنى ولا أحُزُّ على ما فاتنى الوَدَجا
وما لقِيتُ من المكروه منزلةً إلا وثقت بأن ألقى لها فرَجا

ويُروى أن معاوية بن أبى سفيان كتب إليه :

رأيتُ كرامَ الناس إن كُفَّ عنهمُ بحلمٍ ، رأوْا فضلاً لمن قد تحلّما
/ولا سيما إن كان عفواً بقدرةٍ فذلك أحرى أن يَجِلَّ ويعظُما [٨ - ا]

= الأستاذ محمود محمد شاكر الجزء الأول من القسم الذى عثرنا عليه منه ، وهو نصف الكتاب تقريباً (القاهرة ١٩٦٢) محققاً تحقيقاً جديراً بكل تقدير وثناء . وقدم له بمقدمة وافية عن الزبير بن بكار وحياته ومؤلفاته ، وقارن بين كتابه فى أنساب قريش وكتاب ٤٥ فى نفس الموضوع ، وقارن كذلك بينه وبين كتاب « جمهرة أنساب العرب » لأبى محمد على بن أحمد ابن حزم . ومن أسف أن القسم الذى ينقل عنه ابن الآبار هنا لم نعثر عليه بعد ، وهو الجزء الثانى عشر من الكتاب — بحسب تجزئة الأصل — وأول الجزء الثالث عشر ، وهو يتناول أخبار عبد الله ابن الزبير (راجع ص ٥ من الكتاب ، وهامش ١) .

(١) واضح أن المراد هنا رجل آخر غير ابن الزبير ، وقد راجعت هذه الفقرة على أصلها فى « العمدة » لابن رشيق (طبعة محيى الدين عبد الحميد ، القاهرة ١٩٣٤) ج ١ ص ٢٤ .

ولستُ بذى لؤمٍ فتعذر بالذى أتيت من الأخلاق ما كان ألأما

وإنى لأخشى(١) أن أنالك بالتى كرهت ، فيخزى الله من كان أظلما

فراجعه ابن الزبير :

ألا سَمِعَ الله الذى أنا عبْدُه وأخزى إلٰهُ الناس من كان أظلما

وأجْرا(٢) على الله العظيم بجُرْمهِ وأسرعَهُ فى الموبقات تقحُّما

أغرَّكَ أن قالوا حليمٌ بقدرةٍ وليس بذى حلمٍ ولكن تَحَلَّما

وأقسمُ لولا بيعة لك لم أكن لأنقُضها ، لم تنج منى مسلَّما

ومما رويته من طريق ابن أبى الحسن بن صخر فى فوائده ، وقرأته على الحافظ أبى الربيع سليمان بن موسى بن سالم الكلاعى بإسناده إلى عبد الله بن المبارك ، قال : حدثنى يونسُ عن الزهرى ، قال : اجتمع مروان وابن الزبير عند عائشة رضى الله عنها ، قال : فذكر مروان بيتاً من شعر لبيد :

وما المرء إلا كالشهابِ وضوئِه يعود رماداً بعد إذ هو ساطعُ

فتعجب منه . قال ابن الزبير : « وما تعجُّبك ؟ لو شئتُ قلتُ ما هو أفضل منه :

ففوِّض إلى الله الأمورَ إذا اعْتَرَتْ فبالله ــ لا بالأقربين ــ تدافعُ »

قال مروان :

وداوِ ضميرَ القلْب بالبِرِّ والتُّقَى ولا يستوى قلبان : قاسٍ وخاشع

(١) فى الأصل : لا أخشى ، والصواب ما أثبتناه . وقد صوبه كذلك على هذا النحو ماركوس مولر ، ص ١٨٧ .

(٢) فى الأصل : وأجرى ، والصواب ما أثبتناه . والمراد أجرأ .

وقال ابن الزبير :

ولا يستوى عبدان : عبد مصَلَّمٌ عُتُــلٌ لأرحام الأقارب قاطع

قال مروان :

وعبدٌ تجافَى جنبُه عن فراشِهِ يبيت يناجى ربَّه وهو راكع

قال ابن الزبير :

وللخير أهل يُعرَفون بهَديهم إذا جمعتْهم فى الخطوب المجامع

قال مروان :

وللشر أهل يُعرفون بشكلهم تشير إليهم بالفجور الأصابع

فسكت ابن الزبير ، فقالت له عائشة : «ما سمعتُ محادلة قط أحسن من هذه ، ولكن لمروان إرث فى الشعر ليس لك» .

---

٥ — مروان بن الحكم ، أبو عبد الملك [٨ - ب]

غزا إفريقيَّة مع ابن أبى سرح ، ووجَّهه إلى عثمان رضى الله عنه ، على ما ذكره ابنُ عبد الحكم حسبما تقدم . وكان ابن أبى سرح قد كتب إلى عثمان يستأذنه فى غزو إفريقيَّة ، فندب عثمانُ الناس بعد المشورة فى ذلك . فلما اجتمعوا أمَّر عليهم الحرْث بن الحكم(١) أخا مروان ، إلى أن يقدموا على عبد الله بن سعد بن أبى سرح بمصر فيكون الأمر إليه .

---

(١) عند النويرى ، نهاية الأرب ، الجزء الخاص بالمغرب ، مخطوط رقم ٢٢ بدار الكتب بالقاهرة ، ورقة ٦٣ ا الحارث

ومن شعر مروان :

اعمل وأنت من الدنيا على حذرٍ واعلم بأنك بعد الموت مبعوثُ
واعلم بأنك ما[1] قَدمت من عملٍ مُحصًى عليك ، وما خَلَّفْتَ موروثُ

وقد أوردت ما دار بينه وبين عبد الله بن الزبير قبل هذا ؛ وهو القائل أيضا بين يدى خلافته عند موت معاوية بن يزيد بن معاوية واضطراب الأمور بالشام :

إنى أرى فتنةً تغلى مراجلُها والمُلك بعد أبى لَيلى لمن غَلَبا

وذكر له الزبير بن بـكّار وغيره رجزاً فى قتل الحسين بن على حين قُدم برأسه على المدينة ، تركتُ ذكره ؛ وكان أخوه عبد الرحمن بن الحـكم من فحول الشعراء .

---

٦ — ابنه عبد الملك بن مروان ، أبو الوليد

غزا إفرِيقِيَّة مع معاوية بن حُدَيْج سنة أربع وثلاثين فى آخر خلافة عثمان ، وبعثه معاوية هذا إلى مدينة يقال لها « جَلُولاَ »[2] فى ألف رجل . « فحاصرها

(١) فى الأصل قد ، وصوباه للمعنى

(٢) حلولا أوحلولاء ، مدينة على بعد ٢٤ ميلاً عن قيروان وكانت مدينة كبيرة فيها حصن بيزنطى قديم ، أصل اسمها Cululs وقد وصفها البكرى بأنها كانت مدينة غنية كثيرة الأشجار والثمار ، وبها قصب السكر (وصف إفريقية ، طبعة دى سلان ، الجزائر ١٩١٠) ص ٣١ و٣٣ و٥٨ وقد ذكرها الإدريسى باسم حَلُولَه ، ص ٢٠ .

عبد الملك أياماً فلم يصنع شيئاً ، فانصرف راجعاً . فلم يسر إلا يسيراً حتى رأى فى ساقة الناس غباراً شديداً ، فظن أن العدو قد طلبهم ، فكرّ بجماعة من الناس لذلك ، وبقى من بقى على مصافّهم ، [وتسرع سرعان الناس] ، فإذا مدينة جَلولاَ قد وقع حائطها ، فدخلها المسلمون وغنموا ما فيها ، [وانصرف عبد الملك إلى معاوية بن حديج] »[1] .

ولعبد الملك فى تمنيه الخلافة وإجابة دعائه بذلك خبر غريب يدخل فى باب الأمانى الصادقة ، وقد رويته عن الحافظ أبى الربيع بن سالم بقراءتى عليه من طريق أبى علىّ بن سُكّرة الصدفى بإسناده إلى الشَّعْبى ، قال : لقد رأيت عجباً : كنا بفناء الكعبة وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير ومصعب بن الزبير[2] وعبد الملك بن مروان . فقال القوم بعد أن فرغوا من حديثهم : ليقم كل رجل منكم فليأخذ بالركن اليمانى/ويسأل الله حاجته ، فإنه يُعطَى من سَعة ؛ قم يا عبد الله [٩ - ا] ابن الزبير فإنك أول مولود وُلد فى الهجرة . فقام فأخذ بالركن اليمانى ثم قال : اللهم إنك عظيم تُرجى لكل عظيم ، أسألك بحرمة وجهك وحرمة عرشك وحرمة نبيك ألا تميتنى من الدنيا حتى تولّينى الحجاز ويسلَّم علىّ بالخلافة ؛ وجاء حتى جلس . فقالوا : قم يا مصعب بن الزبير ، فقام حتى أخذ بالركن اليمانى ثم قال : اللهم إنك رب كل شىء وإليك يصير كل شىء ، أسألك بقدرتك على كل شىء ألا تميتنى من الدنيا حتى تولينى العراق وتزوجنى سُكَيْنة بنت الحسين ؛ وجاء حتى جلس . وقالوا : قم يا عبد الملك بن مروان ، فقام وأخذ بالركن اليمانى فقال : اللهم رب السماوات السبع ورب الأرضين ذات النَّبْت بعد القَفْر ، أسألك بما سألك

---

(١) نقل ابن الأبار هذه الفقرة عن فتوح ابن عبد الحكم (طبعة تورى ، ص ٩٣) وقد راجعتها على أصلها هناك وأكملت نقصها منه .

(٢) ورد فى الهامش مقابل هذا السطر : ومصعب بن الزبير ، مع إشارة يفهم منها أن هذا الاسم ينبغى أن يدرج فى المتن .

عبادك المطيعون لأمرك ، وأسألك بحرمة وجهك ، وأسألك بحقك على جميع خلقك ، وبحق الطائفين حول بيتك ، ألا تميتنى من الدنيا حتى توليني مشرق الأرض ومغربها ، ولا ينازعنى أحد إلا أُتيت برأسه ، ثم جاء حتى جلس . ثم قالوا : قم يا عبد الله بن عمر ، فقام حتى أخذ بالركن اليمانى ثم قال : اللهم إنك رحمان رحيم ، أسألك برحمتك التى سَبقتْ غضبَك ، وأسألك بقدرتك على جميع خلقك ألا تميتنى من الدنيا حتى توجبَ لى الجنة . قال الشعبى : فما ذهبت عيناى من الدنيا حتى رأيت كل واحد منهم أُعطى ما سأل ، وبُشر عبد الله بالجنة ، ورؤيت له . ومن شعر عبد الملك ، وقد هم بقتل بعض أهله ثم صفح عنه :

هممتُ بنفسى هَمَّةً لو فعلتُها لكان كثيراً بعدَها ما ألومُها
ولكننى من أسرةٍ عَبْشَمِيَّةٍ إذا هى هَمَّتْ أدركتْها حُلومُها

ويُروى أنه لما بلغه إسراف الحجاج بن يوسف فى القتل ، وتبذيره الأموال بعد ظهوره علَى عبد الرحمن بن محمد الأشعث ، كتب إليه ينهاه ويتوعده ، وكتب فى أسفل كتابه :

إذا أنت لم تترك أموراً كرهتها وتطلبْ رضاىَ بالذى أنت طالبُهْ
وتخشَ الذى لم يخش مثلك لم تكن كذى الدَّرِّ رَدَّ الدَّرَّ فى الضرع حالبُهْ
/فإن ترَ مِنّى وثبةً أموية فهذا وهذا — كل ذا — أنا صاحبُه [٩ - ب]
وإن ترَ منى غفلة قرشيةً فيارُبما قد غُصَّ بالماء شاربُه
فلا تأمَنَنِّى والحوادثُ جَمَّةٌ فإنك مَجْزِىٌّ بما أنتَ كاسبُه
وإنى لأُغضِى جفنَ عينى على القذى وأُزْوَرُّ بالأمر الذى أنا راكبُه
وأُملِى لذى الذنب العظيم كأننى أخو غفلة عنه وقد جُبَّ غاربُه
فإن آبَ لم أعجل عليه ، وإن أبَى وثبتُ عليه وثبةً لا أراقبُه

فجاوبه الحجاج برسالة وكتب معها :

إذا أنا لم أطلبْ رضاكَ وأتَّقِي أذاكَ ، فيَوْمي لا تُوارَى كواكبُهْ
وما لامرئٍ يعصَى الخليفةَ جُنَّةٌ تقيه منَ الأمرِ الذى هو راكبُه
أسالمُ مَن سالمتَ من ذى مَوَدةٍ ومَن لم تُسالمْه فإنى مُحاربُهُ
إذا قارف الحجاجُ فيك خطيئةً فقامتْ عليه بالصِّياح نوادبُهُ
وإن أنا لم أُدْنِ النصيحَ لنُصحهِ وأُقْصِ الذى دبَّتْ علىَّ عقاربُهُ
وأُعْطِ المواسى [... ...] ترد الذى ضاقت علىَّ مذاهبُه
فمن يتقى بُوسى ويرْعى مودتى ويخشى [الردى] والدهر جم عجائبُه
فأمرى إليكَ اليومَ : ما قُلتَ قُلتُه وما لم تَقُلْهُ لم أقلْ ما يقاربُه
ومهما تُرِدْ منى فإنى أريدُهُ وما لم تُرِدْ منى فإنى مجانبُه
[. .. ...] بى على الرضا مدى الدهر حتى يرجعَ الدَّرَّ حالبُه

والذى أوردته من أبيات فمنقول عن إثبات ، ومجموع من تصنيفات أشتات ؛ وما كان مقولا عليهم ومنحولا إليهم ، فأنا برىء من عهدته .

المائة الثانية

٧ـ أبو جعفر المنصور، عبد الله بن محمد بن على ابن عبد الله بن العباس

دخل إفريقيّة فى أيام بنى أمية — وهو إذ ذاك سوقة — فراراً منهم، وملَكها فى خلافته بعد أخيه أبى العباس السفاح، وخُلع فيها وقتاً، ثم عادت إليه وولاّها الأغلبَ بن سالم التميمى، جدَّ الأغالبة المتداولين مُلكها إلى أن غَلبهم عليها عُبيد الله الشيعى فانقرضوا به.

وكان يقال لأبى جعفر فى صغره «مِقْلاص»، لُقب بذلك تشبيها بالمقلاص من الإبل، وهى الناقة التى تسمن فى الصيف وتهزل فى الشتاء، وكذلك كان أبو جعفر. حكى ذلك أبو الوليد الوَقَّشِى، قال: وهو مقلوب العادة. وليس فى خلفاء بنى العباس أعلم من أبى جعفر المنصور وعبد الله المأمون، ثم بعدهما الرشيد والواثق، ومن متأخريهم المسترشد بن المستظهر[1]؛ وأشعرهم أبو العباس الراضى بن المقتدر.

---

(١) فى الأصل: المسترشد بن المستظهر، والصواب ما أثبتناه. وهو أبو منصور الفضل المسترشد بالله بن أبى العباس أحمد المستظهر بالله، وهو التاسع والعشرون من خلفاء بنى العباس فى بغداد (٥١٢ – ٥٢٩ / ١١١٨ – ١١٣٥).

وأبو جعفر معدود فى الـكَمَلة من الملوك ، وكان يفرط فى دعواه الاطلاع[1] ، ويقرِّط بتقريظ نفسه الأسماع ، فمن قوله فى بعض خطبه : « الملوك أربعة : معاوية وكفاه زِيادُه ، وعبد الملك وكفاه حَجّاجُه ، وهشام وكفاه مواليه ، وأنا ولا كافِىَ لى ! » . ولما عزم على الفتك بأبى مسلم صاحب دولتهم والقائم بدعوتهم — وقد حُذِّر من عاقبة ذلك — كتب إليه عيسى بن موسى بن على ابن عبد الله بن العباس مشيراً عليه بالأناة ، وكان قد شاوره فيه :

إذا كنتَ ذا رأيٍ فـكن ذا تَدَبُّرٍ ... فإن فسادَ الرأى أن يُتَعجَّلا

فقال المنصور يجيبه :

إذا كنت ذا رأيٍ فـكن ذا عزيمةٍ ... فإن فساد الرأى أن يُتَرَدَّدا

ولا تهمل الأعداء يوماً بقدرةٍ ... وبادرهم أن يملـكوا مثلها غدا

وينظر إلى هذا قول عبد الله بن المعتز :

وإنْ فرصةٌ أمكنتْ فى العدا ... فلا تَبْدَ فِعلَكَ إلا بها

[١٠ - ب] / فإن لم تَلِجْ بابَها مسرعا ... أتاك عدوُّك من بابها

وإياك من ندمٍ بعدَها ... وتأميل أخرى ، وأنَّى بها ؟

وقال المنصور :

تَقَسَّمَنى أمران لم أفتتحهما ... بحزمٍ ولم تعرك قُوَاىَ الـكرا كرَ

وما ساور الأحشاء مثلُ دفينةٍ ... من الهم رَدَّتها عليك المصادر

وقد علمتْ أبناء عدنانَ أننى ... لدى ما عرا مِقدامةٌ متجاسر

---

(١) الأصل : الاضطلاع .

وقال أيضا يخاطب محمداً وإبراهيم ابنى عبد الله بن الحسن بن على بن أبى طالب رضى الله عنهم ، حين خرجا عليه بالمدينة والبصرة :

بنى عمِّنا ، لا نَصْرَ عندكم لنا ولكنكمْ فينا سيوفٌ قواطعُ
فلولا دفاعى عنكمْ إذ عجزتمُ وبالله أحمى عنكمُ وأدافع
لكُنتم ذُنَابَى آلِ مروانَ مثلما عَهِدنا كُمُ ، واللهُ معطٍ ومانع

٨ — عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان

الداخل إلى الأندلس ، ويقال له « صقر قريش » — سماه أبو جعفر المنصور بذلك — وكنيته أبو المطرِّف ، وهو الأشهر فى كنيته ، وقيل أبو زيد ، وقيل أبو سليمان .

هرب فى أول دولة بنى العباس إلى المغرب ، وتردد بنواحى إفرِيقِيَّة ، وأقام دهراً فى أخواله « نَفْزَة » من قبائل البربر ، وكانت أمه منهم « راح » ، ثم لحق بالأندلس فى غرة شهر ربيع الأول سنة ثمان وثلاثين ومائة ، وهزم أميرَها يوسف ابنَ عبد الرحمن الفِهْرِىَّ فى يوم الخميس لتسع خلون من ذى الحجة من هذه السنة ، واستوسقت له الخلافة ليومٍ[1] آخر يومَ الجمعةِ يومَ الأضحى وهو ابن ست وعشرين سنة .

ودعا لنفسه عند استغلاظ أمره واستيلائه على دار الإمارة قُرْطُبَة ، ويقال إنه أقام أشهراً دون السَّنة يدعو لأبى جعفر المنصور ، متقيِّلا فى ذلك يوسفَ

(١) أى أن الأمر استقر له فى مدى يوم واحد بعد انتصاره على يوسف الفهرى: انتصر عليه يوم الخميس ٩ ذى الحجة ١٣٨ واستقر له الأمر فى نهاية اليوم التالى وهو يوم الجمعة ١٠ ذى الحجة ١٣٨ .

١١ - ١] الفِهْرِىّ الوالى قبله ، إلى أن أفرد نفسه / بالدعاء ؛ ويقال إن عبد الملك بن عمر ابن مروان بن الحَكَم[١] أشار عليه بذلك عند خلوصه إليه فقبله ؛ إلا أنه لم يَعْدُ اسمَ الإمارة ، وسلك الأمراء من وَلَدِه سُنته فى ذلك إلى عهد عبد الرحمن بن محمد الناصر لدين الله ، فهو الذى تَسَمَّى بالخلافة بعد سنين من سلطانه ، ودُعِى بأمير المؤمنين لما استفحل أمرُه واستبان له ضعف ولد العباس وانتثار سلطانهم بالمشرق ، وذلك فى آخر خلافة المقتدر بالله جعفر بن أحمد المعتضد منهم . ذكر ذلك أبو مروان حيّان بن خلف بن حيّان صاحب « تاريخ الأندلس » .

ومن شعر عبد الرحمن بن معاوية يتشوق معاهده بالشام ، أنشده الحُمَيْدِىّ فى تاريخه :

أيها الراكبُ الميممُ أرضى أقْرِ من بعضىَ السلامَ لبعضِ[٢]
إن جسمى كما علمتَ بأرضٍ وفؤادى ومالكيه بأرضِ
قُدِّرَ البينُ بيننا فافترقنا وطوى البينُ عن جفونىَ غُمضى
قد قضى الله بالفراق علينا فعسى باجتماعنا سوف يقضى

وقال أيضاً فى حَيْوَة بن مُلامِسٍ الحَضرمى[٣] من جند حمص النازلين إشبيلية ، وكانت له منه منزلة لطيفة فى أول ملكه :

---

(١) راجع : المصعب الزبيرى ، نسب قريش ، ص ١٦١ . وابن حزم ، جمهرة أنساب قريش (بتحقيق ليڤى پروفنسال ، القاهرة ١٩٤٨) ص ٨٠ .

(٢) الأصل : إلى بعض ، والتصويب من « المعجب » لعبد الواحد المراكشى ، طبعة دوزى ، ص ١٢ .

(٣) كذا ورد الاسم فى « البيان المغرب » أيضا (طبعة ليڤى پروڤنسال وكولان ، لايدن ١٩٥١) ٢/٥١ . ولم يظل حيوة على ولائه لعبد الرحمن ، إذ أنه ثار عليه حوالى ١٤٥ / ٧٦٢ وتغلب على إشبيلية واستجمَّة وأكثر الغرب ، فخرج إليه عبدالرحمن وقاتله قتالا عنيفاً بضعة أيام . وقد كاد عبد الرحمن أن ينهزم أول الأمر ، ولكنه ثبت حتى ملك ناصية المعركة فانهزم حيوة ومن معه من أهل اليمن ، وهرب إلى ناحية قُرَيْش شمال قرطبة ، ومن هناك كتب إلى عبد الرحمن =

فلا خير فى الدنيا ولا فى نعيمها إذا غاب عنها حَيْوَةُ بنُ مُلامِسِ
أخو السيف ، قارى الضيف ،حقًّا يراهما عليه ، ونَافِى الضيمِ عن كلِّ بائسِ (١)

وحكى عيسى بن أحمد الرازى أن عبد الرحمن بن معاوية — أولَ نزوله مُنْيَةَ الرُّصَافة بقُرْطُبَة واتخاذه لها — نظر إلى نخلة مفردة ، فهاجت شجنه وتذكر بلد المشرق فقال بديهاً :

تَبَدَّتْ لنــا وَسْطَ الرُّصَافةِ نخلةٌ تناءتْ بأرض الغرب عن بلد النخلِ
فقلتُ : شَبِيهِى فى التغرُّب والنَّوى وطولِ التنائى عن بَنِيَّ وعن أهلى
نشأتِ بأرضٍ أنتِ فيها غريبةٌ فمثلُكِ فى الإقصاء والمُنتَأى مِثلى
سَقَتْكِ غوادى المُزْنِ من صَوْبِها الذى يَسُحُّ ويستمرى السِّمَاكَيْنِ بالوَبْلِ

/ وقال أيضاً فيها : [١١ - ب]

يا نخلُ أنتِ غريبةٌ مثلى فى الغرب نائية عن الأصلِ
فابكِى ، وهل تبكى مُـكَبَّسَةٌ عجماء لم تطبع على خَبْــل ؟
لو أنها تبـكى ، إذاً لبـكت ماءَ الفُرات ومَنْبِتَ النخل
لـكنها ذَهَلَتْ ، وأذهلنى بُغْضِى بنى العباس عن أهلى

وقد قيل إن الأبيات الأربعة الأول لعبد الملك بن بشر بن عبد الملك بن بشر بن مروان بن الحـكم ، قالها عند دخوله الأندلس فراراً من بنى العباس فى صدر أيام الأمير عبد الرحمن بن معاوية . وقيل فى الأبيات الأخيرة إنها لعبد الملك

= يسأله العفو عنه . وثورة حيوة بن ملامس حلقة من صراع عبد الرحمن الداخل مع اليمنيين الذين ظنوا بعد وصوله إلى الإمارة بفضلهم (مع البربر) أن الدولة ستكون لهم ، وساءهم أن وجدوا عبد الرحمن يريد أن ينتهج السياسة التى تتفق ومصالح العرش الذى أقامه ، سياسة إنصاف ومساواة بين السكان جميعاً . وقد انتهت ثورات اليمنيين بعبد الرحمن إلى الانصراف عنهم جملة ، والميل إلى الشامية وتفضيلهم .

(١) كذا فى الأصل ، وقد قرأها دوزى ، ص ٣٤ : يائس .

ابن عمر بن مروان بن الحكم ، وقد اجتاز فى قصده قرطبة ، حضرة الأمير عبد الرحمن بن معاوية — [على] ما حكى الحافظ — بمدينة إشبيلية ، فرأى فى موضع منها — يعرف بـ « النخيل » إلى اليوم — نخلة مفردة ، فلحقته[1] رقة عند النظر إليها ، وقال بديهاً الأبيات المذكورة .

ومما يرُد هذا القول ويقوى نسبتَها — أعنى الأبيات الأخيرة — لعبد الرحمن ابن معاوية ، ما حكى الحافظ أبو القاسم خلف بن عبد الملك بن بشكوال فى تاريخه ، وقرأته على القاضى أبى الخطاب أحمد بن محمد بن واجب القيسى بمدينة بلنسية عنه قراءةً عليه بحضرة قرطبة ، قال : قال أبو بكر محمد بن موسى بن فتح ، يُعرف بابن الغرّاب[2] : دخلت يوماً على أبى عثمان بن القزّاز وهو يعلّق فقلت له : رأيت الساعة فى توجهى إليك القاضى والوزراء والحكامَ والمدولَ قد نهضوا بجمعهم إلى حيازة[3] الجنة المعروفة بـ « رَبَنَالِش »[4] ، وهبها هشام للمظفر بن أبى عامر . قال : فقال لى ابن القزّاز : إن هشاماً لضعيف ، هذه الجنة المذكورة

---

(١) العبارة ابتداء من « حضرة الأمير » إلى هنا وردت فى الهامش بخط مخلف مع إشارة فى المتن إلى موضعها حيث جعلناها . وعند كلمة « الحافظ » كتب نفس الكاتب كلمة «صح» دون أن يعين اسم الحافظ الذى كتب عنده هذا اللفظ ؛ ويغلب على ظنى أن المراد هنا أبو يوسف عمر بن عبد البر .

(٢) كذا فى الأصل ، وقد جعلها دوزى ، ص ٣٥ · القَرّاب ، والصحيح ما أثبتناه[؟].

(٣) الأصل حاره ، وقد قرأها دوزى حيارة وفسرها بالخندق أو الفصيل (**une digue**) اعتماداً على ما ذكره فَيَرْز Weijers فى شروحه على القطع التى نشرها من كلام ابن خاقان بعنوان *Loci Ibn Khacanis* ص ٢٣ وتعليق رقم ٦٦ ص ٨٣ .

(٤) الأصل : رُبْنالِس ، وقرأها دوزى رَنُبالش والصحيح رَبَنالِش وهى **Rabanales**، ولا زال هذا الاسم يطلق على منطقة حدائق على خمسة كيلومترات شمال شرقى قرطبة .
cf : LÉVI PROVENÇAL, *L'Espagne musulmane au X^e siècle*, (Paris, 1932), p. 225, note 3

وقد روى نفس الخبر ابن بشكوال فى الصلة فى ترجمة سعيد بن عثمان بن أبى سعيد بن محمد ابن سعيد بن عبد الله بن يوسف البربرى اللغوى الذى يعرف بابن القزاز المذكور هنا (رقم ٤٦٢ ص ٢٠٦ — ٢٠٧) .

هى أول أصل اتخذه عبد الرحمن بن معاوية ؛ وكان فيها نخلة أدركتُها بسنٍّ ، ومنها توالدت كل نخلة بالأندلس . قال : وفى ذلك يقول عبد الرحمن بن معاوية ، وقد تنزه إليها ، فرأى تلك النخلة فحَنَّ : « يا نخل أنت غريبة مثلى » ، وذكر الأبيات إلى آخرها .

وحكى أبو عمر أحمد بن محمد بن فرج صاحب « كتاب الحدائق » المؤلَّف للحَكم المستنصر بالله من أشعار الأندلسيين ، قال : بلغنى أن بعض الوفود من قُريش كتب إلى الإمام عبد الرحمن بن معاوية — رحمه الله — يستعظم حقه عليه بالرحم ويستقل حظه منه بالمستطمع[1] ، فوقَّع فى ظهر كتابه :

/ شتان[2] من قام ذا امتعاضٍ مُنْتَضِيَ الشفرتين نَصْلاَ [١٢ - ا]
فجاب قفراً ، وشق بحراً مُسَامياً لجــةً ومَحْلا
فشاد مجداً وبَزّ مُلكاً[3] ومِنبراً للخطاب فصلا[4]
وجَنَّد الجندَ حين أَوْدى ومصَّر المِصرَ حين أخلى[5]
ثم دعا أهـــله جميعاً[6] حيث انتأَوْا ، أنْ : هلمّ أهلا[7]

(١) كذا فى الأصل . وقد قرأها دوزى (ص ٣٥) بالمستطيع ، وهى قراءة أركُّ مما فى الأصل . وفى نفس المناسبة يقول ابن عذارى : « ومن شعره البديع الرائق ، ماكتب به إلى بعض من طرأ عليه من قريش ، وكان قد استقل جرايته (فى نسخة : جزايته) واستطال بقرابته ، وسأله الزيادة له والتوسعة ، فكتب إليه بهذه الأبيات . . » . البيان المغرب ، ٢/٥٩ .

(٢) قرأها دوزى هنا : سيان (ص ٣٥) وكذلك قرأ ليڤى پروفنسال وكولان . انظر البيان المغرب ، ٢/٥٩ .

(٣) ورد هذا الشطر فى صور شتّى . فى نفح الطيب : دبر ملك وشاد عزا .
وعند ابن عذارى (٢ / ٥٩) : فبزملكا وشاد عزا .
وفى مخطوطة أخرى من البيان : فشد ملكا وشاد عزا .

(٤) عند ابن عذارى (٢ / ٥٩) : وناثرا للخطاب فصلا .

(٥) عند ابن عذارى (٢ / ٥٩) : وأجلا .

(٦) فى نفح الطيب : ثم دعا أهله إليه .

(٧) الأصل : انتوَوْا ، وكذلك عند ابن عذارى .

فجاء[1] هذا طريدَ جوعٍ شريدَ سيفٍ أباد قتلا
فنال أمناً ، ونال شِبَعاً وحاز مالاً ، وضمّ شملا
ألم يكن حقُّ ذا على ذا أعظمَ من منعمٍ ومولَى ؟

وبعض هذا الشعر عن ابن حيّان ، وأوله عنده :

شتان من قام ذا امتعاضٍ فشال ما قلّ[2] واضمحلاّ
ومن غـدا مُصْلِتاً لعزمٍ مُجرَّداً للعِـداة نصلا
فجاب قفراً ... البيت .

وبعده :

* فبزَّ مُلكاً وشاد عزّاً *

إلا أن ابن حيّان ذكر عن معاوية بن هشام الشَّبِينسي[3] ، أن جُلساء عبد الرحمن القادمين عليه من فَلّ[4] أهله بالشام ، حدثوه يوماً ما كان من

---

(١) الأصل : فجاد .

(٢) الأصل : قال ، وقد صوبه دوزى كما أثبتناه فى المتن ، وهو أصح .

(٣) هو معاوية بن محمد بن هشام بن الوليد ابن الأمير هشام بن عبد الرحمن بن معاوية القرشي المرواني ، من أهل قرطبة ، يكنى أبا عبد الرحمن ويعرف بابن الشَّبانِسِيَّة ، من جلة الفقهاء والعلماء على أيام الأمير عبد الرحمن الأوسط ، توفى سنة ٢٩٨ / ٩١٠ – ٩١١ (ابن الأبار ، التكملة ، رقم ١٠٧٧ ص ٣٧٩) . ويعرف أيضاً بالشَّبانِسِي ، وهى نسبة حملها نفر من سلالة هشام الربضى ثانى أمراء بنى أمية فى الأندلس ، أول من نعرفه منهم معاوية هذا ثم ابن أخيه معاوية بن هشام بن محمد بن هشام ، وهو مؤرخ ومؤلف معروف ينسب إليه كتاب فى تاريخ دولة بنى مروان فى الأندلس وكتاب فى نسب العلوية وغيرهم من قريش سماه بـ «التاج السنى فى نسب آل على» (انظر التكملة لابن الأبار ، رقم ١٠٧٨) . وقد ذكر ابن حزم فى « الطوق » من أبناء هذا البيت أبا محمد قاسم بن محمد القرشى المعروف بالشبانسى . وقد ذهب سانشيث ألبورنوث إلى أن الشبانسى معرب عن sapientia أى العلم ، ولكن الغالب أنه نسبة إلى موضع يسمى شَبانِس ، وواضح أن الربط بين الشبانسى والشبانسية ولفظ سابِينْتْيا مفتعل .

(٤) الأصل : جل ، وقد قرأها دوزى : من جوالى أهله (ص ٣٦) .

الغَمْر بن يزيد بن عبد الملك بن مروان ابن عمه أيامَ محنتهم ، وكلامه للعباس الساطى بهم — ونَسَب ذلك إلى عبد الله بن على ؛ وفى « الأوراق » للصولى أن السفاح عبد الله بن محمد بن على تولى قتل الغَمْر ، وقد فخر فى مجلسه بمناقب قومه — وكَثَّر القوم فى وصف ذلك وعَجُّوا به ، فكأن الأمير عبد الرحمن احتقر ذلك فى جنب ما كان منه هو فى الذهاب بنفسه لاقتطاع قطعة من مملكة الإسلام عن عَدُوِّه ، وقام من مجلسه فصاغ هذه الأبيات بديهةً .

قال ابن الفرج[1] : وأتاه فى بعض غزواته آتٍ ممن كان يعرف كلفَه بالصيد ، فأخبره عن غرانيق واقعة[2] فى جانب من مضطَرَب العسكر وحرَّكه إلى اصطيادها ، فقال :

/ دعنى وصيد وُقَّـعِ الغرانقِ ... فإن هَمِّى فى اصطياد المارقِ [١٢ – ب]
فى نفقٍ إن كان أو فى حالِقِ ... إذا التظتْ لوافحُ الضوائقِ
كان لِفَاعِى[3] ظلَّ بندٍ خافقِ ... غَنِيتُ عن روضٍ وقصرٍ شاهقِ

(١) المراد ابن فرج الجيانى صاحب «كتاب الحدائق» وهو أبو عمر أحمد بن محمد بن فرج الجيانى من أهل جيان ونزيل قرطبة ، وكان من شعراء عصر الحكم المستنصر ، وكان أخواه سعيد وعبد الله أيضاً شاعرين . ولا نعرف عن حياته إلا ماذكره ابن خاقان فى المطمح (القاهرة ١٣٢٥) ص ٨٦ من أنه كان عنيف الخلق شديد الزهو بنفسه خليعاً ، وقد قربه الحكم المستنصر ثم بدرت منه بادرة دفعت الحكم إلى إيداعه السجن فظل فيه إلى أن مات . وقد ألف ابن فرج الجيانى كتابه معارضاً لكتاب الزهرة لمحمد بن داوود الأصفهانى وإظهاراً لفضل أهل الأندلس على المشارقة .

انظر : الضبى ، بغية ، رقم ٣٣١ . المقرى ، نفح الطيب (طبعة دوزى وكريل ورايت ودوجا) ٢/٢٩٦ و٤٥٢ .

cf : ELIAS TERÉS, *Ibn Faraǧ de Jaén y su Kitāb al-Ḥadā'iq*. Al-Andalus, vol. XI (1946) fasc. 1, pp. 131 - 157.

(٢) قرأ دوزى : واقفة .

(٣) اللفاع والملفعة ما تُلُفِّع به من رداء أولحاف أوقناع ، قال الأزهرى : يجلل به الجسد كله كساءً كان أوغيره (اللسان : ١٠/١٩٦) .

بالفقرِ والإيطانِ بالسرادقِ فقل لمن نام على النمارق :
إن العلا شُدَّتْ بهمٍّ طارقِ فاركبْ إليها ثَبَجَ المضائق
أوْلا ، فأنت أرذل الخلائقِ

٩ — ابنه هشام بن عبد الرحمن بن معاوية

وَلِيَ الخلافة بالأندلس بعد أبيه يوم الأحد غرة جمادى الأولى من سنة إحدى وسبعين ومائة . وكانت وفاة أبيه وهو بمَارِدَة يوم الثلاثاء لست بقين من ربيع الآخر ، وبقرطبة وُلد له هشام هذا لأربع خلون من شوال سنة تسع وثلاثين ومائة ؛ ويعرف بـ « الرِّضا » لعدله وفضله ، ويكنى « أبا الوليد » . واستوزره أبوه عبدُ الرحمن وأخاه كبيرَه سليمان المولودَ بالشام تنويهاً بحالهما ، وأخذهما بالركوب إلى القصر ومشاهدة مجالس مشورته . وكانا يركبان متداولين ومتناوبين لا يجتمعان : فإذا كان يوم هشام ، تأهب حاضرو المجلس من كبار أهل المملكة [... ...][1] والإفاضة فى الحديث إلى إنشاد شعر أو ضرب مَثلٍ أو ذكر يوم من أيام العرب أو ذكر حرب أو اجتلاب حيلة أو حكاية تدبير أو إحماد سيرة ؛ وإذا كان يوم سليمان خلا من ذلك كله ، وانبسط الحاضرون فى غث الأحاديث وأخذوا فى الدعابة .

ويروى أن رجلا يعرف بالموّارى دخل على هشام فى حياة أبيه عبد الرحمن ابن معاوية — وهو مرشح للخلافة — فقال له إن فلاناً مات عن ضيعة تعود بكذا وكذا من الغلة ، وأنها تباع فى دَيْنٍ أو عن وصية ، وهى ناعمة مثمرة وطيبة الأرض مخصبة ، وحضه على اشترائها . فقال له : « أنا أريد أمراً إن بلغتُه

(١) أسقط الناسخ هنا شيئاً ولم يترك بياضاً .

غَنِيتُ عنها ، وإن قُطع بى دونه خسرتُها ؛ ولَاصطناع رجل أحب إلىّ من اكتساب ضيعة » . فقال له الهوّارى : / فاصطنِعنى بها تجد أكرم مصطنع » . [١٣-١]
فأمر بابتياعها[1] ، فأشار بعض من حضر إلى أن الاستعداد بالمال أعون على درك الآمال ، فأطرق عنه ثم قال :

البذلُ ـ لا الجمعُ ـ فطرةُ الكرمِ فلا تُرِدْ بىَ ما لم تُرِد شِيمَى
ما أنا من ضيعةٍ وإن نَعُمَتْ ؟ حسبىَ اصطناعُ الأحرار بالنِّعَمِ
مُلكُ الورى ، والعبادِ قاطبةً ـ لا مِلكُ بعض الضياع ـ مِن هِمِى[2]
تفيض كفى فى السلم بَحْرَ ندًى وفى سجال الحروب بحرَ دمِ
تزلُّ عن راحتى البدور ، وما تمسك غير الحسام والقلم

لم أجد لهذا الملك الأمجد — مع نشدان ضالة كلامه — غير هـذا المُنشَد . وإن كان قليلا فـكفى دليلا على سَرَفِ الحِباء وشرف الحوباء ، حتى كأن أعشى همْدان سمع بطَوْله فاعتمده بقوله :

رأيتُك أمْسِ خيرَ بنى لُؤَىّ وأنت اليومَ خيرٌ منك أمسِ
وأنت غداً تزيد الخيرَ ضِعفاً كذاك تَزيدُ سادةُ عبدِ شمسِ

---

١٠ — ابنه الحكم بن هشام المعروف بالرَّبَضى ، أبو العاصى

وَلِىَ بعد أبيه يوم الجمعة لأربع عشرة خلت من صفر سنة ثمانين ومائة . وكان شجاعاً باسلاً ، أديباً مفتنًّا ، خطيباً مفوّهاً ، وشاعراً مجوِّداً ، تُحذر صولاتُه ، وتُستندر أبياتُه .

---

(١) السياق يقتضى هنا أن تقرأ : بابتياعها له .

(٢) الأصل : همم .

وهو الذى أوقع بأهل « الرَّبَضِ » فنُسب إليه ، وأمر بهدمه وتعطيله ، وصيَّر ذلك وصيةً فيمن خلفه وعهداً على بنيه ما كان لهم سلطان بالأندلس . فلم يُعْمَر ولا اختُطَّت فيه دار إلى آخر دولتهم ، ثم بَعدها إلى أن ملَكَ الرومُ قرطبة يوم الأحد الثالث والعشرين من شوال سنة ثلاث وثلاثين وستمائة ، وأقام على ذلك نحواً من أربعمائة سنة وثلاثين سنة ؛ ولا أعلمه إلا كذلك إلى اليوم .

وكانت وقعة الرَّبَض الشنعاء يوم الأربعاء النحِسة لثلاث عشرة خلت من [١٣ – ب] شهر رمضان سنة اثنتين ومائتين فى آخر / خلافة الحَكم ، ويومَ الخميس بعده أمر بهدم الرَّبَض القبلى الذى منه نشأت الفتنة ، فأعيد بطحاء مزرعة ، بعد أن قتل من أهله مقتلة عظيمة وأسر خلقاً جمًّا ، صَلب منهم نحو ثلثمائة صُفُّوا من إزاء « باب القنطرة » إلى آخر « المُصَارَة »(١) مع ضفة النهر ، لم يُرَ فيما سلف مُمَثَّلون أكثر منهم عدداً ولا أهول منظراً . وتمادى القتل والنهب لمنازلهم والتتبع لمستَخفِيهم ثلاثة أيام ، لم تُقَلْ لمن عُثِرعليه منهم عثرة ، وجرَتْ عليهم خلالَها مِحن لا تضبِطُها الصفة . وكفَّ الحَكم عن الحُرَم ووصَّى بهن فأجمل فى ذلك ما شاء .

---

(١) باب القنطرة ، باب من أبواب سور قرطبة ، وكان قريباً من القنطرة – والمراد قنطرة الوادى ، أى الوادى الكبير – وهى القنطرة التى كانت تصل قرطبة بربضها الواقع على الضفة الأخرى من النهر ، وهو ربض سقندة ، معرب من اللاتينى Secunda . وكان هذا الربض مسكن العمال وأهل الأسواق . وفى هذا الربض قامت الثورة على الحكم بن هشام ، وانجلت عن هزيمة الثائرين وطرد أهله من الأندلس ، وهدم بيوته وتحويل جزء منه إلى مدافن عرفت بمقبرة الربض . ولم يعمر هذا الموضع إلا بعد أيام المسلمين ، ويقوم فيه اليوم حى من أحياء قرطبة الحالية يعرف باسم حى الروح المقدس Barrio del Espiritu Santo ، وعلى مدخل هذا الحى ، فى مواجهة القنطرة يقوم الحصن المعروف بحصن قلهرة Castillo la Calahorra وقد أنشىء بعد أيام المسلمين . أما المُصارة Al-Musara فكان قبل الفتح العربى ضاحية قريبة من قرطبة إلى جنوب غربى البلد على ضفة النهر ، ثم اتصلت بها ، وأصبحت جزءاً منها ، ولكنها ظلت خارج السور .

ولما انقضت الأيام الثلاثة أمر برفع القتل وتأمين الفَلّ ، على أن يخرجوا من حضرته قُرْطُبة ، فساروا عن أوطانهم كُلٌّ بحسب ما أمكنه . واستمروا ظاعنين على الصعب والذَّلول ، فى يوم الأربعاء لعشرٍ بقين من شهر رمضان المؤرخ ، متفرقين فى قَصِىِّ الكُوَر وأطراف الثغور . ولحق بجمهورهم بطُلَيْطِلة لمخالفة أهلها الحَكَمَ ، ولجأ آخرون إلى سواحل بلاد البربر . وأَصْعَدَت منهم طائفة عظيمة — نحو الخمسة عشر ألفاً — فى البحر نحو المشرق ، حتى انتهوا إلى الإسكندرية ، وذلك فى أول ولاية عبد الله المأمون بن الرشيد ، فَعَازَّهُم أهلُها وذهبوا إلى إذلالهم ، فأبوا الضيم وثاروا بهم فغلبوهم ، وبذلوا السيف فيهم ، وقتلوا كثيراً منهم وسَطَوا بهم سطوة منكرة ، وملكوا الإسكندرية مُدَيدةً . إلى أن ورد عبدُ الله بن طاهر أميراً على مصر من قِبل المأمون ، فصالحهم على التخلى عنها على مالٍ بذله لهم ، وخيَّرهم فى النزول بحيث شاءوا من جزائر البحر ، فاختاروا جزيرة إقريطش من البحر الرومى . وكانت يومئذ خالية من الروم ، فاحتملوا إليها بفِتْنَتِهم ، ونزلوها فاعتمروها ، وجاءهم الناس من كل مكان فأوطنوها معهم .

وحكى ابنُ حيّان ، عن أبى بكر بن القوطية وغيره ، أن الحَكم غرَّب فى بأساء حربه هذه — عندما حَمِىَ وَطيسُها وأعضل[1] خَطْبُها — بنادرةٍ من نوادر الصبر والتوطين على الموت ما سُمع لأحدٍ من الملوك مِثلُها : وذلك أنه فى مقامه بالسطح[2] ، وعند بصره باشتداد الحرب وجُثوم الكَرْب وسماعه قعقعة السلاح واتياء الأبطال ، دعا بقارورةِ غاليةٍ لتُدنَى منه ، فتوانى بها عنه

---

(١) الأصل : أعظل ، ولم أجد له معنى هنا فعدلته على ما أثبت فى المتن .

(٢) يريد سطح القصر ، وكان يرقب منه جماهير أهل الربض التى أقبلت تهاجه . وسطح القصر كثير الورود فى أخبار المروانيين الأندلسيين .

[١٤ - ا] خادمه المسمى « يَزِنْت »[١] ، ظنًّا منه / أنه لهج في منطقه ، فصاح به وزجره . — وفي رواية أخرى : فكأنَّ الخادمَ شَكَّ في طلبته واتهم سمعَه ، فتوقف عن المضي لأمره ، فصاح به الحكم : انطلِقْ يا ابن اللخناء فعَجِّلْ — فجاءه بالقارورة فأفرغها على رأسه ولحيته ، ولم يملك الخادم نفسه أن قال له : « وأيةُ ساعةِ طيبٍ هذه يا مولاي فتستعمله ، وقد ترى ما نحن فيه ؟ » فقال له : « اسكت لا أمَّ لك ! من أين يَعرف قاتلُ الحكمِ رأسَه من رأسِ غيره إذا هو حزه ، إن لم يفرق الطيب بينهما ؟ » . ثم استَلْأَم للحرب ، وأمر بتفريق السلاح والخيل على أجناده ، وأنهضهم لقتال من جاش به ، بعد أن كَتَّبهم كتائب قَوَّد عليها كباراً من قواده وأهل بيته ، فانهزمت العامة بعد قتال شديد ، ولم تكن لأحد منهم كَرَّة ؛ وكانوا كالذباب[٢] كثرة .

قال : ولم ينل الحكم بعد وقيعة الرَّبَض حلاوة العيش ، وامتُحِن بعلة صعبة طاولته أربعة أعوام ، فلَّتْ غَرْبَه وأطالت ضَنَاه ، واحتجب فيها آخِرَ مدته واستناب ولده عبد الرحمن في تدبير ملكه ، فمات على توبةٍ من ذنوبه وندمٍ على

---

(١) كذا ورد الاسم في الأصل ، وورد في الأخبار المجموعة « بزنت » بالباء . وقد ذهب دوزي إلى أن يَزَنْتْ أويَزَنْتُ هو الصورة العربية لاسم أيبيرى رومانى : Jacinto ، ولا زال هذا الاسم مستعملا في إسبانيا إلى اليوم ، وهو مأخوذ من اللفظ اليونانى Hyacinthe ومعناه « ياقوت » . أما ريبيرا Julián Ribera فقد قرأه بالباء وكتبه في الترجمة الإسبانية للأخبار المجموعة Vicent وهى الصورة القطلونية للاسم المعروف Vincent . والقراءتان مقبولتان .

cf : DOZY, *Histoire des Musulmans d'Espagne jusqu'à la conquête de l'Andalousie par les Almoravides.* Nouvelle édition revue et mise à jour par E. Lévie-Provençal, Leyde, 1932 vol. I, p. 298 et note.

الخشنى ، تاريخ قضاة قرطبة ، بتحقيق خليان ريبيرا ، مدريد ١٩١٤ . مقدمة الترجمة الإسبانية ص ٢١ .

(٢) في الأصل : كالدبا ، وهكذا تركها دوزى ، ص ٤١ .

ما اقترف منها بين صلاتى الظهر والعصر من يوم الخميس لأربع بقين من ذى الحجة سنة ست ومائتين[1] .

ومن شعره فى ذلك يعذر نفسه بالدفاع عن ملكه والحماية لسلطانه ، وهو من أحسن شعر قيل فى معناه :

رَأبتُ[2] صدوعَ الأرضِ بالسيفِ راقِعاً[3] وقِدْماً لأمتُ الشَّعبَ مُذْ كنتُ يافعاَ
فسائلْ ثغورى : هل بها اليومَ ثُغرةٌ أبادرها مُستَنْضِيَ السيفِ[4] دارعاَ
وشافِهْ على[5] الأرض الفضاء جماجماً كأقحافِ شِريانِ الهَبيد لَوامعا
تُنْبِئْكَ أنى لم أكن فى قِراعهمْ بِوانٍ ، وقِدماً[6] كنتُ بالسيفِ قارعا
وإنى إذا حادوا حذاراً[7] عن الردى فلستُ أخا حَيدٍ عن الموت جازعا
حَمَيْتُ ذِمارى فانتهكْتُ ذِمارَهمْ ومَن لا يُحامى ظلَّ خَزْيانَ ضارعا

(١) كانت ثورة الربض – أو هيج الربض ، كما تسمى فى النصوص – بعيدة الأثر فى سلوك الحكم الربضى بصفة خاصة وسياسة خلفائه من بنى أمية الأندلسيين حيال أهل قرطبة وشعب الأندلس بصفة عامة . فأما الحكم فقد اتعظ بما وقع خلالها فلم يعد إلى الاستبداد والعسف والاستخفاف بالناس ، كما كان يفعل قبلها ، لأنه عرف أن سلوكه الأول واستخفافه بالدماء هما سبب هذه الفتنة الكبيرة ، ثم إن إسرافه فى القتل وإجلاء أهل الربض عن دورهم ثم هدمه وتحويله إلى أرض زرع ، كل ذلك كان بعيد الأثر فى نفسه ، فال إلى التقى للتكفير عما اقترف . وقد ظل على ذلك حتى توفى فى ٢٥ ذى الحجة سنة ٢٠٦ / ٢١ مايو ٨٢٢ . وأما بالنسبة لسياسة خلفائه فقد تعلموا احترام الناس وحقوقهم وسلكوا حيالهم سياسة لين وفهم واحترام ، فلم يقع مثل هيج الربض بعد ذلك .

(٢) قرأها دوزى : رأيت .

(٣) فى النفح : راقما .

(٤) فى النفح : العزم .

(٥) فى الأصل : مع .

(٦) فى النفح : وإنى .

(٧) فى النفح : جزاعا .

ولمّا تساقَينا سِجالَ حُروبنا سَقَيْتهمُ سَجْلاً[١] من الموتِ ناقعا
وهل زِدتُ أنْ وفّيتُهمْ صاعَ قَرْضِهِمْ فلاقَوْا[٢] منايا قُدِّرتْ ومصارعا
[١٤-ب] / فهاكَ بلادى[٣] إننى قد تركتها مِهاداً ، ولم أترك عليها منازعا

قال عثمان بن المثنّى النحوى[٤] المؤدب : قدم بعد الوقعة علينا عباس بن ناصح[٥] قُرْطُبَةَ أيامَ الأمير عبد الرحمن الحَكم ، فاستنشدنى شعرَ الأمير الحَكم فى الهَيْج فأنشدته إياه ، فلما بلغت إلى قوله :

وهل زدتُ أن وفيتهم صاع قرضهمْ فلاقَوْا منايا قُدِّرتْ ومصارعا

قال عباس : « لو أنّ الحَكم يَخْشَى[٦] الخصومة بينه وبين أهل الربض لقام بعذره فيهم هذا البيت » . وفى رواية[٧] : إذا كانت الخصومة بينه وبين أهل الربض أجَرْته[٨] ، فإن هذا البيت لَيُحاجِجُ عنه يوم القيامة .

(١) النفح : سمًّا . والسَّجْل الدلو الضخمة المملوءة ماء (اللسان : ١٣/٣٤٦) .
(٢) النفح : فوافوا .
(٣) الأصل : سلاحى ، والتصويب من النفح .
(٤) عثمان بن المثنى من أهل قرطبة ، يكنى أبا عبد الملك ، من أهل الأدب والنحو. رحل إلى المشرق « فلقى جماعة من رواة الغريب وأصحاب النحو والمعانى ، منهم محمد بن زياد الأعرابى ، أخذ عنه وعن غيره ، وقرأ على حبيب بن أوس (الطائى ، وهو أبو تمام) وأدخله الأندلس رواية عنه ، وأدب أولاد الإمام عبد الرحمن بن الحكم وأولاد محمد . وعمّر إلى أن بلغ ٩٩ سنة ، وتوفى رحمه الله سنة ٢٧٣ » (٨٨٧ م) ابن الفرضى ، علماء ، رقم ٨٨٩ ص ٢٤٩ .
(٥) عباس بن ناصح الثقفى الجزيرى نسبة إلى الجزيرة الخضراء ، إذ أن الحكم الربضى ولاه قضاءها . كان شاعراً نحوياً مؤدباً ترجم له ابن الفرضى (رقم ٨٧٩ جـ١ ص ٢٤٥) وقال إنه رحل إلى الأندلس ولقى أبا نواس وسمع منه شعره . وترجم له ابن سعيد فى المغرب (بتحقيق الدكتور شوقى ضيف ، القاهرة بدون تاريخ) ١ / ٣٢٤ . وانظر عنه : الدكتور إحسان عباس ، تاريخ الأدب الأندلسى (بيروت ١٩٦٠) ص ٣٦-٣٧ .
(٦) الأصل : يحِبّى ، وقد قرأها دوزى : يخشى .
(٧) فى الهامش على اليمين مقابل هذا السطر — للخصومة فى الربض .
(٨) الأصل : جيرته ، ويمكن قراءته أيضاً : أجبرته .

ولهُ أيضاً فى ذلك :

غِناه صَليلِ البِيضِ أشهى إلى الأذنِ ... من اللحن فى الأوتار واللهو والرَّدْنِ(١)
إذا اختلفتْ زُرْقُ الأسنَّةِ والقَنا ... أرَتْكَ نجوماً يَطّلِعْنَ من الطعن
بها يهتدى السارى وتنكشفُ الدجى ... وتَسْتَشْعِرُ الدنيا لباساً من الأمْن
شققتُ غمارَ الموت تُخطِئُ مهجتى ... سهامُ ردًى قبلى أصابتْ ذوى الجُبْن
إذا لفحتْ ريحُ الظهائر لم يكنْ ... لِقاعِىَ فيها غيرَ فَىْءِ القنا اللُّدْن
وإن لم يجدْ حصناً سوى الفَرِّ مُقْدِمٌ ... فمالىَ غيرُ السيف والرمح من حصن
قذفتُ بهم [من] فوقِ سَهْماءَ فانْزَوَت ... له الأرضُ واستولى على السهل والحَزْن
فسار يروِّى كل صَدْيَانَ حائمٍ ... وسَحَّ كما سحَّتْ عَزالِ من المزن(٢)
وإنْ عَنَّ للتيار مِنْ سَيَلانِهِ ... ذُرَى شاهقٍ أضحى كمُنْتَفِشِ العِهْن
هَنأت به حَرباً تَقشَّعَ بَحْرُها ... بحمل هناه ليس يصْلُحُ لِلبُدْن

ولهُ فى النسيب :

ظلَّ من فرط حبـه مملوكاً ... ولقد كان قَبْلَذاكَ مليكاً
إن بكى ، أو شكا الهوى ، زِيدَ ظلماً ... وبِعاداً يُدنى حِماما وشيكا
تركتْه جآذرُ القصر صَبًّا ... مُستهاماً على الصعيـد تريكا
/يجعل الخدَّ واضعاً(٣) فوق تربٍ ... للذى يجعـل الحريرَ أريكا [١٥ - ١]
هكذا يحسن التذلل فى الحـ ... ـبِ(٤) إذا كان فى الهوى مملوكا

(١) الرَّدْن هنا صوت وقع السلاح بعضه على بعض (اللسان : ١٧/٣٧) .
(٢) المزنة العَزال هى السحابة التى تنهمر بالماء (اللسان : ١٣/٤٦٩) .
(٣) وردت هذه الأبيات فى البيان المغرب لابن عذارى (٢/٨٠) وقد ورد هذا اللفظ هناك : ماثلا .
(٤) فى البيان المغرب : للحُرّ .

وله في خمسٍ جوارٍ من حظاياه ، كُنّ مصطحبات فتغاضَبْن عليه وقتاً في طريق الغيرة وهجرنه :

قُضبٌ من البان ماست فوق كُثبانِ   ولَّين[1] عني وقد أزمعن هِجراني
ناشدتهن بحقِّي فاعتزمن على الـ   ـعصيان[2] ، حتى خلا منهن عصياني[3]
مَلَكنني مِلْكَ مَن[4] ذلّتْ عزائمُه   للحب ذُلَّ أسيرٍ مُوثَقٍ عانِ
من لي بمُغتصبات الروح من بدني   يَغصِبْنني في الهوى عزي وسلطاني !

---

١١ — إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن[5] ابن علي بن أبي طالب

وُلد لعبد الله بن حسن . وكان شيخَ بني هاشم في وقته إدريسُ الأكبر وأمه هِندٌ بنت أبي عبيدة المُطَّلبية ، وإدريس الأصغر هذا أمه[6] عاتكة بنت عبد الملك بن الحارث المخزومية ، وأخواه منها : عيسى وسليمان ؛ حكى ذلك أبو علي حسين بن أبي سعيد عبد الرحمن بن عبيد القيرواني المعروف بالوكيل في كتابه « المُعرِب عن أخبار المغرب » واختصرتُه منه . وذكر أن إسحاق

---

(١) وردت هذه الأبيات أيضاً في البيان المغرب لابن عذارى (٢/٧٩) . وقد جاء هذا اللفظ هناك : أعرضن .

(٢) رواية البيان : الهجران .

(٣) رواية البيان : حتى خلا منهن هيمانى .

(٤) في الأصل : مِلْكاً ، والتصويب من البيان المغرب .

(٥) الأصل : إدريس بن عبد الله بن حسن بن الحسين بن علي بن أبي طالب . وهو خطأ ، وقد صوبناه كما في المتن .

(٦) في الأصل : وأمه .

ابن عيسى كان على المدينة ، فلما مات المهدى ووَلِىَ موسى الهادى شَخَصَ وافداً عليه ، واستخلف على المدينة عمر بن عبد العزيز بن عبد الله بن عمر بن الخطاب(١) ، فخرج عليه بها الحسينُ بن على بن الحسن بن الحسن العلوى ، واستخفى العُمَرِىّ حتى خروج الحسين إلى مكة فى ذى القعدة سنة تسع وستين ومائة .

وكان قد حج فى تلك السنة رجال من بنى العباس ، منهم محمد بن سليمان ابن على ، والعباس بن محمد ، وموسى بن عيسى ، وعَلَى الموسم سليمان بن أبى جعفر ؛ فكتب الهادى إلى محمد بن سليمان يولّيه الحرب ، فالتقوا بِفَخٍّ ، وخلّوا عبيد الله ابن قُثَم بمكة للقيام بأمرها . وكانت الوقعة يوم السبت ، يومَ التَّروية ، فقُتل الحسينُ القائمُ وسليمان بن عبد الله ؛ وانهزم الناس فنودى فيهم بالأمان ولم يتبع هاربٌ ، وحُزَّت الرؤوس فكانت مائة ونيفاً .

وكان فيمن هرب يحيى وإدريس / ابنا عبد الله بن حسن ؛ فأما إدريس [١٥-ب] فلحق بالمغرب ولجأ إلى أهله فأعظموه ، ولم يزل عندهم إلى أن احتيل عليه ؛ وخلّف ابنه إدريس بن إدريس ، فملكوا(٢) تلك الناحية وانقطعت عنهم البعوث .

وأما يحيى فصار إلى جبل الدَّيْلَم فأقام عند صاحبه ، إلى أن شخص إليه الفضل بن يحيى بن خالد فى أيام الرشيد ، فأمّنه وحمله إليه .

وقد قيل إن إدريس هرب إلى المغرب فى أيام أبى جعفر المنصور ، عند قتل أخويه محمد وإبراهيم القائمين عليه بالمدينة وبالبصرة ، وأن أبا جعفر بعث إليه من سمّه ؛ والصحيح أن ذلك كان فى خلافة الهادى بالعراق ، وبعد عشرة أشهر وأيام منها ، وفى آخر خلافة عبد الرحمن بن معاوية بالأندلس ، وقبل وفاته بعامين وأشهر ، وأن إدريس وقع إلى مصر وعلى بريدها واضحٌ مولى صالح بن المنصور

(١) واضح أن المراد هنا غير عمر بن عبد العزيز بن مروان الخليفة . انظر عن نسب هذا المذكور فى المتن «جمهرة أنساب العرب» ص ١٤٣ .

(٢) كذا فى الأصل ، والمراد إدريس بن إدريس وآله .

— وكان رافضيًا — فحمله على البريد إلى أرض المغرب حتى انتهى إلى مدينة « وَلِيلِي »[١] من أرض طَنْجَة ، فاستجاب له مَن بها وبأعراضها من البَربر ، فلما وَلِيَ الرشيد علم بذلك فضرب عنق واضح وصلبه ، ودسّ إلى إدريس مَن أنس به واطمأن إليه ، وكتب له كتاباً إلى إبراهيم بن الأغلب عامله على إفْرِيقِيَّة فاحتال حتى سَمَّه .

واختُلف فيمن سَم إدريس وما سُم فيه . فقيل : الشَّماخ المشماسي[٢] مولى المهدى سَمَّه فى سَنُون[٣] سقطت منه أسنانه لما استعمله ومات من وقته ، وسيأتى خبره بعد إن شاء الله . وقيل : بل سليمان بن جرير الرَّقِّى كان سبب سَمِّه ، وكان إدريس به واثقا فأُتِي من قِبَله ، وهرب مع الرسل الذين أتوا فى ذلك ، وطُلب ففات .

ويقال : إن سليمان هذا — وكان يقول بإمامة زيد بن على بن الحسين — ناظرَ إدريس يوماً فى شىء فخالفه ، ثم دخل الحمام ، فلما خرج بعث إليه سليمان بسمكة مشوية أنكر نفسه عند أكله منها ، فشكا بطنه وقال : « أدركوا

(١) وَلِيلِي ، وتنطق أحياناً وَلِيلَى — والأولى أصح — مدينة أثرية فى المغرب تسمى عند العامة قصر فرعون ، وتقع على ٣ كيلومترات شمال شرقى بلدة مولاى إدريس التى تضم ضريح إدريس الأكبر مؤسس دولة الأدارسة ، وهذه الأخيرة على نحو ٢٠ كيلومتراً غربى فاس ، وهى من تأسيس المغاربة القدامى الذين يسمون بالمُورْطانيين ، جعل منها الرومان مدينة زاهرة خصوصاً فى عهد الإمبراطورية . اكتشفت آثارها سنة ١٨٧٣ وابتدأت عمليات الحفر بها سنة ١٩١٥ ولا تزال متواصلة إلى اليوم .

انظر : أحمد المكناسى : خريطة المغرب الأركيولوجية للمواقع الأثرية لما قبل التاريخ إلى ظهور الإسلام (تطوان ١٩٦١) ص ٢٤ .

والبكرى : صفة إفريقية والمغرب ، ص ١١٨ وما بعدها .

(٢) كذا فى الأصل ، وقرأها ماركوس مولر : النهاسى ، ص ١٩٨ . وجاء فى البيان المغرب لابن عذارى : الشماخ مولى الهادى . . « وذكر أنه متطبب من شيعتهم العلوية » (٨٣/١) .

(٣) السَّنُون كل مسحوق كانوا يستعملونه لدواء الأسنان .

سليمان ! » فأُدرك ، وقيل له : « أجب ! » فامتنع ، فضُرب على وجهه بسيف ، وضُرب أخرى على يده فانقطعت أصبعه ، وأفلت . وقيل : سُمَّ في طيب تطيب به . وولده وأهل بيته يقولون : إنما سُمَّ في بطيخة . وهم وإن اختلفوا في الشيء الذي سُمَّ به ، فهم مجمعون على أنه مات مسموما . ومن شعره :

أليس أبونا هاشم شـد أزره وأوصى بنيه بالطعان وبالضربِ

/فلسنا نمل الحرب حتى تملّنا ولا نتشكّى ما يهول من النّـكبْ [١٦-١]

---

١٢ — ابنه إدريس بن إدريس بن عبد الله ، أبو داوود

قال أبو الحسن على بن محمد النَّوْفَلِيّ : توفى إدريس بن عبد الله وجارية من جواريه حبلى اسمها كَنْزَة ، فقام « راشد » مولاه — ويقال إنه مولى أخيه عيسى بن عبد الله ، وهو الذى خرج به حتى أقدمه المغرب — بأمر البربر . إلى أن ولدت الجارية غلاماً فسماه باسم أبيه « إدريس » ، وقام بأمره حتى بلغ الغلام وأدَّبه ؛ وكان مولده فى شهر ربيع الآخر سنة خمس وسبعين ومائة .

وتوفى راشد سنة ست وثمانين ، فقام بأمر الغلام أبو خالد يزيد بن إلياس ، وأخذ بيعة البربر له يوم الجمعة فى شهر ربيع الآخر سنة سبع وثمانين ، وهو ابن إحدى عشرة سنة . وأسس مدينة القرويين[1] سنة ثلاث وتسعين ، وخرج إلى

---

(١) يريد فاس القرويين ، أى فاس الأولى التى أنشأها القيروانيون ، وهى منسوبة إليهم . وسينشىء مهاجرة الأندلس الذين خرجوا منها بعد هيج الربض ضاحية لفاس هذه تعرف باسم فاس الأندلسيين ؛ وتسمى كل منهما عدوة فيقال عدوة القرويين وعدوة الأندلسيين ، ومنهما معاً تتكون فاس . انظر بيان ذلك فى « البيان المغرب » لابن عذارى (٢/٢١١) .

نِفِّيس(١) فى المحرم سنة سبع وتسعين ، ثم غزا نفزة وتلمسان وتوفى سنة ثلاث عشرة ومائتين وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة : سُمّ فى حبة عنب فلم يزل مفتوح الفم سائل اللعاب حتى مات .

وعن غير النَّوْفَلِيّ أن زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب هو الذى احتال عليه حتى اغتاله .

وعامة مَن فى المغرب من الحسَنِيين من ولد إدريس هذا ، ومنهم بنو حَمُّود الخلفاء فى قُرْطُبَة بعد الأربعمائة .

وذكر أبو بكر الرازى(٢) أن إدريس بن عبد الله دخل المغرب سنة اثنتين

---

(١) نِفِّيس ، هكذا ورد الاسم مضبوطاً فى الأصل ، ولكن الأغلب نَفِّيس . ذكرها البكرى (ص ١٦٠) وقال إنها قرب أغمات وقال إنها تعرف بالبلد النفيس وأنها بلد كثير الأنهار والثمار ، « ليس فى ذلك القطر موضع أطيب منه ولا أجمل منظراً » ، وقال إنها بلدة عامرة آهلة بينها وبين البحر مسيرة يوم ، أى حوالى ٤٠ كيلومتراً . وهو تقدير غير دقيق ، لأن وادى نفيس واد صغير معروف يصب فى بحيرة جنوبى مراكش . ومكانها اليوم قرية صغيرة تعرف بالمدينة بين تانزلْت ودَرْكالَة .

(٢) المراد أبو بكر محمد الرازى المؤرخ ، وهو أبو أحمد بن محمد الرازى وجد عيسى ابن أحمد الرازى مؤرخى الأندلس المعروفين .

وهذه العبارة ذات أهمية تاريخية كبرى ، فهى تقرر بوضوح أن الذى اختط فاس كان إدريس بن عبد الله أى إدريس الأول ، لا ابنه إدريس الثانى كما كان يظن اعتماداً على كلام ابن أبى زرع مؤرخ فاس فى كتابه المعروف « روض القرطاس » . وقد ناقش الموضوع مناقشة شاملة ليڤى پروڤنسال فى بحثه القيم عن « اختطاط فاس » واعتمد على عبارة الرازى هذه وعبارات أخرى لابن القاضى فى « جذوة الاقتباس » والجزنائى فى « زهرة الآس » . وأثبت بالفعل أن اختطاط فاس كان على يد إدريس الأول فى رمضان ١٧٢ فبراير/ ٧٨٩ . انظر :

E. LÉVI-PROVENÇAL, *L'Islam d' Occident*, chapitre 1 : *La Fondation de Fès*, pp. 3-41.

وقد تُرجم هذا الكتاب إلى العربية بعنوان : « دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس » ، ترجمه الدكتور صلاح الدين حلمى وراجعه الدكتور لطفى عبد البديع ، ونشرت الترجمة فى سلسلة الألف كتاب فى القاهرة سنة ١٩٥٧ .

وجدير بالذكر هنا أن « روض القرطاس » -رغم ما يتمتع به من مكانة بين مراجعنا- يعتبر من أحفلها بالأخطاء ، ولابد من الحذر الشديد فى استعماله .

وسبعين فى شهر رمضان هارباً بنفسه من أبى جعفر ؛ فنزل موضعاً يقال له « وَلِيلِى » بوادى الزيتون ، فاجتمعتْ إليه قبائل من البربر فقدموه على أنفسهم وبَنَوْا مدينة فاس ؛ وكانت أجمةً شَعْراء ، ولما احتفرت أساساتها ألفى فى بعضها فأسٌ فسُميت بمدينة « فاس » وسكنها البربر ، فلم تطل أيامه وهلك سنة أربع وسبعين ومائة . وترك جارية حاملا منه ، فولدت بعده ابناً سمى بإدريس ابن إدريس ، ملَكَ بعد أبيه مدينة فاس وطالت مدته ، وتوفى فى شهر ربيع الأول سنة ثلاث عشرة ومائتين ، ومولده فى شهر ربيع الآخر سنة خمس وسبعين(1) . كذا قال الرازى ، وقد تقدم التنبيه على غلط القائل بدخول إدريس المغرب فى خلافة أبى جعفر المنصور .

ومن شعر إدريس بن إدريس يخاطب البهلول بن عبد الواحد المَدْغَرِىّ ، ذاهباً إلى مراجعة طاعته ومحذِّراً مكرَ / إبراهيم بن الأغلب ، وهو الذى كان [١٦ - ب] أفسده عليه حتى قاتله البهلول :

كأنكَ لم تسمعْ بمكرِ ابنِ أغلبٍ   وما قد رمى بالـكيدِ كلَّ بلادِ
ومن دونِ ما منَّتْك نفسُك خالياً   ومنّاك إبراهيمُ خرطُ قتادِ

وكتب إلى إبراهيم بن الأغلب يدعوه إلى طاعته أو الـكف عن ناحيته ، ويذكره قرابته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفى أسفل كتابه :

أُذَكِّرُ إبراهيمَ حقَّ محمدٍ   وعترتِه والحقُّ خيرُ مَقُولِ
وأدعوه للأمر الذى فيه رشدُه   وما هو لولا رأيه بجهولِ
فإن آثر الدنيا فإن أمامَه   زلازلُ يومٍ للعقابِ طويلِ

وله يتشوق أهل بيته :

لو مال صبرى بصبر الناس كلهمُ   لضَلَّ فى رَوْعتى أو ضَلَّ فى جزَعى

---

(١) لم تطل مدته على هذا ، فقد ولد سنة ١٧٥ هـ وتوفى سنة ٢١٣ .

وما أُرِيعُ إلى يأسٍ ليُسْلِيَنِى ... إلا [... ...] يأسٌ إلى طمعِ
وكيف يَصْبِر مَطْوِىٌّ هضائمُه ... على وساوسِ همٍّ غيرِ منقطعِ
إذا الهمومُ توافتْ بعد هجمتِه ... كرّتْ عليه بكأسٍ مُرّةِ الجُرَعِ
بانَ الأحبةُ واستبدلْتُ بعدهمُ ... همًّا مقيماً وشملاً غيرَ مجتمعِ
كأننى حينَ يُجرى الهمُّ ذِكرَهمُ ... على ضميرىَ مخبول من الفزعِ
تأوى همومى إذا حرّكْتُ ذِكرَهُمُ ... إلى جوانحِ جسمٍ دائمِ الولعِ

---

١٣ — عبد الملك بن عمر بن مروان بن الحكم، أبو مروان /وقيل أبو الوليد

[١٧-١]

قعيدُ جماعة آل مروان فى وقته وفارسُهم وشهابهم . قدِم من مصر على عبد الرحمن بن معاوية فى سنة أربعين ومائة ، أولَ ولايته بالأندلس ، وهو فى عشرة رجال من بنيه فرسانٍ ، فولاه إشبيلية ، وولّى ابنَه عبد الله مَوْرُور ، وأغنى فى حرب يوسف بن عبد الرحمن الفِهْرِىّ عند نكثه وفراره من قُرْطُبَة حتى قُتل .

وقيل : كان والياً على ماردَة ، وابنه على لَقَنْت . ولما زحف أهل حِمْص[(١)] إلى عبد الرحمن بن معاوية يطلبونه بثأر أبى الصَّبّاح اليَحْصُبِىّ — وكان قد طاح على يديه — أبلى عبدُ الملك هذا بلاءً حسنا ، وقَتل ولدَه أمية صبراً لما انحاز إليه منهزما : قدَّمه فضرب عنقه ، فهابه الجند وشدوا معه ومع سائر بنيه ، فكانت

---

(١) يريد أهل إشبيلية وناحيتها من العرب ، وكذلك كانت تسمى بعد أن أنزل أبو الخطار الحسام بن ضرار الكلبى جند حمص فى إشبيلية .

الدبرة على أهل حِمصَ ومَن معهم ، وفتح الله على يديه فتحاً لا كفاء له ، وأجْلَتِ الحربُ عنه جريحاً فأحظاه عبدُ الرحمن . وقيل : بل قتل ابنه المذكور فى حرب يوسف الفهرى حين(١) انهزم وقُتل من أصحابه نحو عشرة آلاف ، ولم تقم له بعد قائمة ، فأحظاه عبد الرحمن وقدمه واستوزر بنيه عبد الله وإبراهيم وحَكَماً ، وزوَّج ابنتَه كَنْزَةَ(٢) من ابنه هشام ولى عهده ، فقال عبدُ الملك فى ذلك من قصيدة طويلة :

فيا زمناً أوْدَى بأهلى ومعشرى ... لقد صِرْتَ فى أحشائنا لاذعاً جمرَا
ويزدادُ دهرُ السوء غِشًّا وظُلمةً ... كأنَّ على شمسِ الضحى دوننَا سِتْرَا
إلى أن بدا من آل مروان مُقْمِرٌ ... أضاء لنا مِن بَعدِ ظُلمته الدهرا
هِجَانٌ أصيلُ الرأىِ نَدْبٌ مهذبٌ ... أقام لنا مُلكاً وشد لنا أزرا
وأنبتَ آمالاً وأثبتَ نِعمةً ... وجئنا فألفينا الكرامةَ والبِرَّا
أنالَ وأغْنَى مُنْعِماً متفضِّلاً ... وأضْفَى لنا مأمولَ أبنائه صِهْرا
فنحن حواليْه النجومُ تجمعتْ ... إلى البدر حتى صِرنَ مِن حوله حَجْرا(٣)

ومنها يذكر زفاف ابنته كَنْزَة هذه :

لعَمرى لقد أهديتُ بيضاء حُرةً ... إلى خير مَن أغْلَى بأثمانها المهرَا
/لها حَسَبٌ يأبَى عَلى كُل مُقرِفٍ ... ويَرْضى لها تلك الخضارمة الزهرا [١٧-ب]
وآل أبى العاصى همُ نظراؤها ... فأكرِمْ بشمسٍ أنكحتْ قمراً بدرا

---

(١) الأصل : حتى .
(٢) قرأها دوزى ، ص ٤٣ : كثرة .
(٣) الحَجْر هو الستر والمانع (اللسان : ٥/٢٣٩) .

١٤ — عبد الملك بن بشر بن عبد الملك بن بشر ابن مروان بن الحكم

كان أبوه بِشر من أمراء الأموية ، فقتله أبو جعفر المنصور مع يزيد بن عمر ابن هُبَيْرة الفِزَارى آخر عمال بنى أمية على العراق ، ونجا ابنه عبد الملك هذا فى فَلّ القوم إلى المغرب ، فقصد الأندلس ، ودخلها فى صدر أيام الأمير عبد الرحمن ابن معاوية ، مع ابن عمه جُزَىّ بن عبد العزيز بن مروان أخى عمر بن عبد العزيز ، وسكن جواره بقُرْطُبَة ، ويعرف بالبِشْرِىّ . وهو القائل فى مقتل أبيه :

لستُ أسى مصرعاً مِن والدٍ ... سيدٍ ضخمٍ وعَمٍّ مفْتَقَـدْ
غادرتْهُ الخيـلُ فى معترَكٍ ... بين عمٍّ وأبٍ زاكٍ وجَـدّ
تَسْهك(١) الريحُ عليه بالضحى ... وتُعَفّيه أعاصـيرُ الأَبَدْ
لم يَرُدَّ الموتَ عنـه إذْ سَما ... نحوَهُ كثرةُ مالٍ وعـددْ
أُمَوِىٌّ حَكمِىٌّ عَرفتْ ... سَوْرة المجد له عُليا مَعَدْ
عاش فى مُلكٍ عزيزاً دونه ... حُجُبُ المُلكِ وأبوابُ الرَّصَدْ
فانتحتْه بالمنـايا فثوَى ... لِعَوافى الطَّير مسلوبَ الجَسَدْ

وله :

يا معشراً شغفَ الطعامُ قلوبَهم ... فهمُ طِماحٌ نحو كُلِّ دُخَانِ
يهدى لواءهمُ ويحمل بَنْدَهمْ ... فى كل معترك أبو سَعْدانِ

(١) سَهكت الريح وسَهكت الدابة سُهوكا جرت جرياً حثيثاً ، وقيل سهوكها استنانها يميناً وشمالا . (اللسان : ٣٣٠/١٢)

يمشي كمشْيِ الليثِ راح عشيةً — من غابِهِ وأمامه شِبلانِ
لو يعرِض الخَطِّيُّ دونَ وليمــةٍ — مشروعةٍ فى صدره لطِعانِ
لمضى بصادقِ نيــةٍ وبصيرةٍ — فيها وقلب(١) مُشَيَّعٍ شيْحَانِ(٢)
/حتى يغيِّبَ فى الثريد ذراعَه — ويجوسها بأشاجعٍ(٣) وبنَانِ [١٨-١]

وله :

وبِنَفْسِى مَن عندها اليومَ قلبي — عَلِقٌ فى حبــالها معمودُ
كلما قلتُ قد تناهيتُ عنها — عادنى من غرامها ما يعودُ
فبقلبي من لاعجِ الحبِّ منها — كلَّ يومٍ سُقْمٌ وحزنٌ جديدُ

١٥ — حبيب بن عبد الملك بن عمر بن الوليد بن عبد الملك ابن مروان ، أبو سليمان

كان بالأندلس فى سلطان عبد الرحمن بن معاوية ، وكانت له منه خاصةٌ لم تكن لأحد من أهل بيته ، وولاه طُلَيْطِلَة وأعمالَها ؛ وهو القائل يخاطبه مُغْرِيًا بأبى الصَّبَّاح(٤) عليه :

يا ابن الخلائفِ إنى ناصحٌ لـكم — فى قتل ذى إحَنٍ يرتادُ للنِّقَمِ

(١) قرأها دوزى (ص ٤٤) وقلت .

(٢) سائح الرحل جادٌّ فى الأمر ، والشَّيْحان الذى يتَنَهمَّس عَدْواً ، أراد السرعة (اللسان : ٣٣٢/٤) .

(٣) الأشاجع هى الحيات ، جمع أشجع ، وقيل جمع أشْجعَة . وأشجعة جمع شجاع وهو الحية (اللسان : ١٠/١٠) .

(٤) هو أبو الصَّبَّاح بن يحيى اليَحْصُبى من كبار اليمنيين الذين أعانوا عبد الرحمن الداخل على الوصول إلى الإمارة . وقد ولاه عبد الرحمن على إشبيلية ، ثم عزله

لا يُفْلِتَنْكَ فيأتينا بيائقــةٍ   واشدُدْ يدَيْكَ به تبراً مِن السَّقمِ
جَلِّلْهُ عَضْباً مِن الهندىّ ذا شُطَبٍ   إن الصرامةَ فيه فَعْلَةُ الـكرمِ

ذكر ذلك ابنُ حيّان ، وقيل إن هذا الشعر لعبد الملك بن عمر بن مروان ابن الحكم .

وتوفى حبيب هذا فى أيامه ، فشهد جنازته ومعه ستة من ولده ، فلما صلى عليه قعد وهو يُوارَى ، فالتفت عبدُ الرحمن فرأى ولده هشاماً قاعداً ناحيةً قد [...][1] فى قعوده ، فقال : « ما هذا يا أبا الوليد ؟ أيُدفن عمُّك وخيرُ أهلِ بيتِك وأنت قاعد ؟ قم واشدد نطاق الحزن عليك ، فلن ترى فى قومك مثل أبى سليمان » ، فقام .

وكان حبيب من الذين يشاورهم فى رأيه وإدارته عبدُ الرحمن بن معاوية ويُدنى مجالسَهم منه [ويضمه][2] إلى خاصته من نُقَباء دولته وسائر أصحابه ومواليه .

* * *

نرجع إلى ذكر الأمراء من غير الهاشمية والأموية على الترتيب كما شرطنا فى صدر الـكتاب :

= عنها ، فجمع أنصاره وثار عليه . فأرسل إليه عبد الرحمن مولاه تَمّاماً ، فأقنعه بالاستسلام دون قتال ، وأتى به قرطبة مع ٤٠٠ من أنصاره دون عهد . فلما التقى بعبد الرحمن عاتبه ، فأغلظ له أبو الصباح فى الجواب ، فأمر بقتله ، وقتل سنة ٧٦٦/١٤٩ .
انظر : ابن عذارى ، البيان المغرب ، ٥٣/٢ .

(١) بياض بقدر كلمة .

(٢) بياض فى الأصل .

١٦ ـ الحُسام بن ضِرار بن سَلامَان الكَلْبِيّ ، أبو الخَطَّار (بالراء)

وَلِيَ إمارة الأندلس فى سنة خمس وعشرين ومائة ، من قِبَل حنظلة بن صفوان بن نوفل الكلبي والى إفريقية لهشام بن عبد الملك ثم للوليد بن يزيد بن عبد الملك . وكان قد ولى بإفريقية ولايات فى إمرة بشر بن صفوان / الكلبي [١٨ ـ ب] أخى حنظلة ، ويقال إن أهل الأندلس الشاميين والبلديين كتبوا إلى حنظلة بن صفوان والِى إفريقية والمغرب يسألونه أن يبعث إليهم عند اختلافهم والياً يجتمعون عليه ، فبعث أبا الخَطّار هذا ، فأقبل إليهم حتى قدم عليهم ، فأطاعه أهلها واجتمعوا عليه ، ودانت له الأندلس جمعاء[1] إلى ولاية مروان بن محمد بن مروان آخر خلفاء بنى أمية .

ولم يقدِّم فى ولايته الأندلس شيئاً على تفريق جميع العرب الشاميين الغالبين على البلد عن دار الإمارة قُرْطُبَة ، إذ كانت لا تحملهم ، وأنزلهم مع العرب البلديين على شِبهِ منازلهم فى كُوَر شامِهِم . وتوسّع لهم فى البلاد :

فأنزل فى كورتى أُكْشُونُبَة وباجَة جندَ مصر مع البلديين الأوَل ، وأنزل باقيهم فى كورة تُدْمِير ؛

وأنزل فى كورتى لَبْلَة وإشبِيلِية جندَ حِمْص [مع البلديين] الأوَل أيضا ؛

وأنزل فى كورة شَذُونة والجزيرة جندَ فلسطين ؛

وأنزل فى كورة رَيَّة جندَ الأردن ؛

(١) الأصل : جمعا .

وأنزل فى كورة إلبيرة جند دمشق ؛

وأنزل فى كورة جيّان جند قِنّسْرين (١) ؛

---

(١) هذه الإشارة تدل على أن الأندلس كان فى ذلك الوقت المبكر مقسما إلى كور محددة واضحة ، وقد ثبت هذا التقسيم كما هو إلى آخر أيام الخلافة ، مما يدل على أنه كان تقسيماً سليماً قائماً على أسس سليمة قديمة ، فلم يحتج بعد إلى تعديل ، وهذا ما حدانا إلى القول فى « فجر الأندلس » بأن العرب وجدوه قائماً ، فأقروه مع تعديلات طفيفة . وهذه الكور التسع هى التى عرفت بالكور المجندة ، وكلها واقعة على الوادى الكبير أوجنوبه أوفى مستواه ، وهى تكوّن معظم جنوب شبه الجزيرة . انظر عن حدودها « صفة الأندلس » للرازى التى لم تبق لنا إلا فى ترجمتها البرتغالية والإسبانية ، وقد ترجمها ليڤى پروڤنسال إلى الفرنسية :

LÉVI-PROVENÇAL, *La Description de L' Espagne de Razi*, Al-Andalus, *XVIII* (1953) pp 59. sqq.

وسنشير إلى هذه الترجمة دائماً باسم « صفة الأندلس للرازى » .

وقد أوردنا فيما بعد بيان معظم الأعلام الجغرافية الواردة فى هذا النص (انظر فهرس الأعلام) فيما عدا أكشونبة وباجة وتدميرورية ، وفيما يلى التعريف بهذه الكور :

أُكْشُونُبَة أو أُخْشُونُبَة (تكتب خطأ فى بعض المراجع أشْكُونبة) اسم بلدة رومانية قديمة فى الموضع الذى يسميه العرب شَنْتَمَرِيَّة الغرب Santa Maria de Algarve التى تسمى حالياً فارو Faro جنوبى البرتغال . ويقال إن Ocsonoba الرومانية كانت تقع فى الموضع الذى تقوم فيه قرية Milrau فى البرتغال التابعة لمركز Estoy . وقد أطلق اسم أكشونبة فى التقسيم الإدارى الأندلسى على كورة تحتل الركن الجنوبى الغربى لشبه الجزيرة ، من نهر وادى آنة إلى المحيط الأطلسى (صفة الأندلس للرازى رقم ٥٤ ص ٩١) . وورد ذكر هذه الكورة فى « التعليق المنوّى » على أنها مدينة ، أى كورة عسكرية (ص ٢٢) ، وفى حالة أكشونبة تعتبر كورة بحرية عسكرية . وقاعدة هذه الكورة شِلْب Silves فى البرتغال الحالية . وسنتكلم عنها وعن شنتمرية الغرب فى موضعيهما (انظر فهرس الأعلام) .

انظر : دائرة المعارف الإسبانية ، مادتى Ocsonoba و Santa Maria de Algarve ، و « الروض المعطار » مواد : أكشونبة وشلب ، والترجمة الفرنسية والتعليقات .

باجَة ، فى البرتغال الحالية ، وتسمى اليوم : بيجا Beja وهى قاعدة مديرية أليتيجو السفلى Baixo Alentejo ، وتقع على ١٤٠ كيلومترا جنوب شرقى الأشبونة (لِشْبُونَة ، لِيسْبُوا) وكانت فى التقسيم الإدارى الأندلسى كورة واسعة تشمل مديرية أليتيجو السفلى الحالية فى البرتغال وجزءاً من مديريتى بطليوس وولْبَة Huelva فى إسبانيا الحالية .

انظر : صفة الأندلس للرازى رقم ٤٨ و٤٩ ص ٨٧ — ٨٨ .

وجعل لهم ثلث أموال أهل الذمة من العجم طُعْمَةً .

وبقي العرب البلديون من الجند الأول على ما بأيديهم من أموالهم لم يعرض لهم في شيء منها ، فلما رأوا بلادًا شبه بلادهم خصباً وتوسعةً سكنوا واغتبطوا، وتموّلوا(١) .

= والتعليق المنتقى ص٢١ .

والروض المعطار ، رقم ٣٥ ص ٣٦ – ٣٧ .

تُدْمِير : هو الاسم القديم لكورة مُرْسِيَة نسبت إلى تُدْمِير تيودومير حاكم هذه الناحية أيام فتح العرب للأندلس ، والذي عقد معاهدة مع عبد العزيز بن موسى احتفظ لنفسه فيها بشيء من الاستقلال (انظر فجر الأندلس ، ص ١١٢) ثم حوله عبد الرحمن الداخل إلى كورة عادية . وكانت قاعدة الكورة بلدة أُورِيُولة Orihuela . فلما اختطت مُرْسِيَة سنة ٨٣١/٢١٦ أيام الأمير عبد الرحمن الأوسط على يد جابر بن مالك بن لبيد عامل تدمير يومئذ نقلت القاعدة إليها ، وسميت الكورة كلها كورة مرسية . وقد استبد بأمر مرسية وكورتها الموليان العامريان خيران وزهير بعد انتثار عقد الخلافة ، ثم ضمت الكورة إلى بلنسية ، وانفصلت عنها بعد ذلك . وفي أواخر أيام الموحدين استقل بها محمد بن يوسف بن هود الملقب بالمتوكل ، وأصبحت تسمى في النصوص الإسبانية باسم مملكة مرسية El Reino de Murcia . وقد خرجت مرسية عن يد المسلمين نهائياً في جمادى الأولى سنة ٦٦٤/فبراير ١٢٦٦ على يد خايمه الأول ملك أرغون الملقب بالفاتح .

انظر :

MARIANO GASPAR REMIRO, *Historia de Murica Musulmana* (Zaragoza, 1905).

وفي تعليقاتنا التالية تفصيلات أخرى كثيرة عن تدمير ومرسية . (انظر فهرس الأعلام)

رَيَّة ، وتكتب أيضاً رَيُّه وهو الأصح ، بظن أن أصل اسمها Regio في القديم . اسم كورة من الكور الصغيرة جنوب الوادي الكبير كانت تضم قواعد كثيرة منها أرشذونة Archidona ومالقة (انظر صفة الأندلس للرازي ، رقم ٦٩ ص ٩٨ – ٩٩) . وقد ذهب دوزي إلى أن اسم الإقليم كان قبل العرب Malacitana Regio . ولم توجد مدينة باسم رَيَّة ، ولو أن الإصطخري أخطأ فاعتبرها مدينة ، وذهب ابن خلدون إلى أن رَيَّة اسم لمالَقَة . والثابت – بشهادة ابن القوطية – أن رية اسم كورة عاصمتها أرشذونة . وقد اختفت الكورة في عهد الطوائف ، ولا وجود لها في « التعليق المنتقى » .

انظر البحث الطويل عنها في أبحاث دوزي ، ج١ ص ٣١٧ – ٣٢٤ .

(١) جعلت هذا الخبر في فقرات متميزة للنص على أهميته . وقد نقله ابن الأبار عن أبي =

وطالعتا موسى بن نصير وبَلْج بن بِشْر هما اللتان تعرفان بالأندلس بالجندَيْن .

ثم لم يلبث أبو الخَطّار — مع مكانه من السداد — أن تعصَّب اليمانية وفضَّلهم على المُضَرية ، فآل به الأمر إلى الخلع والفرار إلى جهة باجة فى غرب الأندلس فى قصص طويلة ، وذلك سنة ثمان وعشرين ومائة ، بعد أربع سنين وتسعة أشهر من|ولايته ؛ وقيل : كانت ولايته سنة اثنتين وعشرين . ومن شعره :

أفَأْتُم بنى مروان قيساً دِماءنا وفى الله ـ إن لم تُنصفوا ـ حَكَمٌ عَدْلُ

(ويُروى : إباءة بنو مروان ، والأول أَوْلى)

كأنكمُ لم تشهدوا مَرْجَ راهِطٍ ولم تعلَمُوا مَن كان ثَمَّ له الفضلُ

وقَيناكُمُ حَــرَّ القَنا بنُحورِنا وليس لكم خيل سوانا ولا رَجْلُ

/فلما بلغتمْ نَيلَ ما قد أردتمُ وطاب لكم منا المشاربُ والأكْلُ [١٩ب-١]

تعاميتمُ عنا بعيْن جَليَّــــةٍ وأنتمْ كذا ما قد عَلِمنا لها فعْلُ

فلا تأمَنوا إن دارَتِ الحربُ دورةً وزَلَّتْ عنِ المِرقاةِ بالقَدمِ النَّعْلُ

فينتقضُ الحَبْلُ الذى قد فَتَلْتمُ ألا ربما يُلْوَى فينتقضُ الحبلُ

قال أبو الخطار هذا الشعر ، لأن هشام بن عبد الملك ولَّى عُبيدةَ بنَ عبد الرحمن — ابن أخى أبى الأعور السُّلَمى صاحبَ خيل معاوية بصفين — إفريقيةَ ، وصرف بِشْر بن حنظلة الكلبى ، فوَحِدت لذلك اليمانية . ويقال إنه قدم القَيْرَوان — ولم يكن عليها إذ ذاك سور[١] — فألفى بشر بن صفوان قد تهيأ

— مروان بن حيان كما نقله أيضاً ابن الخطيب فى الإحاطة (بتحقيق محمد عبد الله عنان ، الجزء الأول ، القاهرة ١٩٥٥) ص ١٠٩ ، وابن عذارى فى البيان المغرب ، ٢/٣٣ . وقد نصرف فيه كل منهم بحسب منهجه فى كتابه ، وأعتقد أن الصورة التى أورده فيها ابن الأبار من أصح الصور التى ورد فيها . وقد ناقشنا هذا الموضوع وبسطنا القول فيه فى كتابنا « فجر الأندلس » .

(١) وردت هذه العبارة التى وضعناها بين شرطتين فى الهامش بخط مختلف .

لشهود الجمعة ولبس ثيابه ، فقيل له : « هذا الأمير قد قدم ! » ، فقال : « لا حول ولا قوة إلا بالله ! هكذا تقوم الساعة » ، فما حملته رجلاه . ودخل عبيدة بن عبد الرحمن فجمّع بالناس (١) .

وقيل إنه لما تتابع ولاةُ إفريقية والأندلس من قيس ، قال أبو الخطار هذا الشعر يعرِّض فيه بيوم مرج راهط ، وما كان من بلاء كَلْبٍ فيه مع مروان ابن الحكم ، وقيام القيسية مع الضحاك بن قيس الفِهْرِيّ أمير عبد الله بن الزبير . فلما بلغ الشعرُ هشامَ بنَ عبد الملك سأل عن قائله فأُعلِم أنه رجل من كلب ، وكان هشام قد وَلّى إفريقيةَ حنظلَةَ بن صفوان الكلبى أخا بِشْر المذكور ، فكتب إليه يأمره أن يولى أبا الخطار الأندلسَ . وهو الرابع عشر من ولاتها ، ثم ولى بعده ثوابة بن سلامة الجذامى ، ثم يوسف بن عبد الرحمن الفهرى — وكان خَلَعَهُ بعبد الرحمن بن معاوية . وأنشد الحُمَيْدى فى تاريخه الشِّعرَ ، وقال فيه : « أفادت بنو مروان » ، وقال : « إن لم تعدلوا » ، وقال : « وقينا كم حد القنا بسيوفنا » ؛ وقال فى البيت الرابع وما بعده :

فلما رأيتم واقدَ الحرب قد خبا وطاب لكم فيها المشارب والأكلُ
تغافلتمُ عنا كأن لم نكن لكم صديقاً ، وأنتم ما علمت لها فُعْلُ
فلا تعجلوا إن دارت الحربُ دورةً وزلَّتْ عن المِهْواةِ بالقَدمِ النعلُ

/ ولم ينشد البيت الأخير [١٩ – ب]

وقال أبو الخطار أيضا يخاطب الصميل بن حاتم الكلابى ، رئيسَ المضرية ورأسَ المتعصبين معها على اليمانية فى ولاية يوسف بن عبد الرحمن الفهرى :

(١) الخبر وارد بتفصيل فى البيان المغرب لابن عذارى (١/٥٠) ونص الفقرة الأخيرة منه هناك : ودخل عبيدة فأخذ عمال بشر وأصحابه فحبسهم وغرمهم . وعذب بعضهم .

وكان دخول عبيدة بن عبد الرحمن القيروان فى ربيع الأول ١١٠ هـ / يونيو ٧٢٨ .

إن ابنَ بكرٍ كفانى كلَّ معضلةٍ وحَطَّ عن غاربى ما كان يؤذينى
إذا اتخذتَ صديقاً أو هممتَ بهِ فاعمد لذى حَسَبٍ إن شئتَ أو دينِ
ما يقدر الله فى مالى وفى ولدى لا بد يدركنى لو كنت بالصين[1]

وأنشد له الحمَيْدى :

فليت ابنَ حوّاسٍ يُخَبَّر أننى سعيتُ به سَعْىَ امرئٍ غيرِ غافلِ
قتلتُ به تسعين تحسِب أنهمْ جذوعُ نخيلٍ صُرِّعتْ بالمسايلِ
ولو كانتِ الموتى تباع اشتريتُه بكفِّى ، وما استثنيتُ منها أناملى

وحكى أبو على الحسين بن أبى سعيد عبد الرحمن بن عبيد القيروانى المعروف بالوكيل فى « الكتاب المُغْرب عن أخبار المغرب » من تأليفه ، أن عُبيدةَ بن عبد الرحمن لما قدم القَيْروان أخذ عمالَ بشر بن صفوان وأصحابَه فحبسهم وأغْرَمهم وتحامل عليهم . وكان فيهم أبو الخطار ، فصنع هذه الأبيات وبعث بها إلى الأبرش الكلبى ، فدخل بها على هشام بن عبد الملك بن مروان فأنشدها ، فغضب هشام . وكان ذلك سبب عزل عبيدة عن إفريقية . قال أبو على : وهذا الشعر مشهور بالمشرق كشهرته بالمغرب ؛ ذكره صاحب « كتاب الخصال » وجاء به بعض المؤلفين فى اختياره ، وأتى به أبو الحسن المدائنى ، وقال : لما أنشده سعيدُ بن الوليد الأبرشُ الكلبى هشامَ بن عبد الملك غضب وشتم عبيدة وقال : « قبح الله ابن النصرانية ! » وعزله .

---

(١) الأصل :
ما يقدر الله فى مالى لابد يدركنى وفى ولدى لو كنتُ فى الصين
وورد بصورته الصحيحة التى يستقيم بها الوزن فى الهامش .

١٧ – الصُّمَيْل بن حاتم بن شِمر بن ذى الجَوْشَن الـكلابى الضِّبابى ، أبو جَوْشَن

كان جده شَمِر من أشراف عرب الـكوفة ، وهو أحد قَتَلَةِ الحسين بن على رضى الله عنهما ، والذى قدم برأسه على يزيد بن معاوية . وقَتَل المختارُ بعد ذلك — حين قام ثائراً بقتلةِ الحسين — جماعةً منهم ، فهرب شَمِر بولده وعياله ولحق بالشام فأقام بها فى عز ومنعة .

وقد قيل إن المختارَ قتل شَمِراً وفرّ ولدُه / إلى أن خرج كلثوم بن عياض [٢٠–أ] القُشيرى غازياً إلى المغرب ، فـكان الصُّمَيْل ممن ضُرب عليه البَعثُ فى أشراف أهل الشام ، ودخل الأندلسَ فى طاعة بَلْج بن بشر فَلِّ أصحاب كلثوم[1] .

---

(١) كان هشام بن عبد الملك قد ولى كلثوم بن عياض القشيرى على إفريقية سنة ١٢٣٪٧٤٠–٧٤١ بعد عبيد الله بن الحبحاب ليتلافى أمرها بعد انهزام قوات ابن الحبحاب أمام ميسرة المدغرى فى معركة الأشراف وإقدام جند إفريقية على عزله . وقد دخل كلثوم إفريقية فى جيش عدته ثلاثون ألفاً ، يقال إن عشرة آلاف منهم كانوا من صسب بنى أمية ، وعشرين ألفاً من سائر العرب . «وكان مع كلثوم ابن أخيه بلج بن بشر . وقد انهزم هذا الجيش الكبير أمام خالد بن حميد الزناتى رئيس البربر الذى خلف ميسرة المدغرى . وقتل كلثوم بن عياض ومنافسه حبيب بن أبى عبدة وسليمان بن أبى المهاجر ووجوه العرب . فكانت هزيمة أهل الشام إلى الأندلس، وهزيمة أهل مصر وإفريقية إلى الأندلس» .

وقد نجا بلج بن بشر من المعركة ولجأ إلى سبتة فتحصن بها من البربر ، وظل هناك مع من معه من العرب حتى ساء حالهم واستنجدوا بعبد الملك بن قطن عامل الأندلس ، فأذن لهم بعد أن كادوا يهلكون جوعاً ، واشترط عليهم أن يخرجوا من الأندلس بعد أن يفرغوا من حرب البربر الثائرين عليه فى الأندلس . ولكنهم لم يخرجوا ، وانتهى الأمر بتولى بلج بن بشر أمر الأندلس .

انظر : البيان المغرب ١/٥٥–٥٦ .

وكان شجاعاً ، نجداً ، جواداً ، كريماً . وهو الذى قام بأمر المضرية فى الأندلس عند ما أظهر أبو الخطار الحسامُ بن ضرار الكلبى العصبيةَ لليمانية ، إلا أنه كان رجلا أميًّا لا يقرأ ولا يكتب ، وكانت له فى قلب الدول وتدبير الحروب أخبار مشهورة .

وحكى أبو بكر بن القوطية فى تاريخه أنه مر بمعلِّم يتلو ﴿ وتلك الأيام نداولها بين الناس ﴾ فوقف يتفهم ، وكان أميًّا لا يقرأ ، ونادى المعلمَ : « يا هناه ! كذا نزلتْ هذه الآية ؟ » ، قال : « نعم » ، قال : « فأرى والله أن سيشركنا فى هذا الأمر العبيدُ والأراذلُ والسَّفِلةُ » .

وغلب على أمر يوسف بن عبد الرحمن الفهرى فى ولايته ، وكان معه فى حربه لعبد الرحمن بن معاوية بعد أن ولاه مدينة سَرَقُسْطَة ثم طُلَيْطِلَة ؛ وهو القائل عند ما أغار الطائيُّون على داره بشَقُنْدَة يوم المُصارة عند انهزام الفهرى واستخلاف عبد الرحمن :

ألا إن مالى عند طيٍّ وديعةٌ ولا بدَّ يوماً أن تُردَّ الودائعُ
سَلُوا يَمَناً عن فِعل رُمحى ومنصلى فإن سكتوا أثنتْ علىَّ الوقائعُ

أنشدهما أبو بكر الرازى فى تاريخه .

وتوفى الصُّمَيْل فى سجن عبد الرحمن بن معاوية سنة اثنتين وأربعين ومائة .

١٨ــ الأغلب بن سالم بن عقال بن خفاجة التميمى ، أبو جعفر

كان ممن سعى فى القيام بدعوة بنى العباس مع أبى مسلم وحارب معه [عبد الله بن][1] على ، وكان مع أبى جعفر المنصور فى حصار ابن هُبَيْرة

(١) أكملت العبارة على هذا النحو ليتصل السياق . ولم أجد اسم الأغلب بين أنصار أبى مسلم ـ

وفى قتل أبى مسلم ، ويقال إنه الذى ضربه فأطار يده ، ثم تولى حز رأسه[1] ؛ ووجّهه أبو جعفر المنصور مع محمد بن الأشعث بن عقبة الخزاعى إلى قتال البربر. وهو أول [قدومه إلى][2] إفريقية ، وكان عاملَ مصر ، وذلك فى سنة أربع وأربعين ومائة . فخرج فى أربعين ألفاً عليهم مائة وثمانية وعشرون قائداً من تحت يد ابن الأشعث ، منهم ثلاثون ألفاً من خراسان وعشرة آلاف من الشام — وقيل ألفان فقط من الشام . وقال المنصور : إن حدث به حدث كان الأغلبُ أميرَهم بعده . فولّىَ طُبْنَة / إلى أن خرج ابنُ الأشعث من القيْرَوان فى شهر [٢٠-ب] ربيع الأول سنة ثمان وأربعين — وكان قد بنى سور القيروان — فبعث أبو جعفر إلى الأغلب عهده بولاية القيروان ، فاستقامت له الأمور . ثم اضطربت بعقب ذلك لخروج أبى قُرَّة البربرى عليه واشتغاله بحربه ، [وخرج][3] الحسن

الخراسانى ورجاله . وقد أورد الطبرى (طبعة المطبعة التجارية ، القاهرة ١٩٣٩) ج ٦ ص ٥٣ قائمة بأصحاب أبى مسلم وقواده لم أجد من بينهم اسم الأغلب ، ولكنى وجدت مقاتل بن حكيم العكى ، وهو أبو محمد بن مقاتل العكى الذى تولى إفريقية قبل إبراهيم بن الأغلب . فلعل ذلك هو السبب فى قول المؤرخين أن الأغلب كان من رجال أبى مسلم . وربما كان من صغار رجاله فلم يذكر ضمن القواد والنقباء .

(١) لا وجود هذا عند الطبرى ، وهو أوسع مرجع لدينا عن قتل أبى مسلم : ١٣٧/٦ .

(٢) عبارة « وهو أول [...] إفريقية » قلقة هنا . وقد قومتها على هذا النحو سياق . وعلى أى حال فهاك رواية ابن عذارى فى هذا الموضع ، ويبدو أنه يأخذ من نفس المرجع الذى يعتمد عليه ابن الأبار هنا : ذكر ولاية محمد بن الأشعث الخزاعى على إفريقية : لما غلبت الصُّفْرية على إفريقية بعد أن قتلت ورفجومةُ مَن قتلت من قريش وغيرهم ، خرج جماعة من عربها إلى المنصور يستنصرون به على البربر ، ويصفون له ما نالهم منهم . فولّى أبو جعفر ابنَ الأشعث مصر ، فوجه أبا الأحوص ، فهزمه البربر ، كما تقدم ، فكتب أبو جعفر إلى ابن الأشعث أن يسير بنفسه ، فخرج إلى إفريقية فى أربعين ألفاً ... الخ » .

البيان ٧٢/١ (وكان ذلك سنة ٧٦١/١٤٤ – ٧٦٢) .

(٣) أضفت هذه الكلمة للسياق .

ابن حرب الكِندى عليه ، وخاطب القواد مُضَرِيًّا[1] فلحق به منهم جماعةٌ وهو بتونس ، فأقبل إلى القيروان فدخلها . وبلغ الخبرُ الأغلبَ فأقبل فى عدة يسيرة ممن أطاعه ، وكتب إلى الحسن :

ألا مَن مُبلِغٌ عنى مقالا يسير به إلى الحسن بن حربِ
فإنَّ البَغىَ أبعدُه وبالٌ عليك وقربه لك شر قربِ
فإن لم تدْعُنى لتنالَ سَلْمًا وعفوى فادْنُ من طَعْنى وضربى[2]

فقصد الحسنُ الأغلبَ ، فاقتتلوا قتالا شديداً انهزم الحسنُ عنه وكرَّ راجعاً إلى تونس ، ودخل الأغلبُ القَيْرَوان . ثم زحف الحسنُ إليه ثانيةً ، وخرج الأغلبُ من « باب أصْرَم »[3] فتواقف الفريقان ، فبرز الأغلب وقال :

(١) الأصل : مضربا ، وقد صوبتها هكذا للسياق ، وكذلك فعل مولر . وإليك توضيحاً لهذه الأحداث نقلا عن ابن عذارى (البيان : ١/٧٤) :

«وفى سنة ١٥٠ ثار الحسن بن حرب الكندى بالقيروان على الأغلب بن سالم ، وسبب ذلك أن أبا قرة الصفرى خرج فى جمع كبير من البربر ، فسار إليه الأغلب فى عامة القواد الذين معه ، وخلف على القيروان سالم بن سوادة . فلما علم أبوقرة أن الأغلب قرُب منه هرب ، وتفرق أصحابه ، وقدم الأغلب الزاب ، وعزم على الرحيل منه إلى تلمسان ، قاعدة زناتة ، ثم إلى طنجة . فكرهَ الجندُ المسير معه ، وقالوا : «قد هرب أبوقرة الذى خرجنا إليه» وجعلوا يتسللون عنه إلى القيروان ، فلم يبق معه إلا نفر يسير من وجوههم . وكان الحسن بن حرب بتونس ، فلما خرج الأغلب بريد أبا قرة ، كاتَبَ جميعَ القواد ، فلحق به بعضهم ، وأقبل معهم إلى القيروان ، فدخلها ، وأخذ سالم بن سوادة عاملَها ، فحبسه . وبلغ الخبرُ الأغلبَ ، فأقبل فى عدة يسيرة ، وكتب إليه يعرفه بفضل الطاعة ووبال المعصية ، فأعاد الجوابَ إلى الأغلب ، وفى آخره :

ألا قولوا لأغلبَ غيرَ سوءٍ مُغَلْغلةً عن الحسنِ بن حربِ
بأن البغى مرتعــه وخيم عليك ، وقربه لك شر قرب
فإن لم تثن لتنــال سلمى وعفوى ، فادن من طعنى وضربى

(٢) واضح أن الأبيات الواردة فى الهامش السابق رد على هذه الأبيات . ويلاحظ القارئ تشابه شعر الأغلب وشعر الحسن بن حرب على هاتين الروايتين . والحقيقة أن ابن عذارى أخطأ فجعل أبيات ابن الأغلب للحسن بن حرب ، أما أبيات هذا فترد فى ترجمته التالية .

(٣) من أبواب القيروان المعروفة .

أغدو إلى الله بأمرٍ يَرْضاهُ [لا خير فى ... ...]
إن يَهْوَنِى الموتُ ، فإنى أهواه كلُّ امرئٍ يلقى يوماً [...][(1)]

ثم شدَّ على الميمنة فى أصحابه ، فكشفها ، وانصرف إلى موقفه وهو يقول :

أضربُ فى القومِ ، ومثلى يضربُ فإن [يكن حرْباً] فإنى الأغلبُ
لا أجزعُ اليومَ ولا أكذبُ[(2)]

ثم شدَّ على الميسرة ، ففعل مثلَ فعله فى الميمنة ، وانصرف وهو يقول :

لم يبقَ إلا القلبُ أو أموتُ إنْ تَحْمِ لى الحربُ فقد حَمِيتُ
وإن تولَّيْتُ فمـــا بَقيتُ

ثم حمل على القلب ، فلم يُثْنَ حَدُّه ، حتى قُتل بسهم رُمى به ، وذلك فى شعبان سنة خمس ومائة .

وبلغ المنصورَ موتُه فقال : « إن سيفى بالمغرب قد انقطع ، فإن دفع الله عن المغرب بريح دولتنا وإلا فلا مغرب » . وقال الحكم بن ثابت السعدى من ولد سلامة بن جندل يرثى الأغلب :

لقـــد أفسد الموتُ الحياةَ بأغلبٍ غداةَ غدا للموت فى الحرب مُعْلِماَ
/ تبدَّتْ له أم المنايا فأقصـــدتْ [فتى حين] يلقى الموتَ فى الحرب صَمَّماَ[(3)] [٢١ - ١]
أخا غزواتٍ ما تزال جيـــادُهُ تُصَبِّح عنـــه غارةً حيث يمَّما
أتته المنايا فى القنا فاخترمْنَـــهُ وغادَرْنَه فى مُلتقى الخيـــل مسْلَما
كأن على أثوابه من دمائهِ عَبيطاً ، وبالخدَّيْن والنَّحْرِ عَنْدَما
فبَاتَ شهيـــداً نال أكرمَ ميتةٍ ولم يَبْغِ عُمراً أن يطول ويسقَما

(١) وردت هذه الأبيات فى سياق النثر ، ولم ينتبه الناسخ إلى أنها شعر .
(٢) الشطر الأخير من هذا الرجز مكسور . وقد أضفت ما بين حاصرتين فى الشطر الثانى للسياق والوزن ، وظاهر أنه يخاطب الحسن بن حرب ، ومن هنا أخذت عبارة « يكن حربا » .
(٣) ورد الشطر ناقصا فى الأصل فأكلته بما يقيم الوزن .

١٩ — الحسن بن حرب الكِندى

كان بتونس ، فقام على الأغلب بن سالم — حسبما تقدم خبره — وخالفه وسار إلى القيروان فلم يدفعه أحد عنها حتى دخلها . و بلغ أبا جعفر المنصور تنازعهما ، فكتب إلى الحسن بن حرب يحضه على الطاعة . وكان من كبار القواد وأبطال الفرسان بإفريقية ؛ وهو القائل يجيب الأغلب عن أبياته المذكورة قبلُ :

ألا قولا لأغلبَ غــيرَ سِرٍّ مُغلغَلة عن الحسن بن حربِ
بأنَّ الموتَ بينكمُ وبينى وكأسُ الموت أكره كلّ شِربِ
رويدكمُ ، فيومكمُ ويومى — وإن بَعُدا — مصيرهما لقُربِ

ثم تقاتلا بعد ذلك ، فقُتل الأغلبُ وصاح صائح : « مات الأمير ! » . وكان سالم بن سوادة التميمى فى الميمنة ، وهو ابن عم الأغلب ، فقال : « لا أنظر إلى الدنيا بعد اليوم » . ووقع فى عسكر الحسن الصياح : « مات الأمير ! » فظُنَّ أن الحسن هو المقتول ، فولوا منهزمين ، وركبهم سالمُ بن سوادة والمخارق بن غفار الطائى بالسيف ، فقتل من أصحاب الحسن مقتلة عظيمة ، واتُّبع هو فقُتل بتونس . و يقال إنه أتوا به مقتولا إلى القيروان ، فصلبه المخارق يومَ السبت آخر يوم من شعبان سنة خمسين ومائة .

---

٢٠ — يزيد بن حاتم بن قَبيصة بن المهلب بن أبى صُفرة الأزدى العتكى ، أبو خالد

وَلى إفريقية فى خلافة أبى جعفر المنصور ، فأصلحها ورتَّب أمر القَيْرَوان

وجدّد أمر المسجد / الجامع . وكان غايةً فى الجود مُمَدَّحاً ، كثيرَ الشبه بجده [٢١-ب] المُهَلَّب فى حروبه ودهائه وكرمه وسخائه ، خاصًّا بأبى جعفر المنصور ، وكان لا يُحجب عنه . وولِىَ ولاياتٍ كثيرةً قبل قدومه إلى المغرب ، منها : أرمينية ، والسِّند ، ومصر ، وأذربيجان وغير ذلك .

وقدم إفْرِيقِيَّةَ من مصر — وكان والياً عليها — فى ذى الحجة سنة أربع وأربعين ومائة إلى سنة اثنتين وخمسين (١) . وحُكى عنه [أنه] قال : لما ولانى أبو جعفر دخلتُ عليه فقال لى : « يا [أبا] خالد ، بادر النيل قبل خروج الرايات الصُّفْر وأصحاب الدواب البُتْر » (٢) .

---

(١) تولى يزيد بن حاتم مصر من يوم الاثنين ١٥ ذى قعدة ١٤٤/١٧ مارس ٧٦٢ إلى يوم السبت ١٨ ربيع الآخر ١٥٢/٣ مايو ٧٧٠ .

انظر : أبو المحاسن بن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة (طبعة دار الكتب بالقاهرة) ج ٢ (١٩٣٠) ص ١ وما يليها .

(٢) المراد بهذه الإشارة هنا العلويون ، وكان أبو جعفر المنصور مهموماً بأمرهم خلافتَه كلَّها ، وعلى رغم ما أنزل بهم من مقاتل وبأنصارهم من أذى وتعذيب فقد ظل متخوفاً منهم إلى آخر أيامه . وكان أنصار العلويين فى مصر كثيرين ، فكان المنصور يخشى أن يثبوا بها ، فبادر إلى عزل حميد بن قحطبة وأرسل يزيد بن حاتم ، وكان من خيرة ولاته وأقربهم إلى نفسه . وقد كان أبو جعفر محقاً فى تخوفه ، فنحن نقرأ عند أبى المحاسن : « وفى أيام يزيد بن حاتم المذكور ظهرت بمصر دعوة بنى الحسن بن على بن أبى طالب ، وتكلم بها الناس ، وبايع الكثير منهم لبنى الحسن فى الباطن ، وماجت الناس بمصر ، وكاد أمر بنى الحسن أن يتم ، والبيعة كانت باسم على بن محمد بن عبد الله (بن حسن بن الحسن بن على بن أبى طالب . وعلىّ هذا هو ابن محمد النفس الزكية الذى قتله المنصور فى المدينة وأخاه إبراهيم فى البصرة سنة ١٤٥) .

وبينما الناس فى ذلك قدم البريد برأس إبراهيم بن عبد الله بن حسن بن حسن بن على بن أبى طالب فى ذى الحجة سنة خمس وأربعين ومائة ، فنصب فى المسجد أياماً . (أبو المحاسن ١/٢ — ٢) .

وقد بلغ من خوف يزيد بن حاتم من دعاة العلوية أن منع أهل مصر من الحج سنة ١٤٥ هـ . ولم يوفق يزيد بن حاتم فى القضاء على دعوة العلوية فى مصر ، فعزله المنصور سنة ١٥٢ وأقام مكانه عبد الله بن عبد الرحمن حفيد معاوية بن حديج زعيم العثمانية فى مصر وعدو على بن أبى طالب أثناء الصراع بينه وبين معاوية بن أبى سفيان .

ثم استقدمه — بعد أن قُتل عمر بن حفص المُهَلَّبى — فولاه إفريقية والمغرب وشيَّعه إلى فلسطين ، فحسده الأمراء والرؤساء . وكان المنصور يقول : « ما أخطأت فى شىء من تدبيرى إلا فى ثلاثة أشياء : تشييع يزيد بن حاتم . . أرأيت لو نكث ، أكان يحسن بى أن أرجع ، أو كان يحسن بى أن ألقى الجيش بنفسى ؟ ويومَ الراوندية[١] وقوفى على باب الذهب . . أرأيت لو أن رجلا رمانى بسهم ، أليس دمى كان يذهب ضياعاً ؟ وقتلى أبا مسلم وأنا فى الخرق[٢] ، ومعه أهل خراسان ثلاثون ألفاً يعبدونه من دون الله » .

وفى يزيد هذا يقول ربيعة بن ثابت الرَّقِّى من بنى أسد — وقد وفد عليه — أبياته السائرة فى الناس إلى اليوم :

لَشَتَّانَ ما بين اليزيدَين فى الندى ... يزيدُ سُلَيْمٍ والأغرُّ بنِ حاتمِ
يزيدُ سُليمٍ سالَمَ المالَ ، والفتى ... أخو الأَزْدِ للأموال غير مُسالمِ
فَهَمُّ الفتى الأزدىِّ إتلافُ ماله ... وهمُّ الفتى القيسىِّ جمعُ الدراهمِ
فلا يحسب التَّمتام أنى هَجَوْتُه ... ولكننى فضَّلتُ أهلَ المكارمِ

يريد بالتَّمتام — وهو المتردد فى التاء — يزيدَ بن أُسَيْد السلمى . سمّاه المبرد ، وهى من قصيدة حسنة يقول فيها :

أبا خالدٍ أنتَ المنوّهُ باسمهِ ... إذا نزلتْ بالناس إحدى العظائمِ
كفيتَ بنى العباس كلَّ عظيمةٍ ... وكنتَ عن الإسلام خيرَ مزاحمِ

(١) الراوندية جماعة من شيعة فرس ينسبون إلى راوند قرب أصفهان ، أسرفوا فى تشيعهم لعلى بن أبى طالب حتى قالوا إن الروح التى كانت فى عيسى بن مريم حلت فيه ، ودعوا إلى تأليه الأئمة ، وذهبت جماعة منهم إلى عبادة أبى جعفر المنصور ، وقد حاربهم المنصور وقتل منهم كثيرين وحبس كثيرين أيضاً فى سجون بغداد ، فاجتمعوا فى السجن وكسروا أبوابه ، وخرجوا واتجهوا إلى قصر المنصور ، فخرج إليهم بنفسه ، فتكاثروا عليه وكادوا يقتلونه لولا أن أنقذه معن بن زائدة الشيبانى . وقد كافأه المنصور على ذلك بولاية اليمن . وإلى يومه هذا مع الراوندية يشير هنا . (راجع طبرى ، ج ٦ ص ٣٠٧ وما بعدها)

(٢) أى وأنا فى وقت ثورة واضطراب .

ويقال إن ربيعة لما مدحه بهذه القصيدة استبطأ بِرَّه وصِلَتَه فقال :

/ أراني — ولا كفرانَ لله — راجعاً بخُفَّيْ حُنَيْنٍ من يزيد بن حاتم [٢٢-١]

فبلغ ذلك يزيدَ ، فدعا به وقال : « انزعوا خفيه » ، فنُزعا وهو خائف من عقوبته على ذكره خفي حنين ، فملأهما له دراهم ودنانير — وكانا كبيرين كأخفاف الجند — ثم وصله بعد ذلك بصلاتٍ جزيلة . وهذه القصة[1] شبيهة بقصة أبي العتاهية مع عمر بن العلاء[2] حين استمدحه بقصيدته التي يقول فيها :

إني أمِنْتُ من الزمان ورَيْبِهِ لما عَلِقْتُ من الأمير حبالاَ

لو يستطيعُ الناسُ من إجلالهِ لَحَذَوْا له حُرَّ الخدودِ نعالا

ما كان هذا الجودُ حتى كنتَ يا عمرُ ، ولو يوماً تزولُ لزالا

إن المطايا تشتكيك لأنها قطعتْ إليك سَبَاسِباً ورمالا

فإذا وَرَدْنَ بنا وَرَدْنَ مُخِفَّةً وإذا صَدَرْنَ بنا صدرْنَ ثِقالا

فتأخر عنه بِرُّه قليلا ، فكتب إليه يستبطئه :

أصابتْ علينا جُودَكَ العينُ يا عُمَرْ وعزَّ لِما نبغي التمائمُ والنشَرْ

سنَرقيك بالأشعار حتى تملَّها فإن لم تُفِقْ منها رقيناك بالسُّوَرْ

وقال أيضا :

يا ابنَ العلاء ويا ابنَ القَرْمِ مِرْداسِ إني لأُطريك في صَحْبي وجُلاّسي

أُثني عليك — ولي حال تكذِّبني فيما أقول — فأستحيي من الناس

حتى إذا قيل : ما أعطاك من صَفَدٍ ؟ طأطأتُ ، من سوء حالي عندها ، راسي

فأمر حاجبَه أن يدفع إليه المال ، وقال : « لا تدخله عليَّ فإني أستحي منه » . ورُوي أنه وصله عليها بسبعين ألف درهم ، فحسدته الشعراء وقالوا : « لنا بباب

(١) الأصل : القصيدة .

(٢) هو عمر بن العلاء ، معتوق عمرو بن حُرَيْث (انظر : الأغاني : ٣/٤٤ و١٣٧)

الأمير أعوام نخدم الآمال ما وصلنا إلى بعض هذا » ، فاتصل ذلك به فأمر بإحضارهم. وقال : « قد بلغنى الذى قلتم . وإن أحدكم يأتى فيمدحنى بالقصيدة يشبِّب فيها ، فلا يصل إلى المدح حتى تذهب لذة حلاوته ورائق طلاوته . وإن أبا العتاهية أتى فشبَّب / بأبيات يسيرة ، ثم قال : إن المطايا تشتكيك » ، وأنشد الأبيات . [٢٢ – ب]

ومن شعر يزيد بن حاتم :

ما يألف الدرهمُ المضروب خِرقَتنا … إلا لَمَاماً قليـــلا ، ثم ينطلقُ
يَمُرّ مَرًّا عليها وهى تَلْفِظُــهُ … إنى امروٌ لم يُحَالِفْ خِرْقَتِى الوَرِقُ[1].

وتوفى فى شهر رمضان سنة سبعين ومائة .

---

٢١ — الفَضْل بن رَوْح بن حاتم بن قَبِيصة بن المُهَلَّب[2]

ولاّه الرشيد إفريقيةَ ، فقدم على القيروان فى المحرم سنة سبع وسبعين ومائة ، ويقال إنه لم يَلِ إفريقيةَ أجملُ منه ومِن أبى العباس عبد الله بن إبراهيم ابن الأغلب .

---

(١) وردت هذه الأبيات أيضاً فى البيان المغرب لابن عذارى (٨١/١)

(٢) هذا خامس رجل من آل المهلب يتولى أمر إفريقية للعباسيين . والحقيقة أنه منذ قتل الأغلب بن سالم بن عقال فى سنة ٧٦٥/١٤٩ إلى ولاية ابنه إبراهيم سنة ٨٠٠/١٨٤ ، أى فى بدء الدولة الأغلبية . كانت إفريقية فى يد رجال من بيت المهلب بن أبى صفرة فيما عدا فترات قصيرة جداً . وهذا البيت الذى تولى مصائر إفريقية خلال أعصب فترة مرت بتاريخها قبل الأغلبية جدير بدراسة وحده . فقد كان رجاله عرباً خلصاً تتمثل فيهم صفات العرب الأولى فى أجلى صورها . كانوا شجعاناً كرماء ذوى ثبات وحزم وعزم ، وكانوا إلى جانب ذلك – وتلك هى الناحية السلبية من خلقهم – متهاونين لا ينظرون إلى بعيد . ولا يفكرون فى خطة بعيدة المدى لتلافى الأخطار التى أحاطت بإفريقية على أيامهم ، إنما كانوا ينتظرون حتى تشتد الأزمة ويعظم الخطر فيهبون لدفعه فى بسالة وعزم وذكاء وحيلة ، ولم تكن تلك هى السياسة =

واستعمل على تونس المغيرةَ بن بشر بن روح ابن أخيه ، وكانت تونس نظيرة القيروان حتى إن أبا جعفر المنصور كان يقول : « ما فعلت إحدى القيروانَيْن ؟ » ، يعنى تونس .

وكان المغيرةُ غِرًّا لا تجربةَ له بالأمور ولا معرفةَ بتصاريفها ، فاستخفّ بالجند وسار فيهم بما أنكروه ، فكتبوا إلى الفضل بذلك فلم يعزله عنهم ، فقدّموا — فى قصة طويلة — عبدَ الله بن الجارود العبدى[1] وأخرجوا المغيرة .

وكتب ابنُ الجارود إلى الفضل : « إلى الأمير الفضل بن روح من عبد الله ابن الجارود . أما بعد ، فإنّا لم نُخرج المغيرةَ إخراجَ خلافٍ عن الطاعة ، ولكن لأحداث فيها فسادُ الدولة . فوَلِّ علينا من نرضاه ، وإلا نظرنا لأنفسنا . ووَاسِنا بالأسلاف[2] كما كانت الولاةُ تصنع بنا قبلك ، وإلا فلا طاعةَ لك علينا » . وكتب فى أسفل الكتاب :

— الكفيلة بتأمين بلد استعرب أهله وأيقظ الإسلام فيهم وعياً بعيد المدى حفزهم على طلب الحكم والرغبة فى الاستئثار به وإقامة دول عربية مستقلة . وقد قام تفكير الكثيرين منهم على مبادئ الإباضية ، وهى دعوة خارجية سياسية ترمى إلى إنكار حق الاستئثار بالحكم والخلافة على بيت معين ، وتجعل الحكم ولاية يتولاها الأصلح بتراضى المسلمين ، وتدعو من ناحية أخرى إلى التعاون والتآخى بين أفراد الجماعة الواحدة . ولم يسر زعماء الإباضية على هذه المبادئ ، وإن كان أتباعها قد طبقوها فيما بينهم وأنشأوا جماعات عربية إسلامية من التجار والزراع والصناع ، كما نرى عند إباضية جربة . وكان من الطبيعى ألا يستطيع ولاة بنى العباس من آل المهلب الثبات طويلا أمام جماعات الإباضيين ، وكان أكبر ما أضعف الولاة حرص خلفاء بنى العباس على تقصير مدد ولاتهم خوفاً من وثوبهم . وقد تبين بنو العباس خطأهم فى ذلك ، وانتهوا إلى ترك إفريقية فى يد إبراهيم بن الأغلب وأولاده تحت طاعتهم ، وبهذا بدأ عصر جديد فى التاريخ السياسى لإفريقية الإسلامية .

(١) هو عبد الله بن الجارود بن عبدويه . وقد وهم ناشر ابن عذارى فجعله عبد ربه .

(٢) الأسلاف هنا مصطلح خاص لم أجد له تعريفاً فيما بين يدىّ من المراجع ، ولكنى فهمت من التفصيل الطويل الذى يقدمه النويرى عما وقع بين الفضل بن روح وعبد الله بن الجارود بن عبدويه أن الأسلاف كانت معاونات مالية يرسلها الولاة إلى الظاهرين من أهل النواحى —

ألا مَن مُبلِغٌ الفضلَ بنَ روحٍ   وصِـــدقُ القولِ زَيْنٌ للرجالِ
بأنك حين وَلَّيْتَ ابنَ بِشْرٍ   علينا غـــيرُ محمودِ الفعالِ
فوَلِّ سِواهُ أو كُنْ رهنَ حربٍ   تُغَصُّ بها على الماء الزلالِ
وإن لم تعطنا الأسلافَ طوعاً   أجبتَ لها بِكَرْهٍ بالعوالي(١)

فأجاب الفضلُ عن ذلك برميهم بالخلاف ، ويُؤيِسُهم من الأسلاف ، وكتب فى آخر كتابه :

[٢٣-ا] / أتانى عنك ما ستنالُ منهُ   وبالاً إن عَصَيْتَ على العِقالِ
فإنْ تَرجعْ تنلْ سَلْماً وأمناً   وإن تجمحْ فلستَ بمُستَقالِ
وإنَّ لِمَنْ أطاع عليك فضلا   كفضلِ يد اليمين على الشمالِ
ولستَ بمدرك الأسلاف حتى   تناوَلَهُنَّ قسْراً بالعوالى

ثم بعث عبدَ الله بن يزيد المهلبى والياً وضم إليه كثيراً من أصحابه . فأخرج ابنُ الجارود جماعة يختبرون ما قَدِموا له ، ونهاهم عن الحرب . فلقوهم بسبخة تونس فقتل عبدُ الله — فى خبر يطول ذكره — وأُسر القوادُ الذين معه . وأدى ذلك إلى محاربة الفضلِ بالقيروان ، فغلب عليها فى جمادى الآخرة سنة ثمان وسبعين

حول فسه حمد ت يعصو بن حبيب بولاة ؛ صرعهم مع ثائرين عليهم . وقد قطعها الفضل بن حاتم وو سه من يونس معيرة من سرى روح ، وهو من أحى الفضل .

حصر سويرى ، سية الأرب ، حوءات حصب بإفريقية والأندلس ، نشرهما ماريانو حسير ريڤيرو فى :

Revista del Centro de Estudios Históricos de Granada y su Reino. Granada.

أت ء من عدد ربع (محمد خامس) سنة ١٩١٥ واقتطعه الخاصة بالحوادث التى نشير إليها واردة فى عدد سن من شه سابع (سنة ١٩١٦) ص ١٢٧ – ١٤١ .

وسنسير بعد هذا مرجع من آت فصاعداً مصدرة ، سية الأرب لسويرى .

(١) الأصل دعوب وعوه هى سيوف .

ومائة ، وسُيِّر فى أهل بيته ، ثم استُرجع من طريقه وهو متوجه إلى قابس ، فحُبس مع رَجُلين من أصحابه ، ثم دخل عليه الجند فقتلوه فى محبسه . ومن شعر الفضل :

ومارَسْتُ هذا الدهرَ خمسين حجةً ونِصفاً أُرَجِّى قابِلاً بعدَ قابلِ
فلا أنا فى الدنيا بلغتُ جسيمَها ولا فى الذى أهوَى كَدَحْتُ بطائلِ
وقد أشْرَعَتْ فينا المنايا أكفَّها وأيقنتُ أنّى رهنُ موتٍ مُعاجلِ

---

٢٢ — سعيد بن يزيد بن حاتم المهلبي

لما عَظُم على الفضل بن روح أمرُ ابنِ الجارود وخروجه عليه بتونس وزحْفه إليه ، جمع أهل بيته وقال : « ما ترون فى هذا الأمر الذى لا يخُصُّنى دونكم ؟ » فكثرت الآراء ، فقال ابن عمه سعيد : « أطِعْنى اليومَ واعصَنى فيما يستأنف . سُدَّ أبوابَ المدينةِ كلَّها إلا باباً واحداً ، ونُدخل ما يحتاج إليه الحصارُ سنةً . فوالله لكأنى أنظُر — إن لم تفعلْ ذلك — قد دُخِل عليك من آمَنِها عندَك » . وقال فى ذلك يخاطب الفضل :

أرى الحربَ قد مدتْ إلينا بِساقِها وقلبُك يقظانٌ شبيهٌ بنائمِ
فخذ لِنُهود الحرب أهبةَ يومِها وشمِّرْ لها الأذيالَ قبلَ التنادم
/فإن كنتَ تَحمى الغَرْبَ فاشدُدْ لها القُوَى تنلْ ظفراً ، أو تلقَ موتَ الأكارم [٢٣-ب]
فليس يُريدُ القومُ إلا نفوسَنا أو النَّفْىَ منها يا ابنَ روحِ بن حاتم

وقال أيضا :

ألا قُلْ لفضلٍ إنَّنى لك ناصحٌ فلا تسمعَنْ مما يُشير ابنُ واقدِ(١)

فإنك إن تسمعْ لأقواله تَمُدْ إلى أسَدٍ فى كُبَّةِ الخيلِ لا بِدِ

ستذكر قولى حينَ ليس بنافعٍ إذا شَقَّتِ الأرماحُ نحرَ القلائدِ

فخالفه الفضلُ فكان ما تقدم من أمره .

٢٣ ــ أخوه عبد الله بن يزيد بن حاتم

كان مع ابن عمه الفضل بن روح بن حاتم فى حروبه بإفريقية ، ثم قُرِفَ عنده بممالأة عدوه الخارج عليه ابنِ الجارود المعروف بعَبْدُويَه ، فنغل صدرُ الفضلِ عليه حتى كتب إليه :

أرى ألسُنَ الحسادِ فيك كأنها سهامٌ تَهاوى من قِسِيٍّ نِصالِ

---

(١) لم نستطع التعرف على ابن واقد هذا ، ولكن يغلب على ظنى أن المراد به محمد بن يزيد الفارسى ، وكان من كبار رجال الفضل بن روح بن حاتم ، وكان سعيد بن يزيد بن حاتم يشك فيه ويحذر عمه الفضل منه . وقد كان اختلاف آراء رجال الفضل سبب ضياع أمره ، وقد أشار ابن عذارى إلى ذلك بقوله بعد أن ذكر القتال الأول بين الفضل وابن الجارود وحصار هذا الأخير للقيروان : « فاجتمع الفضل مع بنى عمه وخاصته ، وتشاور معهم فى أمره فاضطرب الأمر عليه ، ولم يصح له أمر » . وقد انتهى الأمر بدخول ابن الجارود القيروان واستيلائه على الأمر ، ثم أخرج الفضل وجعله فى حراسة نفر من رجاله ليخرجوه من حدود إفريقية ، ولكن ابن الجارود قتله بعد ذلك فى شعبان سنة ١٧٨/ أكتوبر ٧٩٤ (ابن عذارى : ١/٨٨ — ٨٩) . وقيل قتله حاول محمد بن يزيد الفارسى (وأظن أنه ابن واقد) الدفاع عن نفسه ، وأشار على رجال ابن الجارود بألا يقتلوه ، فلم يسمعوا له . (النويرى ١٢٧ — ١٢٩) .

يقولون قد كاتبتَ عَبْدُوِيَ[1] في التى ... إذا نالها أولئكَ شرٌّ وبالِ
وقالوا وعدتَ القومَ عندَ لقائهم ... رجوعاً عن الهَيْجا بغير قتال
وليس الذى مَنَّاكَ عَبْدُوِيُ كائناً ... فدعْهُ ولا تَركَنْ لقولِ ضلال
ألا إننى لم أُمْسِ فيكَ مُصَدِّقاً ... لأقوالهم ، والصدقُ خيرُ مقال

فلما وردت الأبيات على عبد الله علم أنه اتهمه ، فأجابه بقوله :

لَعَمْرُكَ لولا ما اتُّهِمت لما أَتَتْ ... قوارضُ أبداهُنَّ شَرُّ مقالِ
أظنَّ ابنُ روحٍ أننى كنتُ قاطعاً ... يمينى التى أسطو بها بشمالى[2]
وهَبْنِى تناولتُ التى كنتَ خِفْتَها ... فكيف اعتذارى فيك بعد فِعالى[3]
فلا تحسبَنِّى مُسلِماً إن لقيتهمْ ... لأسيافهم ظهرى بغير قتال

فقال الفضل عند قراءة جوابه : « لو كان حسادنا يتركون البَغْىَ على حال لتركوه على مثل حالنا هذه » . ثم أخرجه إلى قتال عَبْدُوِيَه بن الجارود فهزمه عبدُ الله بن يزيد ، ثم عاوده الحرب فهزمه عبدُويَه / وانصرف عبد الله إلى [٢٤ – ا]

---

(١) المراد هنا عبد الله بن الجارود بن عَبْدُوَيه الذى عرف بأبيه ، وقد كان عدوّ الفضل ابن روح وزعيم الخارجين عليه ، وتمكن من قتله وإخراج بقية بنى المهلب من إفريقية وتولاها سبعة أشهر انتهت فى ربيع الآخر سنة ١٧٩/ يونيو ٧٩٥ بقدوم هرثمة بن أعين أميرًا على إفريقية من قبل الرشيد . وقد قص النويرى عمل ابن الجارود فى خروجه من إفريقية بتفصيل (١٢١ – ١٣١) .

هذا وضبط اسم عَبْدُوِى على هذه الصورة فى شعر الفضل وابن عمه عبد الله يدل دلالة واضحة على أن الاسم كان ينطق عَبْدُوَيه متابعة لنطق الفارسى ، لا عَبْدُويَه كما تعودنا أن نقرأ . وهذا يؤيد ما ذهب إليه المستشرق إينو ليتمان من أن الأسماء التى تنتهى بـ « ويه » مثل سيبويه ينبغى أن تنطق سِيبُوَيه ونِفْطُوَيه وخالُوَيه . وهكذا كان العرب ينطقونها كما ترى فى هذا الشعر .

(٢) فى الأصل : بشمال .

(٣) فى الأصل : بفعال .

القيروان مفلولاً ، فكان مع ابن عمه الفضل إلى أن تكلّب عليه ابنُ الجارود ، ثم قتله بعد أن استرجعه من طريقه ، وأطلق عبد الله بن يزيد وأمره وأخاه المهلب بن يزيد ونصر بن حبيب وجماعتهم بالتجهز والخروج من إفريقية ، فخرجوا إلى المشرق .

٢٤ — سليمان بن حميد الغافقي ، أبو داوود[1]

فارس العرب قاطبة بالمغرب في عصره ، وأحسن الناس لسانا ، وأبلغهم إلى معرفةٍ بأيامِ العربِ وأخبارِها ، وروايةٍ لوقائعها وأشعارها ، مع دعابة كانت فيه وعبثٍ لا يدعه ؛ حُملتْ عنه في ذلك نوادر مستطرفة وحكايات مستملحة .

وخافه عبدُ الرحمن بن حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع الفهري فسجنه وأخاه محمداً ، ولم يكن بِدُونِه . وكان محمد — وهو أكبر من سليمان — والياً على الأُرْبُس ، فثار على عبد الرحمن بن حبيب . وسرحهما إلياس بن حبيب — حين قتل أخاه عبدَ الرحمن[2] — ووَلِيَ إفريقيةَ بعده ، واستعان بهما في ذلك وعاش

(١) فرغ ابن الأبار بعد الترجمة لعبد الله بن يزيد بن حاتم من أمراء العصر الأول في المغرب والأندلس الذين روى لهم شعر ، وبدأ بعد ذلك بالترجمة لمن عاصرهم من وجوه الناس ممن أُثر عنه شعر ، وبدأ بسليمان بن حميد الغافقي هذا ، وكان معاصراً لعبد الرحمن بن حبيب الذي سنتحدث عنه في التعليق التالي .

(٢) عبد الرحمن بن حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع الفهري مغامر كبير قضى عمره كله في طلب الولاية والفتن والقلاقل في الأندلس والمغرب . وقد ظهر أمره بعد مقتل كلثوم ابن عياض القشيري في معركة حامية دارت بينه وبين خالد بن حميد الزناتي خليفة ميسرة المدغري وأنصارها من الإباضيين والصُّفْريين ، وكان أبوه حبيب بن أبي عبيدة يتولى قتال خالد بن حميد الزناتي قبل أن يأتي كلثوم ويتولى القيادة دونه ، فنقم حبيب بن أبي عبيدة واختلف مع كلثوم ابن عياض القشيري ، وكانت النتيجة انهزام كلثوم ومقتله وفرار حبيب بن أبي عبيدة إلى =

سليمان [... ...][1] يزيد بن حاتم المهلبي فقصدوا قَسْطِيلِيَة . وهو القائل في يوم أبي زرجونة[2] :

وما إن صَدَدنا عنهمُ خوفَ بأسِهِمْ ... وحاشا لنا أن نتقي بأسَ بَرْبَرَا
وإنا إذا ما الحربُ أُسْعِرَ نارُها ... لَنَلْقَى المنايا دارعِينَ وحُسَّرَا
ونغدُو بصبرٍ حين تشتجرُ القَنا ... فلستَ ترى منا على الموت أصبرا
ولـكنْ أردنا ذلَّ قومٍ تطاولوا ... علينا وأبدوا نخوةً وتـكبرا

= إفريقية بطائفة من فل الجيش وفَرَّ بلج بن بشر ابن أخت عياض بطائفة أخرى إلى المغرب حيث تحصنوا بسبتة كما روينا . وفي أثناء ذلك هرب عبد الرحمن بن حبيب إلى الأندلس ، وحاول الوصول إلى السلطان فيها ففشل ، فعاد إلى إفريقيه في جمادى الأولى سنة ١٢٧ ، وجمع نفراً من أنصار بيته – بيت عقبة بن نافع – وسار لمقاتلة حنظلة بن صفوان الذي تولى أمر إفريقية في ربيع الآخر سنة ١٢٤ . وقد رأى حنظلة من سوء فعل عبد الرحمن وقلة تورعه عن أي عمل للوصول إلى السلطان ما جعله يمل العمل في إفريقية فتركها في جمادى الآخرة سنة ١٢٧/ مارس ٧٤٥ وانفرد بأمرها عبد الرحمن بن حبيب ، وثار عليه معظم رؤسائها ، فخاض معهم حروباً طويلة انتصر فيها ، وتمكن من أن يستصدر من مروان بن محمد أمراً بإقامته والياً على إفريقية والأندلس . ولما انتقل الأمر إلى العباسيين دخل في طاعة أبي عبد الله السفاح ثم انقلب عليه . وكان يعينه في ذلك كله إخوته إلياس وعمران وعبد الوارث . ثم اختلف مع أخويه إلياس وعبد الوارث ، فدبرا اغتيال أخيهما عبد الرحمن وإعادة الدعوة لبني العباس ، وتمكنا من قتله . وتولى الأمر إلياس بن حبيب ، ولكن حبيب ابن أخيه عبد الرحمن لم يسكت لمقتل أبيه وانضم إليه عمران . ودارت رحى حرب طويلة انتصر فيها حبيب بن عبد الرحمن بن حبيب على عمه إلياس وقتله ، وتولى أمر إفريقية . وهرب عبد الوارث أخو إلياس وحليفه إلى قبيلة من البربر تسمى وَرْفجومة وثار على حبيب بن عبد الرحمن ، ولم يستطع هذا الثبات لورفجومة وزعيمها عاصم بن جميل ، فانهزم وقتل في محرم سنة ١٤٠/مايو ٧٥٧ . « وكانت ولاية عبد الرحمن ابن حبيب ١٠ سنين وأشهراً ، وولاية إلياس ٦ أشهر ، وولاية حبيب بن عبد الرحمن سنة واحدة و٦ أشهر » . النويري : ٤١ – ٤٦ .

(١) بياض بالأصل ، يمكن ملؤه بعبارة مثل ، وبنوه إلى أيام » .

(٢) لم أجد تعريفاً بهذا اليوم فيما بين يدي من المراجع .

٢٥ — عبد الله بن الجارود العَبْدى ، ويقال له عَبْدُوَيه

لما غَلب على القيروان ، وأخرَج الفضلَ بن روح ثم رده وأرداه ، بَعُد صيته واستغلظ أمرُه ؛ وزحف إليه مالك بن المنذر الكلبي من « مِيلَة » في جند حمص ثائرين بالفضل . فصُرِع مالك بسهم في تقاتلهما ونجا ابن الجارود . ثم زحف إليه العلاء بن سعيد المهلبي من الزاب — ولم تكن لابن الجارود به طاقة — فصادفه قد خرج من القيروان يلاقي خليفة هرثمة بن أعيَن ، وقد قدّمه بين يديه ، وذلك

[٢٤ - ب] / مُستهلَّ صفر سنة تسع وسبعين ومائة . وكان الرشيدُ لما بلغه خبرُ ابن الجارود قد وجّه إليه من تلطّف به حتى أقدمه عليه ، وكانت أيامُه سبعةَ أشهر . وقدم هَرثمةُ بن أعيَن والياً على إفريقية .

ومن شعره عند فتكه بمحمد بن الفارسي ، وكان من أصحابه ثم خرج عليه في أهل خراسان ومن أطاعه ، وتناهضا للحرب فمكر ابنُ الجارود به ، ودعاه إلى الكلام ، وأمر شجاعاً من فرسانه إذا رآه معه أن يفتك به ، فتم ذلك وانهزم أصحابه . وقال ابنُ الجارود في ذلك[1] :

---

(١) [illegible] روح بن حاتم . [illegible] (١/٨٦ - ٨٨) [illegible] ٣٠ [illegible] وردها النويرى [illegible] — كان [illegible] الجارود طالما كان [illegible] إفريقية أرسل معه رجالا من ثقاته [illegible] خراسانية ، وكان كثير من جند إفريقية [illegible] روح بن حاتم ومن كان يؤيده [illegible] الجارود بالعودة إلى الطاعة ، ولكنه [illegible] ، واتفق مع محمد بن يزيد الفارسي على أن —

لقد رامنى ابنُ الفارسىّ بكيدِه فوافقَ أمضى منه عزماً وأَكْيَدا
عشيةَ أدعوه[١] ليسمع منطقى فأعجزه إصدارُ ما كان أوردا
فداريْتُه حتى اطمأن جنانُه وكنتُ امرءاً مثلى أغار وأنجدا
أشرتُ إلى ذى نجدةٍ[٢] فانكفا لهُ بأسمرَ خَطِّىٍّ إذا مال أقصَدا
فما زال قابَ القوس إلا وعاملُه[٣] من الرمح دامٍ بين حَضْنَيْه[٤] قد بَدَا
فقل للعَلاء[٥] : قد أصابتْ محمداً مَنِيَّةُ يومٍ ، فارتقبْ مثلَها غدَا

= يترك ابن الجارود «ووعده بالتقدم وقيادة ألف فارس وصلة وقطيعة في أي المواضع شاء ، على أن يفسد حال عبد الله بن الجارود ، ففعل ذلك ، وسعى في إفساد أمور على ابن الجارود» ، وقد عرف ابن الجارود كيف ينتقم منه . فلما التقيا للحرب دعاه ليتحدث معه كأنه يريد أن يعرض عليه أمراً قبل القتال ، فانخدع محمد بن يزيد الفارسي وخرج إليه ، وكان ابن الجارود قد أرصد له رجلا من أنصاره يسمى أبا طالب ، فانقض عليه أثناء الحديث وقتله .

(١) الأصل «يدعوه» ، وقد قومناها بالسياق .

(٢) الإشارة هنا إلى أبي طالب الذي ذكرناه .

(٣) عاملُ الرمح وعاملته صدره دون السنان ، ويجمع عوامل ، وقيل عامل الرمح ما يلي السنان (اللسان ٤/٥٠٥) .

(٤) كذا في الأصل ، والحركات واردة في الأصل . وهي خطأ في معظمها ، والأغلب أنه «حِضْنَيْه» ومعناه هنا جنبيه .

(٥) هو العلاء بن سعيد ، كان [illegible] بن روح بن حاتم [illegible] ثم قتل ابن الجارود [illegible] روح [illegible] وقد تولى [illegible] . وكان من أصحاب [illegible] محمد بن [illegible] الكسي عامل «ميلة» [illegible] مع ابن الجارود [illegible] فأرسل [illegible] العلاء بن سعيد فاستقدمه من الزاب . وكان في جند [illegible] فقتل العلاء بن سعيد [illegible] الموضع الذي قتل فيه [illegible] واجتمع [illegible] ووجه [illegible] الكلاعي وغيرهما من القواد . [illegible] هرثمة بن أعين [illegible] فأرسل هرثمة يحيى بن موسى ، وكان من [illegible] ابن الجارود [illegible] في الطاعة ، فلما [illegible] هرثمة أحب [illegible] وصلة [illegible] الخروج =

وهو القائل أيضاً فى مصرع مالك بن المنذر ، يخاطب العلاء بن سعيد عند ما زحف إليه :

أفى كلّ يوم ثائرٌ قتلتُــــه بفضلٍ[1] ، وما ينفكُّ للفضلِ ثائرُ
قضيتُ لنفسى النَّذْرَ فى قتلِ مالكٍ وإنى لها قتلَ العلاءِ لَناذرُ
فما للعـــلاء خيرةٌ فى لقائنا وليس له فى الناس إن مرّ عاذرُ

---

٢٦ — مالك بن المنذر الكلبى ، أبو عبد الله

كان والياً على « مِيلَة » ، فدعاه جند حِمص وغيرُهم من العرب فأمَّروه لطلب ثأر الفضل بن روح . واجتمع إليه الناس والتقى هو وابن الجارود فانهزم أصحابُ مالك ، فترجَّل عن فرسه وشدَّ فى نفرٍ من أصحابه وهو يقول :

يا موتُ إنى مالكُ بنُ المنذرِ أهيكُ حَشْوَ النَّيْصِ والسَّمَوَّرِ
/أقتُلُ مَن صابَرَ أو لم يصبرِ كأنى أفعلُ ما لَمْ يُقْدَرِ [٢٥-١]

= من [illegible] وقد [illegible] ومع [illegible] فيه تركت شعره [illegible] فأخذوه ، وقتلوا [illegible] ، [illegible] فأكون شأم حلق على هذا العرب ، ولكن أحرح [illegible] . [illegible] قتلوه هزيمة [illegible] . ولم يستطع ابن الجارود [illegible] وقد استوى العلاء على القيروان [illegible] وقد [illegible] من [illegible] بخراج ابن الجارود من المغرب وتخييمه [illegible] ١٠٠ ألف درهم سوى الكساء ، [illegible] وكان [illegible] سنة ١١٥ هـ/١٥٥ [illegible] ١٢٩ — ١٣٠ .

(١) [illegible]

فخرج إليه ابنُ الجارود وهو يقول :

إلىَّ فادْنُ ، مالكَ بنَ مُنذرِ أنا الذى قتلتُ ربَّ المِنبرِ (١)
جرَّعتُــه كأسَ الحِمامِ الأحمرِ فاصبرْ ستلقاهُ وإن لم يَصبرِ

فقُتل مالك بسهم وانهزم أصحابه .

---

٢٧ ـــ العلاء بن سعيد بن مروان المهلبى

كان والياً على الزاب ، فأقبل منها لمحاربة ابن الجارود . ولما وصل إلى الأُرْبُس اجتمع مع أهل الشام ، وبلغ ذلك ابن الجارود فقال : « أفى كلِّ يومٍ ثائرٌ قد قتلتُه » . . الأبيات الرائية المتقدمة ، وكتب إليه كتاباً معها فجاوبه العلاء عنه وقال يخاطبه :

لعمرك يا عَبْدُوىَ ما كنتُ تاركاً دمَ الفضلِ أو يكسُونِيَ الترب ثائرُ
نذرتَ دمى فانظرْ إذا ما لقيتَنى على مَن بكأسيْها تدور الدوائرُ
ستعلمُ إنْ أنشبتُ فيك مخالبى إلى أىِّ قِرْنٍ أسلمْتكَ المقادرُ

ثم أقبل العلاء فصادف ابنَ الجارود قد خرج إلى يحيى بن موسى خليفةِ هَرثمة بن أعيَن ، فكان العلاء يدَّعى أنه الذى أخرج ابنَ الجارود من إفريقية .

---

(١) الإشارة هنا إلى مفضل بن روح بن حاتم أيضاً .

٢٨ – إبراهيم بن محمد بن إبراهيم بن مُزَين الأَوْدى[١]

أصلُ سَلَفه من أُكْشُونُبَة ، وصارتْ بها لعَقِبه رئاسةٌ بعد افتراق الجماعة بقُرْطُبَة إلى أن غَلَب على آخرهم للمعتضد عباد بن محمد صاحب إشبيلية .

وسكن إبراهيم هذا — وهو والد يحيى بن إبراهيم بن مُزَيْن الفقيه صاحب تفسير الموطأ — قرطبةَ ، وكان يتعاقب مع الُحجّاب وجِلّةِ الوزراء والقوادِ فى أيام الحكم بن هشام . ثم ولاه إمارة طُلَيْطِلَةَ أعواماً متصلة ، وكان قد وَلِيهَا قبلَه جدُّه إبراهيمُ بنُ مُزَيْن الكاتب ، وابنُ الفَرَضِيّ يجعل بنى مزين موالى رَمْلَة بنتِ عثمان بن عفان / رضى الله عنه . وإبراهيمُ بن محمد هو القائل : [٢٥ - ب]

بِأَبِى أنت من غزالٍ مليحٍ ليس فيه لمَنْ تأمّلَ « لَوْلاَ »
روضةُ الُحسْنِ فيكَ تُزْهِى ولكنْ كل حوْل يَبْقى ربيعُك حوْلاَ

---

٢٩ – محمد بن مقاتل بن حكيم العَكّى

ولاه الرشيدُ إفرِيقيةَ بعد هَرْثَمة بن أَعْيَن ، وكان — فيما يقال — رضيعَ

---

(١) بنو مَزين أسرة معروفة فى الأندلس ، وأشهر رجالها محمد بن عيسى بن مَزين المؤرخ والفقيه المعروف . ولم أجد عن إبراهيم هذا إلا إشارة يسيرة يبدو أنها تدور على جده إبراهيم بن مَزين أيضاً (الضبى . بغية الملتمس ، رقم ٥٢١ ص ٢١٠) . أما يحيى ابنه فقد ترجم له ابن الفرضى وقال إنه مولى رملة بنت عثمان بن عفان رضى الله عنه ، من أهل قرطبة وأصله من طليطلة ، وهو تلميذ عيسى بن دينار ويحيى بن يحيى والغازى بن قيس وطبقتهم ، أى أنه من الطبقة الثانية من مالكية الأندلس . وله كتب كثيرة ذكرها ابن الفرضى (رقم ١٥٥٦ ج ٢ ص ٤٦ – ٤٧) توفى ١٢ جمادى الأولى ١٧/٢٥٩ مارس ٨٧٢ .

الرشيد . وكان جعفرُ بن يحيى شديدَ العناية به ، فقدم القَيْروان سنة إحدى وثمانين ومائة فى رمضان ، وكان أبوه مقاتل بن حكيم من كبار القائمين بالدعوة العباسية ، وحضر مع قَحْطبة بن شبيب حروبَ المروانية ، ثم قتله عبد الله بن على لما خَلَعَ وادعى الأمر .

ولم يلبث محمدُ بن مقاتل أن اضطرب أمرُه ، واختلف عليه جندُه ، وخرج عليه بتونس تَمّام بن تَميم التميمى — وكان عاملَه عليها ، وهو جد أبى العرب محمد بن أحمد بن تميم بن تمام صاحب « طبقات إفريقية » — فزحف إلى القيروان فى رمضان سنة ثلاث وثمانين ، فخرج إليه ابنُ العَكّى فانهزم ، ودخل تمام القيروان فى آخر رمضان المذكور ، فأمَّنه على دمه وماله على أن يخرج عنهم .

وكان إبراهيم بن الأغلب والياً على الزاب ، فنهض منها فى نصرة محمد بن مقاتل . وعلم تمامٌ أنه لا طاقة له به ، فتخلى عن القيروان ورجع إلى تونس .

ودخل إبراهيمُ القيروان ، فبدأ بالمسجد فصلى ركعتين ثم صعد المنبرَ فخطب الناسَ وأعلمهم أن أميرَهم محمدُ بن مقاتل . وكتبَ إليه فأقبل راجعاً[1] .

وأراد تمامٌ أن يُحَرِّش بينهما فكتب إلى محمد بن مقاتل كتاباً فى آخره[2] :

وما كان إبراهيمُ مِنْ فَضْلِ طاعةٍ ... يَرُدُّ عليكَ الثَّغرَ لكنْ لتُقْتَلا
فلو كنتَ ذا علمٍ وعقلٍ بكَيْدِهِ ... لَمَا كنتَ منه يا ابنَ عَكٍّ لتَقْبلا
فهما تَشَأْ يَنفعْك منه ابنُ غالبٍ ... ومهما يَشَأْ فيك ابنُ أغلبَ يفعلا

---

(١) ورد النويرى (١٣١ – ١٣٢) وابن عذارى (٩٠/٢) الخبر بتفصيل . قال ابن عذارى : « فدخل ابن الأغلب القيروان ، وابتدر المسجد الجامع ، وصعد المنبر ، وكان بليغاً ، فأعلم الناس أنه ما وصل إلا لنصرة محمد بن مقاتل ، وأنه هو أميرهم المنعم عليهم من أمير المؤمنين ، وكتب إلى العكى يخبره بما فعل فى حقه ، ويؤكد عليه فى الوصول . فأقبل راجعاً . . »

(٢) راجع نص هذا الكتاب عند ابن عذارى : ٩١/٢ .

فجاوبه العكيُّ بنقيض ذلك وكتب فى أسفل كتابه :

٢٦-ا] / وإنى لأرجو إنْ لقيتَ ابنَ أغلبٍ غداً فى المنايا أن تُفَلَّ وتُقتَلا

تُلاقِ فتىً يستصحِبُ الموتَ فى الوغى ويَحمى بصدر الرمح عزًّا مؤثَّلاَ

كأنكَ قد صافحتَ فى بطن كفهِ من البيضِ محمودَ المهزّة مِقْصَلا

وأقبل تمام ثانيةً فى عسكرٍ ضخم ، فخرج إليه إبراهيمُ وابنُ العكى وراءه ، فانهزم تمامٌ عند التقائهما . وعاد ابنُ العكى إلى القَيْروان واتبعه[1] إبراهيم إلى تونس ، فطلب منه الأمان فأمّنه ورحل به إلى القَيْروان . وبعقب هذا ورد كتابُ الرشيد بعزل ابن العكى وتوليةِ إبراهيم بن الأغلب .

٣٠ — الخصيب مولى ابن العكى

قدَّمه محمد بن مقاتل مولاه لحرب مخلد بن مرة[2] — الخارجِ عليه قَبْل تمام بن تميم — وأمّره على الجيش الناهد صُحبته ، فصبَّح القومَ آمَنَ ما كانوا ؛

---

(١) كذا فى الأصل عن تمام بن تميم . ويبدو أن الناسخ أسقط هنا شيئاً ، وإليك الخبر كما يقصه ابن عذارى فى حوادث ١٨٣/٧٩٩ و١٨٤/٨٠٠ : «وأقبل تمام من تونس بعسكر عظيم . وأمر ابن العكى من معه من أهل الطاعة بالخروج إليه مع إبراهيم بن الأغلب ، فتقاتلوا قتالاً شديداً . فانهزم تمام . وانصرف ابن العكى إلى القيروان ، وأمر ابراهيمَ بن الأغلب بالمسير إلى تونس . وفى سنة ١٨٤ خرج العسكر من القيروان لحصار تونس وقتال تمّام وذلك فى المحرم منها . فلما بلغ تماماً قدومه طلب الأمان منه ، فأمّنه إبراهيم ، وأقبل به إلى القيروان يوم جمعة ، لثمان خلون من المحرم المذكور» (٢/٩٢–٩٣) .

(٢) زيادة فى التعريف بالحوادث التى يذكرها ابن الأبار هنا نورد الفقرة التالية من نهاية الأرب للنويرى (ص ١٣١) : «ولما كتب هرثمة [ابن أعين] إلى هارون [الرشيد] يسأله الإعفاء وجَّه محمد بن مقاتل [العكى] أمير المغرب ، وكان رضيع هارون ، فقدم القيروان فى شهر رمضان سنة ١٨٠ ، ولم يكن بمحمود السيرة ، فاضطربت عليه أحواله واختلفت جنده ، =

وهم خمسمائة من أهل خراسان والشـــام . وكان الذى هاج ذلك فلاَح بن عبد الرحمن الـكلاعى ، فقتل مخلد بن مرة أميرَهم وعدةً ممن كان معه ، وانهزم أصحابه إلى تونس . ومرَّ الخصيبُ بمنزل فلاح فأحرقه ، وأخذ امرأته فانطلق بها وقال فى ذلك :

لو كنتَ حُرًّا يا فلاحُ صبرتَ لى   وحميتَ عِرْسَكَ والفتى يَحْمِى
لـكنْ هربتَ من القِراع وأسلمتْ   كفَّاكَ حُرْمَتَهَا على الرَّغْمِ
ما النجمُ أبعد منك — لوْ طالبتَهُ   لتنـــاله بيديْك — مِن سَلْمِى

٣١ — تمام بن تميم الدارمى التميمى ، أبو الجهم
القائم على ابن العكى المذكور آنفاً

وهو ابن عم إبراهيم بن الأغلب . قد تقدم من خبره وشعره ما أغنى عن إعادته هنا ؛ وفى « الـكتاب المُغْرِب عن أخبار المَغْرِب » تأليف أبى على الحسن بن أبى سعيد القيروانى ، أن تماماً هذا لما سمع بحركة إبراهيم بن الأغلب إليه من الزّاب فى محاربه ونصْر ابن العَكِّيّ ، كتب إليه كتاباً يستدعيه ويستعطفه وكتب فى أسفله :

— وكان سبب الاضطراب عليه أنه اقتطع من أرزاق الجند وساء السيرة فيهم وفى الرعية ؛ فقام فلاح [بن عبد الرحمن الكلاعى القائد] ، ومشى فى أهل الشام وخراسان ، حتى اجتمع رأيهم على تقديم مرة بن مخلد الأزدى (وفى مخطوط آخر : الأسدى ، وكذلك عند ابن عذارى وابن الأثير) وخرج عليه بتونس تمام بن تميم التميمى ، وكان عامله عليها ، فبايعه جماعة من القواد وأهل الشام وأهل خراسان ، فخرج فى النصف من شهر رمضان سنة ١٨٣ إلى القيروان ، وخرج إليه ابن العكى ، فيمن معه ، فقاتله قتالا شديداً فى « مُنية الخيل » فانهزم ابن العكى ، ودخل القيروان ، وتحصن فى دار كان قد بناها ، وجلا عن دار الإمارة . . » ، وقد أضفت الحواصر والأقواس وما بينها زيادة فى التوضيح .

[٢٦ - ب] / أقدِّم إبراهيمَ عِلماً بفضلِهِ وحُقَّ له فى الأمر أن يتقدَّما
وقلتُ له : فاحكمْ فحُكمُكَ جائزٌ علينا فقد أصبحتَ فينا مُقدَّما
ورُدْ فى بلاد الزابِ ما شئتَ قادراً وإن شئتَ مُلكَ الغربِ خُذْهُ مُسلَّما

فجاوبه ابن الأغلب بخلاف ذلك وكتب إليه فى أسفل كتابه :

دعوتَ إلى ما لو رضيتُ بمثله لما كنتُ — يا تمّام — فيه مقدَّما
سأجعلُ حُكمى فيكَ ضربةَ صارمٍ إذا ما علا منكَ المَفارقَ صَمَّما
ستَعلمُ لو قد صافحتْك رماحُنا بكفِّ المنايا ، أيُّنا كان أظلَما

فذُكر عن فلاح الكلاعى أنه قال : « كنت عند تمام يومَ قرأ كتاب إبراهيم ، فذهب لونُه ثم ارتعد حتى سقط الكتاب من يده » . وكان صارماً شجاعاً مُمَدَّحاً ، وفيه يقول الفضلُ بن النَّهْشلى يمدحه من قصيدة :

أصحتْ ومنزلُها مِصرٌ ومنزلُنا بالقيروان ، ويا تَشْواقَ مُغتَرِبِ
أخا بنى نَهْشَلٍ ، دَعْها فقد نزحتْ وامدحْ قَريعَ مَعَدٍّ واحدَ العربِ
تمامُ كَبْشُ بنى عَدْنانَ قاطبةً الدارِمىُّ الكريمُ البيتِ والنسبِ
الفارسُ البطلُ الحامى حقيقتَهُ والناعِشُ الرائشُ الفرّاجُ للكُرَبِ
تأوى إليه نِزارٌ حين يَدهَمُها رَيْبُ الزمان وتخشى سطوةَ النُّوَبِ
أعطتْ بنو دارِمٍ فى مجد رايتَها بنى المُحجِّلِ يومَ الفخرِ والحَسَبِ

قال أبو العرب ، وذَكَرَ ولايةَ جدِّه تمام هذا إفريقيَّةَ بعدَ محمد بن مقاتل العَكّىّ : « تمامُ بن تميم : هذا هو جدُّنا ، هو ابن القادم من المشرق » . قال : « وتوفى سنة سبع وثمانين ومائة ببغداد » .

وفى « الكتاب المغرب عن أخبار المغرب » أن إبراهيم بن الأغلب لما صار الأمرُ إليه بعث به وبجماعة معه — من وجوه الجند الذين كان شأنهم الوثوب

على الأمراء — إلى الرشيد ، فأما تمام فإنه حُبس إلى أن مات فى حبسه .

وحُكى أن الرشيدَ / وعد أخاه سَلَمة بن تميم إطلاقه ، وبلغ ذلك إبراهيمَ [٢٧ – ا] ابنَ الأغلب فكتب إلى عمته وهىَ ببغداد فى سَمّه ، فاشتهى تمام حوتاً فسَمَّته له ، فمات مِن أكله بعد أن ذهب بصرُه فى المُطْبِق قبلَ موته بشهرٍ . وعَلِم الرشيدُ بذلك فترحَّم عليه وتوجَّع له ، وأحسنَ إلى سَلَمَة أخيه وصرفَه إلى إفْرِيقِيَّةَ .

---

٣٢ – إبراهيم بن الأغلب بن سالم بن عقال ، أبو إسحق

ولاه الرشيدُ إفْرِيقِيَّةَ بعد محمد بن مقاتل العَكِّىِّ فاستقلَّ بمُلكها وأورثَ سلطانَها بنيه نيفاً على مائة سنة . وكان فقيهاً عالماً أديباً شاعراً خطيباً ، ذا رأى وبأس وحزم ومعرفة بالحرب ومكائدها ، جرىء الجنان طويلَ اللسان حسنَ السيرة ، لم يَلِ إفريقيةَ أحدٌ قبلَه من الأمراء أعدَ فى سيرةٍ ولا أحسنَ اسياسةٍ ولا أرفقَ برعيةٍ ولا أضبطَ لأمرٍ منه .

وكان فى أول حالته كثيرَ الطلب للعلم والاختلاف إلى لليث بن سعد الفقيه : والليثُ وَهَبَ له « جَلاَجِلَ » أمَّ ابنه زيادة الله ، فخرج بها حتى وصل الزاب — وعلى إفريقية يومئذ الفضلُ بنُ روحٍ بن حاتم — فلقى من تعصُّبِه وسوء مجاورته عظيماً . وأقام أخوه عبد الله بن الأغلب بمصر ، وكان ذا نعمة عظيمة ، فلما توفى ارتحل بنوه إلى إفريقية .

وولى الزابَ من قِبل هارون الرشيد وابنُ العَكِّىِّ على إفريقية ، وقد تقدم ذكرُ نُصرته لابن العَكِّىِّ إلى أن صُرِف بإبراهيم سنةَ أربع وثمانين ومائة .

وتوجه إلى المشرق ، فلما بلغ طرابلسَ دَلَّس له كاتبُه داوودٌ القيروانى على لسان الرشيد كتاباً بإقراره على إفريقية وانصرافه إلى عمله ، فتمشَّى ذلك زماناً . وبلغ الرشيدَ فغاظه ، وأسجلَ لإبراهيمَ بولاية إفريقية ثانيةً ، فاشتد عند ذلك سلطانُه وعظُم دون الملوك الذين تقدموه شأنُه ، وخرج ابنُ العَكِّيّ من إفريقية وأعمالها . وعلى هذه الحال لم يُكافِ إبراهيم على حُسن ما أسلفه فى جانبه إلا بأقبح الأفعال .

ومن فضائل إبراهيم المأثورة ، وجلائل أنبائه المسطورة ، أنه عفا عن داوود كاتبِ ابن العَكِّيّ وأسقط التثريبَ عليه وقَبِل متابَه فأمَّنه واستعمله ، وقد ذكرتُ ذلك فى تأليفى المترجَم بـ « إعتاب الكُتّاب »[1] ، وهو القائل وقد خلَّف أهلَه بمصر فى قصده الزّابَ :

[٢٧-ب] / ما سرتُ مِيلاً ولا جاوزتُ مرحلةً   إلا وذكرُكِ يَثْنى دائباً عُنقى
ولا ذكرتُكِ إلا بِتُّ مُرتَفِقاً   أرعَى النجومَ كأنَّ الموتَ مُعتنِقى

البيت الأول نظير قول يزيد بن معاوية بن أبى سفيان فى زوجه :

إذا سرتُ ميلاً أو تغنَّتْ حمامةٌ   دعتنى دواعى الشوق من أمِّ خالدِ

وكان محمد بن سيرين يقول : « هو أشوق بيت قالته العرب » .

وقال إبراهيم وهو بالزاب فى قتل ابن الجارود للفضل بن رَوْح بن حاتم ، وقد بلغه أن نصر بن حبيب المهلبى[2] أشار بردِّ الفضل من طريقه ، لأنه خاف

(١) انظر : إعتاب الكُتّاب لابن الأبار ، بتحقيق الدكتور صالح الأشتر (مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق) دمشق ١٩٦١ ، رقم ص ١٠٥ – ١٠٦ .

(٢) نصر بن حبيب المهلبى ، رابع من تولى أمر إفريقية من المهالبة ، وليها فى ٢٠ رمضان ١٧٤/٣١ يناير ٧٩١ بعد موت روح بن حاتم بن قَبِيصة بن المُهلب بن أبى صفرة ، =

أن يُحدث حدثا فيقتلَه ابنُ الجارود بسببه[1] :

يا نصرُ قد أصبحتَ ألأمَ مَن مَضَى منكم[2] والأمَ حاضرٍ معلومِ
لما أشرتَ بردٍّ فضــلٍ بعدما نطعَ البلادَ على أقبَّ[3] رَسُومِ
لم ترْضَ بالخذلان حتى كِدتَه لا زلتَ مخذولا بغير حميمِ
ما كنتَ حين غدوتَ تنشر لحيةً فيها لقومك غَدْرةٌ بكريمِ
لو كان نادانى أجبتُ دعاءه بالخيل أُقحِمُها بسَعدِ تميمِ[4]
خيلٌ بها أهدِى المنايا للعِدَى وبها أفرِّج كُرْبةَ المكظومِ

= وكان هذا الأخير شيخاً مسناً غلب عليه الضعف حتى كان يغلبه النعاس إذا جلس للناس ، فكتب أبو العنبر القائد وصاحبُ البريد إلى الرشيد يقترحان تولية نصر بن حبيب سراً ، حتى إذا مات الفضل ؛ يضطرب الأمر ، فأجاب الرشيد . وعندما توفى روح بن حاتم فى التاريخ المذكور حاول ابنه قبيصة أن يتولى الأمر بدون عهد ، ولكنه اضطر للتخلى لنصر عندما تبين أن الرشيد عهد إليه . وقد أقام نصر والياً على المغرب سنتين وثلاثة أشهر ، إذ عزل بالفضل بن روح بن حاتم فى المحرم ١٧٧/ أبريل ٧٩٣ .

انظر : النويرى ، ص ١٢٧ .

(١) يفهم من هذا أن إبراهيم بن الأغلب قال هذه الأبيات قبل ولايته أمر إفريقية بزمن طويل ، فقد قتل الفضل سنة ١٧٨/٧٩٤ ، وتوفى إبراهيم بإفريقية فى منتصف جمادى الآخرة سنة ١٨٤/ يونيو ٨٠٠ . والظاهر من الأبيات أن ابن الأغلب كان يتهم نصر بن حبيب المهلبى بأنه كان سبب قتل الفضل بن روح بن حاتم على يد ابن الجارود . وذلك أن هذا الأخير بعد أن هزم الفضل ودخل القيروان أخرج الفضل منها وتركه ليعود إلى المشرق ، ثم رده برأى نصر بن حبيب المهلبى كما يفهم من ذلك الخبر ، وكانت النتيجة أن قتل الفضل وأخرج بقية بنى المهلب من إفريقية . ويبدو أن نصر بن حبيب فعل ذلك انتقاماً من الفضل ، لأن هذا ، بعد وفاة أبيه روح بن حاتم بن قبيصة بن المهلب فى رمضان سنة ١٧٤ ، ذهب إلى بغداد وأقام على باب الرشيد يلح فى طلب الولاية حتى أجيب إلى طلبه ، فعزل نصر بن حبيب وتولى الفضل فى المحرم ١٧٧/ أبريل ٧٩٣ .

(٢) الإشارة هنا إلى بنى المهلب .

(٣) الفرس الأقب هو الذى لحقت خاصرتاه بحالبيه ، كناية عن الضمور . اللسان : ١٥٢/٢ . والرَّسوم هو الفرس اللين السير مع سرعته .

(٤) من المعلوم أن بنى الأغلب تميميون .

وقال أيضاً فى دخوله القيروان قائماً بنُصرة ابن العكى وهربِ تمام بن تميم أمامه :

لو كنتُ لاقيتُ تمّاماً لصالَ بهِ ضربٌ يفرِّق بين الروح والجسدِ
لكنه حين شام الموتَ يَقْدُمنى ولّى فراراً وخلّى لى عن البلدِ
إن يستقمْ نعفُ عما كان قدَّمهُ وإن يَعُدْ بعدَها فى غدرةٍ نَعُدِ

ثم نزل عن المنبر وكتب إلى محمد بن مقاتل يستعيده إلى عمله وقال فى ذلك :

أتشكرُ عنا ما صنعتُ بِرَبِّها[1] وردِّى عليها الثغرَ أمْ هى تكفُرُ ؟
/ نَفَيتُ لها التمّام[2] بالسيفِ عنوةً ولم يُعنِه فى الله ما يَتَمَضَّرُ [٢٨ - ١]
فأقبِل إلى ما كنتَ خانَت كارهاً فقد ذاد سيفى عنكَ ما كنتَ تحذرُ

وقال أيضاً فى ذلك :

ألم ترنى رَدَدْتُ طريدَ عَكٍّ وقد نَزَحَتْ به أيدى الركابِ
أخذتُ الثغر فى سبعين مِنّا وقد أوفى على شرف الذهابِ
هزمتُ لهم بِعُدَّتِهم ألوفاً كأنَّ رَعِيلَهمْ قزعُ السحابِ

قال إبراهيم هذا لأنه قصد نُصرة ابن العَكِّىّ فى سبعين فارساً من أهل بيته وخاصته إقداماً ونجدة ، فقال بعضُ شعراء إفْرِيقِيَّة فى ذلك :

ما مرّ يوم لإبراهيم نعمهُ إلا وشِيمتُه للجود والباسِ

---

(١) المراد بربِّها هنا هو الذى تولى حكمها ، أى بنصرته تمكنه من رد محمد بن مقاتل العكى إلى الولاية بعد هروبه .

(٢) المقصود هو تمّام بن تميم التميمى .

ولما حارب تماماً وابن العكّىّ بالقيروان ثم حمل على الميمنة وهو يقول :

أطعنُهمْ ولا أرى لِي كُفوَا حتى أنالَ ما أريدُ عفْوَا

أو أحْسُوَنْ كأسَ المنايا حَسْوَا

ثم رجع إلى الميسرة بعد أن كسر الميمنة وهو يقول :

قد علمتْ سعدٌ وأبناء مُضَرْ أنى مَنَعْتُ عِزَّها أن يُهتَصَرْ

وأننى فخارُها لمن فَخَرْ

فَنَقَضَّها ، ثم رجع إلى القلب فشدَّ عليه وهو يقول :

يا قلبُ قد أبصرتَ صاحبيكا ما لَقِيا منى فخُذْ إليكا

ضرْباً يمُور وَقْعُه عليكا كيف ترى دَفْعى بجانِبَيكا

وحمل أصحابُه فكانت الهزيمة على تمام .

وله حين وجَّه بمن كان يخاف أمرَهم من وجوه الجند إلى الرشيد[1] :

ما سار كيدى إلى قوم وإن كَثُروا إلا رَمَى شعبَهم بالحزم فانصدَعا

ولا أقولُ ، إذا ما الأمرُ نازَلَنى : « يا ليتَه كان مصروفاً ! » ، وقد وَقعا

/ حتى أُجَلِّيَه قهــراً بمعتزمٍ كما يُجَلِّى الدُّجَى بدرٌ إذا طلَعا [٢٨-ب]

قوماً قتلتُ وقوماً قد نَفَيْتُهُمُ ساموا الخلافَ بأرضِ الغربِ والبِدَعا

كُلاًّ جزيْتُهمُ صَدْعاً بصَدْعِهِمْ وكلُّ ذى عملٍ يُجْزَى بما صنَعا

---

(١) سبق أن ذكر ابن الأبار كيف أرسل إبراهيم بن الأغلب تمام بن تميم التميمي وأخاه سلمة إلى بغداد ، حيث حبسه الرشيد في مطبق حتى مات فيه . وجاء في نهاية الأرب للنويري « فلما صار الأمر إلى إبراهيم بن الأغلب بعث تمام بن تميم وغيره من وجوه الجند الذين شهروا الوثوب على الأمراء إلى بغداد ، فحبسوا في المطبق » (ص ١٢٣) .

وله أيضاً وهو من جيِّد شعره :

أَلَمْ تَرَنِى أَرْدَيْتُ بِالكَيْدِ رَاشِداً ... وَأَنِّى بِأُخرَى لِابْنِ إِدْرِيسَ رَاصِدُ

تَنَاوَلَهُ عَزْمِى عَلَى نَأْىِ دَارِهِ ... بِمَخْتُومَةٍ فِى طَيِّهِنَّ الْمَكَائِدُ

وَقَدْ كَانَ يَرْجُو أَنْ يَفُوتَ مَكَائِدِى ... كَمَا كَانَ يَخْشَانِى عَلَى الْبُعْدِ رَاشِدُ

ثَلَاثُونَ أَلْفاً سُقْتُهُنَّ لِقَتْلِهِ ... لِأُصْلِحَ بِالْغَرْبِ الَّذِى هُوَ فَاسِدُ

فَأَضْحَى لَدَيْنَا رَاشِدٌ يَنْتَبِذْنَهُ ... بَنَاتُ الْمَنَايَا وَالْحِسَانُ الْخَرَائِدُ

فَتَاهَ أَخُو عَكٍّ بِمَهْلَكِ رَاشِدٍ ... وَقَدْ كُنْتُ فِيهِ سَاهِراً وَهْوَ رَاقِدُ [1]

راشد هذا هو مولى عيسى بن عبد الله بن حسن بن حسن بن على بن أبى طالب ، وكان عاقلاً شجاعاً أيداً ، خرج بإدريس بن عبد الله أخى مولاه عند انهزامه فى وقعة « فخ » — وقد تقدم ذكرها — وانغمس به فى حاجّ أهل مصر ، وغيّر زيّه وألبسه مِدْرَعَةً وعمامة غليظة ، وصيّره كالغلام يخدمه ، وإن أمره ونهاه أسرع فى ذلك . وتخلص إلى إفريقية فى خبر طويل ، فترك دخولها ثم سار به فى بلاد البربر حتى انتهى إلى فاس وطَنْجَة ، فأظهر إدريس هنالك أمرَه وأخبر بنسبه ، ودعا البربر إليه فأجابوه ، وذلك سنة اثنتين وسبعين ومائة ، فى السنة التى توفى فيها عبدُ الرحمن بنُ معاوية وولىَ ابنُه هشام الرضا ، وفى السنة الثانية من خلافة هرون الرشيد ، أقام بين أظهر البربر ملكاً مطاعاً . وبلغ الرشيدَ خبرُه فشق عليه ، وشكا ذلك إلى يحيى بن خالد فدس إليه مَن

---

(١) [illegible] إبراهيم بن الأغلب قتل راشدا ، وكان [illegible] إفريقية . ويذكر كيف أن محمد بن مقاتل العكى زعم [illegible] الرشيد بذلك . فكان من أسباب توليته إفريقية . [illegible] وموت إدريس كان مسموماً .

سَمّه فى غالية ، وقيل فى ذَرور[١] استَنّ به ، وقيل فى دُلاّعة[٢] قطعها بسكين ، نصفُها مسموم والثانى غير مسموم ، وقيل فى بطيخة . وهرب هو / وصاحب له ، [٢٩-١]
فيقال إن راشداً اتبعهما وقد بعدا فأدركهما وهو وحده على فرسه ، فشد عليهما بسيفه فضرب أحدهما وفات الآخر ؛ وانصرف راشد وهلك إدريس .

ويقال إن الذى دسَّ الرشيدُ إليه ليسمه هو الشماخ اليمامى[٣] ، وكتب له إلى إبراهيم بن الأغلب . فوصل إلى إدريس وعرّفه أنه مُتَطَبِّب وأنه من أوليائهم ، فاطمأنّ إليه وأنِسَ به . وشكا إليه عِلّةً فى أسنانه ، فأعطاه سَنُونًا مسموماً وأمره أن يَسْتَنّ به عند طلوع الفجر ، وهرب تحت الليل . فلما طلع الفجر استَنّ إدريس بذلك السنون فقتله ، وطُلب الشماخ فلم يُقدر عليه . وقدم

(١) الذرور كل مسحوق يتداوى به ، والسنون كل مسحوق يستعمل دواءً للأسنان ، وكانوا يستنون أو يستاكون به .

(٢) الدُّلاّعة مفرد دُلاّع ، وهو البطيخ أو نوع منه ، وقد عرفه صاحب الكتاب المنصورى بأنه البطيخ الهندى أو السِّندى نسبة إلى السِّند (ومن هنا تسمى البطيخة فى إسبانيا إلى اليوم sandia) ويسمى أيضاً البطيخ الفلسطينى ، وقال أبو القاسم الزهراوى إنه البطيخ الشامى . ويفهم من النص هنا أن الدلاع غير البطيخ ، أو أنه صنف منه على أى حال . وقد قال الرحالة ريتشاردسون إن الدلاع بطيخ صغير مر الطعم . وفى المغرب إلى اليوم يسمى البطيخ : دُلاّح . أما ما نعرفه بالشمام فيسمى البطيخ ، وعلى هذا فيكون تفسير عبارة ابن الأبار أن إدريس الأول سُمَّ فى شمامة أو بطيخة . والروايات كثيرة عن ذلك الحادث .

انظر : دوزى ، ملحق القواميس : ١/٤٥٧ ا .

وروض القرطاس لابن عبد الحليم أو ابن أبى زرع ، طبعة حجر فى فاس ، ص ٥ .

وابن خلدون ، تاريخ (بولاق) : ٤/١٣ .

وابن عذارى ، البيان : ١/٨٣ .

(٣) هو إدريس الشماخ الذى سبق ذكره . وقال عنه ابن خلدون : ودس إليه الرشيد مولى من موالى المهدى اسمه سليمان بن حريز ويعرف بالشماخ (٤/١٣) . وورد اسمه فى روض القرطاس : سليمان بن حرير (ص ٩) ، وذكره أبو العباس أحمد بن خالد الناصرى السلاوى صاحب كتاب «الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى» . (الدار البيضاء ، ١٩٥٤) ج ١ ص ١٥١ : سليمان بن جرير ويعرف بالشماخ .

على إبراهيم بن الأغلب فأخبره ، فكتب إبراهيم إلى الرشيد بذلك ، فوَلّى الشماخَ بريدَ مصر وأجازه . وقد تقدم عند ذكره أن الذى سمه سليمان بن جرير فى سمكة مشوية ، وقال فى ذلك أشجع السلمى من شعراء الرشيد :

أتظن يا إدريسُ أنَّكَ مُفلِتٌ   كيدَ الخليفةِ أو يَقيكَ حِذارُ
إن السيوفَ إذا انتضاها عزمُهُ   طالتْ وتقصرُ دونَها الأعمارُ
هيهات إلا أن تكونَ ببلدةٍ   لا يهتدى فيها إليكَ نهارُ

وكانت مدة سلطان إدريس بالمغرب ، إلى أن مات بوَلِيلِي سنة خمس — وقيل سنة أربع — وسبعين ومائة ، ثلاثةَ أعوام وستةَ أشهر .

وكان قد خرج إلى سَبْتَة فى شعبان سنة ثلاث وسبعين ، وإلى تازا فى جمادى الآخرة سنة أربع وسبعين ، وترك حملا من إحدى جواريه ، فقام راشد بأمر البربر حتى ولدت غلاماً ، فسمّاه باسم أبيه « إدريس » وكفله إلى أن بلغ الغلامُ .

وعلا أمرُ راشد واستفحل ، وهمّ بغزو إفْرِيقِيَّة لما كان فيه من القوة وكثرة الجنود ، فكادهُ إبراهيمُ بنُ الأغلب من الزاب موضعِ ولايته ، ودسّ إلى أصحابه ، وبذل لهم الأموالَ إلى أن اغتالوه وبعثوا برأسه إليه ، فبعث به إلى ابن مقاتل العَكِّىِّ وأخبره بكيده إياه وتدبيره فى قتله ، فبعث به العَكِّىُّ إلى هارون [٢٩ - ب] الرشيد ونسب ذلك إلى نفسه / دون إبراهيم ، فكتب صاحبُ بريد المغرب إلى هارون بصنيع إبراهيم فى راشد . فعلى إثر ذلك وَلى الرشيدُ إبراهيمَ بنَ الأغلب إفريقيةَ وصرف عنها العَكِّىَّ .

وقد قيلَ إنَّ الرشيدَ إنما دسَّ إلى إدريس مَن اغتاله وخاطبَ إبراهيم [... ...][1] به وهو عامل له على إفْرِيقِيَّة ؛ والأول أصح . وتوفى إبراهيمُ

(١) بياض بالأصل يمكن تكملته بعبارة مثل : بن الأغلب بمن يُعنَى .

في شوال لثمانٍ ليالٍ بقين منه سنة ست وتسعين ومائة ، وهو ابنُ ست وخمسين سنة ؛ فكانت ولايته اثنتي عشرة سنة وأربعة أشهر وعشرة أيام .

---

٣٣ — يحي بن الفضل بن النعمان التميمي ، أبو العباس

كان صاحبَ بريد المغرب أيامَ ابن العكي ، وهو القائل لتمّام بن تميم حين بلغه إقبالُ إبراهيم بنِ الأغلب إليه :

أتمّامُ لا تقعدْ فإنيَ ناصحٌ ... وخُذْ مُهْلَةً إن كنتَ لا بد هاربا
وإلا فعُذْ مِن سُخْطِهِ بأمانِهِ ... فلستَ بلاقٍ لابنِ أغلبَ غالبا
ولا تَحْسُوَنْ كأساً فليس بنافعٍ ... تحسِّيك ما فيها إذا كنتَ[1] شاربا

---

٣٤ — خُرَيْش[2] بن عبد الرحمن بن خريش الكِنْديّ

ثار بتونس ، وكان صهرَ الحسن بن حرب الكندي المخالفِ على الأغلب ابن سالم . ولم يكن من الجند ، ولكنه من أبناء العرب الذين كانوا بإفريقية

---

(١) في الأصل «ما» ، ولا يستقيم بها الوزن .

(٢) كذا ورد اسمه في الأصل بكل وضوح ، ولكن النويري (ص ١٤٥) وابن خلدون (١٩٦/٤) جعلاه : حمديس ، وتابعهما في ذلك فوندرهايدن في كتابه عن الأغلبة :

M VONDERHEYDEN, *La Berbérie Orientale sous la Dynastie des Benoul'Arlab, 800–909* (Paris, 1929) pp. 87 sqq.

وقد كتب هذا المؤلف اسم الأغلب هكذا : Arlab لكي ينقل حرف غ بينما هو في النطق عربي ، وهو مذهب مستهجن لا يتبعه فيه أحد .

أما ابن عذاري فقد اكتفى بقوله : «وثار عليه الكندي بتونس وأخرج نفسه . وسنتين من ولاية إبراهيم بن الأغلب — يورده ابن الأبار فيما بعد — أن صحة الاسم خريش .

وقد يكون تصحيفاً لا خطأ . فقد وجدت اسم حريش كثير التردد .

قبل المُسَوِّدة ، فخلع المُسَوِّدة وأتاه العربُ والبربرُ من كل ناحية[١] . فلما كثر جمعُه كتب إلى إبراهيم بن الأغلب :

« من خُرَيْش القائم بالعدل إلى إبراهيم بن الأغلب .

أما بعد ، فإنى أقمتُ عن الخروج قبل يومى هذا لأنى كنت أنتظر أن تفنيكم الحرب ؛ فلعمرى لقد أرانا الله فيكم ما قوّى به أهلَ دعوةِ الحقِّ عليكم . فلما وُلِّيتَ أنت وعلمتَ أنهم مقسومون بين خوف منك ورجاءٍ لك ، عرفت قلة طمعهم فيك . ولو كان أحدٌ ممن وَلِىَ هذا الثغر ممن لا نرى طاعته يستحق أن نرضى بولايته ، لكنتَ أنت ذلك . وقد كان علىّ بن أبى طالب رحمة الله عليه يقول : « إذا وَلَّى عنكم عدوُّكم من أهل الملة فلا تتبعوهم » . ولستُ أطلبُك إن خرجتَ عن الثغر ، ولا نُرِدْ أن تَصْلَى بحَرْبى ، وليكُنْ رأيُك طلبَ سِلْمِى ؛ والسلام »

وكتب فى آخر كتابه :

قُلْ جَهْرَةً لأبى إسحاقَ تنصحُهُ   هذا فراقُكُمْ للغربِ قد حانا

[٣٠ - ا] / فلا يعود إليه منكمْ أحــدٌ   حتى يعودَ من الأجداثِ مَوْتانا

فارجِــعْ عنِ الغربِ أو أَتِ السَّوَادَ بهِ   لا تَخْتَرِمْكَ المنايا حينَ تَلْقانا[٢]

---

(١) [illegible] ... وهى تكشف عن حقيقة حركات بنى عبيدة بن عقبة ابن دفع [illegible] من تميم [illegible] ومن إليهم . فهؤلاء هم عرب إفريقية [illegible] . وليس فيها [illegible] يرون أنفسهم أهل البلد وأولى بحكمه من [illegible] وجندهم . وهذه حقيقة [illegible] الصراع وسببه . [illegible] لأنهم كانوا أقرب إليهم من الولاة وجندهم

(٢) [illegible] دعوة بنى [illegible] . وكان هو وجنده كارهين لها ، حتى كان [illegible] مع [illegible] ولا والله لا [illegible] ([illegible] ١٣٥ – ١٣٠) . [illegible] فهو يدعو ابن الأغلب هنا [illegible] بنى [illegible] . وكان [illegible] من رؤساء [illegible] . وكان أول =

وسوف تعلمُ أنَّ الموتَ يَسمعُ لى إذا التقتْ بنواحى الفحص[1] خَيلانا

فلما قرأ إبراهيم كتابَه كتب إليه :

« من إبراهيم بن الأغلب إلى خُرَيْش رأس الضلال .

سلامٌ على من اتَّبع الهدى ، أما بعد

فإن مِثلَكَ مِثلُ البعوضة التى قالت للنخلة إذ[2] سقطت عليها : « استَمْسِكى فإنى أريد الطيران ! » فقالت النخلة : « ما شعرتُ بسقوطك فيُنكِرَنى طيرانُك » . فأما انتظارُك فى الحرب فَنَاء ، فلو لم يَبْقَ فى المغرب من أهل الطاعة غيرى ما وصلتَ أنت فى مَن معك بخلافكم إليه ، ولرجوتُ أن أظفر بكم بطاعتى ونُصرةِ دولة أمير المؤمنين أطال الله بقاءه ؛ فكيف وعندى من شيعته وأبناء أنصاره من يعلم الله أنى أرجوه أن ينتقم منك على يدى ؟ وأما ما ذكرتَ عن علىّ ابن أبى طالب رضوان الله عليه ، فذاك أمر غاب عنك . وإن كان كما ذكرتَ فلست منهم ، لأن أهل الملة خلافهم خلاف هُدًى[3] فى نقمة على جور ، وخلافكم خلاف فرقة دين وشَقٌّ عصا المسلمين ، ونقمتهم ما هو لله رضا . وستعلم أنت وأصحابك إن لقيناكم غداً أنَّا سنتَّبعكم ، وإن صبرتم أنا سنفنيكم .

= الأمر من أنصار إبراهيم بن الأغلب ، ثم اختلف معه فى حرب شوكيه سويرى دسمصين ملحمته ث عمر بن سار مع إبراهيم مره يحدثه مسافة طويلة ، ثم تبين أنه سوء عن كلامه ، فغضب ، ثم كانت حرب بينهما ، وهو سبب فيما يبدو لنا تافه . والحقيقة – كما تستبين من ثنايا حوادث – أن إبراهيم بن الأغلب لم يجد مالا ليؤدى أرزاق جنده ، فعمت – فيما يبدو – يجمع مدداً من الحيطة ، فنحن وفى أثناء ذلك فكر عمران فى خلع الطاعة . ... بن الأغلب ... يفعل فعله . ... ، فكان ما كان .

(١) المراد فحص تونس ، وهو السهل المحيط بها .

(٢) الأصل : وسقطت عليها . وما أثبتناه أوفق للمعنى .

(٣) فى الأصل : هوًى . وقد قومناه للمعنى .

وأما ذكرك الفحص فإن تركتُك حتى تصير إليه فأنا فى مثل جلدك »[١] .

وكتب إليه :

بلِّغْ خُرَيْشاً بأنى سوف أصبحُهُ ... كأساً سيقرعُ منها سِنَّ حَيْرانا
تُهدِى الطِّعانَ له سُمْرٌ مُثقفةٌ ... تَفْرِى أسنّتُها فى الحربِ أعدانا
مِن كُلِّ أزرقَ يغتالُ النفوسَ بهِ ... يضحى به مِن دَمِ الأجوافِ مَلآنا
وسوف تَعلمُ هل ألقى السَّوادَ إذا ... أرسَتْ إليكَ المنايا حين تَلقانا
إنى سأُهدى إليكَ الموتَ فى عطبٍ ... فاشربْ منيتَه مِن كفِّ عِمرانا

ثم بعث إلى عمران بن مُجالِد[٢] يحضه على قتاله ولقائه قبل خروجه من تونس ، وأوصاه بما يعمل . فلقيه عمران بِسِبخَة تونس ، فانكشف خُرَيْشٌ وأصحابُه وقُتل ، ودخل عمرانُ تونسَ يتتبعهم ويقتلهم حتى أفناهم / وكان خروجُه [٣٠ ب] سنةَ ست وثمانين ومائة .

---

٣٥ — عمران بن مُجالد بن يزيد الرَّبَعيّ

ثار على إبراهيم بنِ الأغلب ، وكان قبلَ ذلك فى طاعته ومُناصحته ، وحضر معه قتالَ تمّام بن تميم ، وخرج نائباً عنه لقتال خُرَيْش بن عبد الرحمن المذكور آنفاً . ولما قوِيَ أمرُه أتى بعسكره حتى نزل بين القيروان وبين قصر إبراهيم ،

(١) الأصل : حسك . وابن الأغلب يريد أن يقول أنه إذا تركه يصل إلى فحص تونس أصبح مثله ، وهذا تصحيح لـ « جسك » وكذلك فعل ماركوس مولر .

(٢) فى الأصل : مجهد . وهو خطأ كما سترى فى ترجمته التى تلى هذه الترجمة . وهو عند ابن خلدون : عمران بن مجالد (٤/١٩٦) وعند النويرى : ابن مجالد ، وفى نسخة : مُخالد (ص ١٣٥) وعند ابن الأثير : بن مخلد (ج ٦ ص ١٠٧ من طبعة تورنبرج بأوبسالا بالسويد) .

وصارت القيروانُ فى يده . وبعث إلى أسد بن الفرات ليخرج معه فأبى أسدٌ وتمارض ، فبعث إليه : « إما أن تخرج وإلا بعثتُ من يجر برِجلك ! » فقال أسد : « والله لئن أخرجتَنى لأنادِيَنَّ فى الناس : القاتل والمقتول فى النار ! » فتركه عند ذلك .

وخندقَ إبراهيمُ حول مدينته[1] ، ودامتِ الحرب بينهما سنةً . ثم ضعُفَ عمران فهرب إلى ناحية الزاب ، وسأل الأمانَ — هو وعَمرو بنُ معاوية وعامر ابنُ المعمر — من إبراهيمَ ، فأجابهم إلى ذلك .

وبقى عمرانُ بالزاب إلى وفاة إبراهيم ومصيرِ الأمر إلى ابنه أبى العباس عبد الله ، فكتب إليه عمرانُ يسأله تجديدَ الأمان فأمّنه وأسكنه القصرَ معه ، وكان يغدو عليه ويروح إلى أن سُعِيَ به ، وقيل لعبد الله : « هذا ثار على أبيك وحالَه حالُه » . فبعث إليه فى الظهيرة ، فلم يشُكَّ فى الشر . وكان عبدُ الله قد قال لمولًى له : « إذا وَرَدَ علىّ وهو مشتغل بالنظر فلا يَشْعُر إلا وقد رَميتَ برأسه » ، فكان ذلك على ما حَدّه . وكان يحيى بنُ سلاَم الفقيهُ صاحبُ التفسير قد سَفَر بينهما فى الأمان على ماله ونفسه وولده ، فلما قتله وَجِد لذلك وقال : « لا أسكن بلدًا أُخْفِرَ فيه العهدُ على يدى » ، فخرج إلى مصر ثم مضى إلى مكة فحج ، ورجع فلم يلبث إلا يسيراً حتى اعتلّ ومات ، ودُفن بمصر سنة مائتين . ومن شعر عمران فى حرب إبراهيم بن الأغلب مع تمّام بن تميم ، وقد برز من الصف :

---

(١) مدينته هى القصر القديم قرب القيروان . وهى حصن ابتناه إبراهيم بن الأغلب لينتقل إليه مع أهله وجنده وحشمه ، إذ كان يخشى أجناد العرب والخراسانيين لكثرة ثوراتهم على الولاة قبله . وقد بدأ إبراهيم بن الأغلب فى شراء الصقالبة والمماليك حتى كوّن منهم جيشاً ، ثم انتقل إلى ذلك الحصن الذى عرف بالقصر القديم ، وأنشأ حوله قصوراً أخرى ومسجداً ومعسكراً لجنده . وابن خلدون يسميه العباسية (١٩٦/٤) .

يا رُسُلَ الموتِ أنا عمرانُ   أنا الذى أنتم له أعوانُ

تُصعَقُ من خِيفتى الفرسانُ   يضحكُ عن أيامنا الزمانُ

نحن ضربنا الناسَ حتى دانوا   نقتلُ أهلَ النَّكْثِ حيث كانوا

فخرج إليه رجل من أصحاب تمّام وهو يقول :

ارجِعْ على ظَلْعِكَ يا عمرانُ   قد جاءكَ الموتُ له تَهْتَانُ

/ يَسْقِيكَهُ مِن راحتى سِنَانُ   والظنُّ يجلو شكّه العِيانُ [٣١-١]

فشدَّ عليه عمرانُ فطعنه فى ثُنْدُوَته فبدا عاملُ الرُّمح من خلفه .

---

٣٦ — عامر بن المعمّر بن سِنان التَّيْمى ، تَيْم الرَّبَاب[1]

كان على شُرطة إبراهيم بن الأغلب ، ثم ثار عليه مع عمران بن مُجالد وعَمرو بن معاوية ، والرئاسة منهم فى تلك الثورة لعمران ، إلى أن استأمنوا جميعاً إلى إبراهيم فأمّنهم . وكان عامر على قسطيلية والياً ، وهو القائل فيما وقع بين محمد بن مقاتل وتمّام بن تميم من الحرب وقيام إبراهيم بن الأغلب بنُصرته :

إذا كُرْبَةٌ شَدَّتْ خِناقَ محمدٍ   فليس لها إلا ابنُ أغلبَ فارجُ

أتاهُ بتمّامٍ على بأسِهِ بهِ   يُقادُ وقد ضاقتْ عليه المخارج

وقد كان بالإسراف ألقَى سَوادَهُ   ولم تختلجْه فى الخلاف الخوالج

---

(١) يريد أنه من تيم الرباب بن عبد مناة لا من تيم بن مرة أو تيم بن ثعلبة بن عكابة بن صعب أو تيم الأدرم بن غالب .

فعاجله بالكيد حتى استعاده وأدركه من بعدِ ما قيلَ خارجُ
ولو أنه يَستودعُ الشمسَ نفسَهُ إذاً وَلَجتْ مِنهُ عليهِ الولائجُ

وله فى خروج خُرَيْش بن عبد الرحمن بتونس :

لولا دفاعك يا ابنَ أغلبَ أصبحتْ أرضُ الغروبِ رهينةً لفسادِ
ولَعَمَّنا ذاكَ الخلافُ بفتنةٍ تعدو كتائبُها بغير سَوَادِ
قالوا غداةَ لقائهمْ : لا نَنْثَنِي حتى نَحُلَّ « الخُلْدَ » من بغدادِ
فمُنوا بأشْوَسَ ما تَزالُ جيادُه تشكو الوَحَى من غارةٍ وطِرَادِ
نخرتْ به سَعْدٌ فأصبح بيتُها فوق الفرقد ثابتَ الأوتادِ

ومن ولد عامر هذا حمزة بن أحمد بن عامر بن المعمَّر ، كان أديباً ظريفاً .

وأما أبوه المعمر بن سِنَان فقدِم مع يزيد بن حاتم المُهَلَّبى فى ولايته إفريقيةَ ، وكان زميلَه فى طريقه إذا ركب فى عَمَارِيَّتِهِ ، لأُنسِهِ به واستماعِهِ من حديثه . / [٣١-ب] وكان أعلمَ الناس بأيام العرب وأخبارها ووقائعها وأشعارها ، وعنه أخذ أهلُ إفريقية حربَ غَطفانَ وغيرها من وقائع العرب .

---

٢٧ — حمزة بن السَّبَّال
المعروف بالحَرُون

أحد رؤساء القواد وشجعان الأجناد ، وكان له من إبراهيم بن الأغلب آثَرُ مكانٍ وألطفُ محلٍّ ، لِقِدم صُحبته إياه وتصرُّفِهِ معه حيث تصرفتْ حالُه ، فكان لا يدانيه عنده أخ ولا ولد ولا أحد من عشيرته . وكان والياً على طُبْنَة ،

ووجّهه إلى الرشيد فى القواد المتوثّبين على الولاة بالقَيْروان [... ...][1] ولده ولد إبراهيم يتولون لهم [...][1] إلى قيـادةٍ إلى عِمالةٍ حتى انقرضت دولةُ بنى الأغلب . ومن شعره فى إيقاعه بالمذكورين فيه[2] :

سائلْ بأَبْرانَسٍ عنّا ووَقْعتِنا   لما صبَبْنا القَنا نحو ابن مِرْدَاسِ
وَلّى وخَلّى سعيداً رَهْنَ نافذةٍ   مِن طعنٍ أرْوَعَ للأرواحِ خَلاّسِ
فإن يتوبوا فقد ذاقوا وقائعَنا   وإن يعودوا نعُدْ أُخْرَى مِن الراسِ

وله فى حرب خُرَيش الخارج على ابن الأغلب :

إن غاب إبراهيمُ عنّا أو حضرْ   فإننى أنصُرُه فيمن نَصَرْ
واللهِ لا أرجعُ إلا بظَفَرْ   ليس يموت المرء إلا بقَدَرْ
وكلُّ مَن خالَفَنا فقد كفَرْ

فجعل ما يَشُدُّ على ناحيةٍ إلا هَدَّها . وبرز فارس من عسكر تمّام بن تميم فى خلافه وهو يقول :

إنْ ظفرتْ كَفِّى بإبراهيمِ   هَدَدْتُ رأسَ العزِّ من تميمِ

---

(١) بياض بالأصل . ومن الميسور أن نسد هذا الفراغ ونقرأ العبارة هكذا : « [ثم خدم] ولدُه ولدَ إبراهيم يتولون لهم [من ولاية] إلى قيادة إلى عمالة » .

ويلاحظ أن إبراهيم بن الأغلب بعد أن صار إليه الأمر أراد أن يبعد عن إفريقية كل من كان يخشى انقلابه عليه من وجوه العرب والقواد ، فأرسلهم إلى بغداد حيث سجنوا هناك ، ومن بينهم حمزة هذا مع أنه كان صديقه . أما أولاد حمزة فاشتهر منهم محمد بن حمزة فى حروب أبى محمد زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب مع منصور الطنبذى . وقد قتل حمزة فى شهر صفر ٢٠٩/مايو ٨٢٣ فى معركة حامية مع الطنبذى ورجاله فى تونس .

(٢) لم أستطع تقويم هذا اللفظ ، وهو غير مفهوم . وقد جعله مولر « بالمذكورين فيه » وهو تقويم مقبول على اعتبار أن المراد : المذكورين فى هذا الشعر .

. فلما سمعه إبراهيمُ نادى حمزةَ : « يا حمزةُ ، اخرج إلى هذا الكلب ! » فخرج إليه وهو يقول :

أحلِفُ بالركنِ وبالحطيمِ ما فيكمُ كُفْوٌ لإبراهيمِ

لَيُصبِحَنَّ اليومَ كالصَّريمِ

ثم شدّ عليه فقتله .

---

٣٨ — إبراهيم بن محمد الشّيعى

/ من أبناء أهل خُراسان ووجوه أصحاب إبراهيم بن الأغلب ، وكان أقرب [٣٢ - ا] الناس إليه فى [... ...][١] الداعية أهل خراسان ثم أهل الشام ثم أهل البلد[٢] ، وأنفذه رسولا إلى الرشيد وبعث صحبته برسل بهلول بن عبد الواحد[٣] المَدْغَرِى ، فدخلوا عليه فى اليوم الثالث من قدومهم بغداد . واستأذن الشيعىُّ هذا فى الكلام بعد أن قال : « يا أمير المؤمنين ، رسولُ سيفك [... ... ...][٤] دولتك إبراهيم بن الأغلب » ، فأذن له على إثر هذا فخطب [.. ...][٤] . وكان

---

(١) بياض بالأصل ، نستطيع أن نسده بقولنا : فى [قتال] الداعية . والداعية المشار إليه هنا هو إدريس بن إدريس بن عبد الله الحسنى ثانى أمراء الأدارسة بفاس . وكان بين الأدارسة والأغالبة تنافس وصراع ، وقد رأينا أن إبراهيم بن سالم بن الأغلب كان من المتهمين بقتل إدريس الأول .

(٢) هذه العبارة على أكبر جانب من الأهمية التاريخية . فهى تلقى ضوءاً واضحاً على تكوين القوة العسكرية للأغالبة ، وقيمة كل فريق من الفرق التى كانت تكونها . ويضاف إليهم فرقة من العبيد السود كانوا هم الحرس الخاص لإبراهيم بن الأغلب وبنيه من بعده .

(٣) يستحسن أن تقرأ هنا : وبعث صحبته برسل [منهم] بهلول بن عبد الواحد المدغرى.

(٤) بياض بالأصل ، لا يعسر تصور ما ينبغى أن يكون فيه .

بليغاً مدركاً ، وهو القائل فى مجلس ابن الأغلب بالقَيْروان وبدار الإمارة منها، عند قدومه لمحاربة تمام بن تميم بعد محاورة حسنة :

لولا ابن أغلبَ أضحَى الغربُ ليس بِهِ عدلٌ ولا لبنى العباسِ سلطانُ
عَمّ الخلافُ قلوبَ القومِ فابتدعُوا إلا خصائصَ أدتْها خُراسانُ
جلا ابنُ أغلبَ عنا كلَّ مُظلمةٍ فيها المُطيعُ بِسُكْرِ الخوفِ حيرانُ
كادتْ شياطينُ تمامٍ تَرِدْنَ بنا بحرَ الضلالةِ والتمامُ [شَيْطَ]ـانُ[1]

٣٩ — عَمرو[2] بن معاوية القَيْسى

هو من ولد عُمَير بن الحباب السُّلَمى أحد فرسان قَيْس وساداتها الأربعة فى الإسلام ، وهم : عبد الله بن حازم ، والجحاف بن حكيم ، وعُمَير بن الحباب المذكور ، وزُفَر بن الحرث . وكان عَمرو بن معاوية [يتولى][3] ناحية القصرَيْن من إفريقية ، وخرج على إبراهيم بن الأغلب مع عِمران بن مُجالد ، وكان وزيَره الغالبَ عليه فى أموره . ثم خرج ثانيةً على ولده زيادة الله بن إبراهيم — وكان قد ولاّه القصرين وما إليهما — فتغلب على تلك الناحية وأظهر الخلاف ، فلما ظفر به زيادة الله قتله وولديه الحباب وسكتان[4] ، ودعا أهلَ بيته فشرب معهم ورؤوسُهم بين يديه ، فغضب لهم منصور بن نصر الجشمى[5] المعروف بالطُّنْبُذِىّ — وكان عاملاً على طرابلس — وتابعَه الجندُ ، فاضطربتْ إفريقيةُ

(١) بياض فى الأصل .
(٢) فى الأصل عُمر ولكنه فى بقية النص عمرو فقومته على هذا النحو .
(٣) سقطت هذه الكلمة لسياق ، مستعيناً بما سيأتى بعد .
(٤) سبق أن علقنا على هذين الاسمين . انظر فهرس الأعلام .
(٥) كذا فى الأصل ، وربما كانت أيضاً : الحشمى .

على زيادة الله وحُصِر فى قصره ، ولم يبق فى يده إلا الساحلُ وقابس[1] / إلى أن [٣٢ - ب]: قتل منصور واستأنس [. . .][2] إلى زيادة الله وصَفَتْ له إفريقيةُ واستقامت بعد حروب طويلة وخطوب جليلة .

ومن شعر عَمرو بن معاوية ما حُكى أن بعض أصحاب تمام بن تميم — يومَ التقى هو وإبراهيم بن الأغلب ، عند خروج تمام على ابن العَكّىّ — برز من الصف وهو يقول :

اليومَ نسقيكم سِوَى الُمدَامِ ... بالبيض يَهْوِى حَدُّها بالهامِ
حتى تُخَلُّوا الغربَ للتَّمامِ

وبرز إليه عمرو وهو يقول :

من مُبلغٌ قولى إلى التَّمامِ ... حَلفاً بِرَبٍّ الحِلِّ والحرامِ
إنك محمول على الصَّمْصَامِ ... وقد تلاقت حَلَقُ الحِزامِ

ثم شد عليه فأرداه عن فرسه .

---

٤٠ — بُهلول بن عبد الواحد المَدْغَرِىّ

كان رئيساً فى قومه ، وهو قام بأمر إدريس بن إدريس الحسنى صاحب المغرب ، ثم تغير عليه وفارقه ورجع إلى إبراهيم بن الأغلب عند ظهوره على إفريقية ، وذلك بتلطُّف إبراهيم فى إفساد ما بينه وبين إدريس ، فجرت بينهما مكاتبات كان فى بعضها مما كتبه البهلول إلى إبراهيم :

---

(١) الأصل : وفاس ، وهو تحريف من النسخ .

(٢) بياض فى الأصل ، والمعنى مستقيم دون زيادة شىء .

لئن كنتَ تدعونى إلى الحق ناصحاً ... لتَكشفَ عن قلبى ضميرَ خلافِ
لَقِدْماً أتانا عنكَ أنَّك ناصحٌ ... لِمَنْ قال بالصُّلحِ الخلافةَ كافِ
وأنكَ محمودُ النقائبِ عنــدهمْ ... تُزَيِّنُ ما تأتى لهم بعفافِ
فعجِّلْ علىَّ رَدَّ رأيى فإننى ... أردُّ الهوى للحقِّ حين يُوافى

فجاوبه إبراهيم بقوله :

عرضتُ على البهلول ما إن أصابَهُ ... تعوَّض منــه طاعةً بخلافِ
ليركبَ نهجَ الحقِّ ، والحقُّ واضحٌ ... ونهجُ العمى وعْرُ المسالكِ عافِ
فلا تترُكَنْ رُشْدَ الهدى لضلالةٍ ... كمُستبدلٍ رَنْقَ الشَّرابِ بصافِ
[٣٣–ا] / وبايعْ لهارونَ الإمامِ بطاعةٍ ... تجده على الإسلام خير مكافِ

المائة الثالثة

٤١ — عبد الرحمن بن الحَكَم بن هشام الرِّضا بن عبد الرحمن الداخل بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان، أبو المُطَرِّف

وهو عبد الرحمن الأوسط والرابع من خلفاء بنى أمية بالأندلس. بويع له يومَ وفاة أبيه الحَكَم المعروف بالرَّبَضِيّ يومَ الخميس لثلاث — وقيل لأربع — بقين من ذى الحجة سنة ست ومائتين[1].

وكانت خلافتُه إحدى وثلاثين سنة وثلاثة أشهر وستة أيام. وكان فصيحاً مفوَّهاً شاعراً، مع سعة العلم والحلم وقلة القبول للبَغْى والسعايات. وهو الذى استكمل فخامةَ المُلك بالأندلس، وكسا الخلافةَ أبهة الجلالة. وظهر فى أيامه

---

(١) بويع لعبد الرحمن الأوسط بعد موت أبيه الحكم الربضى بيوم واحد، أى يوم الخميس ٢٦ ذى الحجة ٢٠٦. وتاريخ وفاة الحكم الربضى ليس ثابتاً، لأنه عندما شعر باقتراب منيته أخذ البيعة لابنه عبد الرحمن ثم لابنه المغيرة من بعده يوم الأربعاء ١١ ذى الحجة ٢٠٦، ثم دخل قصره واحتجب حتى مات بعد ذلك بأيام. والثابت هو تاريخ ولاية عبد الرحمن، وإنما تابعنا فيما قلناه هنا ماذكره ابن عذارى فى البيان المغرب: ٧٧/٢.

الوزراء والقوادُ وأهلُ الـكُوَر ، وشيّد القصور ، وجلب المياه من الجبل ، وبنى الرصيف على الوادى ؛ وهو القائل متشوقاً ومفتخراً :

فقدتُ الهوى مذ فقدتُ الحبيبا   فما أقطع الليــلَ إلا نحيباً

وإما بدتْ لىَ شمسُ النها   ر طالعةً ذكَّرتنى « طَرُوباً »(١).

(١) طروب هى جارية عبد الرحمن الأوسط المحببة إليه وأكبر جواريه سلطاناً عليه ، رغم أنها كانت أقلهن وفاءً له . وقد كان عبد الرحمن مولعاً بالنساء ، فاستكثر من الجوارى ، وكثر لهذا أولاده ما بين ذكور وإناث . وكان أكبر أولاده ، والمرشح لخلافته تبعاً لذلك ، ابنه محمد . ولم تذكر المراجع أمه ، لأنها توفيت بعيد ولادته على الأغلب ، لأن التى أرضعته جارية أخرى من جوارى عبد الرحمن هى « الشِّفاء » وكانت جميلة تقية عاقلة ، خرجت مع زوجها الأمير فى إحدى غزواته فأصابها المرض ، فأعادها إلى قرطبة ، فماتت فى الطريق ، ودفنت فى قرية مجاورة لطليطلة . وقد أنجبت طروب من الأمير عبد الرحمن ابناً سمى عبد الله ، فطمحت نفسها إلى أن تحوز ولاية العهد له ، واجتهدت فى ذلك اجتهاداً عظيماً دون توفيق ، وأخيراً لجأت إلى ما لجأت إليه مثيلاتها فى ظروف مشابهة : دبرت اغتيال عبد الرحمن وابنه محمد ليخلو الجو لابنها ، واشترك فى المؤامرة نصر الفتى كبير خصيان القصر . فكلفا متطبباً وفد من العراق فى ذلك الحين يسمى الحَرّانى بأن يعد سُمّاً ، فأعده خوفاً على نفسه من طروب ، وأفشى السر إلى جارية أخرى تسمى « فَخْر » فأبلغت الأمير ، فلما أتاه نصر بالشراب المسموم طلب إلى نصر أن يشربه فى حضرته ، فلم يستطع إلا أن يفعل ومات . أما طروب فلا نسمع أن الأمير غضب عليها . وهذا يميل بى إلى الشك فى حكاية المؤامرة كلها ، وإن كانت قد وردت عند الثقات من مؤرخينا ، إذ كيف يعقل أن تقوم طروب بذلك ثم لا يصيبها عقاب ؟ وإذا كان المراد هو التخلص من محمد ولى العهد وأبيه عبد الرحمن ، فلماذا لم يقدم السم إلى هذا أيضاً ؟ الحقيقة — فيما أحسب — أن عبد الرحمن أكثر من الجوارى ، وكانت جواريه معروفات الناس بأسمائهن ، ذكر المؤرخون منهن طروباً والمؤمَّرة والشفاء والمَدَنيّات الثلاث فضــل وقلم وعلم ، فكان ذلك مثاراً لكثير من الشائعات والأقاويل .

انظر : التكملة لابن الأبار ، القسم الذى نشره A. GONZALEZ PALENCIA و M. ALARCON فى الكتاب المسمى *Miscelánea de Estudios y textos Arabes*. Madrid. أرقام ٢٨٥٢ و٢٨٥٣ و٢٨٥٤ و٢٨٥٥ و٢٨٥٦ و٢٨٥٨ .

وابن القوطية : افتتاح الأندلس ، ص ٧٦ — ٧٧ .

فيا طولَ شوقٍ إلى وجهها ... ويا كبداً أورثتْها نُدوبا
ويا أحسنَ الخلقِ فى مقلتىّ ... وأوفرَهم فى فؤادى نصيبا
لئن حال دونكِ بُعدُ المزا ... رِ مِن بعد أن كنتِ منى قريبا
لقد أورث الشوقُ جسمى الضنى ... وأضرم فى القلب منى لهيبا
عدانى عنكِ مزارُ العِدا[1] ... وقَوْدى إليهم لُهَاماً لهيبا
كأيِّنْ تخطَّيْتُ من سَبْسبٍ[2] ... وجاوزتُ بعد دروبٍ دروبا
أُلاقى بوجهىَ حرَّ الهجيرِ ... إذا كاد منه الحصى أن يذوبا[3]
وأدّرِعُ النَّقْعَ حتى لَبِسْـــ ... ـتُ مِن بعد نضرة وجهى شحوبا
/أريد بذاك ثوابَ الإله ... ومَن غـــيره أبتغيه مُثيبا [٣٣ - ب]
أنا ابنُ الهشامَيْن مِن غالبٍ ... أُشُبُّ حروباً وأُطْفِى حروبا
بِىَ ادّاركَ اللهُ دينَ الهُدَى ... فأحْيَيْتُه واصْطَلَمْتُ الصليبا
سَمَوْتُ إلى الشِّرْكِ فى جحفلٍ ... ملأْتُ الحُزونَ به والسُّهُوبا

وذكر سَكَنُ بنُ إبراهيم الكاتبُ[4] وغـــيرُه أنه أمر

(١) أورد ابن عذارى الأبيات ابتداء من هنا ، وقال إن عبد الرحمن قالها عندما خرج لغزو جليقية سنة ٢٣٥ ، وأخطأ فقال : فقال عبد الرحمن ابن الشِّمر (٢/٨٥ - ٨٦) ، وصحتها « فقال عبد الرحمن بن الحكم » .

(٢) عند ابن عذارى : وكم قد تعسفت من سبسب .

(٣) عند ابن عذارى :

ألاقى بوجهى سموم الهجـــ ... ـير وقد كاد منه الحصى أن يذوبا

(٤) لم نعثر على أى تفصيل خاص بحياة سكن بن إبراهيم الكاتب على الرغم من أنه كان من أوائل المؤرخين فى الأندلس ومجيديهم ، فهو مصدر من مصادر ابن حيان : وابن سعيد - فى الذيل الذى علقه على رسالة فضل الأندلس لابن حزم - يسميه بالأخبارى ، ويثنى عليه ويذكر له كتاباً عن طبقات الكتاب فى الأندلس ، وقد سماه ابن حزم « سكن بن سعيد » . وكل ما لدينا من المعلومات عنه أنه كان من إشبيلية وأنه توفى سنة ٤٥٧/١٠٦٥ .

انظر : الضبى ، بغية ، رقم ٨٣٤ ص ٣٠٣ .

لجارية(١) من حظاياه بعقد جوهر كانت قيمته عشرة آلاف دينار ، فجعل بعضُ من حضره من وزرائه وخاصته يُعظم ذلك عليه ويقول : « إن هذا من الأعلاق المضنون بها ، المدخرة للنائبة » ، فقال له عبد الرحمن : « ويحك ! إن لابِس العقد أنفس خطراً ، وأرفع قدراً ، وأكرم جوهراً . ولئن راق من هذه الحصباء منظرُها ، ولَطُف إفرِنْدُها ، لقد برأ الله من خلقه البَشرى جوهراً تَعْشَى منه الأبصار وتَتِيهُ الألباب . وهل على الأرض من شريف جوهرها ، وسَنِيِّ زِبْرِجِها(٢) ، ومُسْتَلَذِّ نعيمها ، وفاتن بهجتها ، أقرُّ لعينٍ ، أو أجمعُ لزينٍ ، من وجهٍ أكملَ اللهُ حُسنَه ، وألقى عليه الجمالُ بهجتَه ؟ » ثم دعا بعبد الله بن الشمر(٣) شاعرِه وجليسِه فذكر له ما كان بينه وبين وزيرِه فى شأن العِقد وقال : « هل يحضرك

— المقرى ، نفح الطيب (لايدن) : ١١٩/٢ .

جاينجوس ، ترجمة القسم الأول من نفح الطيب المعروفة باسم *History of the Muhammedan Dynasties in Spain.* ٤٦٤/١ .

الغزيرى ، فهرس الإسكريال : ١٣٧/٢ .

پونس بويجس : المؤرخون والجغرافيون ، رقم ١٠٤ ص ١٣٨ .

الترجمة الفرنسية لرسالة ابن حزم فى فضل الأندلس التى عملها *Charles Pellat* ونشرها باسم : *Ibn Hazm, Bibliographe et Apologiste* (Al-Andalus, XIX (1954) fasc. 1, § 27. p. 87 et n. 16.

وأنخل جنثالث پالنثيا ، تاريخ الفكر الأندلسى ، ترجمة ناشر هذا الكتاب (القاهرة ١٩٥٥) ص ٢١٠ .

(١) قرأها دوزى (٦٢) : بجارية . وأورد نفس الخبر ابن عذارى فى البيان (٩٢/٢) وقال إن هذه الجارية هى طروب .

(٢) البيان (٩٢/٢) : زبرجدها .

(٣) عبد الله بن الشَّمِر بن نمير القرطبى ، شاعر عبد الرحمن الأوسط ومنجمه . ترجم له ابن سعيد فى « المغرب » ترجمة واسعة وجعله تحت علماء التنجيم ، وأورد كثيراً من شعره ونوادره فى التنجيم (طبعة الدكتور شوقى ضيف ، القاهرة ١٩٥٣) رقم ٥٩ جـ١ ص ١٢٤ .

شيء في تأكيـد ما احتججنا به ؟ » ، قال : « نعم » ، وأطرق بُرَيْهَةً ثم أنشأ يقول :

أَتُقْرَنُ[(١)] حصباء اليواقيت والشَّذْرِ إلى مَن تعالى عن سَنا الشمسِ والبَدْرِ ؟

إلى مَن بَرَتْ قِدْماً يدُ اللهِ خَلْقَهُ ولم يَكُ شيئاً غيرُه أحدٌ يَبْرِى[(٢)] ؟

فأكرِمْ به مِن صيغةِ[(٣)] اللهِ جوهراً تضاءلَ عنه جوهرُ البَرِّ والبحر

له خَلَقَ الرحمٰنُ ما في سمائهِ وما فوقَ أرضيه ومَكَّنَ في الأمر

فأعجبَ الأميرُ عبدُ الرحمن ببديهته ، وتحركَ طبعُه للقول وأنشأ يقول مناغياً على رَوِيِّه :

قَريضُك يا ابنَ الشمر عَفَّى على الشِّعرِ وأشرقَ بالإيضاح في الوهم والفكر[(٤)]

إذا جال في سمعٍ يُؤَدِّي بسحرهِ إلى القلبِ إبداعاً يَجِلُّ عن السِّحْرِ[(٥)]

/ وهل بَرَأَ الرحمنُ في كل ما برا أقرَّ لعينٍ من مُنَعَّمَةٍ بكرِ [٣٤-١]

ترى الوردَ فوق الياسمينِ بخدِّها كما فَوَّفَ[(٦)] الروضُ المنوَّرُ بالزهرِ

فلو أنني مُلِّكْتُ قلبي وناظرى نَظَمْتُهما منها على الجيد والنحرِ

فقال له ابنُ الشمر : « يا ابنَ الخلائف ، شِعرك واللهِ أجود من شِعرى ،

---

(١) الأصل : أيقرن ، والتصويب من البيان المغرب : ٩٢/٢ .

(٢) الأصل : يبصرى ، والتصويب من البيان : ٩٢/٢ .

(٣) في البيان : صنعة .

(٤) في البيان (٩٢/٢) : وجل عن الأوهام والذهن والفكر .

(٥) في البيان (٩٢/٢) :

إذا شافهته الأذن أدى بسحرها إلى القلب إبداعاً فجل عن السحر

(٦) عند دوزى : فوّق ، ورواية الأصل صحيحة . فَوَّف من الفوف ، وهو البياض مع رقة (اللسان : ١٨٠/١١) .

وثناؤك عليه أفضل من صِلتى ، وما مِنحتُك لى إلا تَطَوُّلاً منك بغير استحقاق منى » ، فأضعف جائزته وأكثر الثناء عليه[1] .

وله أيضا فى النسيب :

قتلتَنى بهـــواكا وما أحِبُّ سِواكا
مَن لى بسحرِ جُفونٍ تُدِيره عَيْنــــاكا
وحمرةٍ فى بياضٍ تـكسى به وجنتاكا
اِعطِف علىَّ قليلاً وأَحْيِنى برضاكا
فقد قنعتُ وحسْبى بأن أرى من رآكا

وحكى ابنُ فرج صاحب « كتاب الحدائق » أنه فرّق فى يومِ فَصْدٍ له بِدَراً على مَن حضَرَه ، وعبيدُ الله بن قَرْلُمان أحد خواصه ومواليه غائب فى باديته ، فابتدر فوجد أمراً قد نفذ ، فـكتب إليه بأبيات منها :

يا مَلِــكاً حَلَّ ذُرَى المجـــدِ وعَمَّ بالإنعــــام والرِّفْدِ
طُوبَى لمنْ أسْمعتَه دعوةً فى يومِك المأنوسِ بالفَصْدِ
فظلَّ ذاكَ اليومَ مِن قَصْفِه مُستوطِناً فى جَنة الخُـــلْدِ
وقد عَدَانى أن أرى حاضراً جَدٌّ متى يُحْظِى الورى يكدِى[2]
فامْنُنَ بتنويلىَ جَدًا لم يزلْ يَعُمُّ أهـــلَ القُرب والبُعدِ

---

(١) روى ابن عذارى (البيان : ٢/٩٣) نادرة لطيفة ، قال : ثم أمر لابن الشمر ببدرة فيها خمسمائة دينار ، فخرج مع الوصيف يحملها له تحت إبطه ، فلما تواريا عن الأمير قال له الوصيف : « أين لِدات العمر يا ابن الشمر ؟ » فقال : « تحت إبطك يا سيدى . . »

(٢) الأصل : متى يحظ الورى يكد .

فوقَّع فى أسفل كتابه : « مَن آثرَ التَّضجُّع فليَرْضَ بحظه من النوم ! » ، فجاوبه ابنُ قرلمان بأبيات أولها :

* لا نمتُ إن كنتُ يا مولاى محروما *

فأمر له بالصِّلة وردَّ فى جوابه :

لا غَروَ أنْ كنتَ ممنوعاً ومحروماً   إذ غبتَ عنا وكان العرفُ مقسوماً
فلن ينالَ امرؤٌ من حظه أملاً   حتى يشُدَّ على الإجهادِ حَيْزوماً
/ فهاكَ من سَيْبِنا ما كنتَ تأمُله   إذ حُمْتَ فوق رجاء الوِردِ تحويماً [٣٤-ب]

٤٢ — ابنه الأمير محمد بن عبد الرحمن بن الحكم ، أبو عبد الله

بويع له فى صبيحة الليلة التى توفى فيها أبوه ، وذلك يوم الخميس غرة شهر ربيع الأول سنة ثمان وثلاثين ومائتين وهو ابن ثلاثين سنة . وكان أيمنَ الخلفاء بالأندلس مُلكاً ، وأسراهم نفسا ، وأكرمهم تثبُّتاً وأناةً ؛ وكان السعى عنده ساقطاً . يجمع إلى هذه الخلال الشريفة البلاغةَ والأدبَ . وتوفى يوم الخميس مُنْسَلخ صفر — وقيل لليلة بقيت منه — سنة ثلاث وسبعين ومائتين وهو ابن خمس وستين [سنة] ، فكانت خلافته أربعاً وثلاثين سنة وأحد عشر شهراً . وهو القائل فى منصرفه من بعض غزواته :

قفَلتُ فأغمدتُ السيوفَ عن الحربِ   وما أُغمدتْ عنى السيوفُ من الحبِّ
صدرتُ وبى للبعد ما بى ، فزادنى   إلى الشوق أشواقاً رجائىَ فى القربِ
أُحُلُّ شِدادى فى السرادقِ نازلاً   وللشوق عقد ليس ينحلُّ عن قلبى
أقُرطبة ، هل لى إليكِ وفادة   تقر بعينى أو تمهد من جنبى ؟

سَقَى القصرَ غيثٌ بالرُّصافة[1] مثلُهُ وجادت عَزَالِيهِ[2] كجودىَ فى الجدبِ
عدانى عدوٌّ عن حبيبٍ ، فزرتُهُ بجيشٍ تضيقُ الأرضُ عن عَرضه الرحبِ
إذا اسودَّ من ليلِ الروع تبلجتْ أسنَّتُهُ فيه عن الأنجم الشُّهْبِ
على أننى حِصْن لجيشى إذا التقَوْا وعزمى بهم أدنى السيوف إلى الضربِ

وله :

ذَكَرَ الصَّبوحَ فظل مصطبحًا يستعمل الإبريقَ والقــدحَا
ما زال حيًّا وهْوَ يشربُهــا حتى أماتته الكؤوسُ ضُحَى

٤٣ — ابنه الأمير عبد الله بن محمد ، أبو محمد

وَلِىَ بعد أخيه أبى الحكم المنذر بن محمد بن عبد الرحمن فى صفر سنة خمس وسبعين ومائتين ، وتوفى سنة ثلاثمائة وهو ابن اثنتين وسبعين سنة ، / فكانت [٣٥-١] خلافتُه خمساً وعشرين سنة . وكان أديباً ، شاعراً ، بليغاً ، بصيراً باللغة والغريب وأيام العرب . وفى أيامه اضطرمت نار الفتنة بالأندلس فتنغَّص عليه مُلكه .

ومن مشهور شعره ما وقَّع به إلى الوزراء فى قصة موسى بن حُدَيْر وعيسى ابن أحمد بن أبى عبدة[3] ، إذ أراد كل واحد منهما أن يكون مجلسُه فوق الآخر ،

---

(١) قرأ دوزى هنا (ص ٦٥) : فالرصافة .

(٢) يقال للسحابة إذا انهمرت بالمطر الجوْد قد حلت عَزَالِيها وأرسلت عزاليها (اللسان : ١٤/٤٦٩ - ٤٧٠) .

(٣) بنو حُدَير وبنو أبى عبدة من بيوت الأندلس الكبيرة التى تقاسمت الوظائف الكبرى فى الإمارة ثم فى الخلافة الأندلسية ، وكانت تعرف بالبيوتات ، وأكبرها هذان البيتان ثم بنو شهيد وبنو عبد الرءوف وبنو فطيس ، وكلهم من موالى الأمويين المشرقيين أو الأندلسيين وموالى مواليهم . فبنو حدير كانوا من موالى البيت الأموى المشرقى ولهذا كانوا معدودين فى =

فَسْخاً لما كان قد رتّبه والدُه الأميرُ محمد بن عبد الرحمن من رفع الموالى الشاميين على البلديين :

موالى قريشٍ من قريشٍ فقدِّموا   موالى قريشٍ لا موالى مُعَتِّبِ
إذا كان مولانا يساوم عندنا   سِــواه فمولانا كآخر أجنبى

حوّل اسم « مغيث » إلى « مُعَتِّب » إغماضاً وانقياداً للقافية .

وله فى النسيب :

يا كَبِدَ المشتاق ما أوجعكْ   ويا أسيرَ الحب ما أخضعكْ
ويا رسولَ العين مِن لحظها   بالرد والتبليغ ما أسرعكْ
تذهب بالسر وتأتى به   فى مجلسٍ يَخْفَى على مَن معكْ
كم حاجةٍ أنجزتَ موعدَها   تبارك الرحمٰنُ ، ما أطوعكْ !

وله فى ذلك :

ويَحْيِ على شادنٍ كحيلٍ   فى مِثله يُخْلَع العِــذارُ
كأنمـــا وجنتاه وردٌ   خالطَــه النَّوْرُ والبَهارُ
قضيبُ بانٍ إذا تثنّى   يُدير طرفاً به احورارُ
وقْفٌ عليه صفاه وُدِّى   ما اختلف الليلُ والنهارُ

= الشاميين ، أما بنو أبى عبدة فكانوا موالى مغيث الرومى مولى الوليد بن عبد الملك ، ولهذا فقد كانوا معدودين فى البلديين أى أهل البلد ، لأن أصلهم من الأندلس . وقد كان الأمير محمد قد قرر أن يتقدم الشاميون على البلديين ، ومن المعروف أن الوزارة فى الأندلس كانت تتألف من حاجب أشبه برئيس الوزراء ثم عدد من الوزراء ، فلو اجتمع فى الوزارة شامى وبلدى كان التقدم للأول . وكان كل من موسى بن محمد بن حدير وعيسى بن أحمد بن أبى عبدة من أكبر رجال بيتيهما ، وقد ولى أولهما الحجابة للناصر . فلما اجتمعا فى الوزارة أيام الأمير عبد الله أراد عيسى بن أحمد ابن أبى عبدة أن يتقدم على صاحبه ، لأن أباه أبا العباس أحمد بن أبى عبدة كان أكبر قواد الأمير عبد الله وهو صاحب الفضل فى إنقاذ الإمارة من الضياع ، ولكن الأمير عبد الله آثر أن يظل الأمر كما رسمه أبوه ، وقرر أن يظل بنو حدير متقدمين على بنى أبى عبدة .

وله فى الزهد :

يا مَن يراوغه الأجلْ   حتّامَ يُلهيكَ الأملْ
حتّامَ لا تخشى الرّدَى   وكأنه بكَ قد نزلْ
أغَفَلْتَ عن طلبِ النجا   ةِ ولا نجاةَ لمن غَفَلْ
هيهات يَشغلُكَ الرجا   ءُ ولا يدوم لك الشُّغُلْ

[٢٠-ب] / وله فى مثله :

أرى الدنيا تصير إلى فناء   وما فيها لشئٍ من بقاء
فبادرْ بالإنابةِ غيرَ لاوٍ   على شئٍ يصير إلى فناء
كأنكَ قد حُملتَ على سريرٍ   وصار جديدُ حُسنكَ للبلاء
فنفسَك فابْكها أو نُحْ عليها   فرُبَّتَما رُحِمْتَ على البكاء

وكان ، بفضل أدبه ، ربما استرسل ، فقال بحسب ذلك أو تمثل ، ثم لا يدعه كرمُ الأوائل ، وشرف الشمائل ، حتى يُدنى من أقصاه ، ويُبدى لمن أعتب رضاه . قال فى النَّضْر(١) بن سَلمة الكلابى :

أنت يا نضر آبِدَهْ   لستَ تُرْجَى لفائدهْ
إنما أنت عـــدة   لـــكنيف ومائده

(١) فى الأصل : انضر بوضوح ، وكذلك عند ابن عذارى (١٥٤/٢) . ولكن فرانتيسكو كوديرا ناشر تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضى قرأه : نصر . وهو النضر بن سلمة ابن وليد بن أبى بكر بن عبيد بن بلج بن عبيد بن على الكلابى القيسى . ترجم له ابن الفرضى تحت رقم ١٤٩٦ ، ج٢/٢٨ - ٢٩ وقال إنه من أهل قرطبة ، يكنى أبا محمد ، استقضاه الأمير عبد الله بن محمد بقرطبة مرتين ثم استوزره . . وقال الرازى إنه توفى يوم الثلاثاء ٩ ذى الحجة ٣٠٢/٢٦ يونيو ٩١٥ . وترجم ابن الفرضى لأخيه محمد تحت رقم ١١٣٩ (٣٢٠/٢) وقال إن الأمير عبد الله استقضاه بعد أخيه النصر (كذا وصحتها : النضر) بن سلمة ، وكان رجلا صالحاً كثير النعم . توفى فى ذى الحجة ٢٨٩/نوفمبر ٩٠٢ .

وعلى ذلك استقضاه مرتين ، ثم استوزره واستقضى أيضاً أخاه محمد بن سلمة تقيلا للأخلاق الحَكَمِية[1] ، وجرياً على الأعراق العَبْشَمية .

وقرأتُ فى تاريخ الحُمَيدْى ، أن الوزير سليمان بن وانسُوس[2] — وكان من رؤساء البربر — دخل عليه يوماً — وكان عظيم اللحية — فلما رآه مقبلا جعل الأمير عبد الله ينشد :

هِلَّوفة[3] كأنها جوالِقُ نكراء لا بارك فيها الخالقُ
للقمل فى حافاتها نفائقُ فيها لباغى المتَّكا مرافقُ
وفى احتدام الصيف ظلٌّ رائقُ إن الذى يحملها لمائقُ

ثم قال له : « اجلس يا بربرى ! » فجلس وقد غضب فقال : « أيها الأمير ، إنما كان الناس يرغبون فى هذه المنزلة ليدفعوا عن أنفسهم الضيم ، وأما إذ صارت جالبة للذل فغَنِّينا عنكم ، فإن حُلْتُم بيننا وبينها فلنا دور تسعنا ، لا تقدرون على أن تحولوا [بيننا و][4] بينها » ثم وضع يديه فى الأرض وقام من غير أن يسلم ،

---

(١) هنا يلمح ابن الأبار ويشير إلى ما تقتضيه « الأخلاق الحكية » و« الأعراق العبشمية» إشارة إلى غضب السلطان أبى زكريا عليه وإبعاده وإلزامه بيته ، مما حفز ابن الأبار على تأليف كتابه « إعتاب الكتّاب » على ما هو معروف وما ذكرناه فى المقدمة . وقد كان ابن الأبار سيىء الحظ فى تونس بسبب حدة مزاجه وعدم ضبطه لسانه ، فكان معظم أيامه مبعداً أو مغضوباً عليه كالمبعد ، ولهذا تكثر فى كتبه مثل هذه الإشارات .

(٢) سيترجم ابن الأبار لسليمان بن وانسوس هذا فيما بعد .

(٣) الهلوفة والهلوف اللحية الضخمة .

(٤) وردت هذه العبارة مضطربة بالأصل ، بعضها فى المتن وبعضها فى الهامش ، وقد وردت « فغنينا » « تغنينا » وقد قومها دوزى (ص ٦٧) على هذا النحو ، وهو تقويم مقبول ، فأخذناه . وقوله : « فإن حلتم بيننا وبينها » المراد بها المنزلة أووظيفة الوزارة التى كان يحتلها سليمان بن وانسوس فى ذلك الحين . وأما قوله : « فلنا دور تسعنا لا تقدرون على أن تحولوا بيننا وبينها » فإشارة إلى بيت أسرته الأول فى ماردة ، وكان جده قد ثار فيها وامتنع على الحكم الربضى وسبب له متاعب طويلة حتى استسلم ولده وانسوس ونشأ ابنه سليمان فى قرطبة على الطاعة . وتصرف الأمير عبد الله مع سليمان يعرض علينا جانباً من سياسته العامة ، فقد كان يدارى الناس ما أمكن تجنباً لمزيد من الثورات التى ملأت عصره كله .

ونهض إلى منزله ، فغضب الأمير وأمر بعزله ورفع دَسْتَه[1] الذى كان يجلس عليه ؛ وبقى كذلك مدة .

ثم إن الأمير عبد الله وجد فَقْدَه[2] لغنائه وأمانته ونصيحته وفضل رأيه ، فقال للوزراء : « لقد وجَدتُ لفقد سليمان تأثيراً ، وإن أردتُ استرجاعَه ابتداء منا كان ذلك غضاضةً علينا ، ولوَددتُ أن يبتدئنا بالرغبة » ، فقال له / الوزير [٣٦ - ١] محمد بن الوليد بن غانم : « إن أذنتَ لى فى المسير إليه استنهضتُه إلى هذا » فأذن له . فنهض ابنُ غانم إلى دار ابن وانسوس فاستأذن ، وكانت رُتبة الوزارة بالأندلس أيام بنى أمية ألا يقوم الوزير إلا لوزير مثله ، فإنه كان يتلقاه وينزله معه على مرتبته ولا يحجبه أوّلا لحظةً[3] ، فأبطأ الإذنُ على ابن غانم حيناً ، ثم أذن له ، فدخل عليه فوجده قاعداً ، فلم يتزحزح له ولا قام إليه . فقال له ابن غانم : « ما هذا الكِبْر ؟ عهدى بك وأنت وزير السلطان وفى أبهة رضاه تتلقانى على قَدم وتتزحزح لى عن صدر مجلسك ، وأنت الآن فى موجدته بضد ذلك ! » فقال له : « نعم . لأنى كنت حينئذ عبداً مثلك ، وأنا اليوم حر » ، فيئس ابنُ غانم منه وخرج ولم يكلمه ، ورجع إلى الأمير فأخبره ؛ فابتدأ الأمير بالإرسال إليه ورده إلى أفضل ما كان عليه .

---

٤٤ ــ يعقوب ابن الأمير عبد الرحمن بن الحَكم بن هشام

ويُكنى أبا قُصَىّ ؛ كان أديباً شاعراً مطبوعاً كلفاً بالعلوم ، جواداً لا يُليق

(١) أى عزله من الوزارة . وقد كان لكل عضو من أعضائها دست أى مقعد يجلس عليه عند اجتماع الوزراء . وكان دست رئيسهم – وهو الحاجب – أعلى من دسوت الآخرين.

(٢) الأصح أن نقرأ هنا : وَجِد لفقده . أى حزن لغيابه .

(٣) كذا فى الأصل بوضوح . والأصح أن نقرأ هنا : ولا لحظة .

شيئا[1] ، وهو القائل فى ابن أخيه أبى أمية العاصى ابن الأمير محمد بن عبد الرحمن من قصيدة :

تُنادِى ماجداً من عبد شمسٍ زكىّ الفرع مفضالَ اليدينِ
سما للمكرُمات فقدْ حواها بهنـــدىٍّ وخطارٍ رُدَينى
وغَيْثاً حين يَسْكُبُ لا الثريا به جادتْ ولا نوء البُطَيْنِ

ما أحسن قول أبى مروان بن حيان ، وذَكَر ثناء معاوية بن هشام الشبينسى على أبى قُصى هذا : أقول : وصَفه بالطبع فى الشعر ، ثم لم ينشد له ما يصدِّق وصْفَه ، بل أنشد له ثلاثة أبيات [من قصيدة مدح بها ابن أخيه العاصى ابن الأمير محمد بن عبد الرحمن][2] ليست بطائل . وله مما قرأتُ فى « كتاب الحدائق » لابن فرج :

يا ابنَ الخلائف من بنى فِهْرٍ [... ... ...] الزهرِ[3]
يا أكْرَمَ[4] الأمـــلاك كلهم [... ... ...] مضطر
إن الصيام قد انقضى ومضى ينّدى يديك [... ...] البشر

(١) يقال : فلان ما يُليق شيئاً من سخائه ، أى ما يمسك . (اللسان ١٢ / ٢١٠) .

(٢) ابن الأبار ينقل هنا عن ابن حيان ، وقد وجدت الموضع فى مخطوطته التى عثرت عليها ، وأعِدُّها للنشر مع الدكتور محمود على مكى (١٩٥ – ا) ، وأكملت نقص متن ابن حيان منها . وقد علق ابن حيان على هذه الأبيات بقوله : اضطرته القافية إلى أن قرن بين أعزر الأنواء وأنزرها ، فأحال جدا » . والأبيات الثلاثة هى المذكورة آنفاً ، وبين روايتى ابن حيان وابن الأبار لما نقلاه عن معاوية ابن هشام الشبنسى بعض خلاف فى الألفاظ .

(٣) وردت هذه الأبيات فى الأصل مبتورة هكذا ، ومن أسف أننا فقدنا كتاب حدائق لابن فرج ، ولم أستطع إكمالها من أى مرجع آخر .

(٤) فى الأصل : كرام ، وصوبتها للوزن .

[٣٦ - ب]

٤٥/ - أخوه بِشْر ابن الأمير عبد الرحمن

ذكر أبو محمد بن حزم فى كتاب « جمهرة الأنساب »[١] أنه كان شاعراً ، وأنشد له أبو عمر بن فرج صاحب « كتاب الحدائق » :

حجابك لى عن الدنيا حجابُ ويوم لا أراكَ به عـــذابُ
وقد كانت تضيق الأرضُ عندى إذا واراك سِـــتْرٌ أو نقابُ
فـكيف أعيش إذْ[٢] واراك عنى قصور دونَهـــا بابٌ فبابُ ؟

وليعقوب وبِشْر هذين إخوة جلة [منهم][٣] هشام ، وكان من أهل العلم والفضل والبصر بالعربية ، وأكثَرَ من الرواية عن يحيى بن يحيى . وكان أبوه الأمير عبد الرحمن الحـكم قد نصَبه فى خلافته للصلاة على جنائز أهل قصره وأكابر رجاله ، كما نصب عبد الرحمن [بن معاو] ية ابنه هشاماً . [ومنهم أبان و ع] ثمان على اختلاف فيه ، [وهما][٤] ابنا عبد الرحمن بن الحـكم ، وكانا أديبين شاعرين ، وسيأتى ذكرهما فى آخر التأليف إن شاء الله تعالى .

---

(١) لا وجود لهذا فى « جمهرة أنساب العرب » لابن حزم التى بين أيدينا ، مما يدل على أن نسختنا مختصرة . ومن أسف أن ذلك الاختصار نال الكثير مما وصلنا من الكتب.

(٢) الأصل : إذا ، ولا يستقيم به الوزن .

(٣) أضفها دوزى هنا (٦٩) وهى إضافة فى موضعها .

(٤) وردت هذه العبارة مضطربة فى الأصل ، بعضها فى المتن وبعضها فى الهامش ، وقد رتبناها على هذا النحو كما فعل دوزى (ص ٦٩) . وقد أثبت دوزى اسم أبان اعتماداً على أن ابن الأبار ترحم له مع أخيه عثمان بعد ذلك . ولم أجد اسم أبان بين أولاد عبد الرحمن بن الحكم كما أوردهم ابن حيان نقلا عن الرازى (مخطوط ١٩٤ ب) ، وليس له ذكر كذلك فى نسب بنى أمية الأندلسيين كما ذكره ابن حزم فى « الجمهرة » (ص ٩٠) ، وربما كان هذا هو السبب فى قول ابن الأبار بعد أن ذكر أبان وعثمان : « على اختلاف فيه » .

٤٦ — القاسم ابن الأمير محمد بن عبد الرحمن ابن الحَكم ، أبو محمد

كان من الأدباء الشعراء ، إلا أنه مُقِلّ . وكان أحد الجبابرة الموصوفين ، شديد البَأْو تيّاهاً ؛ وقَبض عليه أخوه الأمير عبد الله فمات فى حبسه مسموماً . ومن شِعره [و](١) بديهته السائرة فى الناس ، وقد دخل دار أخيه عثمان بن محمد فاستسقى ماء فأبطأ عليه غلامه لعلة لم يقبلها ، وأنشأ يقول :

الماءُ فى دارِ عثمانَ له ثمنٌ ... والُخبزُ فيها له شانٌ من الشانِ
فاسْلَحْ على كلِّ عثمانٍ مررتَ به ... إلا الخليفةَ عثمانَ بنَ عفانِ

كذا قال ابنُ حيّان ، وهو غلط لاخفاء به . وإنما البيتان من قطعة لعبد الملك بن عبد الرحيم الحارثى أنشدها أبو عمر [بن عبد البر النمرى فى كتاب « بهجة](٢) المجالس » من تأليفه وهى :

يا أختَ كِنْدَةَ جافِى شرب عثمان ... وأزْمِعى لبنى أودٍ بهجرانِ
يا أختَ كِندة سِيرى سير ساخطةٍ ... كىْ تنتوِى مُنتوَى غَضْبَى وغَضبانِ
/الماءُ فى دارِ عثمانَ له ثمنٌ ... والخبزُ فيه له شانٌ من الشانِ [٣٧-أ]
عثمان يعلمُ أنَّ الحمدَ ذو ثمنٍ ... لـكنّه يشتهى حمداً بمَجاّنِ
والناسُ أكيسُ من أن يَحمدوا رجلاً ... حتى يَروْا عنده آثارَ إحسانِ
اغسلْ يديكَ بأشنانٍ وأنقِهِما ... غسْلَ الجنابةِ من معروف عثمانِ
واسلَحْ على كل عثمانٍ مررتَ به ... إلا الخليفةَ عثمانَ بنَ عفانِ

(١) أضفنا الواو هنا للسياق .

(٢) بياض فى الأصل ، وهكذا أكمله دوزى ، وهو حسن .

وأنشد له الحُمَيْدى وقال فيه [... ...] القاسم غلط منه[1] :

سَكَنتُ من قلبي الهوى ما أمكنا ولقد أراه للصبابة مَعدنَا
هذا هلالٌ قد بدا ومدامةٌ تجرى براحته وعيش قد هَنَا

وله أبيات كتب بها إلى محمد بن عبد العزيز العتبي الأديب لم يُجِد رصفَها فرأيت حذفها .

---

٤٧ — المطرف ابن الأمير محمد ، أبو القاسم

شقيق القاسم المذكور آنفاً . برع فى الشعر وهو ابن عشرين سنة ، وتوفى معتَبطاً فى حياة أبيه وهو ابن أربع وعشرين ، وكان آدَبَ وَلَدِ الأمير محمد وأشعرهم . ذكر ذلك ابن حَيّان ، وقال أبو محمد بن حزم فى كتاب « جمهرة الأنساب » من تأليفه — وذَكَر المطرف هذا : « كان شاعراً مفلقاً ، عالما بالغناء . وكان له عَقِب قد انقرض » .

وأنشد له صاحب « الحدائق » يرثى أخاه عبد الرحمن بن محمد :

أخٌ كان إن لم يمرع الناسُ أصبحتْ مواهبُهُ للناسِ وهى مرابعُ
كثيرٌ عليكَ الحزن مِن كلِّ جانبٍ كما كَثرتْ مِن راحتيكَ الصنائعُ
عليكَ سلامُ الله ، إن النَّدى لهُ زوالٌ وإنَّ السعىَ بعدَكَ ضائعُ

وله فيه :

يا عابدَ الرحمٰن ما أوضح فينا سُبلكْ

---

(١) كذا فى الأصل ، ولم أستطع تقويم العبارة من جذوة المقتبس للحميدى كما وصلتنا .

أيقظتَ(١) شِعرى أبداً فالقول لى والفعل لكْ
ما الثُّكْلُ والحسرة [...] [... ... ...](٢)
يا موت أعجلتَ فتًى فى(٣) الرَّوع قِدماً أعجلكْ

/وله أيضا : [٣٧ – ب]

أشهى منَ الكاسِ حاملُ الكاسِ أرعاه ما طاف حول جُلاَّسى
يثقل مِن أجــله الجليسُ ولو كان منَ النسك آمَنَ الناسِ

وكتب إلى أخيه المنذر بن محمد ، وكان مائلا إليه :

هل أتَّــكِى مُشرِفاً على نهرى أرمى بطَرْفى إليه من قصرى
عند أخٍ لو دَهَتْــه حادثةٌ أعطيتُه ما أحبَّ من عمرى
نشرب نحليــةً(٤) فضيلتها أنحفتِ الخمــرَ ذِلَّةَ الخمرِ ؟

فوعده السكونَ عنده ، فكتب إليه يستنجزه :

وَلوعُ النفسِ بالوعدِ الوَفىِّ وإنجازُ المَقال على الوَلىّ
فإن أرضاك أن نغدو ضحاءً وإلا كان ذاكَ مع العَشىِّ
نكون ثلاثةً أنتَ المُبَدَّى ونحن يليكَ ، ثم أبو علىّ

(١) الأصل : بعضت ، ولا يستقيم به معنى . وقد صححه دوزى : يقّظت . وهو [illegible]
أقرب مساق .
(٢) تركها الناسخ بياضا ، ونص عليه البيت :
ما الثكل والحسرة [...] الثكل والحسرة [...]
(٣) نسى دوزى (ص ١١) هذا الحرف .
(٤) كذا فى الأصل . وقرأه دوزى (ص ١١) : قحبة . ولم أجد فى [illegible]
ما يقرب منها فى باب الخمر فى المخصص لابن سيده ، ولا وجدت لها معنى يتصل بالخمر فى
المعاجم ، وكل ما وجدت فى معرض [illegible] بيت [illegible] يتصل به .

وله فى الشّيب :

إنّ شيباً وصَبْوَةً لَمُحالُ　　قد أَنَى أن يكونَ عنها زوالُ
رَكِبَ الشيبُ لِمَّتى خَلَلَ الشَّعْـ　　ـرِ لوقتٍ حالتْ به الأحوالُ
فَدَعِ(١) النفسَ عن مزاحٍ ولهوٍ　　تلكَ حالٌ مضتْ وجاءتْ حالُ

ولمحمد بن عبد العزيز العُتْبى فيه ، يفضِّل شعره على أشعار إخوته وأقربائه :

يُغْنِى(٢) مسامعنا لديه حَوَاليًا　　بلآلئٍ مِن لفظِهِ وزبرجدِ
والشعرُ يسجدُ نحو قِبلةِ شعرِهِ　　ولغير قِبلةِ شعرِهِ لم يسجدِ

---

٤٨ — إبراهيم ابن الأمير محمد بن عبد الرحمن ، أخوهما

أنشد له ابن فرج فى « كتاب الحدائق » :

دُنُوُّكَ مِنِّىَ فى منزلى　　هو المُلْكُ يَسَّرَهُ اللهُ لى
/فَيَكْنُفُنا جانب واحدٌ　　ويجمعنا الشّرب من مَنْهَلِ　[٣٨ – ا]
وإنْ حالَ دونَك بابًا حديدٍ　　وقصرٌ مَشِيدٌ من الجَنْدلِ

هؤلاء المروانيون فى هذه المائة .

* * *

ومن الحسنيين فيها :

---

(١) الأصل : فزع .
(٢) الأصل : يغى ، ولا معنى له هنا ، وقد تكون صحته ما أثبتناه .

٤٩ — القاسم بن إدريس بن إدريس بن عبد الله ابن حسن بن حسن بن على

وَلِى البَصْرة[١] وطَنْجَة وما يليهما لأخيه محمد بن إدريس القائم بعد أبيه سلطان المغرب . وكان إدريس قد ولد محمداً هذا والقاسمَ وأحمدَ وعبدَ الله وعيسى وإدريسَ وجعفراً ويحيى وحمزةَ وعبيدَ الله وداود — وبه كان يُكنَى — وعمرَ ، وبنات .

ولما توفى إدريس مسموماً فى حبة عنب[٢] سنة ثلاث عشرة ومائتين — كما تقدم ذكره — اجتمعت البربر على محمد ، فبايع له إخوته جميعاً ، واتخذ مدينة فاس قراراً ، وفرّق بلاد المغرب عليهم[٣] ؛ فنكث أخوه عيسى

---

(١) يريد بَصْرة المغرب وكانت بلداً إسلامياً منسوراً ، ولا زالت آثاره باقية ظاهرة على يسار الطريق من طنجة إلى سوق الأربعاء ، وهى على نحو ١٠٠ كيلومتر جنوبى طنجة فى خط مستقيم تقريباً . وتسمى بصرة الكتان وبصرة الذبان . أسسها محمد بن إدريس سنة ٢١٨/ ٨٣٣ . وقد أطال الكلام عنها أبو عبيد البكرى (ص ١١٠ — ١١١) وذكرها ابن حوقل والإدريسى وغيرهما .

انظر : أحمد سكندس ، الخريطة المغرب الأركيولوجية (تطوان ، ١٩٣٠) ص ١١ . وانظر عنها : الاستقصا للسلاوى (طبعة الدار البيضاء ١٩٥٤) ١/ ١٢٣ .

(٢) هذه أيضاً رواية روض القرطاس (ص ٦) وكانت وفاته حسب رواية هذا الكتاب فى ليلة ١٢ جمادى الثانية ٢١٣/ ٢٩ أغسطس ٨٢٨ ، وكانت سنه ٣٦ سنة .

(٣) كان محمد بن إدريس بن إدريس قد قسم نواحى دولته بين إخوته ، ونصحته بذلك جدته كنزة . وقد أورد هذا التقسيم ابن أبى زرع فى روض القرطاس (طبعة فاس ، ص ٣) ، وابن عذارى فى البيان المغرب (١/ ٢١٠) ، والسلاوى فى الاستقصا (١/ ١٧٣) ، والبكرى فى وصف إفريقية ، وهذا التقسيم يهمنا هنا لأنه تتبع حوادث الحسنيين بعد تراجم من بقى من الأدارسة . وفيما يلى جدول مقارن لهذا التقسيم ، وإنما نورد نص ابن عذارى لأنه لا يضيف شيئاً ذا بال :

ابن إدريس وخرج عليه ، فكتب محمد إلى القاسم يأمره بمحاربته إذا كان يحاديه[١] فى ولايته ، فأبَى القاسمُ وكتب إليه معتذراً من توقفه عما أمره به :

سأترك للراغب الغربَ نهباً   وإن كنت فى الغرب قَيْلا ونَدْباَ
وأسمو إلى الشرق فى همةٍ   يعز بها رُتَبًا من أحَبا
وأترك عيسى على رأيهِ   يعالج فى الغرب همًّا وكربَا

وصف إفريقية	روض القرطاس	الاستقصا
القاسم : البصرة وطنجة وما والاها .	طنجة . سبتة . قلعة حجر النسر . تطوان . بلاد مصمودة وما إلى ذلك من البلاد والقبائل .	مثل روض القرطاس .
داود : هوارة تاسمت .	بلاد هوارة . تسول . بلاد غياثة .	بلادهوارة . تسول وتازا ومابين ذلك من قبائل مكناسةوغياثة .
يحيى : دى وما والاها .	البصرة . أصيلا . العرائش . بلاد ورغة .	أصيلا والبصرة والعرائش وورغة .
عمر : صنهاجة وغمارة .	مدينة تمنجساس . بلاد هوارة وما والاها .	تيكساس . ترغة وما بينهما من قبائل صنهاجة وغمارة .
أحمد : لم يذكره فى هذه الولايات .	مكناسة . بلاد فازاز . بلاد تادلا .	مكناسة . تادلا وما بينهما من بلاد فازاز .
عبد الله : سبتة وما والاها .	مدينة أغمات . بلاد نفيس . بلاد المصامدة . السوس .	أغمات . نفيس . جبال المصامدة . بلاد لمطة . السوس الأقصى .
حمزة : الأودية بتروب وبين .	تلمسان وأعمالها .	وليلى وأعمالها .
عيسى : وزمور وسلا .	مدينة سلا وبلاد تامسنا .	سلا . شالة . آزمور . تامسنا وما انضم إلى ذلك من القبائل .

ويرجع الأربعة عن اثنين من إخوته كانوا صغاراً . فبقوا فى كفالة جدتهم كنزة .
ويلاحظ أن ابن خلدون يجعل هنا عمل القاسم حول البصرة إلى جانب طنجة متابعا البكرى فى حين أنها — حسب روض القرطاس والاستقصا — كانت من نصيب يحيى .

(١) كذا فى الأصل . والاستقصا ولا نتبين معنى . فإن كان المراد أن حدود ولايتيهما متجاورة ، صح ذلك تماماً كما يتضح من الجدول السابق . ولا نحسب أنها تصحيف للفظ يعاديه أو يجاذبه .

ولو كان قلبىَ عن قلبـــهِ لـكنت له فى القـــرابة قلبا
وإن أحدث الدهر من ريبهِ شقاقاً علينا وأحدثَ حربا
فإنى أرى البُعدَ سِتْراً لنـــا يُجدد شوقاً لدينا وحباً
ولم نَجْنِ قطعاً لأرحامنا نُلاقى به آخرَ الدهرِ عَتْبا
وتبقى العــداوةُ فى عقبنا وأكرم به حين نعقب عقبا
وأوفق من ذاك جوب الفلاةِ وقطعُ المخارم نَقْباً فنقبا

فـكتب محمد إلى أخيه عمر — وكان على صَنهاجة وغمارة(1) — يأمره [٣٩-ب] بمحاربة عيسى، فأجابه وسارع وخرج يريد عيسى بعسكره. فلما قرب من أحواز فاس كتب إلى محمد يستمده، فبعث إليه من كان معه، ونفذ فى أصحابه قبل لحاق المدد، فأوقع بعيسى ونفاه عن عمله واستولى عليه، فأمره محمد بالإقامة فيه، ثم أمره بمحاربة القاسم، فحاربه وتغلب على ما كان بيده، فتخلى القاسمُ عن ذلك لمحمد وعمر، وتزهّد وبنى مسجداً على ساحل البحر بأُصيلاَ ولزمه.

فلما عاين البربرُ ذلك نهضوا إليه وهو بمرجته فصرفوه إلى عمله، ورجع إليه كلُّ من صدر إلى أخويه محمد وعمر.

وقال الرازى، وذكر أولاد إدريس بن إدريس: «فأما محمد بن إدريس فوَلِىَ مدينةَ فاس بعد أبيه، وقسم عمله على إخوته وأخرجهم عمالاً، ثم أخلد إلى اللهو واشتهر بالشرب وأخذه بالنساء(2). فخلعه إخوته وملكَ كلُّ واحدٍ منهم ما تحت يده. ثم لم يلبث محمد أن هلك ولم يعقب. فوَلِىَ أمرَ فاسٍ

---

(1) هنا أيضاً يختلف التقسيم عما أورده فى النص صاحب المعجب متفقة عما فى روض القرطاس.

(2) هنا وقع الرازى فى غلط كبير. فخلط بين الأدارسة خلطاً لا ندرى كيف يقع فيه مثله. فإن محمد بن إدريس بن إدريس كان من صلحاء أمراء الأدارسة وقدمائهم. وقد ترجم

بعد [ه][1] القاسم أخوه ، ومَلَكَها ملك سيادة ، وتجمع الناس إليه من كل ناحية[2] ، ولحق المنفيون عن ربض قرطبة بها ، وتمدنت وكثر أهلها .

* * *

= يحكم إلى أن توفى فى ربيع الثانى سنة ٢٢١/مارس ٨٣٥ . وخلفه ابنه على بن محمد بن إدريس ابن إدريس الملقب بحيدرة ، وظل فى الحكم إلى رجب ٢٣٤/يناير ٨٤٨ ، وخلفه أخوه يحيى بن محمد بن إدريس بن إدريس ، وكان أميراً قادراً ذا عناية بشئون العمران ، وفى أيامه بنى جامع القرويين سنة ٢٤٥/٨٥٩ . ثم خلفه ابنه يحيى بن يحيى بن محمد بن إدريس بن إدريس ، وهذا هو الذى أساء السيرة وكثر عبثه فى الحرم حتى دخل الحمام على امرأة ، فثار الناس عليه بزعامة رجل من أهل فاس يسمى عبد الرحمن بن أبى سهل الجذامى وأخرجه منها فهرب إلى عدوة الأندلسيين فمات بها من ليلته (البكرى ؛ ص ١٢٤ — ١٢٥)

وكانت زوجة يحيى هذا هى عاتكة بنت على بن عمر بن إدريس « صاحب الريف والسواحل» كما يقول السلاوى ، فكتبت إلى أبيها تعلمه بما وقع ، فجمع رجاله ودخل فاس وتولى الأمر.

أما ما يقوله برزى من أن القاسم تولى الأمر ، فمرده إلى خلط بين القاسم وابنه يحيى . ذلك أن علياً بن عمر المذكور لم يستطع البقاء طويلا فى الحكم ، إذ ثار عليه رجل من الخوارج الصفرية يسمى عبد الرزاق الفهرى ، وغلبه على الأمر ، وفر عمر بنفسه إلى بلاد أوربة ، وملك عبد الرزاق عدوة الأندلسيين من فاس ، أما أهل عدوة القرويين فامتنعوا عليه ، وبعثوا إلى يحيى بن القاسم بن إدريس ، الثانى وولوه عليهم . فتمكن من هزيمة عبد الرازق الفهرى ، ومات يحيى بعد ذلك بأن قتله رجل يسمى الربيع بن سليمان سنة ٢٩٢/٩٠٤ .

انظر: روض القرطاس : ص ٦ وما يليها . ابن خلدون . تاريخ : ٤/١٤ — ١٨ . أبو عبيد البكرى : المسالك والممالك . الجزء الخاص بالمغرب ، نشره دى سلين فى الجزائر سنة ١٩١٠ ، ص ١٢٣ — ١٣٢ . السلاوى . الاستقصا : ١/١٧٣ — ١٨٣ . أما ابن عذارى فرواية الأخبار الأدارسة عنده بها كثير من الخطأ ، فهو يخلط بين يحيى الأول ويحيى الثانى ، ويخلط خلطاً غريباً : ١/٢١٠ — ٢١٦ .

(١) زيادة لابد منها للسياق .

(٢) هذا يخالف ما فى روض القرطاس (ص ٧) . قال فى شأن القاسم بعد أن ذكر مسير أخيه عمر إليه : « فكانت بينهما حروب عظيمة ، ثم هزم القاسم ، واحتوى عمر على ما بيده من البلاد . وسار القاسم إلى ساحل البحر مما يلى مدينة أصيلا ، فبنى هناك مسجداً على ضفة البحر بموضع يعرف بتهدرت ، فأقام يتعبد فيه ، وزهد فى الدنيا إلى أن مات رحمه الله تعالى » . وانظر أيضاً البكرى ، ص ١٢٤

ومن رجال المروانية :

٥٠ — عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث[١]
الحاجب ، أبو حفص

استحجبه الحَكَمُ الرَّبَضِيّ ، وكان أبوه عبدُ الواحد حاجباً لهشام الرضا والدِ الحكم . وعن ابن حيّان أن هشاماً وَلَّى عبدَ الكريم هذا كورة جيّان ، وأنه أغزَاه أَلَبَة والقلاع[٢] ، وأغزى أيضاً أخاه عبدَ الملك وولاه سَرَقُسْطَةَ .

---

(١) عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث من أكبر رجال الدولة المروانية الأندلسية أيام الحكم الربضي وابنه عبد الرحمن ، وهو في الغالب من أولاد مغيث الرومي مولى الوليد بن عبد الملك ، وقد كان أخوه عبد الملك بن عبد الواحد بن مغيث من قواد الأمير هشام الرضا ابن عبد الرحمن الداخل . وقد كان عبد الكريم قائداً من قواد الحكم ثم استوزره وولاه الحجابة فأقام في هذه الوظيفة حتى وفاة الحكم . واستحجبه أيضاً عبد الرحمن الأوسط مع بقائه على القيادة . وتوفي عبد الكريم في طريقه إلى غزو جيليقية سنة ٢٠٩/٨٢٤ – ٨٢٥ . ولم يجد عبد الرحمن من يقيمه مكانه ، فعهد في قيادة الصائفة إلى أمية بن معاوية بن هشام . وبعد موت عبد الكريم تنافس الوزراء في الوصول إلى الحجابة وأكثروا السعي وسفعت حتى ضجروه ، فقرر ألا يوليها أحداً منهم ، وعطلها مدة ثم جاء لها رجلاً من المغربين إليه لم يكن من الوزراء ولا سبقت له خدمة هو سفيان بن عبد ربه ، وأصله من بربر بيّانة ، فتولاها إلى أن مات ، ثم خلفه فيها عبد الرحمن بن غانم ، ثم صارت إلى عيسى بن شهيد معظم أيام عبد الرحمن الأوسط . ويجمع مؤرخو الأندلس على أنه لم يل الحجابة قط ولا أصلح من عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث وعيسى بن شهيد ، وهم يقولون إن عبد الكريم كان أكفأ وأقدر من صاحبه ، ولكن عيسى كان أسلم خلقاً إذ لم يكن يقبل المكافأة عن قضاء حاجة ، أما عبد الكريم فإنه كان يقبل ذلك ولا يأباه . (أبو بكر بن القوطية ، برواية ابن حيان . المخطوط ص ١٩٥ أ ، ١٩٥ ب) .

(٢) أَلَبَه والقلاع ، علمان جغرافيان يستعملان عادة معاً في النصوص العربية . أما ألبه فهي Alava وهي الإقليم الواقع عند منبع نهر إبرُه عن الضفة اليمنى (الشمالية) للنهر . وأصل الاسم غير معروف ، فذهب بعضهم إلى أنه مشتق من Uraba و Alba . بل ذهب بعضهم =

وكان عبدُ الكريم بليغاً مفوهاً شاعراً ، ووَلِيَ الكتابةَ للحَكَم إثر محمد بنِ أمية ، وقاد الصوائف ، وجرت على يديه فتوح جسام . وعلى يديه استأمن أهلُ الرَّبَض ؛ وله رسائل عن الحكم فى الهَيْج . ذكر ذلك عيسى بن أحمد الرازى ، قال : « وأخرجه الحكمُ إلى عَمْروس(١) — وكان قد خلع بسَرَقُسْطَة — فاستماله وقدم به قُرْطُبَةَ ، فوصله الحَكَمُ وخَلع عليه وسَجَّل له على سَرَقُسْطَة وتُطِيلَة ووَشْقَه ، وصرفه إلى الثغر فمات هناك . وأنشد ابنُ حَيّان لعبد الكريم هذا فى رثاء الحكم بنِ هشام وتهنئةِ ولدِه الأميرِ عبدِ الرحمن بن الحكم بالخلافة :

[٣٩-١] / كان الزمانُ مُرَوَّراً بمخافةٍ أَوْدَى فكاد نهارُنا أن يُظلِما
حتى إذ قَعَد الإمامُ لبيعةٍ كالغيثِ شَحَّ بوَبْلِهِ ثم انهمَى
لله أية بيعـــةٍ ما أعظما وأجل فخراً فى الأنام وأفخما
أعطتْ قريشٌ بيعةً مرضيَّةً لإمامِها الملكِ الكريمِ المُنْتَمَى
وبدا كمثلِ البدرِ ينصدعُ الدُّجى عنه ويكشف نورُه ما أبهما
لله أنت أبو مُطرف فى الوغى وللخائف ولِمُعْتَفٍ قد أعدما

[illegible] Araba [illegible] بعد دخول العرب . أما القلاع فمراد [illegible] Castilla la Vieja [illegible] ، سماها العرب كذلك [illegible] . [illegible] اسمها القديم Castellae . وألبة اليوم [illegible] Vascongadas وهو الذى كان العرب [illegible] Guipuzcoa وقاعدتها سان سباستيان [illegible] Vizcaya [illegible] Bilbao و Alava وهى أكبرها مساحة [illegible] Soria [illegible] هذه النواحى يسيرون حتى سرقسطة ، ثم [illegible] إلى أنه تم انتزاع ، ولهذا يذكر الإقليمان معاً .

(١) [illegible] أحمد الرازى .

٥١ — هاشم[١] بن عبد العزيز
الوزير . أبو خالد

هو أخو القاضى أسلم بن عبد العزيز وكبيره ، ووَلاءُ سَلَفِهما لعثمان بن عفان رضى الله عنه[٢] . وكان هاشم خاصًّا بالأمير محمد بن عبد الرحمن : يؤثره بالوزارة ، ويرشحه مع بنيه — ومفرداً — للقيادة والإمارة . وولاه كورةَ جَيّان ، فعلى يده بُنيت أبْذة وأكثر معاقلها المنيعة . وهو أحد رجالات الموالى المروانية بالأندلس .

اجتمعت فيه خصال لم تجتمع فى سواه من أهل زمانه ، إلى ما كان عليه من البأس والجود والفروسية والكتابة والبيان والبلاغة وقرض الأشعار البديعة ، إلى ما له من القديم والبيت والسابقة . فهو لم يُعِنْه سَلَفُهُ ، نهضت به أدواته هذه الرفيعة .

ونكَبَه المنذرُ بن محمد لأشهر من خلافته ، بعد أن ولاه الحجابةَ وأظهر عنه الرضا ، وذلك لأشياء حقدها عليه فى خلافة أبيه محمد ، إذ كان يُخرجه معه قائداً للجيش وبعد ذلك[٣] .

---

(١) فى [illegible]

(٢) ذكر [illegible] ٥/١ [illegible] ابن عمرو [illegible] من [illegible] الشيوخ . وعد [illegible] ٥٣

(٣) عبارة مقصوفة [illegible] الكلام عن هاشم بن عبد [illegible] (مخطوطنا ، ص ٢٢٥ — ا وما بعدها) . ولكن [illegible] ما يصلح هذه [illegible] فى المغرب لابن سعيد (١/٥٣ و٢/٥٤) [illegible] تقويم الكلام هكذا [illegible] يخرجه معه قائداً [illegible] بعد أن صارت [illegible] إليه] بعد ذلك ، [فلما مات محمد وولى المنذر [illegible] بعد السجن والعذاب]

وحكى عيسى بن أحمد بن محمد الرازى فى كتاب «الحُجّاب للخلفاء بالأندلس» من تأليفه ، أن المنذرَ بن محمد استُخلف يومَ الأحد لثلاث(١) خلوْنَ من شهر ربيع الأول سنة ثلاث وسبعين ومائتين ، بعد وفاة أبيه بأربع ليالٍ ، إذ كان غازياً بناحية رَيَّة ، فأغَذَّ السَّيْرَ ودخل القصرَ يومَ الأحد وصلى على أبيه — وكانت وفاته ليلة الخميس لليلةٍ بقيت من صفر — ودُفن . وبويع للمنذر بقيةَ الأحد ويوم الاثنين بعده ، واستحجب هاشم بن عبد العزيز / إلى أن قتله . [٣٩ - ب]

قال : ولما قدم المنذرُ نزل فى السطح وقعد للبيعة فى ثياب سفره ، وربما اتكأ على فراشه لما كان أخذه من النصَب وألم السفر لطيِّه المراحل . فلما دخل الناس قام هاشم وبيده كتاب البيعة فافتتح قراءته ، فلما بلغ إلى ذكر الإمام محمد خنقته العبرة ، فلم يبن كلامه . ثم استدرك أمره ورجع من أول الكتاب ، حتى إذا انتهى إلى الموضع الذى انتهى إليه أولا أخذه أيضاً الحصر ، فلحظه المنذر لحظة منكرة ، ورآها منه هاشم فمضى فى قراءة الكتاب حتى أكمله . فلم يشك كل من رأى تلك اللحظة أنه قاتله . قال : ولما وُضع نعش الإمام محمد على قبره ، ألقى هاشم رداءه وقلنسوته ودخل القبر وبكى بكاء شديداً ، ثم قال متمثلا وهو يقبر :

أعَزِّى يا محمدُ عنك نفسى   معاذَ الله والمِنن الجِسامِ

فهلا مات قوم لم يموتوا   ودُوفِع عنك لى كاسُ الحِمامِ

فكان ذلك مما أوقد عليه موجدة المنذر ؛ والبيتان لأبى نواس الحسن ابن هانئ يقولهما فى محمد الأمين حين قُتل .

قال الرازى : وذُكر أن محمد بن جَهْوَر وعبد الملك بن أمية كانا يرفعان عليه ويغريان به ، وأنه خرج توقيع بخط يد الإمام المنذر فيه وَهْم ، فتنفس هاشم

---

(١) عند ابن عذارى (١٣٣/٢) : لثمان .

فرفع عنه . قال : وحدَّث مَن كان [حاضراً عند][1] هاشمٍ — يعنى يوم القبض عليه — إذ أقبل صاحب الرسائل مستحثاً له ، فخرج هاشم ومعه عُمر ابنه فقبضَ منه كتباً كانت بيده . وكان فى رحبة داره قوم من أهل لَبْلَة قد أتوا لشكر ابن أخيه — وكان عاملَهم — فلما خرج هاشم اندفعوا مستهلين بالشكر ، فانتهرهم الفتى الذى أتى فيه وخرج عليهم[2] وأغلظ لهم وقال لهم : « يا كَذَبَة ! » . قال : فرأيت هاشماً قد اربدَّ وجهُه ، غير أنه لم يُقَارِضْه بكلمة ، ومضى .

وكان تحته فرس رائع أشقر ، فلما أتى عند باب الجنان[3] كبا الفرسُ بهاشم فاستُقل[4] به ووقف [و] قد امتقع لونه ساعة ، ثم تقدم ودخل . قال : فلم ينفَضَّ أهلُ موكبه حتى خرج راجلاً مكبَّلا ، فوالله ما رأيتُ يوماً أكثرَ باكياً من ذلك اليوم ، ولو قلتُ إنه / لم تخلُ دارٌ بقرُطُبَة من بكاء على هاشم [٤٠ - ا] يومَ حُبس لما أبعَدْتُ ولصدقتُ ، فإنه كان رَحْمَــةً مبسوطة للعامة والخاصة[5] .

قال : وأمر المنذ[ذر] بحبس أكابر أولاده ، [غي]ر[6] فإنه كان عيناً

---

(١) بياض فى الأصل ، أكملناه للسياق .

(٢) الأصل : حرج . وخرج على : بمعنى سب وشتم ، وهو استعمال يرد كثيراً عند ابن حيان بهذا المعنى .

(٣) باب معروف من أبواب قصر الإمارة بقرطبة ، وكان باباً خلفياً يفضى إلى حدائق القصر ، والغالب أنه كان يقع على ضفة الوادى الكبير .

(٤) الأصل : وكبحه . وقد صوبها دوزى : وكبَّه ، وهو تصويب صحيح . وقد تركت الضمة فوق تاء استقل كما هى فى الأصل .

(٥) وردت هذه العبارة مضطربة فى الأصل ، وبعضها فى الهامش على اليمين ، فقومناها كما فى المتن .

(٦) ورد هذا اللفظ فى الأصل : غب . وقد أكمله على هذا النحو كما يقتضيه السياق . وواضح أنه سقط اسم ذلك الولد من أولاد هاشم بن عبد العزيز الذى كان عيناً للمنذر عليه . ولم أجد فيما بين يدىَّ من المراجع ما أسد به هذا النقص ، ولو أننى أستبعد أن يكون هذا الجاسوس ابناً مباشراً لهاشم بن عبد العزيز ، لأنه لو كان كذلك لما فات أصحاب الكتب التى بين=

للمنذر عليه ، يخاطبه بأسراره وجميع أخباره ، ولم يزل عبدُ الملك بن أمية يغرى به[1] ويرفع عليه ويستعين بالسيدة أخت المنذر فى مطالبته ، حتى كان من ضرْبه وهدم داره وإخراجه منها وقتْله ما كان .

قال : وأُخرج هاشم صبيحةَ الليلة التى قُتل فيها — ليلةَ الأحد لأربع بقين من شوال سنة ثلاث وسبعين — غُطيت[2] جثتُه ورأسه بثوب ، وبُعث به إلى أهله . وكان مولدُه فى أيام الأمير عبد الرحمن بن الحَكم . ومن شعره ، وكتب به من محبسه إلى جاريته « عاج » :

وإنى عدَانى أن أزورَكِ مطبقٌ ... وبابٌ منيعٌ بالحديد مُضَبَّبُ
فإن تعجَبى يا « عاجُ » مما أصابنى ... ففى رَيْبِ هذا الدهر ما يتعجبُ
وفى النفسِ أشيا أَبيتُ بغمِّها ... كأنى على جمر الغضى أتقلبُ
تركت رشادَ الأمر إذ كنتُ قادراً ... عليه فلاقيتُ الذى كنتُ أرهبُ

= أيدينا (وكلها مختصرات عدا مخطوطة ابن حيان) الإشارة إلى هذه الغريبة . فابن عذارى يقول : «ثم بعث فيه الأمير ليلا ، فقتله وسجن أولاده وحاشيته ، وانتهب ماله وهدم داره ، وأتى أولاده فى السجن ، وألزمهم غرم ٢٠٠٠٠٠ دينار ، فلم يزالوا فى السجن والغُرم إلى موت المنذر وولاية أخيه عبد الله ، ثم أطلقهم عبد الله ، وصرف عليهم ضياعهم ، وولى أحدهم الوزارة والقيادة » (البيان : ٢/١١٦)

(١) العداوة بين عبد الملك بن عبد الله بن أمية وهاشم بن عبد العزيز عداوة قديمة ترجع إلى أول ولاية ابن أمية الكتابة العليا للأمير محمد ، وكانت خطة كبرى تجعل صاحبها فى عداد الوزراء ، وكان يتولاها قبله حامد بن محمد الزجالى ، وكان عبد الملك بن أمية غير مؤهل لصنعة الكتابة ، فهاجمه هاشم بن عبد العزيز من هذه الناحية ، ومضى يتنقصه ، فنبه الأمير محمد إلى سوء تصرفه فتوقف حيناً عن مهاجمة عبد الملك بن أمية . وقد صارح ابنُ أمية الأميرَ بأنه لا يجيد الكتابة ، فأبقاه الأمير فيها رغم ذلك ووعده بأن يمده بمن يعينه فيها . ثم عاد هاشم إلى تنقص عبد الملك ونقده ، واشتدت العداوة بينهما . وقد ظلت الغلبة لهاشم ما عاش الأمير محمد ، فلما مات وخلفه ابنه المنذر أمكنت الفرصة لعبد الملك بن أمية فى هاشم ، فلم يتوان فى الانتقام (ابن حيان ، مخطوط ، ص ٢٢٤ ب ، ٢٢٥ ا)

(٢) الأصل : وغطيت .

وكم قائلٍ قال : انجُ ويحَكَ سالماً ... فنى الأرض عنهم مُستَرادٌ ومذهبُ
فقلت له : إن الفرار مَذَلّةٌ ... ونفسى على الأسواء أحلَى وأطيبُ
سأرضى بحكم الله فيما يَنُوبُنى ... وما مِن قضاء الله للمرء مهربُ
فمن يكُ مسروراً بحالى فإنه(١) ... سينْهَل فى كاسى وشيكاً ويشرب

وله ، وكتب به إلى وليد بن غانم(٢) الوزير فى أسره أثناء مخاطبة :

فكم غصةٍ بالدمع نهنهتُ خوفَ أنْ ... يُسَرَّ بما أبديه شنآنُ كاشحُ
تحاملتُ عنه ثم نادمتُ فى الدُّجَى ... نجومَ الثريا والدموعُ سوافحُ

وله مما قاله بديهاً ، ووقّع بذلك على ظهر رقعة لأحد أبنائه خاطبه فيها بشعر ضعيف :

لا تقلْ — إن عزمتَ — إلا قريضاً ... رائقاً لفظُه ، ثقيفاً رصينا

---

(١) فى البيان لابن عذارى (١١٦/٢) :

« فمن يك أمسى شامتاً بى فإنه »

(٢) وليد بن عبد الرحمن بن غانم من أجل وزراء الأمير محمد وأقدرهم وأعظمهم مروءة وأكثرهم ثقافة وعلما . كانت أول الوظائف الكبيرة التى وليها وضيفة « صاحب المدينة » ولاه إياها الأمير محمد ، ثم استعفى منها لخلاف فى الرأى مع الأمير محمد حول مسألة تتصل بالإدارة والمال ، ثم ثبتت صحة رأيه ، فعاد الأمير محمد واستدعاه ليشغل وظيفة صاحب المدينة كما كان ، فأبى ، وظل معتزلا إلى أن رفعه محمد إلى مرتبة الوزارة . وكان وليد صديقاً لهاشم بن عبد العزيز ، فلما وقع هاشم أسيراً فى غزوة خرج إليها تحت قيادة المنذر بن محمد ولىّ العهد للقضاء على ابن مروان الجليقى غضب الأمير محمد إذ رأى فى وقوع هذا الوزير القائد الأثير إليه مهانة للدولة ، فجعل « يلومه ويستقصره ويحمل عليه وينال منه » ولم يبق فى المجلس من لم يحمل على هاشم ، إلا وليد بن غانم فقد تصدى للدفاع والاعتذار عنه ، فأعجبت هذه النهامة الأمير محمداً . وفى سنة ٢٦٣ خرج وليد فى الغزاة تحت إمرة الأمير المنذر لقتال ابن مروان الجليقى وكان هاشم فى أسره . وقد أطلق ابن مروان أسر هاشم سنة ٢٦٤ .

ابن حيان ، المخطوط : ٢٣٢ أ ، ب . ابن عذارى ، البيان : ١٠٢/٢ — ١٠٣ .

[٤٠ - ب] /أو دع الشعر ، فهو خير من الغـــث ، إذا لم تجد مقالا سمينا

وما أحسن قول عبد الجبار بن حمديس الصقلي في هذا المعنى :

حرر لمعناك لفظاً كي تزان به وقل من الشعر سحراً ، أو فلا تَقُلِ
فالـكحل لا يفتن الأبصار منظرُهُ حتى يُصَيِّرَ حَشْوَ الأعينِ النُّجُلِ

ولهاشم في إلْبيرة يذم وروده عليها ، وهي مكان أوليته :

إذا نحن رُحْنا عنك يا شرَّ بلدةٍ فلا سُقيتْ رباك صوبَ الرواعدِ(١)
ولا زال سوطٌ من عذاب مُنَزَّلٍ على قائم من ساكنيك وقاعدِ

فأجابه فتى من أهلها المتأدبين يعرف بابن وَجِيه :

لقد حُرم التوفيقَ مَن ذم بلدةً يروح بها في نعمة وفوائدِ
ومن يتمنى سوط خزى منزلٍ على قائم من ساكنيها وقاعدِ
فإن كنتم لم تحمدوا ما اختبرتمُ فـكلٌ لـكلٍ لائم غير حامدِ

---

٥٢ — ابنه عمر بن هاشم

سجنه الأمير المنذر بن محمد مع إخوته لما نـكب أباهم ، ثم أمر بصلبهم في الغزاة التي توفي فيها ، وولَى أخوه الأمير عبد الله بن محمد فعجل الـكتاب بإطلاقهم ، ثم قدم وولّى عمر هذا كورة جيّان ، وأخاه أحمد بن هاشم الوزارة والقيادة . ومن شعر عمر :

يا خليـــلاً فضلُه با دٍ على كلِّ خليلِ
والمجيد الشعرَ في كـ لٍّ بسيطٍ وطويلِ

---

(١) كذا عند ابن حيان وابن الأبار ، وفي البيت زحاف ظاهر .

بضروب الضرب والإيـ ـقاع والقول الأصيلِ
لا تلمنى واصفحنْ عَنِّـ(م) ـى وسَهِّلْ لى سبيلى
فى خلاصى [... ...] [... ...] العذر الجميل(١)

---

٥٣ — تَمّام بن عامر الثقفى
الوزير ، أبو غالب

هو تمام بن عامر بن أحمد بن غالب بن تمّام بن علقمة(٢) ، مولى عبد الرحمن ابن أم الحكم الثقفى ؛ وأم الحكم بنت أبى سفيان بن حرب أخت معاوية ابن أبى سفيان ،/ عُرف بها ابنه لشرفها . [٤١ – ا]

ودخل تمام بن علقمة أبو غالب الأندلس فى طالعة بَلْج ، وهو أحد النقباء القائمين بدولة عبد الرحمن بن معاوية ، ووَلى له الحجابة والقيادة . وهو افتتح طُلَيْطِلَةَ عنوةً مع بدر مولى عبد الرحمن بن معاوية ، ثم وَلِىَ وَشْقَة وطُرْطُوشة وطَرَسُونة ؛ وعمَّر طويلاً وتُوفى فى آخر دولة الحكم الرَّبَضِىّ .

وقد وُلد تمام بن عامر هذا [سنة أربع وثمانين ومائة](٣) ، وكان غالب بن تميم

---

(١) الأصل : العذار الجميل . وقد جعلها دوزى (ص ٧٧) : الجهل الجميل .

(٢) ذكر ابن حيان نقلا عن « كتاب القاضى أبى الوليد بن الفرضى المؤلف فى الأدباء » نسبه الكامل ، قال : « هو تمام بن أحمد بن عامر بن غالب بن تمام بن علقمة مولى عبد الرحمن ابن أم الحكم الثقفى »

(٣) أكملت العبارة بهذا لسياق ، وسيذكر ابن الأبار نفسه تاريخ مولده فى آخر ترجمه ، ولكن إذا حسبنا هذا التاريخ على أساس تاريخ وفاته وعمره بحسب مايذكره ابن الأبار ، لكان ميلاده سنة ١٩٧ هـ .

والياً على طُلَيْطِلَة ، وقتله سليمانُ بن عبد الرحمن بن معاوية وصلبه ومثَّل به فى انتزائه على أخيه هشام بن عبد الرحمن الأمير بعد أبيهما .

ووَلِىَ تمام بن عامر خطة الوزارة للأمير محمد بن عبد الرحمن وولديه الأميرين المنذر وعبد الله ، فانتظمت وزارته لثلاثة من الخلفاء . وعُمِّر عمراً طويلا زائداً على عمر جده الأكبر ، وكانت وفاته فى جمادى الآخرة سنة ثلاث وثمانين ومائتين وقد بلغ ستًّا وتسعين سنة . وله الأرجوزة المشهورة فى ذكر افتتاح الأندلس وتسمية ولاتها والخلفاء فيها ووصف حروبها ، من وقت دخول طارق بن زياد مُفتتِحِها إلى آخر أيام الأمير عبد الرحمن بن الحكم .

وكان عالماً أديباً ، ذكر ذلك ابن حَيّان . وقال أبو بكر الرازى : وَلد عامر ابن أحمد تمّاماً ؛ وَلِىَ الوزارة والخيل والقيادة ، وتوفى سنة ثلاث وثمانين — يعنى ومائتين — ومولده سنة أربع وتسعين ومائة . ومن شعره :

يُكلفنى العُذالُ صبراً على التى[1] أبَى الصبرُ عنها أن يَحلّ محلَّها
إذا ما قرعتْ[2] النفس يوماً فأبصرتْ سبيل الهدى عاد الهوى فأضلَّها
وكم مِن عزيزِ النفسِ لم يَلْقَ ذِلَّةً أقادَ الهوى مِن نفسِه فأذلَّها
عجبتُ لمعذولٍ[3] على حبِّ نفسِه يكلِّفُه عُذّالُه أن يَملَّها

(٢) الأصل : إننى ، وقد جعلها دوزى (ص ٧٨) : أنسى ، والتصويب من ابن حيان . وقد قال تمام هذا الشعر فى زوجه أم الوليد بنت حلف بن رومان النصرانية ، قال ابن حيان : « فجاء من نسلها الوزير الكاتب عيسى بن فُطَيْس ، فتمّام جده لأمه . وكانت أم الوليد بارعة الجمال سبّاءة للألباب ، فرآها تمام معلِّمها وهام فيها ، فانقاد لهواه فى نكاحها ، فكان أعداؤه يعيبونه بها ، ومن قوله فيها لما عُذل فى نكاحها . . » ثم أورد الأبيات الواردة فى متن ابن الأبار .

(٣) ابن حيان : وزعت .

(٤) الأصل : لمعذور ، والتصويب لدوزى ، ص ٧٨ . وقد جعل ابن حيان هذا البيت :

عجبت لمشغوف على الحب نفسه يكلفه عـذاله أن يســـلها

٥٤ — منصور بن محمد بن أبي البهلول

دخل الأندلس جدُّه أبو البهلول — واسمه منصور بن صَدَقة — فى أيام الأمير عبد الرحمن بن معاوية فاستعمله ، وكان يُكَنِّيه لسِنِّهِ وفضله ؛ ثم تصرف ابنه محمد للأمير الحَكَم فى بعض أشغاله ؛ وحجب منصور هذا مَسْلَمَةَ[١] بن عبد الرحمن بن الحَكَم / فى الكور المجندة[٢] دهراً ، ثم ولىَ العَرض[٣] [٤١-ب] للأميرين محمد وابنه المنذر بن محمد ؛ ذكره الرازى ، قال : وكان فيه تصرف ورواية غزيرة وشعر حسن يمدح به الخلفاء ، وأنشد له :

كما أن خير العالمين محمدٌ ... براحته عين من الجود تنبعُ

وله :

بحمدِ حُمِدَ الزمان كما ... بفعالِهِ قد أحْسِنَ[٤] الذِّكْرُ

(١) الأصل : سلمة ، وكذلك عند دوزى (ص ٧٨) ، وقد صوبت الاسم من قائمة أسماء أبناء عبد الرحمن عند ابن حيان (مخطوط ص ١٢) .

(٢) هذا التعبير غير واضح لى ، لأن الكور المجندة هى الكور التى أنزل فيها جند العرب على أيام أبى الخطار الحسام بن ضرار الكلبى كما هو واضح فى ترجمته وفى أصول أخرى ، وقد عالجنا هذا الموضوع فى « فجر الأندلس » . ولكن : كيف يحجب رجل لمسلمة بن عبد الرحمن الأوسط فى هذه الكور؟ ربما جاز تفسيره على أنه كانت هناك إدارة خاصة للكور المجندة ، أى خاصة بما ينبغى على كل منها من جند وأرزاقهم وحقوقهم وما إلى ذلك ، تولاها أيام عبد الرحمن ابنه مسلمة ، وكان منصور هذا حاجبه فى هذه الإدارة ، وحاجبه هنا تعنى شيئاً مثل مدير مكتبه فى تعبيرنا الحديث . فإذا صدق هذا الفرض كانت وظيفة إداريةً كبيرة ، لأن الكور المجندة كانت تقدم لجيش الإمارة معظم جنده العربى .

(٣) العرض وظيفة من وظائف التنظيم العسكرى ، وهى استعراض الجنود المقيدين فى الديوان فى أوقات منتظمة للتأكد من وجودهم والتثبت من سلاحهم وخيل الفرسان منهم وحالتها وما إلى ذلك . وتسمى أيضاً الاعتراض والتمييز . وكان العرض يجرى فى ميدان كبير خارج العاصمة ، وفى صبيحته ينادى ببوق جهير ليحضر الجند .

(٤) فى الأصل : حَسُنَ مشكولة هكذا . ولا يستقيم بها الوزن .

أيامُه بِيضٌ مهـــذبةٌ لولا مكارمُه انقضى الدهرُ

وله :

كَمْ ، إلى كَمْ أتسَلَّى ؟ ليس لى صبرٌ . . أجل ، لا !
بأبى أنت وأمى وترى قتـــلى حِلاّ ؟
حاشَ لله بأن أسـ ـلو عن الحب وكلاّ

٥٥ – عبيد الله بن محمد بن الغَمر بن أبي عبدة الوزير ، أبو عثمان(١)

تصرّف للأمير عبد الله بن محمد فى الـكُوَر وحجابة الأولاد والمدينة والخيل والقيادة ، ثم فى الـكتابة الخاصة والوزارة . وكان — مع افتنانه فى الأدب واتِّصافه بالبلاغة — ذا بأس وغَناء فى الحروب ، وكانت له فتوح جمة ومَقَاوِم(٢)

(١) استكثر الأمير عبد الله بن محمد من الوزراء أول عهده حتى بلغوا فى بعض الأوقات ثلاثة عشروزيراً ، ثم تناقص عددهم حتى أصبحوا أربعة عند موته . أما الحجابة فقد استغنى عنها أخريات أيامه مكتفياً ببدر بن أحمد الخصى الصقلبى وصيفه « اللصيق بنفسه ، الخفيف عليه » كما يقول ابن حيان (ص ٤ من الجزء الذى نشره الأب ملشور أنطونيا) . قال ابن حيان (ص ٥ من ذلك الجزء) : « ومن الغريب أن اجتمع فى بيت الوزارة فى أيامه أربعة رجال من وزرائه — أى وزراء الأمير عبد الله — أقارب من بيت واحد من صميم الموالى آل أبى عبدة حسان بن مالك ، هم :

أبو عثمان عبيد الله بن محمد بن أبى عبدة (صاحب الترجمة) .
وأبو العباس أحمد بن محمد بن عيسى بن أبى عبدة .
وسلم بن على بن أبى عبدة .
وعبد الرحمن بن حمدون بن أبى عبدة المعروف بِدُحَيْم » .

(٢) هذه الصيغة — جمعاً لمقام — غريبة من ابن الأبار ، وقد أخذها عن ابن حيان .

محمودة . وتوفى خاملا بتحامل بَدْرٍ الوصيف(١) عليه بعد أن استأذن للحج ، فأدى فرضه وكرّ إلى قُرْطُبَة فلزم داره ؛ وسيأتى ذكر هذا مع نسبه مستوفًى عند ذكر ابنيه جهور الوزير ومحمد . وفيه يقول العُتْبى الشاعر(٢) ، وقد اعتلّ وهو يَلى الـكتابة :

لَأُبْنَعَ العِيُّ مُذْ أصبحتَ مرتدياً ثوبَ السقامِ وجفّتْ زهرةُ الـكَلِمِ
واستوحشَ الطِّرسُ مِن أُنسِ البديعِ إذا نشبتَ فيه وطالتْ عُجمةُ القلمِ

ومن شعر عبيد الله :

صدودٌ ليس يبلغه عقـــابُ وعتبٌ ليس يثنيه عتـــابُ
وإبعادٌ — بلا ذنبٍ — طويلٌ وإعراضٌ وهجرٌ واجتنابُ
فلا سَهَرٌ يَطيبُ ولا رُقادٌ ولا طَعَمٌ يَسُوغُ ولا شَرابُ
/ فجسمى ناحلٌ والجَفْنُ منى قريحٌ ، والفؤاد له اضطرابُ [٤٢-١]
وموتٌ عاجلٌ أحلى وأشهى إلىَّ من أن يطاولَنى العذابُ

٥٦ — سَوّار بن حَمْدون القيسى المحاربى

من محارب بن خَصَفَة بن قيس عَيْلان . ثار بناحية البَرَاجِلة من كورة إلْبِيرة فى سنة ست وسبعين ومائتين ، وهى السنة الثانية من ولاية الأمير عبد الله

(١) ذكرنا اسمه الكامل فى التعليق الذى قبل السابق ، وقد أورد ابن حيان فى سيرة الأمير عبد الله ما يدل على ذكاء بدر هذا وحسن رأيه ، فهو صاحب الفضل فى استئلاف بنى الحجاج الثائرين فى إشبيلية وكسبهم إلى جانب الأمير عبد الله .

(٢) محمد بن عبد العزيز العتبى ، نقل ابن سعيد من « المسهب » أنه كان من نبهاء شعراء دولة الأمير محمد ، وكان مخصوصاً بالقاسم ابنه ، كما كان مؤمن بن سعيد مخصوصاً بسلمة ابن الأمير محمد (المغرب ، ١/١٣٤) .

ابن محمد ، وانضوت إليه بيوتات العرب من إلبيرة وجيّان وريّة وغيرها ، عند ما تميّزت الأحزاب[١] بالعصبية وشبّوا نار الفتنة . وكان مبتدأ رئاسة سوّار هذا أنه كان صاحباً ليحيى بن صُقَالة — أول الخارجين بالبراجلة بهذه الدعوة — عن استبصار شديد وحميّة ، فصُبّ على المولّدين والعجم منه ومن أصحابه أعظمُ آفة ، إلى أن أصابوا منه غرة فثاروا به بغتة وقتلوه[٢]. فرأّسَ أصحابُه بعدَه سوّاراً هذا ، فاشتد به أمرُهم وقام طالباً بثأر صاحبه . وكان شجاعا مِحْرَباً[٣] ، فكثر أتباعُه واشتدت شوكتُه واعتزّ العربُ بمكانه ، فلفّفَ جموعَها وحمى ذمارها وسعى لإدراك ثارها . وقصد حصناً[٤] اجتمع فيه من المولدين والنصارى نحو من ستة آلاف رجل ، فنازلهم بالعرب حتى قهرهم ، وأخرج نابِلاً[٥] رئيسَهم المقيمَ

(١) جعلها دوزى « الأعراب » دون مبرر (ص ٨٠) . والعبارة منقولة بنصها من ابن حيان : « قال عيسى بن أحمد (الرازى) : فى صدر هذه السنة ثار سوار بن حمدون القيسى بناحية البراجلة من كورة إلبيرة ، وقد انضوت إليه بيوتات العرب من كور إلبيرة وجيان ورية وغيرها عندما تميزت الأحزاب بالعصبية وشبوا نار الفتنة . . » . وقد أراد دوزى بهذا أن يلقى تبعة هذه الفتنة الكبرى — التى شغلت كل أيام الأمير عبد الله وجزءاً من أيام عبد الرحمن الناصر — على العرب ، وهو غير صحيح كما يتضح من البيان الشافى الذى يقدمه ابن حيان عن هذه الفتنة فى الجزء الذى نشره ملشور أنطونيا .

(٢) كان يحيى بن صُقالة القيسى قد « وادع أهل حاضرة إلبيرة الذين دعوتهم للمولدين والمسالمة وعقد بينه وبينهم أماناً مؤكداً ، حلفوا عليه أيماناً مغلظة توثق بها منهم ، واطمأن إليهم فجعل يأتى حاضرتهم بنزل فيها ويقيم الأيام ، وهم يرصدون منه غرة فى بعض قدَماته إليهم ، فثاروا به بغتة وقتلوه ، فرأّس أصحابُه سواراً » . ابن حيان ، المقتبس (تحقيق ملشور أنطونيا) ص ٥٥ .

(٣) مِحْرب مصطلح يستعمله ابن الأبار كثيراً ، ويريد به الكثير الحرب . وقد ورد اللفظ عند ابن حيان (ص ٥٥) : محارباً .

(٤) هو حصن منت شاقر Monte Sacro على الجبل الذى يحمل نفس الاسم ، وهو مطل على سهل غرناطة .

(٥) الأصل نائل ، والتصحيح من ابن حيان (المقتبس ، ص ٥٥) . كان زعيماً من زعماء المولدين الذين قاموا على العرب فى كورة إلبيرة . وقد كانت أول حرب نابل مع يحيى بن صقالة ، فغلبه على حصن منت شاقر وانتزعه منه ، فاستردّه سوار.

فيه عنه ومَلَكه . وكان نابِلٌ قد انتزعه من يحيى بن صُقالة ، فاسترده سَوّار إلى مُلكه .

ثم افتتح حصون المسالمة والنصارى حصناً حصناً ، وقتل من ظفر به وغنم أموالهم . ولقيه جَعْد بن عبد الغافر — عامل الأمير عبد الله — فهزمه سَوّار وقتل من أصحابه نحواً من سبعة آلاف ، وأسر جعداً فمنّ عليه وأطلقه وأبلغه وأمنه(١) .

وغلظ أمرُه فاستبق حينئذ إلى حصن غرناطة بالقرب من مدينة إلْبيرة ، وصعد إليه فتبوّأه داراً اجتمعت إليه فيه عرب كورة إلبيرة وكاتبته عربُ النواحى إلى حدود « قلعة رَبَاح » وغيرها ، وكانت دار الداخلين إلى الأندلس من بكر ابن وائل ، فصاروا إلْباً معه على المولّدين . وبَجَحَ(٢) سَوّار بما تهيأ له على أعدائه ، وعلتْ هِمّته ، وأمّلَتْه العربُ ، وعلا فى الناس ذكرُه ، وقال الأشعار الجزلة ، / وأكثرَ الفَخارَ بنفسه وقومه . ذكر ذلك ابنُ حيّان ، وحكى أنه أوقع بأصحاب [٤٢ - ب] ابن حَفْصُون ثانيةً ، ويقال إن قتلاهم كانوا فيها اثنى عشر ألفاً ، وتُعرف

(١) بعد أن انتصر سوار المحاربى على نابل ومن معه من المولدين والمسالمة استشرى أمره وانطلق يستولى على حصونهم ويقتل من يظفر به منهم ويغنم أمواله ، وكانت نتيجة إسرافه أن أخذ بقيه المولدين والمسالمه ينضمون إلى الثورة ، فخاف جعد بن عبد الغافر عامل كورة إلبيرة للأمير عبد الله أن يؤدى ذلك إلى خروج الكورة كلها من يده ، فسار إلى حرب سوار وانضم إليه المولدون ، فانهزم جعد ووقع فى أسر سوار ، ثم أطلق هذا سراحه . وكان جعد من أقدر قواد الأمير عبد الله ، وكذلك كان أخوه أمية ، وقد ظل أمية يقاتل فى سبيل الإمارة القرطبية والجماعة حتى استشهد فى معركة مع بنى الحجاج الخارجين فى إشبيلية فى موقف يفيض حمية ورجولة .

(٢) جعلها دوزى (ص ٨١) : فنجم ، ولا محل للتغيير ، لأن الكلمة صحيحة فى موضعها : بجح بمعنى فرح وعظمت نفسه عنده (اللسان : ٣/٢٢٨) .

بـ « وقيعة المدينة »(١) . قال : وقد ذكرها سعيدُ بن جُودِى السعدى صاحب سَوَّارٍ والوالى رئاسة العرب بعده فى شعر له ، منه :

ولما رأوْنا راجعين إليهمُ تولَّوْا سِراعاً خوفَ وَقْعِ المناصِلِ
فسِرنا إليهمْ والرماحُ تَنوشُهمْ كوقع الصياصى تحت رَهْجِ القَساطِلِ
فلم يَبْقَ منهمْ غيرُ عانٍ مُصَفَّدٍ يُقادُ أسيراً مُوثَقاً فى السلاسلِ
وآخر منهمْ هاربٌ قد تضايقتْ به الأرضُ يهفو من جوًى وبَلابلِ

ومنه :

لقد سَلَّ سَوَّارٌ عليكمْ مُهَنَّداً يَجُذُّ به الهاماتِ جَذَّ المفاصلِ
به قتلَ اللهُ الذين تحزَّبوا علينا وكانوا أهلَ إفكٍ وباطلِ
سما لبنى الحمراء إذ حان حَيْنُهم بجمعٍ كمِثل الطَّوْدِ أرعنَ رافلِ
أدرتمْ رحى حربٍ فدارتْ عليكمُ لحتفٍ قد أفناكم به اللهُ عاجلِ
لقيتمْ لنا ملمومةً مستجيرةً تُجيدُ ضراب الهام تحت العواملِ
بها من بنى عدنانَ فتيانُ غارةٍ ومن آلِ قحطانٍ كمِثلِ الأجادلِ
يقودهمُ ليثٌ هِزَبْرٌ ضُبَارِمٌ مِحَشُّ حروبٍ ماجدٌ غيرُ خاملِ

---

(١) كسب سوار بن حمدون القيسى انتصارين كبيرين ، الأول انتصاره على جعد بن عبد الغافر عامل الأمير عبد الله على إلبيرة وأهل البيرة الذين يعرفون هنا بأهل الحاضرة ، وقد ذكرنا هذا الانتصار ويسمى بوقيعة جَعْد . والانتصار الثانى كان على أهل إلبيرة أيضاً ، وكان سوار وأصحابه قد احتلوا حصن غرناطة واتخذوه قاعدة لهم فأراد خصومهم من المولدين والمسالمة أن يخرجوهم منه ، وهاجموا الحصن ، ولكن سواراً استطاع الانتصار عليهم وأوقع بهم بعد مقتلة عظيمة ، قال ابن حيان : « فيقال إن قتلاهم فى هذه الوقيعة كانوا اثنى عشر ألفاً ، وهذه هى وقعة سوار الثانية المعروفة بوقعة المدينة » . هذا ، وقد كانت نتيجة شدة سوار أن انضم المولدون والمسالمة فى كور جيان وإلبيرة ورية إلى عمر بن حفصون ، فآل الأمر إلى أن قتل سوار فى إحدى المعارك . (ابن حيان : المقتبس ، ص ٥٨ — ٦١) .

أرومتهُ مِن خيرِ قيْسٍ سما بهِ … إلى المجد قِدْماً والعلا كل فاضلِ
له سَوْرةٌ قيسيَّةٌ عربيــــةٌ … بها ذاد عن دينِ الهُدى كلَّ جاهلِ (١)

وهي طويلة . وقال في ذلك :

فما كان إلا ساعةً ثم غُودروا … كمِثل حصيدٍ فوقَ ظهرِ صعيدِ

وقال أيضاً قصيدة أخرى ذكر فيها أسْرَ جعد بن عبد الغافر يخاطب المولدين(٢) :

لم تزالوا تبغونها عِوَجاً حتـــى وردتمْ للموتِ شرَّ ورودِ
فاصطلوا حرَّها وحرَّ سيوفٍ … تتلظَّى عليكمُ كالوقودِ
/قد قتلناكمُ بيحيى وما إنْ … كان حُكمُ الإلهِ بالمردودِ [٤٣-١]
هِجتُمُ يا بني العبيدِ(٣) ليوثاً … لم يكونوا عن ثارهم بقُعودِ

(١) أورد القصيدة بكاملها ابن حيان في المقتبس (تحقيق ملشور أنطونيا ، ص ٥٧ — ٥٨) فيما عدا الأبيات الخمسة الأخيرة التي ذكرها ابن الأبار . ويلاحظ أن هذه الأبيات واضحة الوضع ، فإن سواراً لم يكن يذود عن «دين الهدى» وإنما كان يحارب جند إمارة قرطبة الذائدة عن «دين الهدى» ، وكان يحارب المولدين والمسالمة وهم مسلمون ، بل كان عمر بن حفصون إلى ذلك الحين مسلما ، وإنما كان خارجاً عن طاعة الإمارة . وهذا يكفي للدلالة على أنها أضيفت فيما بعد ، أضافها رجل لا يعرف الظروف التي أحاطت بثورة يحيى بن صقالة وخلفه سوار بن حمدون ثم خلفهما سعيد بن جودي ، وكلهم قيسيون .

(٢) قال ابن حيان في التقديم لهذه الأبيات : «ولسعيد بن جودي في مديح سوار بن حمدون وذكر وقيعته الأولى بأهل حاضرة إلبيرة وأسره لجعد بن عبد الغافر عامل الأمير عبد الله وأخذه بثأر يحيى بن صقالة أميرهم قبله قصيدة طويلة منها . .» (المقتبس ، ص ٥٨) .

هذا ، وقد أورد ابن الأبار مختاراً من هذه القصيدة وترتيب الأبيات عنده يختلف عن ترتيبها في المقتبس (ص ٥٩) ، ولم نر ضرورة للإشارة إلى اختلافات الترتيب في المرجعين .

(٣) المقتبس : العبود .

وهذه اللفظة هنا تكشف عن حقيقة هذه الفتنة التي جرت على الإمارة الأندلسية وأهلها بلاء عظيماً . فإن أبا الخطار الحسام بن ضرار عندما فرق الجند العربي على الكور التي عرفت باسم =

جاءكم ماجدٌ يقود إليكمْ فتيةً ذادةً كمِثْلِ الأسودِ[1]

يطلب الثارَ، ثارَ قومٍ كرامٍ آزروا بالعهود بعدَ العهودِ[2]

فاستباح الحمراء[3] لم يبقِ منهمْ غير عانٍ في قِدِّه مصفودِ

قد قتلنا منكمْ ألوفاً وما يَعْـ دِلُ قَتْلَ الكريمِ قتلُ العبيدِ

فلئن كان قَتْـله غَدرةً ما كان بالنِّكسِ، لا ولا الرِّعديدِ

يريد يحيى بن صقالة أميرَ العرب القائم على المولدين . وقال يحيى بن أخي

— الكور المجندة ، وهي : إلبيرة ورية وجيان وإشبيلية وشلونة وباجة وتدمير ، أنزلهم فيها « على أموال العجم من مال ونَعَمٍ » أي جعلهم سادة هذه الكور ، « وجعل لهم ثلث أموال أهل الذمة من العجم طعمة » . وقد أسلم أهل هذه الكور شيئاً فشيئاً ، ولم يعودوا أهل ذمة ولا عجما ، ولم يعد من الشريعة أن يؤدوا ثلث أموالهم لأولئك العرب ، ثم إن أعدادهم تكاثرت نتيجة للأمان والاستقرار في ظل أمراء قرطبة ، وثقلت عليهم تلك الجباية الكبيرة ، ومن ناحية أخرى لم تعد لهذا الوضع ضرورة بعد قيام الإمارة وقيامها بأمر جميع أهل الأندلس ، ولهذا فقد بدأوا يتململون من هذا الوضع ، وناصرتهم الإمارة ورجالها . ولكن العرب المستقرين في تلك الكور استمسكوا بضرورة الأداء على هذا النحو ، فثار المولدون والمسالمة وأيدهم عمال الإمارة وحاربوا أولئك العرب ، ثم تطور الأمر بعد ذلك واتسع مداه ودخلت فيه عوامل أخرى ، وخاصة بعد أن دخل في الموضوع عمر بن حفصون.

(١) المقتبس (ص ٥٩) : فتية منهم كمثل الأسود .

(٢) الأصل : أدروا بالعهود قبل العهود . وقد قرأ دوزى : إذ وفوا . وعند ابن حيان : أخذوا بالعهود قبل العهود . وفي مخطوط « الإحاطة » في أكاديمية التاريخ في في مدريد :

يطلب الثار ابن قوم كرام أخـذوا بالعهـود قبل المهود

وقوله : « أخذوا بالعهود » يؤيد ما قلناه من أن أولئك العرب كانوا يستمسكون بما عاهدهم عليه أبو الخطار.

(٣) الحمراء هنا اختصار « بني الحمراء » ، وهكذا كان أولئك العرب يسمون أهل البلاد .

يحيى بن صقالة ، من قصيدة طويلة يمدح فيها سوّاراً ويذكر وقيعة إلبيرة ويناقض العَبَلى[(١)] شاعر المولدين ، وقيل إنها لسعيد بن جودى[(٢)] :

لسوّارٍ على الأعداء سيفٌ   أباد ذوى الغواية فاضمحلّوا
سقاهم كأسَ حتفٍ بعدَ حتفٍ   بها نَهَلَ العبيدُ معاً وعَلّوا
قتلتَ بواحدٍ سوّارُ ألفاً   وأُلْفُهُمُ بواحدِنا يَقِــلُّ
وأكثرُ قتلِنا لهمُ حلالٌ   بما ارتكبوه ظلماً واستحلّوا
فأوردْنا رقابهمُ سيوفاً   تَشُبُّ النارُ منها إذ تُسَلُّ
ورِثنا العِزَّ عن آباءِ صِدقٍ   وإرثُكمُ بنى العُبْدانِ ذُلُّ

وأول شعر العبلى[(٣)] :

قد انقصفت قناتهمُ وذلّوا   وضعضع[(٤)] ركن عزهم الأذلُّ

(١) الأصل : الصلى ، والتصويب من المقتبس لابن حيان (ص ٦٢ — ٦٣) وهو عبد الرحمن بن أحمد المعروف بالعبلى ، ينسب إلى قرية عبله التى منها أصله ، وكان شاعر إلبيرة المحامى عن المولدين ، وكان يقاباه فى الجانب العربى محمد بن سعيد بن مخارق الأسدى« أسد بنى خزيمة ، شاعر العرب القائم فيها مقام العبلى فى المولدين ، وكان كل منهما يحرض قومه ويناضل عن مذهبه ويصف ما يجرى لقومه على أضدادهم من الوقائع المخزية ، فلهما فى ذلك أشعار كثيرة ، وكل منهما كان بعيد المدى فى فرط العصبيه » .

(٢) قيلت هذه الأبيات رداً على قصيدة العبلى ومطلعها :

قد انقصفت قنـاتهم وذلوا   وزعزع ركن عزهم الأذل

وقد أورد ابن حيان الأبيات فى المقتبس (ص ٦٥) وبين روايته ورواية ابن الأبار خلاف .

(٣) الأصل : العبدى ، وهو تصحيف .

(٤) فى المقتبس (ص ٦٤) : وزُعزع .

فما طُلَّت دِماؤُهُمُ لديهم وهام عندنا فى « البير » طَلّ[١]

ومن شعر سوّار قوله من قصيدة طويلة :

صَرَم الغوانى يا هُنَيْدُ مودتى إذ شابَ مِفْرَقُ لِمَّتى وقَذالى[٢]

[٤٣-ب] / وصَدَدْنَ عنى يا هنيدُ وطالما عَلِقَتْ حِبالُ وِصالِهنّ حبالى

وقُتل فى صدر سنة سبع وسبعين ومائتين ، فكان أمده فى رئاسته نحو العام[٣] .

٥٧ — سعيد بن جُودى السَّعْدى ، أبو عثمان

هو سعيد بن سليمان بن جودى بن أسباط بن إدريس السعدى ؛ هو من هوازن من جند قِنَّسْرِين .

---

(١) الأصل : ظل دون شكل . وقد تكون : ظِلٌّ ، وهى قراءة طيبة تعطى معنى جميلا . وقد جعلناها : طَلٌّ منابعة لرواية ابن حيان ، ص ٦٦ .

و « البير » يراد بها « إلبيرة » .

وذكر ابن حيان لمناسبه هذا البيت أنه « لما ظهرت العرب على أهل حاضرة إلبيرة وسجل الأمير عبد الله لأميرهم سعيد بن جودى على الكورة ، فدخل الحاضرة، وأتاه شاعرهم عبد الله بن أحمد العبلى (كذا ، وقد ذكر قبل ذلك أن اسمه عبد الرحمن) بشعر يمتدحه فيه ، فاستمع له وأمر له بجائزة . ثم ذكّره أحد الحاضرين بشعره الذى قال فيه هذا البيت ، فأمر سعيد بن جودى بعض بنى صقالة بقتله وإلقاء جثته فى « بئر غامضة » ففعل ، فكأنه فهم لفظ « البير » على أنها « البئر » لا ترخيما للفظ إلبيرة .

(٢) صحف دوزى هذا البيت تصحيفاً شديداً أفسد وزنه ومعناه :

صرمن الغوانى يا هنيد مودتى إذا شاب مفرق لىّ وقـــدالى

ثم أضاف حاشية طويلة يفهم منها أنه خلط بين البيت وما قبله ، وواضح أنه من قصيدة أخرى . ومن الغريب أن يعسر عليه هذا البيت مع وضوحه ومع أنه قرأ وفسر ما هوأعسر منه بكثير .

(٣) راجع المقتبس ، ص ٦٠ .

وَلِىَ جدُّه جودى بن أسباط الشرطةَ للأمير الحَكمِ الرَّبَضِىّ ، وولِىَ أيضاً قضاء بلده إلْبِيرة — وقع ذِكْرُ ذلك فى « المُقْنِع » من تأليف ابن بَطّال فى الأحكام[١] . ولما قُتل سَوّار بن حمدون ذَلَّتِ العربُ بمقتله ، وكَلَّ حَدُّها بما نَزَل فيه ، وكان قد أصيب على يدى بعض أصحاب ابن حَفْصُون[٢] . فيقال إن جثتَه مزقها ثكالى نساء المولدين قِطعاً ، وأكله كثير منهن حنقاً عليه ، لما نالهن به المرة بعد المرة من الثكل فى بعولتهن وأهليهن . فنصبت العربُ لإمارتها بعده سعيدَ بن سليمان بن جودى صاحبَه ، وعلّقتْ آمالَها به ، فلم يسُدَّ مكانَه ، ولا بلغ مداه فى السياسة . على أنه كان شجاعاً بطلا وفارساً مِحْرَباً ، قد تصرف مع فروسيته فى فنون العلم ، وتحقق بضروب الأدب ، فاغتدى أديباً نحريراً ، وشاعراً محسناً ، تُعَد له عشرُ خصال تفرَّد بها فى زمانه لا يُدفع عنها : الجودُ ، والشجاعة ، والفروسية ، والجمال ، والشعر ، والخطابة ، والشدة ، والطعن ، والضرب ، والرماية . وهابَه ابن حفصون هيبةً لم يهَبْها أحداً ممن مارسه ، إذ لم يَلْقَه قط إلا عَلاه وهزمه .

ولقد دعاه فى بعض أيامهم إلى المبارزة ، فلم يجبه ابنُ حفصون إليها وحاد عنه . وواجهه يوماً فألقى عليه ذراعه واجتذبه إلى الأرض ، فما نَجّاه منه إلا أصحابُه

(١) هو أبو أيوب سليمان بن محمد بن بطال البطليوسى ، أصله من بطليوس واستقر فى إلبيرة وعاش فيها . ترجم له ابن بشكوال ، وذكر كتاب « المقنع فى أصول الأحكام » وقال إنه لا يستغنى عنه الحُكام ، وكان إلى جانب ذلك شاعراً مجيداً ، وقد سمى « العين جودى » لكثرة ما كان يردد فى أشعاره « يا عين جودى » ، وقد انصرف عن الشعر عندما كبرت سنه وتزهد ، وتوفى سنة ٤٠٤ أو نحوها .

« الصلة » لابن بشكوال ، رقم ٤٤٠ ص ١٩٦ . فهرست ابن خير ، ص ٢٥٢ .

(٢) قتل سوار على يد حفص بن المرة قائد عمر بن حفصون « الشديد التمرد واللعنة » كما يقول ابن حيان (ص ٥١) وقد قتل حفص هذا سنة ٢٨٠ على يد عبد الملك بن عبد الله ابن أمية قائد الأمير عبد الله ، وقد علق ابن حيان على قتله بقوله : «كبير قواده ولزاز حروبه وخليفته فيما غاب عنه من مساعيه ، فكان وجده عليه حسب مكانه من أثرته » (ص ١٠٨) .

الذين انقضوا على سعيد فتنقذوا عمر من يده . وله زَرْقَةٌ بعيدة المدى إلى بعض القناطر المعتلية مشهورة النسبة إليه ، لم يقدر أحد بعده ممن يتعاطى الشدة يبلغ إليها — ذكر ذلك أبو مروان بن حيّان فى تاريخه(١) .

وقال فى موضع آخر : كان ، مع رئاسته وشجاعته ، شاعراً مفلقاً وخطيباً مِصْقَعاً ، فصيح اللسان ، ربيط الجنان ، جميل الشارة ، حسن الإشارة ، ثبت الأصالة ، واسع الأدب / والمعرفة ، يضرب فى صنعة الشعر بسُهمة وافرة ، [٤٤-ا] ويتصرف من سبله بكل منيعة(٢) . وحَكى أن الأمير عبد الله بن محمد أسْجَل له على كورة إلْبيرة ، لمّا ظهرت العرب على حاضرتها . فاتصل قيامه بأمر العرب ، إلى أن قُتل غيلةً بأيدى بعض أصحابه فى ذى القعدة من سنة أربع وثمانين ومائتين .

قال : وزعموا أن من أقوى الأسباب فى قتله أبياتاً من الشعر قالها فى غمص الأئمة من بنى مروان . منها ، قال لعبد الله :

يا بنى مروانَ جِدُّوا فى الهربْ   نَجَمَ الثائرُ من وادى القصبْ
يا بنى مروانَ خَلُّوا مُلْكَنا   إنما المُلكُ لأبناء العربْ(٣)

ورثاه الأسدى شاعر العرب فى ذلك الأوان ، وقال فيه مُقَدَّم بن مُعافى يرثيه :

من ذا الذى يُطعمُ أو يكسو   وقد حوى حِلْفَ الندى رَمْسُ ؟
لا اخضرّتِ الأرضُ ولا أورقَ الـ   ـعودُ ولا أشرقتِ الشمسُ

(١) روى ذلك ابن حيان ونقصه عن تاريخ عبادة بن ماء السماء . انظر « المقتبس » ، ص ٢٩ — ٣١ .

(٢) كذا فى الأصل ، وكذلك عند ابن حيان « المقتبس » ، ص ١٢٣ .

(٣) روى هذه الأبيات أيضاً ابن حيان (المقتبس ، ص ٣٠) ولكنه جعل صدر البيت الأول :

* قل لعبد الله يَجِدُّ فى الهرب *

وأضاف إليها بيتاً ثالثاً :

قربوا الورد المحلى بالذهب   واسرجوه ، إن نَجمى قد غلبْ

بعد ابن جوديٍّ الذى لن ترى   أكرمَ منــه الجنُّ والإنسُ
دموعُ عينى فى سبيلِ الأسى   على ســـعيدٍ أبداً حَبْسُ

وقام بأمر العرب بعدَه محمد بنُ أضحى بن عبد اللطيف الهمدانى صاحب حصن الْحَمَّة ، إلى أن استنزله الناصرُ عبد الرحمن بن محمد . ولسعيد بن جودى شعر كثير ، وقد ذكرنا منه جملة . وسَمع يوماً منشداً ينشد قول أبى قيس بن الأسلت :

قد حَصَّتِ البيضةُ رأسى فما   أطعم نوماً غـــيرَ تهجاعِ
أسعى على جُلِّ بنى مالكٍ   كل امرئٍ فى شأنه ساعِ[1]

فقال معارضاً له على البديهة :

الدِّرعُ قد صارتْ شعارى فما   أبسُطُ حاشاها لتهجاعِ
والسيفُ إن قصَّره صانعٌ   طوَّله يومَ الوغى باعى
/ وما كُمَيتى لى بمُستَقْصِرٍ[2]   إذا دعانى لِلقِّـــا داعِ [٤٤ - ب]
هذا الذى أسعى له جاهداً   كل امرئٍ فى شأنه ساعِ

وله فى جارية سمعها بقُرْطُبَة تغنى للأمير عبد الله بن محمد — وذلك فى إمارة أبيه الأمير محمد — فهام بها واشترى جارية سماها باسمها « جيجان » ، فلم يُسْلِه ذلك عنها وهام بها دهراً[3] :

سمعى أبى أن يكون الروحُ فى بدنى   فاعتاض قلبى منهُ لوعةَ الحزنِ
أعطيتُ جيجانَ روحى عن تذكرها   هـذا ولم أرها يوماً ولم ترَنِى

(١) وردت هذه الأبيات فى الأغانى (١٥ / ١٥٣) وقد راجعتها على أصلها هناك وقومتها بمقتضاه .

(٢) فى المقتبس (ص ١٢٤) بمستصعر.

(٣) روى الحكاية بالتفصيل ابن حيان فى « المقتبس » (ص ١٢٤) ، وقد ورد اسم الجارية عنده « جيحان » . وكلتا صورتى هذا الاسم عند ابن حيان وابن الأبار قلقة يبدو أنها محرفة .

كأننى واسمها والدمعُ منسكبٌ ... من مقلتى راهبٌ صلى إلى وثنِ (١)

وله فى جارية حُملت إليه من قرطبة ، فلما خلا بها أعرضت عنه ورمت بطرفها إلى الأرض خجلا فقال :

أمائلةَ الألحاظِ عنى إلى الأرضِ ... أهذا الذى تُبدين ـ ويحكِ ـ من بُغضى؟
فإن كان بُغضاً لستُ والله أهلَه ... ووجهى بذاك اللحظ أولَى من الأرض

وله أيضاً يهزل ويتغزل :

لا شىء أملح من ساقٍ على عنقٍ ... ومن مناقلةٍ كأساً على طبقِ
ومن مواصلةٍ من بَعدِ مَعْتَبَةٍ ... ومن مراسلةِ الأحبابِ بالحَدقِ
جريتُ جرىَ جَموحٍ فى الصِّبا طَلَقاً ... وما خرجتُ لصرفِ الدهرِ عن طلقِ
ولا انثنيتُ لداعى الموتِ يومَ وغًى ... كما انثنيتُ وحبل الحبِّ فى عنقى

ومقاصده فى غزله المشوب بشجاعته تشبه مقاصد أبى دُلَف القاسم بن عيسى العِجْلى ، وكانت له أيضاً رئاسة وثورة .

ولسعيد أيضاً فى جارية جميلة عَرضت له صباحاً فى غلالة حمراء وهو خارج إلى مجلسه ، لتأخذ عليه الطريق وهى تتثنى فى حركتها فقال :

قضيبٌ منَ الريحانِ فى ورقٍ حُمْرِ

ثم أعيته الإجازةُ طولَ نهاره وقد شُغل بها فكرُه ، حتى دخل عليه حاجبُه فاستأذن لعُبَيْدِيس / الشاعر الكاتب — وكان ينتابه هو وغيره — فساعةَ [٤٥ - ١]
دخلَ عليه ناداه سعيد :

قضيبٌ منَ الريحانِ فى ورقٍ حُمْرِ

(١) أورد ابن حيان قبل هذا البيت بيتاً هو :

فقل لحيان يا سؤلى ويا أملى ... استَوْصِ خيراً بروح زال عن بدنِ

فأجابه من قبل أن يجلس :

وعهدىَ بالريحانِ فى ورقٍ خُضْرِ

فسُرَّ وأجزلَ صِلته .

وله يرثى :

أمُستنصراً بالصبر قد دُفن الصبرُ ... مع الحسَنِ(١) المأمولِ إذ ضمّه القبرُ

فياعجباً للقبرِ منـــه يضمُّهُ ... وقد كان سهلُ الأرضِ يخشاه والوعرُ

وما مات ذاك الماجدُ القَرمُ وحدهُ ... بل الجودُ والإقدامُ والباسُ والصبرُ

وإنْ يَــكُنِ الشيطانُ زَيّنَ حَيْرةً ... لقاتله فى الــكُفْرِ ، بل دونَه الــكفرُ

فشمسُ الضحى ترجو لفقدان نورهِ ... وبدرُ الدجى يبكيه والأنجمُ الزهرُ

وله حين أسره عمر بن حفصون ، رأس الفتنة بالأندلس ومضرم نارها وركنُ العصبية للعجم والمولدين ، وذلك قبل إمارة سعيد ورئاسته للعرب :

خليلىَّ صبراً ، راحةُ الحرِّ فى الصبرِ ... ولا شىء مثلُ الصبرِ فى الــكَرْبِ للحُرِّ

فــكم من أسيرٍ كان فى القِدِّ(٢) مُوثَقاً ... فأطلقَهُ الرحمٰنُ من حَلَقِ الأسرِ

لئن كنتُ مأخوذاً أسيراً وكِبْتاً ... فليس على حربٍ ولــكنْ على غدرِ

ولو كنتُ أخشى بعضَ ما قد أصابنى ... حَمَتْنِىَ أطرافُ الرُّدَيْنِيَّةِ السُّمْرِ

فقد علمَ الفتيانُ أنى كَمِيُّها ... وفارسُها المقدامُ فى ساعةِ الذعرِ

---

(١) لم أعثر على شىء يكشف عن شخصية الحسن هذا ، والغالب أنه من زعماء جماعة يحيى بن صقالة وسوار بن حمدون وسعيد بن جودى .

(٢) جعلها دوزى (ص ٨٧) وملشور أنطونيا (المقتبس ، ص ١٢٦) : القيد ، ولا داعى لذلك فالقد صحيحة فى معنى القيد ، واستعمالها فى الشعر كثير .

ومن هذه القصيدة :

بِهَمِّكِ أَلْقَى خالقى يومَ موقفى وكربُكِ أفضى لى من القتل والأسرِ (١)
وإن لم يكن قبرٌ فأحسنُ موطناً من القبر للفتيان حَوْصَلَةُ النَّسْرِ

---

٥٨ — سليمان بن وانسوس
الوزير ، أبو أيوب

هو سليمان بن محمد بن أصبغ بن عبد الله وانسوس المكناسى مولى سليمان ابن عبد الملك . أصله من البرابر ، وله فيهم بيت شرف / بالأندلس . وكان جده [٤٥ - ب] أصبغ رئيساً بمارِدَة مطاعاً ، ثار فيها على الأمير الحَكَم بن هشام فملكها لنفسه واتصل خلافُه فيها سنين ، وجرت له خطوب كبار فى حالَىْ المعصية والطاعة .

وتمهد ابن ابنه هذا مهاد الطاعة من بعد نزوات سلفه ، وعَلِق حبالَ الخدمة ، فتصرف للسلطان فى أعمال كثيرة ، إلى أن ارتقى الذروة من خطة الوزارة للأمير عبد الله ، وصارت له حظوة . وكان أديباً مُفْتَنًّا ، وشاعراً مطبوعاً ، حسن البيان ، بليغاً ، حصيفاً ، داهياً ؛ وكان فى لحيته كوسجاً (٢) . ومن شعره يغرى

---

(١) أسقط ابن الأبار هنا بيتين يوضحان المقصود بالبيتين اللذين أتى بهما ، وهما :

فيا ظاعناً أبلغْ سلامى تحيةً إلى والدىَّ الهائمين لدى ذكرى
وأدِّ إلى عرسى السلام وقل لها عليك تحياتى إلى موقف الحشر

ويفهم من هذين البيتين أنه يخاطب زوجه فى البيتين اللذين أوردهما ابن الأبار.

(٢) الأصل : وكان فى حليته كوسجاً له . والكوسج هو الذى لا شعر على عارضيه ، ولهذا فقد غلب على ظنى أن « حلية » هى « لحية » وهم الناسخ فى كتابتها . وكان سليمان بن وانسوس كوسجاً أى لا شعر على عارضيه ، فى حين أن لحيته كانت طويلة ضخمة وصفها الأمير عبد الله كما رأينا بأنها « هلوفة » . وهذا التعارض بين ضخامة اللحية وانعدام شعر العارضين هو الذى جعل الأمير عبد الله يسخر من لحية سليمان بن وانسوس.

الأميرَ عبد الله بن محمد بجهور بنِ عبد الملك البُخْتِيّ ، وكان قد صُرف عن عمله بكورة إلْبِيرة لتَظَلُّم الرعية :

جاء الحمارُ ـ حمارُ المرج ـ محتشياً(١) مما أفاد من الأموال والطُّرَفِ
خلَّى لِبِيرةَ قد أوْدَتْ مساكنها بقبح سيرته والعنفِ والسرفِ
فاحمل على العير حملاً يستقلُّ به واترك له سبباً للتِّبن والعلفِ

فلما قرأ الأمير عبد الله أبياته أمر بإدخاله إليه فضحك منه وقال له : « يا سليمان لو زدتنا فى الأبيات لزدنا الحمارَ فى الغُرْم » ، وأمر بإغرامه ثلاثةَ آلاف دينار . وقد تقدم لسليمان هذا خبرٌ مع الأمير عبد الله يدل على شرف ذاته وعلو همته .

---

٥٩ — عامر بن عامر بن كليب بن ثعلبة بن عبيد الجذامى ، أبو مروان

وَلِيَ أبوه عامرٌ طليطلةَ ، ثم صرفه عنها عبدُ الرحمن بن الحكم بأخيه عبد الله بنِ كليب . وكان أحد وجوه أصحاب السلطان ، واختص بصحبة هاشم ابن عبد العزيز . وكانت فيه — مع أدبه وبلاغته — حدة ومعارضة للناس ، وتحكك بالشعراء ، فلم يسلم منهم ؛ وهو القائل فى الاعتذار :

عَظُمَ الخطاءُ فهل تُقيلُ يا سيدى ، أو ما تقولُ ؟
أنت العزيز بهفوتى وأنا بها العبد الذليلُ
والله لو أنى استطعـ ـتُ لما بدتْ منى فضولُ
ولما رأى منى الصديـ ـقُ سوى قوامٍ لا يميلُ

---

(١) روى الحكاية ابن حيان عن أبي الوليد الفرضى بتفصيل . وقد ورد هذا اللفظ فيه : محتسباً ، وقرأها دوزى (ص ٨٨) : محتشياً ولا معنى لها ، والصواب ما أثبتناه .

[٤٦-١] /ولسان صدق لا يزو   لُ من الصواب ولا يَحُولُ
فأبتْ علىَّ الـكاسُ إلْ   لاَ أن يُداخلَنى الذهولُ(١)

٦٠ - عبد الرحمن بن وليد بن عبد الرحمن بن عبد الحميد ابن غانم

كان هو وأخوه محمد وأبوهما وليد فى بيت أدب رائع وكتابة وجلالة ، ووَلِىَ وليد للأمير محمد بن عبد الرحمن خِطَّتَىْ الوزارة والمدينة ، وقاد جيش الصائفة الذى قدَّم عليه ابنه عبد الرحمن بن محمد ، وكان عدده عظيماً . ووَلىَ أيضاً محمدُ ابنُ وليد خطةَ المدينة ، وسيأتى ذكرهما . وعبد الرحمن هو القائل (وسَمع عبيدَ الله بن يحيى بن يحيى صاحب مالك وقد سئل عن النعامة ففسرها بطير الماء) :

ذهب الزمان بصفوة العلماء   وبقيتُ فى ظُلَمٍ وفى عمياء
وأتى طَغامٌ رُقِّعٌ مِن بعدِهِم   لا فرقَ بينهمُ وبين الشاءْ
فإذا سألتَ عن النعامِ أسَدَّهمْ   عِلماً ، يفسره بطير الماء

* * *

(١) نقل ابن الأبار هذا عن ابن حيان ، ونقله ابن حيان عن أبى الوليد الفرضى (مخطوط ابن حيان ، ص ٢٢٧ أ و ب) وقد روى حكايته مع الوزير محمد بن جهور وكيف أمر هذا الأخير بضربه وسجنه ، وكيف حاول الوزير هاشم بن عبد العزيز إنقاذه من يد ابن جهور فلم يستطع ، مما حط من قدره أمام الناس . ولعله يعتذر فى هذه الأبيات للوزير ابن جهور.
انظر أيضاً : «المغرب لابن سعيد» : ١/٩٤ - ٩٥ .

وهؤلاء شعراء بنى الأغلب ملوك إفريقية فى هذه المائة ، وفى آخرها انقرض ملكهم حسبما يُذكر بعد :

٦١ – زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب ، أبو محمد

وَلِىَ بعد أخيه أبى العباس عبد الله الجميل[١] سنة إحدى ومائتين . وكان أبوه — إبراهيم بن الأغلب — إذا قدم عليه أحد من الأعراب والعلماء بالعربية والشعراء ، أصحبَهم ابنَه زيادة الله هذا وأمرهم بملازمته ؛ فكان أفضلَ أهل بيته وأفصحهم لسانا ، وأكثرهم بيانا . وكان يعرب كلامه ولا يلحن ، دون تشادق ولا تقعر ، ويصوغ الشعر الجيد . ولا يُعْلَمَ أحد قبله سُمِّى « زيادة الله » ولا « هبة الله » قبل وَلَدِ إبراهيم بن المهدى[٢] .

ووُلِدِ زيادةُ الله قبلَ هبة الله هذا بنحو من ثلاثين سنة .

وهو الذى بنى جامع القَيْروان بالصخر[٣] والآجر والرخام بعد أن هدمه ، وبنى المحراب كله بالرخام / من أسفله إلى أعلاه ، وهو منقوش بِكِتَابٍ وغيرِ [٤٦ – ب] كِتَابٍ ، ويستدير به سَوارٍ حسان ، بعضها مجزعة بأسود ناصعةُ البياض شديدة السواد ، ويقابل المحراب عودان أحمران ، فيهما تَوْشِية بحمرة صافية

(١) قال ابن عذارى عن عبد الله بن إبراهيم بن الأغلب هذا : « . . وكان من أجمل الناس وجهاً وأفصحهم فعلا وأعظمهم ظلماً . . » . وله حكاية مشهورة فى كتب التاريخ المغربى مع صلحاء القيروان ، إذ نصحوه بأن يعدل عن سياسته فأبى ، فدعوا عليه « فخرجت إن قرحة خرجت تحت أذنه ، فقتلته فى السادس من دعاء القوم . وقال من حضر غسله أنه لما كشفت عنه ثيابه ، ظُن أنه عبد أسود بعد جماله ، وذلك بسبب سوء فعاله » . توفى فى ذى الحجة ٢٠١/ يونيو ٨١٧.

ولهذا يلقبه ابن الأبار بالجميل .

انظر : البيان المغرب ، ١/٩٥ – ٩٦ .

(٢) وردت هذه العبارة أيضاً عند النويرى . نهاية الأرب ، طبعة جسبار ريميرو ، ص ١٣٩ .

(٣) الأصل : بالصحن ، وقد صوبناها للسياق .

دون حمرة سائرها ، يقول كلٌّ من رآهما من أهل المشرق والمغرب أنه لم ير مثلهما . وقد بذل فيهما صاحب القسطنطينية وزنهما ذهباً فلم يُجِبْه الناظرُ للإسلام فى ذلك[١] .

وأول من بنى هذا الجامع الأشرف عقبة بن نافع الفِهْرى ، وهو الذى اختط مدينه القَيْروان فى سنة ثلاث وخمسين من الهجرة .

فلما وَلِىَ حسّان بنُ النُّعْمان الغَسّانى إفريقيةَ هدمه — حاشى المحراب — وبناه بالطوب . فلما وَلِىَ يزيد بنُ حاتم إفريقيةَ ، سنة خمس وخمسين ومائة ، هدمه وبناه . فلما وَلِىَ زيادةُ الله هذا ، هدمه وبناه مع المحراب كما وُصف وتم بنيانُه سنة اثنتين وعشرين ومائتين .

وبعد ذلك بعام أو نحوه توفى فى رجب سنة ثلاث وعشرين .

ولأبى إبراهيم أحمد بن محمد — والد إبراهيم بن أحمد السفاك — زيادةٌ فى هذا الجامع كملت سنةَ ثمان وأربعين ومائتين[٢] ، وهى عليها إلى اليوم .

---

(١) يروى أن زيادة الله بن عبد الله بن إبراهيم بن الأغلب كان يقول بعد أن فرغ من تجديد الجامع : « ما أبالى ما قَدِمتُ عليه يوم القيامة وفى صحيفتى أربع حسنات : بنيانى المسجد الجامع بالقيروان ، وبنيانى قَنطرة أم الربيع ، وبنيانى مدينة سوسة ، وتوليتى أحمد بن أبى محرز قاضى إفريقية » — ابن عذارى ، البيان ، ١/١٠٦ .

(٢) تحدث النويرى (ص ١٥٠) بشىء من التفصيل عن تلك الزيادة التى أضافها أبو إبراهيم أحمد بن محمد بن الأغلب بن إبراهيم بن الأغلب ، قال : « ولأبى إبراهيم آثار عظيمة فى المبانى بإفريقية ، فمن ذلك بنيان الماجل الكبير بباب تونس — وهو بمعنى الصهريج عندنا — وزاد فى جامع القيروان النهر والمجَنَّبات والقبة ، وبنى الماجل الذى بباب أبى الربيع ، والماجل الكبير الذى بالقصر القديم ، وبنى المسجد الجامع بمدينة تونس ، وبنى سور مدينة سوسة ، وكان آخر ما عمل الماجل الذى بالقصر القديم » .

وأبو إبراهيم هذا من أحسن أمراء بنى الأغلب سيرة وأبقاهم أثراً مع أنه كان من أصغر من تولى منهم سناً ، فقد تولى فى الثانية والعشرين — أو الثالثة والعشرين — من عمره ، ولم يحكم غير سبع سنين وتسعة أشهر وخمسة عشر يوماً . وكان موته يوم الثلاثاء ١٤ ذى قعدة سنة ٢٤٩/٢٠ =

ومن شعر زيادة الله — على أنه كان يصنعه ويكتمه — ما يُروى أن المأمون كتب إليه أن يدعو على منابره لعبد الله بن طاهر بن الحسين ، فأنف من ذلك وأمر بإدخال الرسول عليه — بعد أن تَمَلَّأ من الشراب ، وحلَّ شعره ، ونارٌ عظيمة بين يديه فى كَوانين ، وقد احمرت عيناه — فهال الرسولَ ذلك المنظر ، ثم قال : « قد علم أمير المؤمنين طاعتى له وطاعةَ آبائى لآبائه ، وتقدُّمَ سلفى فى دعوتهم ، ثم يأمرنى الآن بالدعاء لعبدِ خُزَاعة ؟ هذا والله أمر لا يكون أبداً » . ثم مد يده إلى كيس إلى جانبه فيه ألف دينار فدفعه إلى الرسول ليوصله إلى المأمون ، وكانت الدنانير مضروبة باسم إدريس الحسنى ، ليُعْلمه ما هو عليه من فتنة المغرب ومناضلة العلويين ، وكتب جواب الكتاب وهو سكران فى آخره أبيات منها :

أنا النار فى أحجارها مستكنة فإن كنتَ ممن يقدح الزند فاقدحِ
أنا الليث يحمى غِيـلَه بزئيرهِ فإن كنتَ كلباً حان موتُك فانبحِ
/ أنا البحر فى أمواجه وعُبابِهِ فإن كنتَ ممن يسبحُ البحرَ فاسبحِ [٤٧ - ا]

فلما صحا بعث فى طلب الرسول ففاته ، وكتب كتاباً آخر يتلطف فيه ، فوصل الكتاب الأول والثانى ، فأعرضوا عن ذكر الأول وجاوبوه عن الثانى بما أحب . وصدْر البيت الأول من هذه الأبيات وقع فى ما تمثل به المأمون ،

= يناير ٨٦٢ ، أما ابنه أبو إسحاق إبراهيم بن أحمد بن محمد بن الأغلب فقد كان مصابا بشبه جنون جعل منه أكبر سفاك للدماء عرفه تاريخنا ، ولم نقتصر جرائمه على خصومه السياسيين أو من يخشى خطرهم ، بل كان يقتل للذة القتل ، وقد أورد النويرى — نقلا عن أبى إسحاق إبراهيم الرقيق — بياناً مفزعاً ببعض المذابح التى أوقعها بأهل بيته وخدمه حتى لقد قتل ٣٠٠ خادم بسبب منديل ضاع منه ، وقتل ابناً من أبنائه وثمانية من إخوته ، وقتل ١٦ من بناته مرة واحدة . وكان به شذوذ وميل للغلمان ، وكان عنده منهم نيف وستون ، فشك فى أمرهم مرة فقتلهم جميعاً على أبشع صورة ، إلى آخر هذا البيان الأسود . وكان يتلذذ لمنظر القتل ويتفنن فيه ، ومن هنا فإن لقب السفاك الذى سماه به ابن الأبار قليل فى حقه.

إذ قتل ليلاً بالمُطبق إبراهيم بن محمد بن عبد الوهاب بن إبراهيم الإمام بن محمد ابن على بن عبد الله بن العباس المعروف بابن عائشة وأصحابه ، فقال حين فرغ من ذلك :

أنا النـار فى أحجارها مستكنة   متى ما يَهِجْها قادحٌ تتضرَّمُ

حكاه المسعودى .

وكان زيادةُ الله يدعو للمأمون ، وابنُ شَـكْلَةَ[1] — وهو إبراهيم بن المهدى — ببغداد قد ادعى الخلافةَ بعد قتْل الأمين ، إلى أن قدم المأمونُ بغدادَ فـكاتَبه وشكر له فِعلَه .

وله يخاطب أمَّه « جلاجل » — جارية الليث بن سعد[2] — وقد استفحل أمر الجند فى خلافهم عليه ، واستولوا على إفْرِيقِيَّة كلها ، إثر وقعة على أصحابه شديدة خاف منها على ملـكه ، وأيقن بانقطاع مدته ، و بلغ ذلك منه كل مبلغ ، فدخلت عليه أمه تصبِّره وتسهِّل الأمرَ عليه ، ففـكر ساعة ثم رفع رأسه وأنشد أبياتاً منها :

أمنتْ سَبِيبةُ كل قَرمٍ باسلٍ   ومن العبيد جماجماً أبطالاَ

فإذا ذكرت مصايباً بسَبِيبةٍ   فابكى جلاجل واندبى إعوالاَ

---

(١) ورد الاسم على هذا الضبط عند المسعودى ، انظر « مروج الذهب » (تحقيق باربييه دى مينارد ، باريس ١٨٧١) : ٦/١٠ .

(٢) سمع إبراهيم بن الأغلب مؤسس دولة الأغالبة من الليث بن سعد قبل أن يلى حكم إفريقية ، ويقال إن الليث وهب له « جلاجل » أم ولده « لمكانه منه » كما يقول ابن عذارى. وزيادة الله الأول هو ثانى ولد من أولا د إبراهيم بن الأغلب يلى الإمارة (ابن عذارى ، البيان ، ١/٩٢) .

يا ويح نفسى حين أركب غادياً بالقيروان تخالنى مختالاَ
فى فتيةٍ مثل النجوم طوالع وتخالنى بين النجوم هلالاَ
فاليوم أركب فى الرعاع ولا أرى إلا العبيد ومعشراً أنذالاَ(١)

وله فى النسيب :

بالله لا تقطعَنْ بالهجر أنفاسى فأنتَ تملك إنطاقى وإخراسى
صدودُ طَرْفك عن طرفى إذا التقيا مُجَرِّعى كأسَ إرغامٍ وإتعاسِ
لو لم أُبِحْكَ حِمَى قلبى تَرُودُ به لم تستبحْ مهجتى يا أملحَ الناسِ

/ وله أيضاً فى تفاحة : [٤٧ – ب]

ولابسةٍ ثوبَ اصفرارٍ بلا جسمٍ تَنُمُّ بأنفاسِ الحبيبِ لمُشْتَمِّ
تجمَّع معشوقٌ لديها وعاشقٌ فذو نظرٍ يرنو إليها وذو شمٍّ
سأفنيكِ أو أفنى عليك تذكُّراً لمَنْ أنتِ عطرٌ منه فى الرشف واللثمِ
فقد هِجتِ فى قلبى لظًى لتذكرى وعنوانُه فى مقلتى دمعةٌ تَهْمِى
كأنى أُدْنى حين أُدنيكِ مَن بِهِ أثرتِ اشتياقى فى عناقٍ وفى ضمٍّ

---

(١) كانت أيام زيادة الله بن الأغلب كلها أيام فتنة واضطراب ، بسبب قلة كفايته وسوء تصرفه مما كان سبباً فى ثورة منصور الطُّنبذى التى كادت تطيح بدولة بنى الأغلب . وقد كان زيادة الله لهذا فى ضيق وهم دائمين ، وربما كان هذا بعض سبب إسرافه فى الشراب . وتشير أبيات زيادة الله إلى وقيعة سبيبة التى كانت سنة ٢١٠/٨٢٥–٨٢٦ ، أوقعها بجند زيادة الله عامر بن نافع صاحب منصور الطنبذى وقسيمه فى الثورة ، وكان يقود جند زيادة الله فيها ابن أخيه محمد بن عبد الله بن الأغلب ، فقتل فى المعركة ، وقد كاد أمر زيادة الله يتلاشى بعدها قال ابن عذارى : « ولم يبق بيد زيادة الله من إفريقية كلها إلا قابس والساحل ونفزاوة وإطرابلس ، فإنهم تمسكوا بطاعته ، ولم ينقصوه شيئاً من جبايته . وملك منصور جميع عمل زيادة الله ، وضرب السكة باسم نفسه » (البيان المغرب ، ١/١٠٠ – ١٠١) .

٦٢ – الأغلب بن إبراهيم بن الأغلب ، أبو عِقال (ويلقب بخزر)

وَلِيَ إفريقية بعد إبراهيم بن الأغلب ثلاثةٌ من أبنائه لصلبه ، أولهم أبو العباس عبد الله : وَلِيَ بعهد أبيه ، وكان عند وفاته بطرابلس ، فقام أخوه زيادة الله بالأمر فى مغيبه ، وأخذ له البيعة على نفسه وعلى أهل بيته وسائر الناس ، فكان يتحامل عليه فى ولايته وينتقصه ، وهو يظهر التجمل والاحتمال[1] ؛ وعوجل فلم تطل مدته ، ولم يوصف بأدب فنذكره . وثانيهم أبو محمد زيادة الله المتقدم الذكر : وهو كان أطولهم ولايةً ، وأمتنهم بعد أبيهم أدبا . وثالثهم أبو عقال الأغلب هذا : وَلِيَ بعد أخيه زيادةِ الله ، وهو كان أقصرهم ولاية ؛ أقام سنتين وتسعة أشهر وأياماً ، غير أن الملوك منهم من عقبه[2] دون أخويه . وكل من وَلِيَ بعده من آل الأغلب — إلى أن انقرض ملكهم وزال سلطانهم — من ولده . وآثاره صالحة : أمَّن الجندَ وأحسن إليهم ، فلم يكن فى أيامه — على قصرها وتقلصها — حروب . وغيَّر مما أحدث العمال كثيراً ، وقبض أيديهم عن أموال الرعية ، وقطع النبيذ من القيروان ؛ فحُمِدت سيرته ، وظهرت فضيلته ، وانتشر عدله . وكان له حظ من الأدب يصوغ به مقطعات من الشعر ، فمنها قوله :

---

(١) عندما توفى إبراهيم بن الأغلب فى شوال ١٩٦/ يونيو ٨١٢ كان ابنه وولى عهده عبد الله بطرابلس ، فقام ابنه الثانى زيادة الله بأخذ البيعة على نفسه وأهل بيته ورجال الدولة لأخيه الغائب ، ولما وصل عبد الله إلى القيروان سلم إليه الأمر ، ولكن عبد الله لم يحمد لأخيه هذا الفضل وجعل دأبه التحامل على أخيه وإطلاق لسانه فيه ، فخاف زيادة الله وخرج إلى المشرق . وعندما توفى أبو العباس عبد الله بن إبراهيم بن الأغلب فى صفر ١٩٧/ أكتوبر ٨١٢ تولى زيادة الله بعده .

(٢) الأصل : غبنه .

له مقلة تكفيه حملَ سلاحِهِ محاربة ألحاظها من تسالمُهْ
سَقى صَبَّه من خمرها فبدا بها كما تفعل الصهباء ما هو كاتمُهْ
وقد سكرتْ أجفانُه فكأنما تُسَقِّيهِ من صهبائها وتنادمُهْ

/٦٣ — ابنه محمد بن الأغلب بن إبراهيم بن الأغلب ، أبو العباس [٤٨ - ١]

وَلِيَ بعد أبيه أبى عقال فى آخر شهر ربيع الآخر سنة ست وعشرين ومائتين ، وتوفى يوم الاثنين لليلتين خلتا من المحرم سنة اثنتين وأربعين ومائتين وهو ابن ست وثلاثين سنة ، فكانت ولايته خمس عشرة سنة وثمانية أشهر واثنى عشر يوماً .

وكان كوسَجاً : كان وجهُه وجهَ خَصِيٍّ ليس فيه إلا شعرات يسيرة ، عقيماً يولَد له ، موصوفاً بحلم وجود . وحاربه أخوه أحمد فظفر به وأخرجه إلى المشرق ، وكانت فى أيامه حروب كثيرة نُصر فيها . وأما أخوه الثانى — ويسمى أيضاً محمداً ، ويكنى أبا عبد الله — فكان والياً على طرابلس من قبله ، ومات بها فى أيامه سنة ثلاث وثلاثين ومائتين ؛ ومن ولده أمراء بنى الأغلب الولاة بعد أبى العباس هذا [١] .

---

(١) هذه المعلومات تصحح خطأ كبيراً جارياً فى نسب بنى الأغلب ، فإن كل المؤرخين يتابعون ابن عذارى وابن خلدون والنويرى فى القول بأن أمراء بنى الأغلب بعد أبى العباس محمد بن الأغلب السعدى كانوا من نسله ، وأن أحمدَ الوالى بعده ابنُه . ولكن ما يذكره ابن الأبار هنا من أن محمداً الأول كان عقيماً لا ولد له ، وأن أحمد الذى جاء بعده هو ابن أخيه — واسمه محمد أيضاً — الذى تولى طرابلس ، يغير الوضع . ولم ينتبه لذلك زامباور فى معجم =

وأبو العباس [هو] القائل يفخر — فى ما نسبه إليه بعض خاصته ، وقيل إنه لعبد الرحمن بن مَسْلمة — قاله على لسانه عند ظفره بخارجٍ عليه :

أليسَ أبى وجدّى أوطآنى — وجَدُّ أبى وعمّاىَ — الرقابا ؟
ورثتُ المُلكَ والسلطانَ عنهمْ فصرتُ أعزَّ مَن وطئَ الترابا
وقدّمنى الخلائفُ واصطفَوْنى فمَن مثلى قديماً وانتسابا
أنا المَلكُ الذى أسمو بنفسى فأبلغ بالسموِّ بها السحابا
إذا نَقّبْتَ عن كرمى ومجدى وجدتَنى المُصاصةَ[1] واللُّبابا
أنا المَلكُ الذى أيّدْتُ مُلكى بسيفى إذ كشفتُ به الضبابا
فأمضى إن سَرَدْتُ[2] الجفنَ عنه فأغتصبُ النفوسَ به اغتصابا
لقد فتح المهيمنُ لى بسيفى وإقدامى ، إذا ما الجمعُ هابا
أمتُّ به ابنَ حمزة[3] حين دبتْ عقاربُ غدره وسعَى نخابا

— الأنساب ، ولا الذين ترجموه إلى العربية (١/١٠٥) ، بل لم ينتبه لذلك ڤوندرهايدن الذى ألف كتاباً ضخماً عن الأغالبة بالفرنسية سبق أن أشرنا إليه (ص ٢١٣ – ٢١٦) .

وقد وصف ابن عذارى والنويرى محمداً هذا بالجهل والغباء ، بل أورد ابن عذارى حكاية أيد بها هذا الوصف ، ولكن الحقيقة — كما يتضح من التفاصيل التى يقدمها النويرى — أنه كان من أذكى بنى الأغلب وأشدهم مكراً .

انظر : ابن عذارى ، البيان المغرب ، ١/١٠٧ – ١١٤ . النويرى ، ١٤٦ — ١٥٠ .

(١) كذا فى الأصل ، على اعتبار أن المُصَاصة العصارة التى تمص . وقد تكون صحة اللفظ : الخلاصة .

(٢) الأصل : أمضى إذا سررت ، ولا يستقيم به الوزن أو المعنى .

(٣) ابن حمزة هو نصر بن حمزة الجَرَوىّ وزير أبى جعفر أحمد بن أبى عقال الأغلب ابن إبراهيم بن الأغلب ، وأحمد هذا هو أخو أبى العباس محمد المترجم له هنا ، وكان قد ثار عليه بمعاونة صاحبه نصر بن حمزة الجروى وأخيه داوود ، وتمكن من أن يتولى الأمر دون أخيه دون أن يخلعه . وقد تمكن محمد بالحيلة من أن يستعيد سلطانه ويتغلب على أخيه أحمد وأنصاره ، ثم أخرجه مبعداً إلى المشرق ، وقتل نصر بن حمزة الجروى ، وبهذا يفخر هنا . أما داوود بن حمزة الجروى فكان قد انضم إلى محمد نكاية فى أحمد بن الأغلب لأنه فضل أخاه عليه .

أسلتُ به دمَ الأوداج منه فصار لشَيبِ لحيته خضابا(١)
/ أُظِلُّ عشيرتى بجناح عِزِّى وأمنحها الكرامةَ والثوابا [٤٨ - ب]
وأصطنعُ الرجال وأصطفيهم(٢) وأغفر للمسىء إذا أنابا
وأسمو بالخميسِ إلى الأعادى فأكسر بالعقاب لها العقابا
أنا ابنُ الحرب ربتنى وليداً إلى أن صرتُ مكتلئاً شبابا
لَعَمْرُ أبيك ما أنْ عِبتُ قومى وما أخشى بقومىَ أن أُعابا
بنيتُ لهم مكارمَ باقياتٍ إذا ما صارت الدنيا خرابا

---

٦٤ — إبراهيم بن أبي إبراهيم أحمد بن أبي عبد الله محمد بن أبي عِقال الأغلب

وهو خَزَر المذكور قبل ابن إبراهيم بن الأغلب ، أبو إسحاق .

وَلِىَ بعد أخيه أبي عبد الله محمد بن أحمد ، الذى يُعرف بأبي الغرانيق ، لكثرة ولوعه بتصيدها . وكان محمد هذا قد عقد لابنه أبي عِقال الأغلب ولاية عهده ، واستحلف إبراهيمَ هذا خمسين يميناً بجامع مدينة القَيْرَوان ألا ينازعَه ، وذلك بمحضر مشيخه الأغلب(٣) وقضاة القيروان وفقهائها ، فلما هلك أبو الغرانيق

---

(١) ورد هذا الشطر فى الأصل هكذا :

* فصارت لشيب لحيته خضابا *

ولا يستقيم به الوزن ، وقد قومته على هذا النحو.

(٢) الأصل : أطيبهم .

(٣) فى النويرى : وذلك بحضرة مشائخة بنى الأغلب وقضاة القيروان وفقهائها (ص ١٥٣)

لستٍّ مضين من جمادى الأولى سنة إحدى وستين ومائتين ، خلع ابنَه أهلُ القيروان وقدموا إبراهيمَ بن أحمد فى قصة طويلة ، فابتلاهم الله بظلمه ، وامتحنهم بإسرافه ، حتى سموه « الفاسق » . وكان أول أمره قد أحسن السيرة فيهم نحواً من سبع سنين ، ثم ارتكب من العدوان وسفك الدماء مالم يرتكبه أحد قبله ، وأخذ فى قتل أصحابه وكتّابه وحجّابه ، حتى إنه قتل ابنه أبا عقال وبناته ؛ والأخبارُ عنه فى ذلك فظيعة شنيعة . وكان كثير المال شديد الحسد ، على اتصافه بالحزم والعزم والضبط للأمور . ولم يكن يوصف بعلم بارع ولا أدب ، وكان ربما صنع من الشعر شيئاً ضعيفاً ، فمن ذلك قوله :

نحن النجوم بنو النجوم ، وجدُّنا قمرُ السماء أبو النجوم تميمُ
والشمسُ جدَّتُنا ، فمن ذا مثلُنا متواصلان : كريمةٌ وكريمُ ؟

[٤٩ - أ] / وحذف هذا النظم الغث أولى من إثباته ، وليته بعقاب أهل بيته عوقب على أبياته . ولم يَلِ إفريقيةَ قبلَه أطولُ عمراً منه فى سلطانها . مَلَكَ تسعاً وعشرين سنة إلا خمسة أشهر وثمانية عشر يوماً ، ليطول به الابتلاء ؛ والله يفعل ما يشاء .

وحكى أبو عبيد البكرى فى كتاب « الممالك والمسالك » من تأليفه أن إبراهيم بن أحمد هو الذى بنى مدينة رَقّادة واتخذها وطنا ، وانتقل إليها من مدينة « القصر القديم » وبنى بها قصوراً عجيبة وجامعاً . ولم تزل بعد ذلك دار مُلك لبنى الأغلب ، إلى أن هرب عنها زيادةُ الله أمام أبى عبد الله الشيعى . وسكنها عبيدُ الله المهدى ، إلى أن انتقل إلى « المهدية » ، فدخلها الوَهَنُ وانتقل عنها ساكنوها . ولم تزل تخرب شيئاً بعد شىء ، إلى أن وَلِىَ مَعَدُّ بنُ إسماعيل ، فخرّب ما بقى منها وعفّى آثارها ولم يبق منها غير بساتينها .

قال : وليس بإفريقية أعدل هواء ، ولا أرق نسيماً ، ولا أطيب تربة من مدينة رَقّادة . وذكروا أن أحد بنى الأغلب أَرِقَ وشَرَدَ عنه النوم أياماً ، فعالجه

إسحاق — يعنى طبيبهم ، وهو الذى ينسب إليه إطريفُل إسحاق[١] — فلم ينم ، فأمره بالخروج والمشى ، فلما وصل إلى موضع رَقّادة نام ، فسميت رَقّادة من يومئذ ، واتُّخذت داراً ومسكناً وموضع فرجة للملك . قال : ولما بناها إبراهيمُ ابن أحمد منع بيع النبيذ بمدينة القيروان وأباحه بمدينة رَقّادة ، فقال بعض ظرفاء أهل القيروان :

يا سيدَ الناس وابنَ سَيّدِهِمْ ومَن إليـــه الرِّقَابُ منقاده
ما حَرَّمَ الشُّرْبَ فى مَدينتِنا وهو حلال بأرض رَقّاده ؟

ومع بُعد إبراهيم فى المَلَكة عن الإسجاح ، فقد كان لا يخلُّ بنصيبه من السماح . حكى أبو إسحاق الرقيق أن بكر بن حماد التاهَرتى[٢] كان ينتجع هذا الطاغية ويمدحه ، فغدا يوماً بمديح له على « بلاغ » الخادم فقال له : « الأمير عنا مشغول فى هذا اليوم » ، قال : « فالطف بى فى إيصال رقعة إليه » ، قال : « إنه مصطبح فى الجنان مع الجوارى ، ولا يصل إليه أحد » ؛ فكتب بكر فى رقعة ، واحتال « بلاغ » فى / توصيلها مساعدةً له ، وفيها أبيات منها : [٤٩ – ب]

---

(١) العبارة كلها منقولة عن المسالك والممالك للبكرى (صفة إفريقية ، ص ٢٧ – ٢٨) . والإطريفُل أو الإطريفال – كما جاء فى معجم الكتاب المنصورى المعروف باسم « مفيد العلوم ومبيد الهموم » لابن الحشاء – دواء مركب فيه لا محالة بعض المليلجات أو كلها ، ويزاد فيه بحسب الحاجة من الأفاويه ، وصوابه بضم الفاء .

وانظر : دوزى ، ملحق القواميس ، ١/٢٨ .

(٢) ترجم له أبو بكر المالكى فى « رياض النفوس » : ٢/١٦ – ١٩ ، وأورد كثيراً من الشعر فى رثاء ابنه وفى الزهد . وقال « سُعى به إلى إبراهيم بن أحمد الأمير ، فخرج هارباً من القيروان يريد تاهرت بلده ، فلما صار بسَبَاطه خرج عليه قطاع الطريق ، فقتل ولده عبد الرحمن وجرح بجراحات ، فما زال فى بطنه فتق منها إلى أن مات (سنة ٢٩٦/٩٠٨ – ٩٠٩) . وترجم له الدباغ فى « معالم الإيمان » (٢/١٩٢) وذكر أساتذته ورحلته إلى البصرة سنة ٢١٧ . وقد أضاف الدباغ أن قاسم بن أصبغ أخذ عنه ، وقال إنه كان ثقة عالماً بالحديث ورحاله ، شاعراً فصيحاً .

خُلِقنَ الغوانى للرجال بَلِيةً فهنَّ موالينا ونحن عبيدُها
إذا ما أردنَ الوَرْدَ فى غير حينهِ أتتنا به فى كل حين خدودُها

وكتب تحت الأبيات :

فإن تَكُنِ الوسائلُ أعوزتنى فإنَّ وسائلى وردُ الخدودِ

فلما قرأها أنشدها الجوارى ، فأظهرن له سروراً بها وشفعن إليه إلى أن خرج بصُرَّة مختومة فيها مائة دينار ؛ ووصل منه إلى بكرٍ مالٌ عظيم .

---

٦٥ — ابنه عبد الله بن إبراهيم بن أحمد ، أبو العباس

وَلِىَ بعد أبيه إبراهيم ، وكان شجاعاً بطلا ،[(١)] ذا بصر بالحروب والتدبير ، عاقلا أديباً عالماً ، له نظر فى الجدل وعناية باللغة والآداب . وكان فى أيام أبيه على خوف شديد منه ، لسوء أخلاقه وقبح أفعاله ، وجرأته على قتل من قَرُب منه أو بعُد ، وكان يُظهر من طاعته والتذلل له أمراً عظيماً . وكان أبوه يوجهه إلى محاربة كثير ممن يخالف عليه ، ويفضله على سائر ولده ، ثم ولاه عهده وصير إليه خاتمه ووزارته ، وكتب بذلك كتاباً تاريخه يوم الجمعة لثمان بقين من شهر ربيع الأول سنة تسع وثمانين ومائتين .

وفى ذى القعدة منها هلك أبوه إبراهيم بن أحمد ، ومن ذلك الوقت رُمِى

---

(١) لم يصفه بذلك غير ابن الأبار ، بل قال ابن عذارى : إنه أظهر التقشف والجلوس على الأرض وإنصاف المظلوم ، وجالس أهل العلم وشاورهم ، وكان لا يركب إلا إلى الجامع ، فقال قوم : إن أهل النجوم أمروه بذلك ، وقال قوم « به وسوسة » . ثم ذكر كيف احتال على ابنه زيادة الله حتى سجنه مع نفر من أصحابه ، فكان هذا حافزاً لزيادة الله على تدبير مقتل أبيه .
ابن عذارى ، ١/١٣٣ — ١٣٤ . النويرى ١٦٣ — ١٦٤ .

بالنجوم ، فكانت تتناثر كالمطر يميناً وشمالا ، وكانت تؤرخ بسنة النجوم[1] .

ومَلَكَ عبدُ الله سنةً واحدة واثنين وخمسين يوماً ، وكانت أيامه — على قصر مدته — أيام عدل وصلاح وحسن سيرة ، إلى أن قُتل ليلة الأربعاء آخر شعبان سنة تسعين ومائتين : تولى قتلَه ثلاثةٌ من خدمه الصقالبة وهو نائم ، وأتوا برأسه ابنَه زيادة الله بن عبد الله آخر ملوك الأغالبة وهو محبوس من قِبَل أبيه — وكان قد صانعهم على ذلك — فقتلهم وصلبهم . ومن شعر عبد الله فى دواء شربه بصقلية :

/شربتُ الدواء على غُربةٍ بعيداً من الأهل والمنزلِ [٥٠–أ]
وكنتُ إذا ما شربتُ الدواء تطيَّبتُ بالمِسكِ والمَنْدَلِ
فقد صار شربى بِحارَ الدماء ونقع العَجَاجةِ والقسطلِ

---

٦٦ – ابنه زيادة الله بن عبد الله بن إبراهيم بن أحمد ، أبو مُضَر

خاتمة ملوك الأغالبة ، عليه انقرض مُلكهم وزال سلطانهم بعبيد الله المهدى أول ملوك الشيعة .

ولما هَزم أبو عبد الله الشيعى — داعية عبيد الله — عسكرَ زيادة الله هذا يوم السبت لست بقين من جمادى الآخرة سنة ست وتسعين ومائتين[2] ،

---

(١) راجع التعليق السابق

(٢) كانت الأُربُس آخر معاقل زيادة الله الثالث آخر أمراء بنى الأغلب ، فلما سقطت فى يد أبى عبد الله الشيعى أسقط فى يده وقرر الفرار ، ولم يلبث فى القيروان إلا ريثما أخذ ماتيسر من ماله ومتاعه ، «فلما كان وقت صلاة العتمة من ليلة الاثنين لأربع بقين من جمادى الآخرة [سنة ٢٩٦] ركب فرسه وتقلد سيفه ، وقدم الأحمال تمر بين يديه ، هارباً على عيون أهله وحرمه وولده » .

وكانت تلك هى نهاية أمر بنى الأغلب ، على رغم محاولة أخيرة يائسة قام بها إبراهيم بن أبى الأغلب وأبى أهل القيروان أن يؤيدوه فيها فاضطر إلى الفرار لاحقاً بزيادة الله

ابن عذارى ، البيان المغرب ، ١/١٤٧ – ١٤٨ .

ودُخلت مدينة الأُرْبُس بالسيف ، وبلغ الخبر زيادةَ الله عند صلاة العصر يوم الأحد بعده ، فر على وجهه وأسلم البلاد ، ولحق بإطرابلس ميمماً ديار مصر ، وذلك فى خلافة المقتدر بن جعفر بن المعتضد ، فكانت ولايته ست سنين إلا شهرين وأياماً ، أتلف جُلَّها فى اللذات والبطالة ، حتى انقضت دولته وظفر به عدوه .

وكان فراره من مدينة رَقّادة التى بناها جده إبراهيم بن أحمد ، وأجرى إليها المياه ، واغترس فيها صنوف الثمار الطيبة والرياحين ، و بنى على القصور التى أحدث فيها سوراً ، وأحد هذه القصور يسمى « بغداد » ، وآخر منها يسمى « المختار » ، فصارت أكبر من القيروان ، وبينهما ستة أميال .

فلما وَلِى زيادةُ الله هذا ، انتقل إليها وحفر بها حفيراً بناه صهريجاً ، طوله خمسمائة ذراع وعرضه أربعمائة ذراع ، وأجرى إليها ساقية وسماه « البحر » ، و بنى فيه قصراً وسماه « العروس » على أربع طبقات أنفق فيه — سوى خَسَر[1] اليهود والعجم — مائتى ألف دينار واثنين وثلاثين ألف دينار .

وكان عبيد الله[2] يقول : « رأيت ثلاثة أشياء بإفريقية لم أر مثلها بالمشرق ، منها هذا القصر » . فبهذا وأمثاله كان اشتغاله ، حتى حالت لأول وهلة حاله ، ليصدق ما قاله أبو الفتح البُسْتِىّ :

إذا غـــدا مَلِكٌ باللهو مشتغلا فاحكم على مُلكه بالويلِ والحَرَبِ

[٥٠ – ب] / وحكى أبو إسحاق الرقيق أنه سأل « مؤنساً » المغنى هل يعلم صوتاً من أصواته لم يسمعه منه ، فقال : « والله يا مولاى ما علمت غير بيت ، وقد أُنسيتُ أوله » ، قال : « هاته » ، فغناه :

(١) وردت هكذا مشكولة فى الأصل ، فتركتها كما هى ولو أننى لم أعرف معناها هنا ، وقد تكون صحتها : عُتَرُ اليهود والعجم .

(٢) المراد عبيد الله المهدى أول خلفاء الفاطميين فى إفريقية .

فقد صِرتُ بعد البَيْنِ أقنَعُ بالهجرِ

ثم وجّه فى صاحب البريد عبد الله بن الصائغ(١) — وكان شاعراً مجيداً — فعرّفه ما جرى وقال له : « بحياتى إلا ازدتَ عليه شيئاً » ، فقال ابنُ الصائغ :

ولى كَبِدٌ لولا الأسى لتصدّعتْ وقلبٌ أبَى أن يستريح إلى الصبرِ
وقد كنتُ أخشى هجرَهم قبل بَيْنهمْ فقد صرتُ بعدَ البَيْنِ أقنَعُ بالهجرِ

فأعجبه ذلك ووقع منه أحسن موقع ، وغنى به « مؤنس » فطرب وأمر له بخلع نفيسة وكيس فيه ألف دينار وفرس بسرج ولجام مُحَلَّيَيْنِ . وهذا قد كان يحسن منه لولا انهما كه [فى ملذّاته](٢) الذى كان فيه هلاكه .

وقال أبو بكر محمد بن محمد الصُّولى فى كتاب « الأخبار المنثورة » من تأليفه : حدثنى أبو الحسن على بن جعفر الكاتب ، حدثنى أبى ، قال : كان لزيادة الله ابن عبد الله بن إبراهيم بن أحمد — وهو زيادة الله الأصغر ، وكان أميراً بإفريقية — غلام فحل صبي يُدعى خَطّاباً — وهو الذى اسمه فى السكك — فسخط عليه وقيده بقيد من ذهب ، فدخل يوماً من الأيام صاحبُه على البريد — وهو عبد الله بن الصائغ — فلما رأى الغلامَ مقيداً تأخر قليلا ، وعمل بيتين وكتب بهما إلى زيادة الله وهما :

يأيها الملك الميمون طائرُهُ رفقاً فإن يد المعشوق فوق يدكْ
كم ذا التجلد والأحشاء راجفةٌ أعيذ قلبَك أن يسطو على كبدكْ

---

(١) عبد الله بن الصائغ هو صاحب بريد زيادة الله هذا ثم وزيره ، وهو الذى أشار عليه بقتل أعمامه ومن يتوقع أن ينافسه فى العرش من آله ، وهو وأبومسلم منصور بن إبراهيم — الذى ولاه الخراج — مسئولان عن كثير من الأخطاء التى وقع فيها وأدت إلى ضياع ملكه وذهاب دولة بنى الأغلب . وقد آل أمره إلى أن قتله زيادة الله ، وكان ذلك بعد فرارهما جميعاً . وقد كان مقتل عبد الله بن الصائغ فى طرابلس سنة ٢٩٦ .
انظر : ابن عذارى ، البيان المغرب ، ١ / ١٣٤ — ١٤٦ .
(٢) أضفت ذلك للسياق .

فأطلق الغلام ورضى عنه ، ووصل عبدَ الله الصائغ بالقيد الذهب[1] .

ومن شعر زيادة الله ما حكى الصُّولى أيضاً فى « كتاب الوزراء » من تأليفه أن العباس بن الحسن ، لمـا استوزره المـكتفى أبو محمد على بن أحمد المعتضد ، أراد أن يريه أنه فوق الوزير قبلَه القاسمِ بن عبيد الله بن سليمان بن وهب فى التدبير ، [٥١ - ا] فاستأذنه فى مخاطبة بن الأغلب هذا ، ففعل ، فوجه ابن الأغلب إليه/ برسول معه هدايا عظيمة ومائتا خادم وخيل وَبَزٌّ كثير وطِيب ، ومن اللبوذ[2] المغربية ألف ومائتان ، وعشرة آلاف درهم فى كل درهم عشرة دراهم ، وألف دينار فى كل دينار عشرة دنانير ، وكتب على الدنانير والدراهم فى وجهٍ :

يا سائراً نحو الخليفة قل له   أن قد كفاكَ اللهُ أمرَكَ كلَّهُ
زيادةُ الله بن عبد الله سيـ   ـفُ الله من دون الخليفة سلَّهُ

وفى الوجه الآخر :

ما ينبرى لك بالشقاق منافقٌ   إلا استباح حريمَه وأحلَّهُ
من لا يرى لكَ طاعةً فالله قد   أعماه عن طُرق الهدى وأضلَّهُ

---

(١) روى ابن عذارى هذا الخبر فى صورة أخرى ، فذكر كلفه بهذا الغلام خطاب وكتابة اسمه فى سكة الدنانير والدراهم ، ثم غضبه عليه ، ولكنه قال إن الذى قال الشعر جارية من جواريه . (البيان : ١/١٤٣)

وغلام فحل معناه أنه ليس من الخصيان ، فقد كان أولئك الغلمان الذين يشتريهم الأمراء إما فحولا - أى لم يخصوا - أوخصياناً .

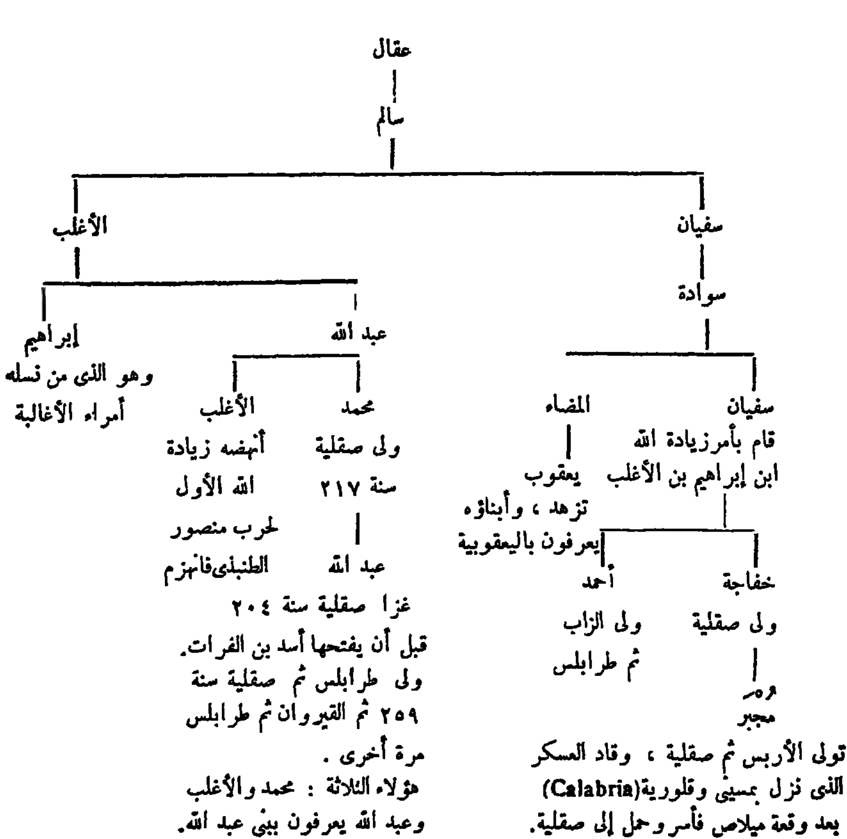
(٢) كذا . والمشهور اللبود بالدال المعجمة وهو قماش من الصوف الغليظ الأبيض ،كان يستعمل فى صنع نوع من القلانس الطوال ، وفى بعض الأحيان تصنع منه الخفاف . وقد يلبسه المقاتلة ليقى أجسامهم . وهو يقابل بالفرنسية feutre . انظر : ملحق القواميس لدوزى: ٢/٥١٠ .

٦٧ — محمد بن زيادة الله بن محمد بن الأغلب بن إبراهيم ابن الأغلب، أبو العباس (١)

وَلِيَ لابن عمه إبراهيم بن أحمد بن محمد طرابلس ، فكان يشق عليه حسن سيرته ويكره ذلك . وكان عالماً أديباً شاعراً خطيباً ، مع عشرة لإخوانه ، ولين

---

(١) سيذكر ابن الأبار هنا وفى الفصلين التاليين نفراً من كبار بنى الأغلب الذين نسى زامباور ذكرهم فى جدول نسبهم (ص ١٠٥ من الترجمة العربية) . وقد رأيت لهذا أن أكمل هذا الجدول هنا :



جانب لأخدانه ، لا ينادم إلا أهل الأدب . وكان أبوه زيادة الله قد وَلِىَ إفريقية بعد أخيه أبى إبراهيم أحمد بن محمد ، وكان محمود السيرة ذا رأى ونجدة .

يُروى عن سليمان بن عمران القاضى أنه قال : « ماوَلِىَ لبنى الأغلب أعقلُ من زيادة الله الأصغر » ، سماه « الأصغر » لأنه سُمى باسم عم أبيه زيادة الله ابن إبراهيم المتقدم ذكره . وبعدها وَلِىَ زيادةُ الله بن عبد الله ثالثُهم ، وهو آخر ولاتهم .

ولم يزل إبراهيم بن أحمد يحقد على محمد هذا ما يؤثر عنه من جميل ، إلى أن قتله . وكان الذى هاجه لذلك وبعثه عليه — مع قِدم حسدِه له — أنه وجه رسولا إلى بغداد ، فكتب إليه يخبره أن بعض من سار إلى بغداد من أهل تونس شكوا إلى المعتضد صنع إبراهيم ، فقال المعتضد : « عجباً من إبراهيم ! مايبلُغنا عنه إلا سوء الثناء عليه ، وعاملُه على طرابلس يبلُغنا عنه خلافُ ذلك من رفقٍ بمن وَلِىَ عليه وإحسانٍ » ، فمضى إبراهيمُ قاصداً إلى طرابلس فقتله وصلبه بَغياً وحسداً ، وقتل أولاده وعاث فى أصاغرهم عَيْثَه المشهور ، حتى إنه شق جوف بعض نسائه عن جنينها جرأةً على الله تعالى ، وذلك سنةَ ثلاث وثمانين ومائتين .

[٥١ــب] وقرأتُ فى تاريخ أبى إسحاق إبراهيم بن القاسم المعروف بالرقيق / أن المعتضد كتب إلى إبراهيم من العراق : « إن لم تترك أخلاقَك فى سَفْك الدماء فأسْلِمِ البلادَ إلى ابن عمك محمد بن زيادة الله صاحِب طرابلس » ، فخرج إبراهيمُ إلى طرابلس فى خفيةٍ ، وأظهر أنه يريد الخروجَ إلى مصر ، حيلةً منه ، إلى أن ظفر به فقتله وصلبه . وكان بين خروجه ورجوعه خمسة عشر يوماً .

قال : وكان محمد هذا أديباً ظريفاً ، ألف كتاب « راحة القلب » وكتاب « الزهر » و « تاريخ بنى الأغلب » .

ومن شعره ما أنشده له أبو على حسين بن أبى سعيد القيروانى صاحب «الكتاب المُغرِب عن المَغْرب» :

ومما شجا قلبى بتُوزَرَ أننى تناءيتُ عن دار الأحبةِ والقَصْرِ
غريباً ، فليت اللهَ لم يخلُقِ النَّوى ولم يَجْرِ بَيْنٌ بيننَا آخِرَ الدهرِ

ومن بنى عمهم عبد الله بن محمد بن عبد الله بن الأغلب بن سالم ، أبو العباس . ويُعرف هو وأبوه محمد وعمُّه الأغلب بن عبد الله ، ببنى عبد الله . وجده عبد الله — الذين يعرفون به — هو أخو أبى إسحاق إبراهيم بن الأغلب .

وكان عمه الأغلب ممن أُنهض لحرب منصور بن نصر الطُّنْبُذِىِّ أيامَ زيادة الله ابن إبراهيم ، فجُنِّد له جُنده وانهزم .

ووَلِىَ محمد بن عبد الله لزيادة الله المذكور صقليةَ سنة سبع عشرة ومائتين ، وفتح بها فتوحات . وقد كان زيادة الله أغزاه إليها سنةَ أربع ومائتين — قبل فتحها على يد أسد بن الفرات بنحوٍ من ثمانى سنين — فسبى منها شيئاً كثيراً وانصرف .

ثم وَلِيَها ابنهُ عبد الله بن محمد هذا لأبى عبد الله محمد بن أحمد بن محمد ابن الأغلب بن إبراهيم بن الأغلب ، المعروف بأبى الغرانيق ، سنةَ تسع وخمسين ومائتين — وكان قد وَلِىَ قبل ذلك حينٍ أطرابلس — ثم وَلِيَها مرةً أخرى بعد ولاية صقلية [و] وَلِىَ أيضاً إمارةَ القيروان . وكان أديباً شاعراً ، طالباً للحديث والفقه . وهو القائل لما أتاه كتابُ عزْله عن طرابلس يخاطب أبا هارون موسى بن مرزوق صاحب بريدها ، وكان له صديقاً :

قد أتى فى الكتاب ما قد علمنا من تناء ورحلةٍ وفراقِ
وعددْنا الأيامَ فهىَ ثمانٍ بعد خمسٍ سريعة الإفتراقِ

[٥٢–ا] /فعليكَ السلامُ إنَّ فراقى قد دنا ، والفراقُ مر المذاقِ

* * *

ومن بنى أخى الأغلب بن سالم :

٦٨ – يعقوب بن المضاء بن سوادة بن سفيان ابن سالم بن عِقال التميمى

كان أبوه من أمراء بنى عمه الأغالبة ، ورغب يعقوب عن السلطان وولايته ، وانصرف إلى النسك ، ونَزَع السواد ، وأعرض عن الدنيا ومال إلى الآخرة . وله بنون ينسبون إليه فيقال لهم « اليعقوبية » . وهو الذى توجه إلى العباس محمد ابن الأغلب السكَوْسَج ، مع ابن عمه خفاجة بن سفيان بن سوادة ، فأصلحا بينه وبين أخيه أحمد القائم عليه وأشارا بتأمينه ، وقد تفاقم الخطب بينهما ، فقبل ذلك محمد فى حديث طويل ، ووصل إليه وعاتبه ، ثم أمره بالتوجُّه إلى المشرق ، فسار إلى العراق وبها مات . ويعقوب هو القائل :

فإن تَكُ لِمَّتى كُسِيتْ بياضاً وبُدِّل لى المشيبُ من الشبابِ
فقد عُمِّرتُ ذا فرعٍ أثيث كأن سوادَه حنكُ الغرابِ
فلا تعجلْ ، رويدك ، عن قريبٍ كأنك بالمشيب وبالِخضابِ

---

٦٩ – أحمد بن سفيان بن سَوَادة بن سفيان ابن سالم بن عِقال

وعقال هو ابن خفاجة بن عبد الله بن عبّاد بن محرث بن سعد بن حزام

ابن سعد بن مالك بن سعد بن زيدِ مَناة بن تميم . وسالم بن عقال هو جد الأغالبة ، وهو جد هؤلاء .

وَلِىَ أحمدُ هذا الزابَ ثم وَلِىَ طرابلسَ وأعمالَهَا سنين كثيرة ، وله بها أخبار وآثار ووقائع مشهورة . وكان من الجنود بمكان رفيع ، وهو أيضاً ممن قام بنصرة أبي العباس محمد بن الأغلب على أخيه أحمد ، مع أخيه خفاجة بن سفيان وابن عمهما يعقوب بن المضاء ، حتى ظفر به أبو العباس وانحفظ سلطانه . وكذلك قام أبوه سفيان بن سوادة بأمر زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب فى حروبه ، وكان سبب ثبات مُلكه . وفى أحمد بن سفيان هذا يقول بكر بن حماد التاهَرتى من قصيدة له :

/وقائلةٍ : زارَ الملوكَ فلم يُفِدْ فياليتَه زارَ ابنَ سُفيانَ أحمدَا [٥٢ ــ ب]
فتًى يُسْخِطُ المالَ الذى هو ربُّهُ ويُرضِى العوالى والحُسامَ المهنَّدَا

وكان خفاجة بن سفيان — أخو أحمد هذا — من رجالات بنى عمه الأغالبة ، وهو أكبر سنا منه وأجل حالا ، ووَلِىَ صقلية فأقام بها مدة ، ونُصر على الروم خله فيهم فتوحات شهيرة .

ومن شعر أحمد :

قَرِّبوا الأبلقَ إنى أعرفُ الخيلَ العتاقا
وعليها أصرع الأبـ طالَ طعناً واعتناقا
أخبط الأرواحَ والأنـ فُسَ بالرمح صِداقا
وأرَوِّى من نجيع الـ هامِ أسيافاً رِقاقا
تنقع الأعداء فى النَّقْ ع حميماً وغساقا
فإذا ما دارت السَّلْـ م بما نبغى وفاقا

وأزحْنا كلَّ ما كا ن شقاقاً ونفـــاقا
اصطبحناها سُــلافاً وشربنــاها اغتباقا
وأدرنا الـكاس بالرا حِ على الشَّربِ دِهاقا

وله أيضاً من قصيدة أخرى :

إنمـا الأبلقُ حِصْنى ثم رُمحى وحُســامى
فيـــه عزٌّ لِعَشِيرى وبه عنهم أُحامى
وبه أشفى من الأعـــداء صـــدرى بانتقامِ
أنا من سر نزار وابنُ ساداتٍ كرام
أنا من سعدِ تميمٍ لستُ من سعدِ جُذام
أنا من قد جالَ ذِكْرى وجـــرى بين الأنام
باحتمالى كل ثِقْـــلٍ فى الملمات العِظـــام
وسِدادى(١) كل ثغرٍ ثم حزمى وقيـــامى
أنجبتنى السادةُ الصِّيدُ ، همامٌ لهمام
[أغلبٌ قد كان](٢) جَدِّى ثم سفيانُ المحامى
أركبُ الهولَ بكرّاتى على الجيش اللُّهَام
[أخطف](٣) الأرواحَ كالصقرِ لأرواحِ الحَمام
تعرف الأسْرُ بأسى فهى من فوقى حوَام

(١) الأصل كلمة لم يبق منها إلا شىء مثل : طى ، وفى نسخة باريس جعلها الناسخ : . . ملى ، فجعلتها هكذا . والكلمة الأصلية لا تخرج على أى حال عن هذا المعنى .

(٢) بياض بالأصل ، أكملته على هذه الصورة للسياق .

(٣) هذه الكلمة ناقصة فى الأصل .

ميّزتْ فى الحرب راياتى وأرماحى الدوامى
فهى حولى عاكفات وهى خلفى وأمامى
ترقب الطعم الذى عوّ(م) دْتُها يومَ صدامى
أبداً تعرف منى هكذا فى كلِّ عام
فإذا ما آلت السِّلْمُ وصرنا للمُدام
أبصرتْ عيناك مِنا أنجُماً تحت الظلام
تلاقى ونُبَدِّى بتحيات السلام
ونُنِيلُ الزائرَ المعروفَ من قبل الكلام

* * *

/ ومن رجال الأغالبة : [١-٥٣]

٧٠ – مُجْبَر بن إبراهيم بن سفيان

كان من أهل الشرف والثروة ، وولاه إبراهيمُ بن أحمد الأرنُسَ وغيرَها ، وكان ينادمه لحذقه الغناء ، ثم أخرجه إلى صقلية وولاه العسكر الذى بمِسِّينى وأرضِ قَلُورَية بعد وقعة ميلاص[١] فخرج فى شينى يريد قلورية[٢] ، فأسرته الروم وحُمل إلى القسطنطينية فمات بها . وهو القائل فى أسره ، من قصيدة طويلة بعث بها من محبسه عند الروم ورواها فى أيام بنى الأغلب أكثر الناس :

(١) ميلاص هى Milazzo فرصة صغيرة على الساحل الشمالى لجزيرة صقلية ، وهى إلى الشرق من مسِّينى Messina

(٢) قلورية هى Calabria وهى شبه الجزيرة العربى البارز من جنوب شبه الجزيرة الإيطالية فى اتجاه صقلية .

ألا ليتَ شِعرى ما الذى فعل الدهرُ بإخواننا يا قَيْرَوَانُ ويا قَصْرُ
ونحن فإنّا طخطختنا[1] رَحَى النَّوَى فلم يجتمع شملٌ لنا [، لا] ولا وَفْرُ
رأينا وجوهَ الدهر وهْىَ عوابسٌ بأعيُنِ خطبٍ فى ملاحظها شَزْرُ

وآخر هذه القصيدة :

لعل الذى نجّى من الُجبِّ يوسُفاً وفرَّجَ عن أيوبَ إذْ مَسَّهُ الضُّرُّ
وخلَّصَ إبراهيم مِن نارِ قومِهِ وأعْلَى عصا موسى فذَلّ له السحرُ
يصبِّرُ أهلَ الأسْرِ فى طول أسرِهِمْ على مُعْضلاتِ الأسر ، لا سَلِمَ الأسرُ !

---

٧١ — أحمد بن محمد بن أحمد بن حمزة بن السبال

(بالباء ، بواحدة واللام) ويعرف حمزة بالحرون ، وقد تقدم ذكره . وابنه محمد بن حمزة هو الذى وجهه زيادة الله بن إبراهيم للقبض على منصور الطُّنْبُذِىّ بقصره بالمحمدية ، فكاده .[2] وقُتل محمد هذا فى وقعة سَبِيبَة[3] ، أيامَ خلاف منصورٍ والجند على زيادة الله .

---

(١) لم أجد فى معانى طخطخ مما يتمشى مع المعنى هنا إلا ما جاء فى لسان العرب (٤/٧) من أن المطخطخ هو الضعيف البصر ، وقد طخطخ الليل بصره إذا حجبه الظلمة عن انفساح النظر . والأوفق هنا طحطح بمعنى فرَّق وكَسر وبدَّد (اللسان : ٣/٣٦١). واللفظ مستعمل فى هذا المعنى فى العامية المصرية فى صورة ضحضح .

(٢) كان ذلك فى أول ثورة منصور بن نصر الطنبذى فى تونس . وقد روى ابن عذارى الخبر بالتفصيل ، وكيف احتال منصور على محمد هذا ومن معه — ومن بينهم القاضى شجرة ابن عيسى — وحبسهم ، حتى تمكن من تونس . وقد هزمهم هزيمة كبيرة ، وكان ذلك فى ٢٤ صفر ٢٠٩/٢٧ أبريل ٨٢٤ .

انظر : « البيان المغرب » : ١/٩٨ — ٩٩ .

(٣) كانت وقعة سبيبة فى ٢٠ محرم سنة ٢١٠/١٤ مايو ٨٢٥ ، وقد قتل فيها محمد هذا .

وكان أحمد بن محمد حاجباً لإبراهيم بن أحمد ومقدماً عنده ، قد فوّض إليه أمورَه . ووَلِىَ ابنُ عمه القَيْرَوان . وهو من بيت رئاسة وقيادة ، مع علم واسع وأدب بارع ؛ ومن شعره :

ليس كلُّ الذى يُدار علينا من أمورٍ يوافق المقدورا
قد قضى الله ما لَنا وعلينا قبلَ أن يُبرِمَ العدوُّ الأمورا

---

٧٢ ـ الحسن بن منصور بن نافع بن عبد الرحمن بن عامر ابن نافع / بن مِحمِيَّة المُسْلِىّ المَذْحِجِىّ ، أبو على [٥٢ - ب]

من بيت قيادة وإمارة ؛ وكان جدُّ أبيه عبد الرحمن بن عامر ، وابنُ عمه عامر ابن إسماعيل بن عامر بن نافع ، ممن قدم مع محمد بن الأشعث الخزاعى من قواد العباسية . وخرج عمه عامر بن نافع على زيادةِ الله بن إبراهيم بن الأغلب ؛ وسيأتى ذكره . وعامر بن إسماعيل هو الذى قتل مروان الجَعْدِىّ ، وكان مقدماً عند أبى العباس السفاح ومَن بعده لأجل ذلك .

وكان الحسن بن منصور هذا يجمع إلى شرف آبائه وأهل بيته علماً واسعاً وأدباً كاملا ، وأقل ماتصرف فيه الشعر . وكان بصيراً باللغة ، نافذاً فى النحو ، عالماً بأيام العرب وأخبارها ، ووقائعها وأشعارها . وهو القائل يرثى ابن عم له يُكنى أبا الفضل ، من قصيدة طويلة أولها :

حَلَّ أمرٌ لم يُغنِ فيه احتيال يَقْصُر الوصفُ دونَه والمقالُ
كان مِن قبلِه البكاء حراماً وهوَ مِن بَعدُ للعيون حلالُ

ومنها :

يا أبا الفضل حَمَّلْتَنى المنايا منك ما لا تقوى عليه الجمالُ
وكأنّى[1] لما تضمَّنكَ اللحـ ـدُ يمينٌ قد فارقتها الشمالُ

وله :

يا قاتلى ظُلماً ، ألم تخشَ ما جاء به التنزيلُ والآىُ ؟
وأَيْتَ بالوعدِ فما ضَرَّكُمْ لو صدقَ الميعادُ والوأىُ ؟[2]
نأيتَ عنى فتبدَّلْتَنى كذا لَعمرى يفعل النأىُ
فإن يكنْ هجرىَ مِن رأيكمْ فليس لى فى هجركم رأىُ

وله يخاطب ابن عمه أبا العرب بن عامر بن نافع :

يا مَن سما للمكرمات فحازَها وغدا وأصبح للسماح مليكاَ
إن الإلٰهَ بمَنِّه وبفضلِهِ جمعَ المكارمَ والمفاخرَ فيكا
أشبهتَ آباءً كراماً سادةً بيضَ الوجوه معظَّمين ملوكاَ
[٥٤-١] وَجِّهْ إلينا بالمُسَبَّجِ إننى تَفْدِيكَ نَفسى قد ضَمنتُ الديكاَ

ولهذه الأبيات قصة ذكرها صاحب « الكتاب المُعرب عن أبناء المغرب » .

(١) الأصل : وبأنى.
(٢) أصل الوأْى الوعد الذى يوثقه الرجل على نفسه ، ويعزم على الوفاء به (اللسان : ٢٠/٢٥٤) .

٧٣ – عبد الله بن الصائغ
(المعروف بصاحب البريد)

أحد ولاة زيادة الله بن عبد الله آخر ملوك بنى الأغلب وأصحابه المخصوصين بلطف المنزلة عنده ، وتغيَّر عليه آخراً فقتله بطرابلس عند انتقاض دولته وهربه إلى مصر أمام الشيعى فى سنة ست وتسعين ومائتين ؛ وقد تقدم من خبره ومن شعره ما أغنى عن إعادته . وهو القائل أيضاً :

رأيتُ دجْناً فقلت الراحُ أشبهُ بى ... فقُمْ بنا أيها المخمورُ نصطبحِ
فقام يمسح وجهاً كلُّه قمرٌ ... وقمتُ ألثمهُ مِن شدة الفرحِ

وله :

طالعتْنى طوالعُ الشوقِ لما ... أنْ بدا البدرُ فى مثالِ طلُوعكْ
يا غزالاً أقسى منَ الصخرِ قلباً ... ليتَ قلبى يبيتُ بين ضلوعكْ
أنا أرضَى أنْ أقبِّلَ نعليـ ... ـكَ على قُبحِ ما بدرَ من صنيعكْ

وله :

إذا قلتُ : زرنى ، قال : قالوا وشنَّعوا .. ... تُرى ـ هكذا ـ من كان فينا يُصَدَّقُ ؟
فيا كبدى رِقِّى على الكبد التى ... أقامت على عهد الهوى وهى تحرقُ
كأنى إذا ما الليلُ أرخى سدولَه ... بقلبى إلى بعض النجوم مُعلقُ

* * *

أول ملوك الشيعة الناجمين فى آخر هذه المائة :

٧٤ — عبيد الله الملقب بالمهدى ، أبو محمد

قال الرازى[١] : « اختلف الناس فى نسب عبيد الله . فقال قوم : هو عبيد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن البصرى من مدينة سَلَمْيَة . وزعم هو أنه عبيد الله ابن محمد بن إسماعيل بن جعفر بن محمد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب . قال : وأخبرنا الثقة عن أبى القاسم أحمد بن إسماعيل الرسى الحسنى أنه قال : ب] بالله الذى / لا إله إلا هو ، ما عبيد الله منا[٢] . ولا أقول هذا لما فعل ، فقد فعل مَن لا يُشَك فى نسبه أكثر من فعله وأشنع » .

وقال أبو بكر بن الطيب الباقِلّانى ، وذَكر عبيدَ الله وبنيه : هم أدعياء ، إذ هم بنو عبيد الله بن ميمون القَدّاح، ادّعوا إلى على بن أبى طالب ؛ وذَكر لهم قصة طويلة[٣] .

وأهل مصر يصححون نسبهم .

وذكر ابن أبى الطاهر[٤] فى « أخبار بغداد » أن اسم الخارج بالقَيْرَوان عبيد

---

(١) كلام الرازى عن العبيديين له أهمية خاصة هنا ، ولا نعرف إن كان القائل هنا أحمد بن محمد الرازى أو ابنه عيسى بن أحمد . وعلى أى حال فهو يصور لنا الآراء التى كان يتناقلها بنو أمية الأندلسيون وأنصارهم فى نسب العبيديين ، وهم خصومهم سياسياً ومذهبياً .

ويلاحظ أن الحكم المستنصر بن عبد الرحمن الناصر كان لا يستبعد صحة انتساب عبيد الله الشيعى إلى على بن أبى طالب ، فقد ساق ابن عذارى هذا النسب ثم قال : « وهو مذهب المستنصر بالله الأموى » . البيان المغرب : ١٥٨/١ .

(٢) نُسب مثل ذلك القول إلى أبى القاسم بن طباطبا العلوى ، قال : « والله الذى لا إله إلا هو ! ما عبيد الله الشيعى منا ، ولا بيننا وبينه نسب » . ابن عذارى ، البيان : ١٥٨/١ .

(٣) ذكر الباقلانى ذلك فى كتابه « كشف الأسرار وهتك الأستار » .

(٤) كذا ، والأصح ابن أبى طاهر ، وهو أبو الفضل أحمد بن أبى طاهر طيفور صاحب « تاريخ بغداد » المتوفى سنة ٢٨٠/٨٩٣ ، وكتابه هذا من أكبر المراجع التى اعتمد عليها الطبرى فى تاريخه .

الله بن عبد الله بن سالم ، مولى مُكرم بن سِندان الباهِلىّ صاحب شُرَط زياد المنسوب إليه عسكر مكرم ، فانتقل عبدُ الله بن سالم إلى سلمية . وكان وكيلا للتجار ، وقيل كان يبيع الصُّفْر ويتشيَّع . فلما خرج القرمَطىّ بالشام أضرّ به وطالبه ، فهرب إلى مصر ثم إلى المغرب ، وكان يُعرف بابن البصرى .

قال الرازى : ودخل معه — يعنى القيروان — ابنُه محمد المعروف بأبى القاسم (واختلفوا فى اسمه ونسبه ، فطائفة قالت : عبد الرحمن ابنُه ، وطائفة قالت : محمد ربيبُه) . ويقال إن عبيد الله من بنى حسن بن على ، وأن أبا القاسم القائم بعده من بنى الحسين بن على ، إسماعيلى تزوّج عبيدُ الله أمَّه وهى رومية تسمى « لعب » .

وقيل فى اسم أبى القاسم عبد الرحمن ومحمد كما تقدم ، وقيل حسن ويُكنى أبا جعفر . خرج به عبيدُ الله من الشام يتصدى للسلطان ، ويخاطر فى طلب المُلك قاصداً المغربَ ، وعبيدُ الله إذ ذاك شابٌّ عند كماله . وخرج معه خاصتُه وثقاتُ رجاله ، ولما انتهى إلى مصر أمَّل أن يقصد اليمنَ ، ثم كره ذلك فخرج من مصر فى زى التجار ، وخلص من يد عاملها فى قصة طويلة ، وانتهى إلى سَجِلْمَاسَة(١) فدانَ له المغرب واجتمعت عليه البربرُ . وزحف داعيتُه أبو عبد الله الشيعى بهم إلى زيادة الله الأغلبى فكسر جيشَه فى سنة ست وتسعين ومائتين — حسبما ذُكر قبل — فهرب زيادةُ الله إلى مصر . وبويع لعبيد الله برَقّادة يومَ الجمعة لتسع بقين من شهر ربيع الآخر سنة سبع وتسعين ، وكان وصولُه إليها يومَ الخميس قبلَه ، ودُعى له بالإمامة .

وفى هذه السنة انقرض مُلك بنى الأغلب بعد مائة سنة واثنتى عشرة سنة ،

---

(١) كذا فى الأصل بفتح السين الأولى ، والمتهور بكسرها ، وسنتركها بضبط المخطوط فيما يلى من النص .

[٥٥-ا] ومُلك بنى مدْرار بسَجِلْمَاسَة بعد مائة سنة وستين سنة ، ومُلك / بنى رُسْتُم بتاهَرْت عن مائة وثلاثين سنة .

وكثرت السعايات بأبى عبد الله الشيعى — وهو الذى مهَّد لمُلك عبيد الله وشدّ سلطانه مجالداً ومجادلا — فقتَلَه وأخاه أبا العباس يومَ الثـلاثاء مُستهلَّ ذى الحجة سنة ثمان وتسعين ، وأمر بدفنهما فى بستان القصر .

ثم ابتدأ بناء « المهدية » يومَ السبت لخمس خلون من ذى القعدة سنة ثلاث وثلثمائة ، وارتاد مواضعها ؛ وقصد التحصين بها على أهل بيته لما كانوا يتحدثون به من ظهور أبى يزيد الخارج عليهم وعَيْثه فى مُلكهم ، فكان ذلك . وفى بنائها يقول بعض شعراء إفريقية :

خُطَّت بأرجاء المغاربِ دارُ دانتْ لها الأمصارُ والأقطارُ
لانتْ ببَرْدِ الماء لما أيقنتْ أنَّ القلوبَ على الحُسين حِرَارُ

وكان انتقالُ عبيدِ الله إليها فى شوال سنة ثمان وثلاثمائة ، بعد أن مَلك إفريقيةَ وأعمالَ المغربِ وطرابلسَ وبرقةَ وصقليةَ .

وسيَّر ولىَّ عهده أبا القاسم إلى مصر دفعتين : الأولى فى سنة إحدى وثلاثمائة ، فملك الإسكندريةَ والفيومَ وجبى خراجَهما وخراجَ بعض أعمال الصعيد ، وعاد إلى المغرب فى سنة اثنتين وثلاثمائة ؛ والثانية سنة ست وثلاثمائة ، فملك الإسكندريةَ أيضاً .

ولم يزل سلطانُه يتمهّد ، وظهورُه يتزيَّد ، إلى أن توفى منتصفَ شهر ربيع الأول سنة اثنتين وعشرين وثلاثمائة . فكانت ولايتُه — منذ وصل إلى رَقّادة وبويع بها ، إلى يوم وفاته — أربعاً وعشرين سنة وشهراً وعشرين يوماً . وقيل : كانت خلافته — من يوم ظهوره بسَجِلْمَاسَة فى أول ذى الحجة سنة ست وتسعين

ومائتين وفيها سُلِّم عليه بالخلافة ، إلى يوم وفاته بالمهدية — خمساً وعشرين سنة وثلاثة أشهر وثلاثة أيام ، وهو ابن اثنتين و ستين سنة . مولده سَلَمْيَة — وقيل ببغداد — سنة ستين ومائتين . ومولد أبي القاسم ابنه سنة تسع وسبعين ، وقيل سنة ثمانين .

وكان ، مع نجدته وشهامته ، مفوّهاً فصيحاً عالماً أديباً . قال أبو عبيد البكري : لما تغلب عبيدُ الله الشيعي ، كتب إلى أهل المغرب يدعوهم إلى الدخول في طاعته والتدرُّ بإمامته ، وكتب بمثل ذلك إلى سعيد بن صالح(1) ، وكان والياً على نَكُور(2) وما إليها من أعمال المغرب / لبني مروان ؛ وكتب في أسفل [٥٥ — ب] كتابه أبياتاً كثيرة ، منها :

---

(١) راجع عن تاريخ سعيد بن صالح هذا ونسبه وتاريخ بني صالح أمراء نكور البيان المغرب لابن عذارى : ١/١٧٦ — ١٨١ .

(٢) نكور مدينة كانت في شمال المغرب على نحو عشرة كيلومترات جنوب الحُسَيمة الحالية إلى الشرق يسيراً ، ولم يبق من آثارها اليوم إلا أطلال قليلة ، وهي واقعة في إقليم صنهاجة الريف على السفح الشمالي لجبال الريف . وقد أسسها سعيد بن إدريس بن صالح بن منصور في أواخر القرن الهجري الأول . وفي سنة ٢٤٤/٨٥٨ — ٨٥٩ نزل بها النرمان — الذين تسميهم النصوص المجوس — وانتهبوا ما فيها . وفي سنة ٤٧٣/١٠٨٠ —١٠٨١ خربها يوسف بن تاسفين . وقد أجريت بها حفريات سنة ١٩٥٩ .

انظر : أحمد المكناسي : « المدن المندرسة في شمال المغرب » .

وكتب المكناسي كذلك بحثاً قصيراً عن أطلالها وما قام به من الحفائر فيها في سنة ١٩٥٩ ، ونشر نتيجة بحثه في دراسة في مجلة تمودة تحت عنوان :

Reconocimientos Arqueológicos en el Rif, Tamuda, ano VII, Tetuán 1959, fasc. I, II, p. 156-168 .

وانظر : خريطة المغرب الأركيولوجيه ، لنفس المؤلف (تطوان ١٩٦١) ص ٢٤ . وقد تحدث عنها البكري والإدريسي ، انظر فهرس الأعلام في كل منهما .

فإن تستقيموا أستقمْ لصلاحكمْ ... وإن تعدلوا عنى أرى قتلكم عدلاَ
وأعلو بسيفى قاهراً لسيوفكمْ ... وأدخلها عفواً وأملؤها عدلاَ

قال : فأجابه رجل من شعراء الأندلس من أهل طُلَيْطِلَة يعرف بالأخْمَش ، أمره سعيد بن صالح بذلك :

كذبتَ ، وبيتِ اللهِ ، لا تُحسنُ العدلا ... ولا علم الرحمٰن من قولك الفصلا
وما أنت إلا جاهــل ومنافقٌ ... تَمَثَّلُ للجهال فى السُّنة المثلَى
وهمَّتنا العليا لدينِ محمدٍ ... وقد جعل الرحمٰن همتَك السفلى(١)

وكان عبيد الله إذا رأى ابنَه أبا القاسم ونظر إليه فَسُرَّ به يقول :

مباركُ الطلعةِ ميمونُها ... يصلح للدنيا وللدينِ

— —

٧٥ – أبو عبد الله الشيعى
داعية عبيد الله المهدى

كان — مع قَوْده الجيوشَ وخوضِه الحروبَ — عالماً أديباً شاعراً . وهو الذى حاربَ جيش زيادة الله بن الأغلب وهزمه ، نائباً عن عبيد الله وناصراً لمذهبه وداعياً إلى دعوته . وزحف إلى القيروان ونازلها ، وبها جمهور أجناد إفريقية ، فدخلها واستولى على رَقّادة — دارِ مُلك الأغالبة حينئذ — وعلى أعمال إفريقية .

---

(١) روى ابن عذارى فى البيان المغرب (١٧٨/١) هذه الأبيات مع خلاف فى الألفاظ . وقد ورد لفظ الجلالة الوارد فى البيت الأول : الإله ، ولا يستقيم به الوزن ، فصوبناه على رواية البيان المغرب .

وقدم عبيدُ الله بعد ذلك من سَجِلْمَاسَة ، فبويع له وقَوِىَ أمرُه واشتد سلطانُه ، ولم يلبث أن قتله وأخاه أبا العباس — وكان أكبرَ منه ، كما تقدم وصفُ ذلك — تولَّى قتلَهما عَرُوبة الكُتامِى[1] ، ثم قُتل عَرُوبة هذا منافقاً واستؤصل أهلُ بيته فى أيام عبيد الله . وأبو عبد الله الشيعى هو القائل بعدَ إيقاعه بجيش بنى الأغلب :

من كان مغتبطاً بلينِ حشيةٍ ... فَحَشِيَّتى وأريكتى سَرْجِى
من كانَ يعجبه ويبهجه ... نقرُ الدفوفِ ورنة الصَّنْجِ
فأنا الذى لا شىء يُعجبنى[2] ... إلا اقتحامى لجــة الرَّهْجِ
/سلْ عن خميسى إذ طلعتُ به ... يوم الخميس ضحًى على الفَجِّ [٥٦-١]

البيت الأول من هذه القطعة كقول امرئ القيس :

يارُبَّ غانيةٍ صَرَمْتُ حبالَها ... ومَشيتُ متئداً على رِسْلِى

وأبيات القصيدة كلها على خلاف ذلك . وكقول الآخر ، ويستشهد به العروضيون :

---

(١) هو عروبة بن يوسف الملوسى الكتامى ، كان من رجال أبى عبد الله الشيعى واشترك معه فى معظم غزواته ، ولكنه كان يحسده ويحسد أخاه أبا العباس المخطوم ، فظل يسعى بهما ، مع نفر آخر من رجال كتامة حتى حفزا عبيد الله على قتلهما . وقد اشترك فى قتلهما مع عروبة جبر بن نُمَاسِب الميلى . ولم يقدم عبيد الله على قتلهما إلا بعد أن تخلص من نصيرهما الأكبر بين شيوخ كتامة وهو أبوزاك تمام بن معارك الأجانى : أمر واليه على طرابلس فتله .

(٢) الأصل : «فأنا الذى يعجبه ولا شىء يعجبنى» مع إشارة فوق «يعجبه» فهمت منها بعد لأى أنها مشطوبة ، وكذلك الواو التى تليها .

لِمَنِ الديارُ بِرَامَتَيْنِ فَعَاقِلٍ   دَرَسَتْ وغَيَّرَ آيَها القَطْرُ

وهي من الضرب الأحذِّ(١) المضْمَر من ضروب العروض الأول من أعاريض الكامل، وعكسه وهو من الشاذ :

ولَنِعْمَ حَشْوُ الدِّرْعِ أنتَ إذا   نَهِلَتْ مِنَ العَلَقِ الرماحُ وعَلَّتِ

(١) انظر ما كتبه عن هذا الضرب ابن عبد ربه في العقد الفريد (ط . مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — القاهرة سنة ١٩٤٦) الجزء الخامس ص ٤٥٣ — ٤٥٥

المائة الرابعة

٧٦ — عبد الرحمن بن محمد الناصر لدين الله ، أبو المُطَرِّف

هو عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان ، أعظم بنى أمية بالمغرب سلطاناً ، وأفخمهم فى القديم والحديث شاناً ، وأطولهم فى الخلافة — بل أطول ملوك الإسلام قبله — مدة وزماناً .

وَلِىَ بقُرْطُبة يومَ الخميس مستهلَّ شهر ربيع الأول سنة ثلاثمائة ، عند وفاة جده الأمير عبد الله بن محمد ، وتوفى فى ليلة الأربعاء لليلتين خلتا من شهر رمضان سنة خمسين وثلاثمائة ، فكانت خلافته خمسين سنة وستة أشهر وثلاثة أيام ، لم يبلغها خليفة قبله . وقارب أن يلحق فيها شأوَه القادرُ بالله أبو العباس أحمد بن إسحاق بن المقتدر ، المجتمع عليه بالمشرق فى آخر هذه المائة الرابعة ، فإنه بلغ فى الخلافة ثلاثاً وأربعين سنة — وقيل أقل — ثم ابنُه القائم بالله أبو جعفر عبد الله بن أحمد القادر ، بلغ فى ولايته أربعاً وأربعين سنة وثمانية أشهر وأياماً . ومن هؤلاء العباسيين المتأخرين أبو العباس أحمد الناصر لدين الله بن المستضىء

بالله أبي محمد الحسن ، بلغ فى ولايته سبعاً وأربعين سنة ، وبويع له فى [ذى] القعدة سنة خمس وسبعين وخمسمائة[1] .

وقرأت فى كتاب أبى الحسين بن أبى السرور الروحى الإسكندرى فى أخبار ملوك العُبيدية[2] / أن المستنصر بالله أبا تميم مَعَدَّ بنَ على بن الظاهر بن الحاكم [٥٦ – ب] بلغ فى ولايته بمصر ستين سنة وأشهراً ، فأربى على هؤلاء الخلفاء .

وتَسَمَّى الناصرُ عبدُ الرحمن بن محمد بأمير المؤمنين بعد سنين من خلافته ، لما ضَعُف سلطانُ العباسية بالمشرق ، وغلبت عليهم الأتراكُ ، وادعت الشيعةُ ماشاءت بإفريقية ، وساعدتهم عليه قبائلُ البربر وأصبح الناس فى الآفاق فوضى ؛ وكان مَن قَبْلَه من آبائه يُدعون بالأمراء .

وظَهرَ لأول ولايته مِن يُمن طائره ، وسعادة جده ، واتساع ملكه ، وقوة سلطانه ، وإقبال دولته ، وخمود نار الفتنة — على اضطرامها بكل جهة —

---

(١) إليك تواريخ حكم أولئك العباسيين الثلاثة الذين يكادون يضاهون عبد الرحمن الناصر فى طول المدة :

أبو العباس أحمد القادر بالله بن إسحاق المقتدر : ١٩ رجب ٣٨١ – ١٠ ذى الحجة ٤٢٢ .

أبو جعفر عبد الله القائم بأمر الله بن القادر : ١١ ذى حجة ٤٢٢ – ١٣ شعبان ٤٦٧ .

أبو العباس أحمد الناصر لدين الله بن المستضىء : ٢ ذى قعدة ٥٧٥ – ٣٠ رمضان ٦٢٢ .

(٢) كذا ورد اسم الكتاب ومؤلفه ، ولم أعثر على ما يزيدنا معرفة بهذا المؤلف وكتابه . ولدينا فى تاريخ الفاطميين بهذا الاسم كتاب « أخبار ملوك بنى عبيد وسيرتهم » لأبى الحسن على بن حماد الصنهاجى المتوفى عام ١٢٣١/٦٢٨ ، وله كتاب آخر هو « النبذ المحتاجة فى أخبار صنهاجة » . وقد نشر ڤوندرهايدن كتاب أبى الحسن على بن حمادُه فى أحبار العبديين سنة ١٩٢٧ فى باريس مع ترجمة فرنسية ، وأخطأ فجعل اسمه ابن حَماد . ولا ينبغى الخلط بين هذا المؤلف وأبى عبد الله محمد بن حمادُه البرنسى السبتى ، وهو من أهل القرن السادس الهجرى ، ومن تلاميذ القاضى عياض ، وله كتاب « المقتبس فى مفاخر المغرب والأندلس » .

انظر مقال ليڤى پروڤنسال : نص جديد عن فتح العرب للمغرب لعبيد الله بن صالح بن عبدالحليم . صحيفة معهد الدراسات الإسلامية فى مدريد ، مجلد ٢ سنة ١٩٥٤ ، ص ٢٠٥ .

وانقياد العصاة لطاعته ، ما تعجز عن تصوره الأوهام ، وتكلّ في تحبيره الأقلام . وقيض له من ابنه وولى عهده الحكَم المستنصر بالله ، المدعو بأمير المؤمنين بَعدَه ، من زان مُلكه ، وزاد في أبهته ، وقام بأمره أحسن قيام ؛ فكمل جلالُه ، وجل كمالُه .

وكان الناصرُ — على علاء جانبه واستيلاء هيبته — يرتاح للشعر وينبسط إلى أهله ، ويراجع من خاطبه به من خاصته .

قال أبو عمر أحمد بن محمد بن فرج صاحب « كتاب الحدائق » : حدثني أبو بكر إسماعيل بن بدر[1] ، أنه خاطب أمير المؤمنين الناصر لدين الله عبد الرحمن بن محمد ، رحمه الله ، في غزاة كان آلى ألا يأنس فيها بمنادمة أحد حتى يفتتح معقلا ، فافتتح معقلا بعد آخر ، وتمادى على عزمه في العزوف عن المنادمة ، فذكر أنه كتب إليه :

لقد حلَّتْ حُمَيَّا الراحِ عِندى وطابتْ بعدَ فتحك معقلينِ
وآذنَ كلُّ همٍّ بانفراجٍ وأن يقضى غريمٌ كلَّ دَينِ

قال : فلم يحركه ما خاطبتُه به ، فعاودته بالمخاطبة فقلت :

يا مَلِكاً رأيُه ضياءٌ في كلِّ خطبٍ ألمَّ داجِ
مَن لى بيومٍ به فراغٌ ليس أخو حَرْبِه بناجِ

(١) ذكره ابن الفرضي (رقم ٢١٤ جـ ١ ص ٦٢) : إسماعيل بن بدر بن إسماعيل بن زياد مولى نعمةٍ لبنى أمية . من أهل قرطبة ، يكنى أبا بكر . وبعد أن ذكر شيوخه قال : إلا أن صناعة الشعر غلبت عليه وطارت باسمه وكانت ألصق به . وطال عمره إلى أن سمع بعض الناس منه وتسهلوا فيه . وولى أحكام السوق ، فحمد أمرُه فيها ، وتوفى في أول ولاية المستنصر بالله سنة ٣٥١ .

وذكره أيضاً الضبى (رقم ٥٤٣ ص ٢١٥) وقال إنه كان أثيراً عند عبد الرحمن الناصر ، ثم أورد له بضعة أبيات رواها له أبو محمد على بن أحمد بن حزم .

بكل بيضاء مَن رآها يحسِبُها شعلةَ السراجِ
لا تنس مولاك فى وغاه واذكره فى حومة الهياجِ

[٥٧-١] / فذكر أنه جاوبه بقوله :

كيف وأنَّى لمن يناجى من لوعة الهم ما أناجى
يطمع أن يستريحَ وقتاً أو يقتلَ الراحَ بالمِزاج ؟
لو حُمِّل الصخرُ بعض شَجْوِى عاد إلى رقّة الزجاجِ
كنت لما قد عَلِمتَ الهوَ لَ إذْ أنا مما شكوتُ ناجِ
فصرتُ البيْن فى علاجِ طَمَّ وأربَى على العلاجِ
الوردُ مما يهيج حُزنى ويبعث السوسنُ اهتياجى
أرى ليالى بعدَ حُسْنٍ أقبحَ من أوجهٍ سماجِ
لا ترْجُ مما أردتَ شيئاً أو يؤذن الهمُّ بانفراجِ

---

٧٧ — ابنه الحكم بن عبد الرحمن المستنصر بالله ، أبو العاصى .

وَلِىَ بعده الخلافة وهو ابن سبع وأربعين سنة — وقيل ابن ثمان وأربعين سنة — وشهرين ويومين ، وذلك يوم الخميس لثلاث خلون من رمضان سنة خمسين وثلاثمائة ، وتوفى لليلتين خلتا من صفر سنة ست وستين ، فكانت خلافته خمس عشرة سنة وخمسة أشهر وثلاثة أيام ؛ استغرقت خلافةُ أبيه الطويلة عمرَه ، حتى كان يقول له فيما يُحكى عنه : « لقد طوّلنا عليك يا أبا العاصى ! »

وكان حسن السيرة فاضلا عادلا مشغوفا بالعلوم ، حريصاً على اقتناء دواوينها ، يبعث فيها إلى الأقطار والبلدان ، ويبذل فى أعلاقها ودفاترها أنفس

الأثمان . ونَفَق ذلك لديه ، فحُملت من كل جهة إليه ، والملك سوقٌ ، ما نفق فيها جُلب إليها ، حتى غصَّت بها بيوتُه ، وضاقت عنها خزائنه .

قال ابن حيّان عند ذِكر الحكم : كان من أهل الدين والعلم ، راغباً فى جمع العلوم الشرعية من الفقه والحديث وفنون العلم ، باحثاً عن الأنساب ، حريصاً على تأليف قبائل العرب وإلحاق من درسَ نسبُه أو جَهِلَه بقبيلته التى هو منها ، مستجلباً للعلماء ورُواة / الحديث من جميع الآفاق ، يشاهد مجالس العلماء ويسمع [٥٧ - ب] منهم ويروى عنهم .

وكان أخوه عبدالله — المعروف بالولد[١] — على مثل هذه الحال من المحبة فى العلم والعلماء والرواية ، وتوفى فى حياة أبيه مقتولا فتُصُيِّرَتْ كتبُه إلى أخيه الحكم .

ولم يُسمع فى الإسلام بخليفة بلغ مبلغ الحكم فى اقتناء الكتب والدواوين وإيثارها والتهمُّم بها . أفاء على العلم ، ونوَّه بأهله ، ورغَّب الناسَ فى طلبه ، ووصلت عطاياه وصلاته إلى فقهاء الأمصار النائية عنه ، ومنهم أبو إسحاق محمد ابن القاسم بن شعبان[٢] بمصر ، وأبو عمر محمد بن يوسف بن يعقوب الكندى وغيرهما ؛ جرى ذِكر هذا فى كُتب تواريخهم .

وبعث إلى أبى الفرج الأصبهانى القرشى المروانى ألف دينار عيناً ذهباً ، وخاطبه يلتمس منه نسخة من كتابه الذى ألفه فى الأغانى ، وما لأحد مثله ،

---

(١) الولد هنا مصطلح أندلسى لا يطلق إلا على الأمراء ، وكثيراً ما يختص به ولى العهد .

(٢) كبير فقهاء المالكية فى مصر فى أواخر العصر الإخشيدى ، وأصله أندلسى من قرطبة ، وقد أرسل إليه عبد الرحمن الناصر عشرة آلاف دينار ليفرقها فى شيوخ المالكية ، فأحرج الإخشيد مثلها (كما يقول ابن الزيات فى الكواكب السيارة) ليفرقها فى شيوخ الشافعية . وكان يرجو الله أن يميته قبل دخول الفاطميين مصر ، فمات قبل ذلك بثلاث سنوات .

ووصَل بذلك المال رَحِمَه ، إذ كان قسيمَه فى المروانية ، ومن ولد مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين بالمشرق ، فأرسل إليه منه نسخة حسنة منقحة قبل أن يظهر الكتاب لأهل العراق ، أو ينسخه أحد منهم .

وألف له أيضاً أنسابَ قومه بنى أمية موشحةً بمناقبهم وأسماء رجالهم ، فأحسن فيه جدا ، وخلد لهم مجداً . وأرسل به إلى قرطبة وأنفذ معه قصيدة حسنة من شعره — وكان محسناً — يمدحه بها ويذكر مجد قومه بنى أمية وفخرهم على سائر قريش ، فجدَّد له عليه الصلةَ الجزيلةَ .

وكان له ورّاقون بأقطار البلاد ينتخبون له غرائب التواليف ، ورجالٌ يوجههم إلى الآفاق عنها[1] . ومن ورّاقيه ببغداد محمد بن طَرْخان ، ومن أهل المشرق والأندلس جماعةٌ . وكان مع هذا كثيرَ التهمُّم بكتبه والتصحيح لها والمطالعة لفوائدها ، وقلما تجد له كتاباً كان فى خزانته إلا وله فيه قراءة ونظر من أى فن كان من فنون العلم : يقرؤه ويكتب فيه بخطه — إما فى أوله أو آخره أو فى تضاعيفه — نَسَبَ المؤلف ومولدَه ووفاتَه والتعريفَ به ، ويذكر أنسابَ الرواة له ، ويأتى من ذلك بغرائب لا تكاد توجد إلا عنده ، لكثرة مطالعته وعنايته بهذا الفن . وكان موثوقاً به مأموناً عليه . صار كلُّ ما كتبه حجة عند شيوخ الأندلسيين وأئمتهم ، ينقلونه من خطه ويحاضرون به .

[٥٨-١] قلت : وقد/اجتمع لى من ذلك جزء مفيد مما وُجد بخطه ، ووجدتُ أنه يشتمل على فوائد جمة فى أنواع شتى .

قال[2] : وكان قد قيَّد كثيراً من أنساب أهل بلده ، وكلف أهلَ كُوَر الأندلس أن يُلحِقوا كلَّ عربى أخْمِلَ ذِكْرُه قبل ولايته ، وأن يصحِّح

(١) هنا يحسن أن نقرأ : باحثين عنها .

(٢) يستمر ابن الأبار فى الرواية عن ابن حيان .

نسبَهم أهلُ المعرفة بذلك ، ويؤلِّف من الكتب[1] ، ويَرُدّ كل ذى نسب إلى نسبه ، وفرج ذلك بالعلم فتم له من ذلك ما أراد ، ونفع الله بكرم قصده البلاد والعباد .

وقال أبو محمد بن حزم فى « كتاب جمهرة الأنساب » من تأليفه ؛ وذَكر الحَكمَ : اتصلت ولايته خمسة عشر عاماً فى هدوء وعلو . وكان رفيقاً بالرعية ، محبًّا فى العلم ، ملأ الأندلسَ بجميع كتب العلوم . وأخبرنى « تليد »[2] الفتى — وكان على خزانة العلوم بقصر بنى مروان بالأندلس — أن عدد الفهارس التى كانت [فيها] تسمية الكتب أربع وأربعون فهرسة ، فى كل فهرسة خمسون ورقة ، ليس فيها إلا ذكر أسماء الدواوين فقط .

قال : ولم يعقب إلا هشاماً الوالى بعده ، وقد انقرض ولا عقب له ولا لأبيه[3] .

وذكر الُحمَيْدِىّ فى تاريخه أن الحكم رام قطع الخمر من الأندلس ، فأمر بإراقتها وتشدد فى ذلك ، وشاور فى استئصال شجرة العنب من جميع أعماله ، فقيل إنهم يعملونها من التين وغيره ، فتوقف عن ذلك .

ومن شعره :

عجبتُ ، وقد ودعتها ، كيف لم أمُتْ ... وكيف انثنتْ عند الفراقِ يدى معى

فيامقلتى العَبْرَى عليها اسكُبى دماً ... ويا كبدى الحَرَّى عليها تقطَّعى

(١) هذه الجملة قلقة بعض الشيء .

(٢) فى جمهرة الأنساب لابن حزم (تحقيق ليفى بروفنسال) : تَلِيد الفتى (ص ٩٢) وهذه العبارة كلها واردة عنده .

(٣) عبارة ابن حزم (الجمهرة ص ٩٢) : فأما الحكم المستنصر فلم يعقب إلا هشاماً الوالى بعده ، ولى الأمر وهو ابن أحد عشر عاماً . وكان متغلَّباً عليه ، لا أمر له ولا نهى ، تلقب بالمؤيد ، وخُلع المرة بعد المرة ، وقد انقرض ، ولا عقب له .

وكان الحكم قد أنجب قبل هشام غلاماً سماه عبد الرحمن ولد سنة ٩٦٢/٣٥١ ، ومات طفلا .

قال ابنُ حيّان : وعلى إطباقِ أهلِ وقته فى نَزارة جَنَى أدبه ، فقد أنشدنى الفقيه أبو على الحسن بن أيوب الحداد[1] له بيتى شعر ارتجلهما يوم ودّعته حظيتُه أم هشام ، لما خرج لغزوته الفذة المعروفة بشَنْتِ اشتيبَنْ[2] ، فأكثرت من التعلق به والوَلَهِ لفراقه ، وكان شديد الكلف بها ، وذكر البيتين . قلت : وقد قرأتُ فى ما يُروى لِمِهْيار الدَّيْلَمِيّ :

ومن عجبٍ أنى أحنُّ إليهمُ وأسألُ شوقاً عنهمُ ، وهمُ معى

وتبكى دماً عينى ، وهمْ فى سوادها ويشكو الهوى قلبى ، وهم بين أضلُعى

[٥٨ - ب] /فيامُقلتى العَبْرَى أفيضى عليهمُ ويا كبدى الحرّى عليهمْ تقطَّعى

فلا أدرى : أوافقَ الحكمَ فى بيته الأخير أم سرقه وغيَّره كما ترى ؟

وقال أبو الطاهر محمد بن يوسف التميمى (المعروف بالاشتركونى[3] ، صاحب

---

(١) ذكره ابن بشكوال فى « صلته » (رقم ٣٠٦ ج ١/١٣٦ - ١٣٧) : الحسن ابن أيوب بن محمد بن أيوب الأنصارى ، من أهل قرطبة ، يكنى أبا على ، ويعرف بالحداد . وبعد أن ذكر شيوخه قال : وجمع مسائله فى أربعة أجزاء . روى عنه جماعة من كبار العلماء منهم أبوعمر بن مهدى ، وقال : كان من أهل العلم بالمسائل والحديث ، مقدماً فى السورى على جميع أصحابه لسنه ، راوية للحديث واللغات ، وافر الحظ من الأدب ، حسن الشعر فى الزهد والرثاء وشِبْهه ، ذا دين وفضل . ولد فى المحرم سنة ٣٣٨ ، وتوفى ودفن ضحوة يوم السبت خلف باب القنطرة فى رمضان سنة ٤٢٥ .

(٢) رسم الاسم هنا دقيق ، لأنه بالإفرنجية San Estéban ، وفى إسبانيا أكثر من موضع بهذا الاسم ، ولكن المراد هنا San Estéban del Mall قريه صغيرة فى مديرية وسقة Huesca تابعة لمركز Benavarre . وكانت غزوة شنت اشتبين سنة ٣٥٢/ ٩٦٣ ولم يكن هشام قد ولد بعد . وأم هشام المذكورة هنا هى صبح البشكنسية .

(٣) ترجم له ابن بشكوال فى الصلة (رقم ١١٧٥ ج ٢ ص ٥٣٩) ولم يذكر نسبته هذه ، وإنما اكتفى بقوله : محمد بن يوسف بن عبد الله التميمى من أهل سرقسطة ، سكن قرطبة ، يكنى أبا الطاهر . وبعد أن ذكر شيوخه قال : وكان مقدماً فى اللغة والعربية ، شاعراً محسناً ، =

« المقامات اللزومية » ، فى ما جمع من شعر أبى بكر بن عمار وزير بنى عباد) :
« ومما ينسب إليه . . . » ، وذكر البيتين :

* « ومن عجبى أنى أحن إليهم » *

والذى بعده ، لم يزد عليهما .

وقرأت فى « كتاب الحدائق » لابن فرج قوله — بعد إيراده جملة من أشعار الخلفاء الأموية — : « وهم يجلُّون عن الشعر أقدارهم ، كما يرتفعون عن أن يُرَوَى عنهم أو يُؤخذ من أقوالهم ، وإنما ينبسطون به فى سرائرهم فليس يظهر عليهم منه إلا الشاذ القليل ؛ ولعل ما سقط عنا أفضل مما سقط إلينا . فأما أمير المؤمنين المستنصر بالله — أطال الله بقاءه — فهو فوق أن يعلِن به أو ينشر اسمَه عليه ، ولعل له منه ما لا نعرفه ، فأما الأدوات التى يقال بها ، بل التى يحتاج كل علم إليها ، فهى معه بأزيد مما كانت لأحد قبله أو تكون لأحد بعده » .

وهذا الذى قال غيرُ مسلَّم له ولا مقبول منه ، بل إكثار الملوك من الشعر دالٌّ على قوة عارضتهم وسعة ذرعهم ، وحاكم بمَعَانة مادتهم وتمكن تصرفهم ، ولولا ذلك لما فضل ابن المعتز أهل بيته بالإبداع فى أنواع القريض ، وكذلك تميم بن المعز المتقيِّل أثرَه فى الإكثار ، والإتيان بما قيِّد وخلِّد من بدائع الأشعار . ولا أبلغ من الاحتجاج ، وأقطع للخصم المتناهى للجاج ، مما هو عليه مولانا من تحبير الغرائب ، وتسيير الكلم الغر أثناء المشارق والمغارب ، وهو البرهان على رحب المجال ، وتحصيل أسباب الفضل وأشتات الكمال ، لا زال سلطانه يُبْخَع له بالطاعة ويُدَان ، وزمانُه يُشرِق بمحاسنه الباهرة ويزدان .

= وله مقامات من تأليفه أخذت عنه واستحسنت . توفى فى قرطبه فى جمادى الأولى من سنة ٥٣٨ .
واستركونة Estercuel وتكتب أيضاً استرقونة ، مدينة فى مديرية تيروال Teruel فى إسبانيا . وتبعد عن العاصمة بمائة وعشرين كيلومتراً ، وهى تابعة لمركز Aliaga الإدارى .
وهى مرتفعة تقوم على سفح جبل سانتاآنا Pena de Santa Ana

٧٨ — عبد الله بن عبد الرحمن الناصر ، أبو محمد

قتله أبوه عبد الرحمن لمنافسته أخاه الحكم وليّ عهده ؛ وكان من نجباء أولاد الخلفاء ، محبا فى العلم والعلماء ، سمع من جملة منهم ، وحدث فى اللف عنهم . وله تواليف تدل على علمه وفهمه ، وتشهد بشرف ذاته وكمال أدواته ، منها « كتاب العليل والقتيل فى أخبار وَلَدِ العباس » انتهى به إلى خلافة الراضى / [٥٩ — ا]
ابن المقتدر ؛ ومنها « المسكتة فى فضائل بَقِيّ بن مَخْلَد » . قال أبو محمد بن حزم : كان فقيها شافعيا شاعراً أخباريا متنسكاً ؛ ومن شعره :

أما فؤادى فـكاتمٌ ألمَهْ ... لو لم يَبُحْ ناظرى بما كتمَهْ
ما أوضحَ السُّقْمَ فى ملاحظ مَنْ ... يهوَى ، وإن كان كاتماً سَقَمَهْ
ظللتُ أبـكى ، وظلّ يعذُلُنى ... مَن لم يقاسِ الهوى ولا علمَهْ
إليك عن عاشقٍ بكى أسفاً ... حبيبَه فى الهوى وإن ظلمَهْ
ظلتْ جيوشُ الأسى تقاتلُهُ ... مذ نذرتْ أعينُ الملاحِ دمَهْ

وحكى أبو عمر بن عفيف(١) فى تاريخه الذى هذَّبه ابنُ حيّان وانتخبه ، قال : وكان الأمير الحكم بن الناصر لدين الله ولى عهد المسلمين ، وأخوه عبد الله هذا ، يتباريان فى طلب العلم ، ويتناغيان فى جمعه ، ويتبادران إلى اصطناع أهله واختصاص رجاله وإدناء منازلهم والإحسان إليهم . فكان ابن عبد البر

(١) أبو عمر أحمد بن محمد بن عفيف بن مَرْتُيول بن حاتم بن عبد الله الأموى (٣٠٨ — ٤٢٠ / ٩٥٩ — ١٠٢٩) ، ترجم له ابن بشكوال فى « الصلة » (رقم ٧٣) وذكر مؤلفاته وفضائله ، وقد نقلنا هذه الترجمة فى كتابنا « تاريخ الفكر الأندلسى » الذى ترجمناه عن آنخل جنثالث بالنثيا (ص ٤٢٣) . وأشرنا إلى اعتماد ابن حيان فى تأليف تاريخه على كتاب لابن عفيف فى التاريخ لم يذكره ابن بشكوال (ص ٢٠٨) .

— يعنى أحمد بن محمد ، صاحب التاريخ[1] — ممن تميز فى حزب عبد الله واختص به حتى لا يكاد يفارقه ، فسُعى إلى الخليفة الناصر لدين الله بابنه عبد الله هذا ، ورُفع عليه أنه يريد خلعه ويدعو إلى القيام معه ، وأن جماعات من طبقات الناس دخلوا فى ذلك معه ، وأنهم على أن يثوروا به فى يومِ عيدٍ قد اقترب إليه. فأرسل الناصرُ فى الليل بمن قبض على ولده عبد الله وحبسه ، فألفى عنده فى تلك الليلة هذا الفقيه أحمد بن محمد بن عبد البر وفقيهاً آخر من أصحابه يعرف بصاحب الوردة — وهو أحمد بن عبد الله بن العطار[2] — كانا بائتين عنده ، فأُخذا وحُملا إلى الزهراء حَضْرة أمير المؤمنين الناصر بأسفل قرطبة ، فأمر بسجنهما وعرَّف الوزراء بخبر ولده عبد الله ، وكشف لهم عظيم ما أراد أن يحدثه عليه وعلى المسلمين فيه وتبرأ منه . وأعلمهم بمسارعته إلى القبض عليه ، ووجدان رسُله هذين الفقيهين النطِفين[3] بائتين عنده وقال لهم : « ما أعجب إلا من مكان ابن العطار عنده ! ما الذى أدخله فى هذا مع غباوته وقلة شره ؟ وأما ابن عبد البر فأنا أعلم أنه

(١) أحمد بن محمد بن عبد البر فقيه ومؤرخ معاصر لعبد الرحمن الناصر ، وهو غير أبى عمر يوسف بن عبد البر النمرى . ترجم له ابن الفرضى (رقم ١٢٠ جـ ١ ص ٣٧) وذكر فى مقدمة « تاريخ علماء قرطبة » أنه نقل عنه كثيراً فى كتابه . وقد سمع ابن عبد البر هذا من أجلاء شيوخ قرطبة من أمثال ابن لبابة وأسلم بن عبد العزيز وقاسم بن أصبغ ، وكان فقيهاً نبيلا متصرفاً فى فنون العلم ، وكان علم الحديث أغلب عليه ، وله كتاب مؤلف فى « الفقهاء بقرطبة » وهو الذى استعان به ابن الفرضى فى تأليف كتابه . وقال ابن الفرضى أنه توفى فى السجن لليلتين بقيتا من رمضان سنة ٣٣٨ ، أخبرنى بذلك المعيطى . وقال الرازى : توفى يوم الخميس لليلة بقيت من رمضان فى السجن . غمص فى قصة العاق عبد الله بن الناصر .

(٢) أحمد بن عبد الله بن سعيد الأموى ، من أهل قرطبة ، يعرف بابن العطار ، ويقال له صاحب الوردة ، يكنى أباعمر ، حدث عن محمد بن وضاح وغيره . توفى فى شوال سنة ٣٤٥ (ابن الفرضى ، رقم ١٥٨ جـ ٤٦/١) .

ويفهم من هذا أن عبد الرحمن الناصر عفا عنه ، لاستبعاده أن يكون له ضلع فى المؤامرة ، إذ أنه توفى بعدها بسبع سنوات .

(٣) نطِف : اتهم بريبة ، تلطخ بعيب ، فسد ، بشم من أكل ونحوه .

[٥٩ - ب] الذى زيَّن لهذا العاق[1] ذلك ليكون قاضى الجماعة / ويأبى الله ذلك » ، فهنأوه بالسلامة ودعوا الله له . وعزم الناصر على أن يعاقب ابنَ عبد البر يومَ العيد — عيد الأضحى — الذى كان التدبير عليه فيه ، فأصبح ابنُ عبد البر يومَ العيد نفسه ميتاً فى السجن ، وأسلم إلى أهله فدُفن بمقبرة الرَّبَض ؛ وكان ذلك فى سنة ثمان وثلاثين وثلاثمائة .

---

٧٩ — عبد العزيز بن عبد الرحمن الناصر ، أبو الأصبغ

كان أديباً شاعراً ، ظهرت منه نجابة فى صغره . وحُكى أن أول لوح كتبه عند دخوله الكتاب بعث به إلى أخيه الحكم المستنصر ، وكتب إليه من شعره :

هاكَ يا مولاىَ خَطًّا مَطَّهُ فى اللوح مطًّا
ابنُ سبعٍ فى سِنيهِ لم يُطِقْ للوحِ ضبطاً
دمتَ يا مولاى حتى يُولد[2] ابنُ ابنك سِبْطاً

---

٨٠ — محمد بن عبد الملك بن عبد الرحمن الناصر

هو والد الخليفتين فى الفتنة : أبى المُطَرِّف عبد الرحمن الملقب بالمرتَضى ،

---

(١) هذه الكلمة وارده فى الأصل واضحة هكذا . ولكن دوزى حعاها العلق (ص ١٠٦) دون مبرر . وقد جعل كودرا الكلمه : العاق !

(٢) الأصح هنا أن بقال : « بلد ابن ابنك سعطا » ، لأن السطر كما هو فى الأصل يعنى أن الذىسولد سبكون حفيداً للحكم المستنصر ، أما على اقتراحنا فإن المولود سيكون ابن حفيد الحكم ، أى سبطه . ويمكن أن نقرأ أيضاً سَبطاً بفتح السين ، والمراد قارها .

وأبى بكر هشام الملقب بالمعتدّ ، آخر خلفاء بنى أمية بالأندلس ؛ على رحيله[1] انقرضوا فلم يعد مُلكهم إلى اليوم . وَلىَ فى شهر ربيع الأول سنة ثمان عشرة وأربعمائة ، وكان أسنَّ من أخيه المرتضى بأربعة أعوام ، مولده فى سنة أربع وستين وثلاثمائة ، وأقام فى خلافته متردداً بالثغور ثلاثةَ أعوام إلا شهرين ، ودخل قرطبة يومَ مِنًى ثامنَ ذى الحجة سنة عشرين ، لم يبق إلا يسيراً حتى قامت عليه فرقة من الجند فخُلع . وانقطعت الدعوةُ الأمويةُ من يومئذ ، واستولى على قرطبة أبو الحزم جهور بن محمد بن جهور الوزير ، ثم ابنُه أبو الوليد محمد بن جهور .

ومن شعر محمد بن عبد الملك قوله يفتخر :

ألسنا بنى مروان كيف تبدلتْ ... بنا الحالُ أو دارت علينا الدوائرُ ؟

إذا وُلد المولودُ منـــا تهللتْ ... له الأرضُ واهتّزت إليه المنائرُ

/ وقد أنشد أبو منصور الثعالبى فى « اليتيمة » من تأليفه هذا الشعر ونسبه [٦٠-أ] إلى الحكم المستنصر بالله ، وزعم أن ذلك من قصيدة كتب بها إلى صاحب مصر

(١) فى الأصل : رجله ، وكذا قرأها دوزى (ص ١٠٧) . وإنما جعلتها « رحيله » لأن هشاماً المعتد – أو هشاماً الثالث – آخر خلفاء بنى أمية فى الأندلس أُعلن خليفة فى ربيع الثانى ٤١٨/ يونيو ١٠٢٧ . وكان يعيش منذ مقتل أخيه عبد الرحمن الرابع الملقب بالمرتضى حياة خمول فى حماية عبد الله بن قاسم الفهرى صاحب البونت Alpuente شمالى غربى بلنسية ، ولم يدخل هشام قرطبة إلا بعد عامين فى ٨ ذى حجة ١٨/٤٢٠ ديسمبر ١٠٢٩ واستوزر رجلا يسمى حكم بن سعيد ، ولم يستقم أمره ، إذ ظلت الفتنة ضاربة أطنابها ، وقام عليه ينافسه أمير أموى آخر يسمى أمية بن عبد الرحمن بن هشام بن سليمان ، ولكن هذا الأخير قتل فى ١٢ ذى حجة ٣٠/٤٢٢ نوفبر ١٠٣١ ، وعلى إثر ذلك قرر أبو الحزم بن جهور مع رؤساء قرطبة إخراج بقية الأمويين من البلد والمناداة بنهاية حكمهم فيه . وكان هشام المعتد وسط هذه الفوضى قد لجأ إلى بيت ملحق بالجامع واحتبأ فيه مع بعض عياله ، وقضوا ليلتهم الأخيرة فى عاصمة أجدادهم فى ظلام لا تضيئه إلا شمعة متهافتة ، وفى الصباح رحل عن قرطبة مع أهله ، واحتمى بعض الوقت فى حصن قديم ، وانتهى إلى لاردة حيث قضى بقية أيامه فى كنف سليمان ابن هود .

يفتخر . وهذا من أغلاط أبى منصور وأوهامه الفاحشة : حكى — لبُعد مكانه — ما لم يحقق ، وروى عمن لا علم له بشأنه ما لم يضبط . ومثل هذا النظم الفائق لم يكن ليغيب عن ابن فرج صاحب « كتاب الحدائق » ، و [لم يكن ليغيب][1] أيضاً عن أبى مروان بن حَيّان — جُهَيْنة أخبار الروانية ومؤرخ آثارها السلطانية — فكيف يصح ذلك [والأول منهما][2] كما تقدم ينفى عنه الشعر ، والآخرُ يثبت له منه النزر ؟ على أن محمداً هذا المنسوبَ إليه ليس فى أدباء أهل بيته بمشهور ؛ وعلى كل حال فلا معنى للفظ أبى منصور .

٨١ — عبد العزيز بن المنذر بن عبد الرحمن الناصر ويعرف بابن القُرشية

كان من ذوى التعدد فى بنى مروان ؛ وأبوه أبو الحكم المنذر هو الذى اشتهرت معرفته بـ « ابن القُرَشية » ، لأن أمه فاطمة بنت الأمير أبى الحكم المنذر بن محمد بن عبد الرحمن[3] ، حظيت بنكاح الناصر عبد الرحمن بن محمد وولدت له ابنه المنذر فسمته باسم أبيها ، فولد عبد العزيز هذا ، وكان له حظ وافر من الأدب وحسن الشعر . ذكره أبو الوليد إسماعيل بن محمد المعروف بحبيب العامرى فى كتابه « البديع فى فصل الربيع » ، وأنشد له فى البهار ، قال — وهو من التشبيهات العقم :

---

(١) أضفت هذه العبارة للسياق .

(٢) أضفت هذه العبارة أيضا للسياق ، والأول منهما هو ابن فرج ، وقد سبق أن روى له ابن الأبار عبارة ينزه الحكم فيها عن قول الشعر .

(٣) المراد عبد الرحمن الأوسط .

كأن الثرى سِترٌ تَمدُّ خلالَه بأكؤسِ راحٍ راحتَهنّ الكواعبُ
يُستّرن من فرط الحياء معاصماً بأكمامهن الخضرِ عمن يراقبُ[(١)]

وأنشد لأبي عمر يوسف بن هارون الرمادى من قصيدة أمأى[(٢)] فيها ، يمدح ابن القرشية هذا ويصف أزهار الربيع :

تأمل بإثْرِ الغَيْمِ من زهرة الثرى حياةَ عيونٍ مُتْنَ قبل التنعُّمِ[(٣)]
كأن الربيعَ الطلقَ أقبل مهدياً بطلعة معشوقٍ إلى عينِ مغرمِ
تعجبتُ من غوص الحَيا في حشا الثرى فأفشى الذى فيه ولم يتكلمِ[(٤)]
/ كأنَّ الذى يُسقَى الثرى صِرفُ قهوةٍ تنمُّ عليه بالضمير المكتَّمِ [٦٠-ب]
أرى حسناً في صفحةٍ قد تغيرتْ كبِشرٍ بدا في الوجه بعد التجهمِ
ألا يا سماء الأرضِ أعطيتِ بهجةً تطالِعُنا منها بوجهٍ مقسَّمِ

---

(١) ورد هذان البيتان فى كتاب « البديع فى وصف الربيع » لأبى الوليد إسماعيل بن عامر الحميرى (توفى حوالى ٤٤٠/١٠٤٨) بتحقيق هنرى بيريس ، الرباط ١٩٤٠ ، ص ٩٨ .

وقد ترجم له ابن الأبار فى التكملة (القطعة التى نشرها محمد بن شنب فى الجزائر وفيها من حرف الألف إلى حرف الجيم الذى تبدأ به النسخة التى حققها كوديرا ونشرت فى مجلدين فى المكتبة الأندلسية) ، رقم ٤٧٤ ص ٢١٩ وليس فى هذه الترجمة من جديد إلا قوله إن أباه كان يلقب بحبيب وأنه أخو أبى زيد بن محمد بن عامر شيخ أبى بكر بن العربى .

وكتاب « البديع فى وصف الربيع » ويقال أيضا « فى فصل الربيع » و « فى وشى الربيع » كتاب فريد فى بابه ، إذ أن أبا الوليد جمع فيه طائفة كبيرة من شعر الأندلسيين فى الربيع وأزهاره . وقد جعله أبوابا اختص كل زهرة بواحد .

(٢) أمأى أى جعل أبياتها مائة .

(٣) أورد هذه الأبيات أيضا أبو الوليد إسماعيل الحميرى فى « البديع فى وصف الربيع » ص ١٢ . وقد ورد لفظ « النعم » فى الأصل : النغيم ، فصوبناه .

(٤) بعد هذا البيت أقحم الناسخ بيتا سبق أن ورد فى شعر عبد الله بن عبد الرحمن الناصر ، وهو :

ظللت أبكى وظل يعذلنى من لم يقاس الهوى ولا علمه

وإن قالتِ الأرضُ المنعَّمُ روضُها : «لىَ الفضلُ فى فخرى عليك»، فسلِّمِى
فخُضرةُ ما فيها تفوقُكَ خُضرةً ونُوّارها فيها ثواقبُ أنجمِ
وإن جئتها بالشمس والبدر والحيا مفاخرةً ، جاءت بأسنى وأكرمِ
بعبد العزيز ابن الخلائف والذى جميعُ المعالى تنتمى حيث ينتمى (١)

٨٢ ــ محمد ابن الأمير المنذر بن محمد بن عبد الرحمن ابن الحكم بن هشام ، أبو عبد الله

كان من [أكمل] رجال البيت الأموى خلقاً وعقلا وأدباً تاما وحظا من الشعر الجيد ، وكانت أختُه لأبيه فاطمةُ عند الناصر عبد الرحمن بن محمد ، فحظى بمصاهرته ؛ واعتُبِط فى خلافة الناصر فتوفى للنصف من ذى القعدة سنة ست عشرة وثلاثمائة . وهو القائل :

بنفسى وأهلى مَن بذلتُ له ودى ومَلَّكْتُه رِقِّى على القُربِ والبعدِ
وأبغضتُ فيه كلَّ خِدْنٍ مناصحٍ وأبديتُ للعذال فى عشقه صَدِّى
ولم أنصرف فيه إلى قول كاشحٍ وأصررتُ فى حُبِّيه إصرارَ ذى الحقد

---

(١) علق أبو الوليد الحميرى على هذه الأبيات بقوله (ص ١٢ — ١٣) : «ودخوله فى هذا الموضع إلى المدح ، ومفاخرته بين السماء والأرض من المعانى التى سبق فيها ، واستولى على الأمد بها . وقوله :

* كأن الذى يسقى الثرى صرف قهوة *

البيت ، شبَّه فيه إفشاء الأرض نوارها وخضرتها بالمطر بإفشاء المرء أسراره المكتومة بالقهوة .
وقوله : « ينم » مستقبل من النميمة ، يقال : ينم بكسر النون وضمها ، والكسر أفصح .
وقوله : « بوجه مقسم » أى محسَّن ، من القَسام وهو الحسن .
وقوله : « فسلمى » أراد : فادعى لها ، وأقرى بفضلها .

سقانى بعينيه الهوى ، وبكفه سُلافاً ، وحيّانى بها ناقضَ العهد

وله :

طال اشتياقى إلى من كنتُ آلَفُهُ فالعينُ بالدمع ما تنفكُّ تَذْرِفهُ

اعتضتُ مِن قربِ من أهوى زيارتَهُ مَن كنتُ أكرهه جُهدى وأقذفهُ

وصار مَن كنتُ أشناهُ وأبعِدهُ مكانَ مَن كنتُ أهواه وأُلطِفهُ

/فالنفسُ فى قلقٍ ، والعينُ فى أرقٍ والقلبُ فى حُرَقٍ مما يُخَلِّفهُ [٦١-أ]

مَن رامَ صرفَ محبٍّ عن أحبتِهِ فإن قلبىَ مما لستُ أصرفهُ

٨٣ — الحكم بن أحمد ابن الأمير محمد بن عبد الرحمن ابن الحكم بن هشام

كان من نبهاء قومه المروانيين بقرطبة ، وكان له طبع معين فى قرض الشعر . وهو القائل فى ابن مات له ، أنشده ابن حَيّان :

عينى تجود بمسكوبٍ ومُهْراقِ فالحمد لله ، ما للموت مِن باقِ

وكيف أبقَى بلا نورٍ ، بلا بصرٍ أم كيف ينبتُ لحمٌ زال عن ساقِ ؟

لا يبعِدَنْكَ بُنَىَّ اللهُ إنكَ قد لاقيتَ ما كلُّ مَن فى ظهرها لاقِ

٨٤ ـ عمر بن أحمد ابن الأمير محمد بن عبد الرحمن

أخو الحكم المذكور، كان من أهل الأدب والشعر. وهو القائل يرثى أباه، وتوفى والناصر غائب فى غزاته سنة خمس عشرة وثلاثمائة:

لِفقدِكَ تنهَلُّ العيونُ وتَدمَعُ ... وتنهدُّ أركانُ المعالى وتخشَعُ
ويُعوِلُ مَن قد كان بالأمس ضاحكاً ... لغَفْلتهِ فى ظلِّ نُعماكَ يرتَعُ
ألا أيها القبرُ الذى ضم جسمَه ... سقاكَ من الأنواء هتّانُ مُمْرِعُ
ولَقَّى كريماً فيك رَوْحاً ورحمةً ... مليكٌ إذا ما شاء يعطِى ويمنعُ
وكانت له كفٌّ يفيضُ نوالُها ... مدى الدهر عن تَسْكابها ليس تُقلِعُ
وكانت له جَفنٌ تجافَى عن الكرى ... ونفسٌ تُناجِي اللهَ والناسُ هُجَّعُ
وصوم وتسبيح وذكر وخشيةٌ ... وطول صلاة أجرها لا يُضَيَّعُ
بكيتُكَ إشفاقاً عليكَ وحسرةً ... لعل البكا من شدة الوَجد ينفعُ
فلستُ لشىء بعدَ فقدِكَ فارحاً ... ولا لمصابٍ بعد فقدكَ أجزعُ
عليكَ سلامُ الله من ذى مصيبةٍ ... له مهجةٌ نحو المنايا تطَلَّعُ

٨٥ – /عبد الله بن عبد العزيز بن محمد بن عبد العزيز ابن أمية بن الحكم الربضى ، أبو بكر ، الملقب بالحجر [٦١ – ب]

ويقال له البِطْرَ شَكْ[1] بالعجمية ، ومعناه الحجر اليابس .

---

(١) البِطْرَ شَكْ – كما هو واضح من كلام ابن الأبار – لفظان إسبانيان : Piedra Seca .
وقد قال رومى Romey فى تاريخه (ج ٤ ص ٣٧٨) أنه يقابل اللاتينية Petra Sicca ، ولكن دوزى رجح أنها تقابل اللفظين الإسبانيين اللذين ذكرناهما . وقال دوزى أيضاً أن عبد الله ابن عبد العزيز المروانى ربما لقب بالحجر اليابس لبخله . انظر :

R. DOZY, *Rechèrches sur l'histoire politique et littéraire de l'Espagne pendant le Moyen Age* (Leyde, 1849) 1,273.

وهى الطبعة الأولى من أبحاث دوزى المعروفة ، وتختلف فى فصولها وترقيم صفحاتها عن الطبعتين الثانية والثالثة . والأخيرة هى الجارية فى أيدى الناس اليوم .

وقد ذكر دوزى – فى فصل خاص بترتيب صفحات نسخة الحلة السيراء التى نُقلت عن أصلها فى الإسكريال للمكتبة الأهلية فى باريس بناء على طلب المستشرق كوندى – أن مجلدها قدم بعض الأوراق على بعض فاختلطت ترجمة عبد العزيز المروانى هذا بترجمة غيره ، وغلط كوندى فى متابعتها دون أن يتنبه إلى الخطأ .

وحياة عبد العزيز المروانى هذا طويلة حافلة بالأحداث ، فقد كان – كما رأينا – يتولى طليطلة لهشام المؤيد والمنصور بن أبى عامر . وعاونه على الخلاص من القائد غالب ، ثم اتهم بالاشتراك مع عبد الله بن محمد بن أبى عامر فى مؤامرة ضد أبيه ، واشترك فى المؤامرة أيضاً عبد الرحمن بن مطرف التجيبى المتولى أمر ثغر سرقسطة . ولم تنجح المؤامرة ، ففر عبد الله بن المنصور إلى برمودو الثانى ملك ليون ، فمازال المنصور يسعى حتى أرغم برمودو على تسليمه إليه ثم قتله . وقد فر عبد الله المروانى أيضاً إلى برمودو هذا ، ولانعلم إن كان قد فر مع عبد الله بن المنصور أو بعد ذلك ، وعلى أى الأحوال فقد ظفر به المنصور أيضاً وسجنه فى المطبق «بعد أن طيف به على جمل وهو مقيد» . وبقية الخبر يرويها ابن الأبار هنا .

انظر ، علاوة على المراجع المذكورة أعلاه : البيان المغرب لابن عذارى : ٢٨٣/٢ – ٢٨٦ .
محمد عبد الله عنان ، الدولة العامرية (القاهرة ١٩٥٨) ص . ٦ – ٦٣ .
وتعليقات الدكتور محمود على مكى على تحقيقه لديوان ابن دراج القسطلى (دمشق ١٩٦١) ص ٣٦٢ تعليق ٢ وص ١١١ تعليق ١ وص ٤٦٠ تعليق ٢ .

أمَّره هشام المؤيد فى بعض الأوقات ، وسَدَّ به الثغر ، وفوض إليه أمر طُلَيْطِلَةَ وقلده إياها مع خطة الوزارة ، فاستقل بمقاومة غالبٍ[1] أيامَ فتنته ، حتى دعاه إلى القيام بالخلافة[2] .

وكان على مقدمة المنصور بن أبى عامر فى غزاته إلى جِلِّيقِيَّة ، بعد مُنصَرَفه من مقتل غالب بالثغر ، فى أول المحرم سنة إحدى وسبعين وثلاثمائة ، ومعه خيل طليطلة وطبقات الأجناد وجميع الرَّجْل . وفيها حَصَر سَمُّورة ، وامتنعت عليه قصبتُها ، وعمَّ بالتدمير كثيراً من نواحيها ، ومنها جهة دمر فيها نحو ألف قرية ، معروفة الأسماء كثيرة البِيَع والدِّيَارات . ووصل قرطبةَ ومعه أربعة آلاف سَبِيَّة ، وقد حزَّ قريباً منها من رؤوس الـكفرة[3] .

---

(١) أبو تمام غالب الناصرى « صاحب مدينة سالم والثغر الأدنى ، شيخ الموالى قاطبة ، وفارس الأندلس يومئذ غير مدافع » كما يقول ابن عذارى (البيان : ٢/٢٦٥) . كان الوزير أبو جعفر المصحفى (سيتحدث عنه ابن الأبار بعد ذلك) قد أساء معاملته عندما تولى الحجابة لهشام المؤيد ، رغبة منه فى الانفراد بالسلطان المطلق ، فاضطربت أحوال الثغر نتيجة للمنافسة بين الرجلين ، وكان هذا من الظروف التى استغلها محمد بن أبى عامر للوصول إلى السلطان ، وقد سلك إليه طرقاً ملتوية تقوم على الاحتيال على الرجال والإيقاع بينهم ، فاستعان بغالب على جعفر المصحفى ، فاستصدر أمراً من هشام المؤيد برفع غالب إلى خطة الوزارتين ، أى وزارة السيف ووزارة القلم ، أى أنه أصبح وزيراً وقائداً أعلى ، واتفق معه على أن يدبر ابن أبى عامر جيش الحضرة ، ويدبر غالب جيش الثغر . ثم صاهره فتزوج ابنته أسماء ، وبمعاونته قضى على جعفر المصحفى . ثم سعى بعد ذلك فى القضاء على غالب باستقدام جعفر بن على بن حمدون المعروف بالأندلسى ، وكان شيخاً من شيوخ زناتة الموالين لبنى أمية الأندلسيين ، وكان يقوم بأمر العدوة ، واستوزره وولاه القيادة . وشعر غالب بغرض ابن أبى عامر ، ويبدو أنه استعان بالنصارى للدفاع عن نفسه ، ولكنه قتل فى معركة بين رجاله ورجال ابن أبى عامر .

راجع ابن عذارى ، البيان المغرب : ٢/٢٦٢ – ٢٧٩ .

(٢) يفهم من هذا أن غالباً دعا عبد الله بن عبد العزيز المروانى إلى طلب الخلافة لنفسه . ويبدو أن العبارة ينقصها شىء .

(٣) قام ابن أبى عامر بهذه الغزوة فى العام التالى لمقتل غالب ، ولم يذكرها ابن عذارى ، ولكنى وجدت فى البيان الذى يورده أحمد بن أنس العذرى لغزوات ابن أبى عامر حتى سنة ٣٧٦ –

وكان عبد الله هذا أحد رجالات الروانية ، عقلا وشهامةً وأدباً وغزارةَ علم وإمتاعَ حديث وطيبَ مجالسة . ومن شعره ، قال الحُمَيْدى فى تاريخه : أنشدنى عنه أبو عبد الله بن المعلم الطلَيْطِلى ، قال : أنشدنى لنفسه :

اجعلْ لنا منك حظا أيها القمرُ ... فإنما حظُّنا من وجهك النظرُ
رآك ناسٌ فقالوا : إنّ ذا قمرٌ ! ... فقلتُ : كُفُّوا ، فعندى منهما خبرُ..
البدرُ ليلةَ نصفِ الشهرِ بهجتُهُ ... حتى الصباحِ ، وهذا دهرَهُ قمرُ
والله ما طلعتْ شمسٌ ولا غَرَبتْ ... إلا وجاءتْ إليكَ الشمسُ تعتذرُ(١)

وأنشد له ابن أبى الفَيّاض فى [تاريخه] :

ومن لا أسمِّيه مخافةَ عَتْبِهِ ... على أنَّ قلبى مستهامٌ بحبهِ
وبعضُ اسمه حالا وبا [... ...] ... حروفٌ طواها [... ... ...]
عليه سلامُ الله مِنى مردَّداً ... سلامَ محبٍ جاد فيه بقلبهِ

وله :

يا ظالماً ظنَّ قتلى فى الهوى حسَنا ... كنْ كيف شئتَ فظنى فيكَ قد حَسُنَا
/طويتُ حبَّكَ حتى ظلَّ ينشرُهُ ... دمعٌ جرى فغدا سِرِّى به علَنا [٦٢-أ]
أفديك من ساكنٍ فى القلب مسكنُهُ ... وغائبٍ لم تزل نفسى له وطنا
يا قرةَ العين ، قد عذبتَها سهراً ... ومنيةَ النفس ، قد قطّعتها شجَنا

=ذكراً لها ، ومنه يتبين أن مقتل غالب كان يوم الأربعاء لثمان بقين من المحرم سنة ٣٧٠ أى قبل التاريخ الذى يحدده ابن الأبار هنا بسنة . أما الغزوة التى يشير إليها هنا فيسميها العذرى « سمورة الأولى » وقد خرج بها ابن أبى عامر يوم الأربعاء ١٩ صفر ٣٧١ وعاد منها السبت ١٤ ربيع الأول من نفس السنة . ويمكن أن نعزو ما قامت به هذه الحملة من التخريب إلى أن هذه أول حملة كبرى يشترك فيها جند البربر الذين أتى بهم ابن أبى عامر مع جعفر بن على بن حمدون .

(١) وردت هذه الأبيات مع بعض خلاف فى الألفاظ فى جذوة المقتبس للحميدى : رقم ٥٥٦ ص٢٤٤ ، والبغية للضبى : رقم ٩٣٣ ص ٣٣٤ ، والمغرب لابن سعيد : ٢/ ١٠ .

ما بالُ قلبِكَ يشكو فَرْطَ قسوتِهِ   قلبٌ يقاسى عليكَ البَثَّ والحَزَنا
أما هواكَ فإنى لستُ ساليَهُ   ومَن يَمُتْ كمداً فيه فذاك أنا

وأنشد له ابن فرج فى « الحدائق »(1) :

سُقْياً لهم من ظاعنين حسبتهم   وَسْطَ المَوادج لؤلؤاً مكنونا
/لو كنت أنصفهم عشية ودعوا   ما عشتُ بعد نوى الأحبة حينا [١١٠-أ]
أغصانُ بانٍ فوقَ كثبان النَّقَى   فإذا لَحَظْنَكَ خِلْتَهُنَّ العِينا
أجرَى الزمانُ بِبَيْنِهِنَّ مدامعاً   ما كُنَّ من قبل الهوى يجرينا

وله مع رسالة حين ظفر به المنصور محمد بن أبى عامر فى شوال سنة خمس وثمانين وثلاثمائة ، وكان قد هرب أمامه إلى بلد الروم فسجنه بالمطبق بعد أن طيف به على جمل وهو مقيد :

فررتُ فلم يُغنِ الفرارُ ، ومن يكنْ   مع الله لا يُعجزْه فى الأرض هاربُ
ووالله ما كانَ الفرارُ لحالةٍ   سوى حذر الموت الذى أنا راهبُ
ولو أننى وُفِّقتُ للرشد لم يكن   ولكنَّ أمرَ الله لابد غالبُ
وقد قادنى جرمى إليك برُمَّتى   كما اجترَّ ميتاً فى رحى الحرب سالبُ

---

(١) سبق أن ذكرنا أن الناسخ خلط فى هذا الموضع خلطاً سديداً ، فوصل بين ترجمة أبى عبد الله بن عبد العزيز بن محمد بن عبد العزيز بن أمية بن الحكم الربضى وترجمة أبى عبد الله عبد الله بن عبد العزيز البكرى ، ولا أدرى كيف وقع الخلط ، ويبدو أنه كان ينسخ فى ترجمة الأول ، ووقف عند بيت : « أما هواك . . » فلما عاد إلى النسخ فتح المخطوط باحثاً عن عبد الله ابن عبد العزيز بن أمية ، فوقع فى صفحات أبى عبيد البكرى ، فمضى ينقل غير منتبه لخطئه حتى فرغ من أهل القرن الخامس ، ثم تنبه إلى أن جزءاً كبيراً من المخطوط لم ينسخ ، فعاد يستدرك ما نسى نسخه ، ولكنه لم يصلح الخطأ ، وهكذا وصلنا المخطوطة الوحيدة من الحلة .

وظاهر أن ابن فرج الجيانى لا يمكن أن يروى شعراً لأبى عبيد البكرى ، لأنه مات قبله بزمن طويل ، ولا يمكن أن يروى لعبد الرحمن المستظهر ، لأنه مات قبله كذلك . ولهذا فقد رجحت أن هذه الأبيات لأبى عبد الله بن عبد العزيز المروانى هذا ، فجعلتها فى هذا الموضع .

وأجمع كلُّ الناس أنك قاتلى ... ورُبَّتَ ظنٍّ ربُّه فيه كاذبُ
وما هو إلا الانتقام فتشتفى ... وتَرْكُكَ منه واجباً ، لك واجب
وإلا فعفوٌ يرتضى اللهُ فِعلَه ... ويَجزيك منه فوق ما أنت طالب
ولا نفسَ إلا دون نفسك ، فليكن ... على قدرها قدرُ الذى أنت واهب
فما خاب من جدواك مذ كنتَ سائلٌ ... ولا رُدَّ دون المبتغَى عنك راغب
وقد منحتْ كفاك ما يُعجز الورى ... وعمتْ عمومَ الغيث منك المواهب
وإن حُمَّ تأخيرٌ لنفسى فليكن ... لمُتلِفها من حاجب الملك حاجب
فما زال سبّاقاً إلى كل خَصْلةٍ ... يسير بها فى الأرض ماشٍ وراكب
فلا انفكَّ لى مولًى ألوذُ بعزِّه ... فيصرِفُ عنى الخطبَ والدهر عاتب

وله أيضا يستشفع بالمظفر عبد الملك إلى أبيه المنصور :

/ألا أيها الحاجب المرتجَى ... وأكرم من كان أو من يكونْ [١١١-ا]
دعوتُك دعوةَ مستصرخٍ ... أحاطت به وَأثْخَنَتْهُ المَنونْ
فإن لم تغثنى فمن ذا الذى ... يلوذ به الخائف المستكين ؟
جمعتَ التقى والعلى والنُّهى ... فمالٌ مُذالٌ وعِرض مصون
وتفريجُ غَمّاء عن حائنٍ ... يعود بك الحىُّ وهو الدفين
فقل لى : لعاً ! من عثار له ... أناديك والموت لى مستبين
وإن جل ذنبى فأنت الجليل ... وهل لك فيمن عليها قرين ؟

ومن خبره أنه أقام مسجوناً إلى أن مات المنصور ، وولى ابنُه المظفرُ عبد الملك حجابةَ هشام ، فأطلقه واستحله لأبيه ، وخلع عليه وولاه الوزارة وخُصَّ

به ، فلم تطل حياته ، وتوفى غازياً مع عبد الملك غزاته الأولى سنة ثلاث وتسعين بمدينة لارِدَة ، وقبرُه بمسجدها .

وكان جَلْداً فى محنته ، كثير الدعاء والضراعة ، قد رزق من الناس رحمة .
ولما أسلمه برمند ملك الجلالقة[1] مضطرا إلى ثقات المنصور وطيف به ، كان قدامه [من] ينادى : « هذا عبد الله بن عبد العزيز ، المفارق لجماعة المسلمين ، النازع إلى عدوهم ، المظاهِر له عليهم ! » ، فكان هو يرد عليه ويقول : « كذبتَ ! بل نفس خافت ففرّت تبغى الأمن من غير شِرك ولا رِدّة » . ولم يعرض المنصور لمنازله وضياعه ، أطلقها لبنيه مدة اعتقاله .

---

٨٦ — مروان بن عبد الرحمن بن مروان بن عبد الرحمن الناصر ، أبو عبد الملك

هو الطليق ، وقيل له ذلك لأنه سُجن فى أيام المنصور محمد بن أبى عامر مدة طويلة ثم أطلِق بعد ذلك فسُمى « الطليق » .

وكان — فيما قيل — يهوى جارية رباها أبوه معه وذكرها له ، ثم إنه استأثر بها ،

---

(١) هو برمودو الثانى Bermudo II ابن رذمير الثانى Ramiro II ملك مملكة ليون وأشتريس وجليقية من سنة ٩٨٢ إلى ٩٩٩ م (٣٧٢ — ٣٩٠ هـ) معاصر المنصور ابن أبى عامر وصاحب الوقائع الكثيرة معه . وهو الذى لجأ إليه عبد الله بن المنصور بن أبى عامر وعبد الله بن عبد العزيز المروانى هاربين خوفاً من المنصور بعد انكشاف مؤامرتهما عليه ، وقد استطاع المنصور أخيراً الحصول عليهما . أما عبد الله ابنه فقد قتله ، وأما عبد الله المروانى فقد سجنه حتى كان من أمره ما يحكيه ابن الأبار.

انظر : تعليق الدكتور محمود على مكى على القصيدة رقم ١٢٨ من ديوان ابن دراج القسطلى (دمشق ١٩٦١) ص ٤٦٠ هامش ٢ .

فاشتدت غيرة مروان لذلك ، وانتضى سيفاً ، وانتهز فرصةً فى بعض خلوات أبيه معها فقتله . وعُثر على القصة ، فسُجن وهو ابن ست عشرة سنة ، ومكث فى السجن ست عشرة سنة ، وعاش بعد إطلاقه ست عشرة سنة ، وهذا من نادر الاتفاق . ومات قريباً من سنة أربعمائة .

وكان أديباً شاعراً مكثراً ، وأكثر/ شعره فى السجن . وإنما ذكرتُه — [١١١-ب] وليس من شرطى فى الإتيان بالأمراء والمتأمرين ومن قَرُب إليهم دون مَن بَعُد من البنين — لقول أبى محمد بن حزم : « أبو عبد الملك هذا فى بنى أمية كابن المعتز فى بنى العباس ، ملاحةَ شعرٍ وحُسنَ تشبيهٍ »[1] ؛ فحذفُه من هذا المجموع هو المعترَض [عليه] حقيقةً لا إثباته واجتلاب محاسنه ، والخطأ مع الاجتهاد معفوٌّ عنه . ولعلى قد أتيتُ فى ما أثبتُّ بما هو قريب منه . ومن شعر الطليق فى معتقَله :

ألا إنَّ دهراً هادماً كلَّ ما نبنى ... سيَبْلَى كما يُبْلِى ، ويَفْنَى كما يُفْنِى[2]
وما الفوز فى الدنيا هو الفوز ، إنما ... يفوز الفتى بالربح فيها مع الغَبْن
يُجازَى ببؤسٍ عن لذيذ نعيمها ... ويَجْني الرَّدَى مما غدتْ كفُّه تجنى
ولا شك أن الحزنَ يجرى لغايةٍ ... ولكنَّ نفس المرء سيئةُ الظن

وله يصف السجن :

فى منزل كالليل أسودَ فاحمٍ ... داجى النواحى مظلمِ الأثباجِ

(١) عبارة ابن حزم فى الجمهرة (ص ٩٤) : وأما مروان بن الناصر ، فمن ولده مروان الطليق ، وأخوه عبد الملك ، ابنا عبد الرحمن بن مروان بن الناصر . كان مروان هذا من الشعراء المفلقين المحسنين ، وأعقب أربعه : يزيد أبو خالد ، ولبيد أبو ليلى ، وعبيد الله أبو إمامة ، وأربد أبو زبيد ، وأخوه عبد الملك ساكن الآن بدَرُوقَة » .

(٢) ورد فى الهامش إلى يمين هذا السطر : « أخذ قول البحترى برمته :

ستفنى مثل ما نفنى وتبلى ... كما نبلى ، ويدرَك منك ثارُ

يسْوَدُّ والزهراء تُشرق حولَه   كالحبر أُودع فى دواةِ العاجِ

وله فى النسيب :

أقول ودمعى يستهلُّ ويسفَحُ   وقد هاج فى الصدر الغليلُ المبرِّحُ
دَعُونى من الصبر الجميل فإننى   رأيتُ جميلَ الصبر فى الحب يقبُحُ
لقد هيَّج الأضحى لنفسى جوى أسًى   كريهُ المنايا منه للنفس أروح
كأن بعينِي حَلْقَ كل ذبيحةٍ   به ، وبصدرى قَلْبَها حين تُذبح
فيا ليت شعرى ، هل لمولاى عَطفةٌ   يداوَى بها منى فؤادٌ مجرَّح ؟
يحِنُّ إلى البدر الذى فوق خدهِ   مكانَ سوادِ البدر وردٌ مفتح
تقنَّع بدرُ التِّمِّ عند طلوعهِ   مخافةَ أن يسرى إليه فيُفضَح
فقلتُ له : يا بدرُ أسفِرْ فقد غدا   عليه رقيبٌ للعِدا ليس يبرح
لعَمرى لَذاك البدرُ أجملُ منظراً   وأحسنُ من بدر التمام وأملح

[١١٢ - ا] وله من قصيدة / فريدة أولها :

غصنٌ يهتزُّ فى دِعْصٍ نقًى   يجتنى منه فؤادى حُرَقا
باسمٌ عن عقدِ درٍّ خِلتُهُ   سَلَبَتْهُ لِثَتاهُ العُنُقا
سالَ لامُ الصدغ فى صفحته   سيلانَ التبر وافَى الوَرِقا
فتناهى الحسنُ فيه ، إنما   يَحْسُن الغصنُ إذا ما أوْرَقا
رقَّ منه الخصرُ حتى خِلتُهُ   من نحولٍ شَفَّه قد عشقا
وكأن الردفَ قد تيَّمهُ   فغدا فيه مُعَنًّى قلقا
ناحلا جاور منه ناعماً   كحبيبى ظل لى معتنقا
عجباً إذ أشبهانا ، كيف لم   يُحدثا هجراً ولم يفترقا ؟

ومنها يصف الخمر :

رب كأسٍ قد كستْ جنحَ الدجى ثوبَ نُورٍ من سناها أشرقا
بتُّ أسقيها رشاً فى طرفه سِنةٌ تُورث عينى أرقا
خَفِيَتْ للعـين حتى خِلتُها تتقى من لحظه ما يُتَّقى
أشرقتْ فى ناصعٍ من كفهِ كشعاع الشمس لاقى الفَلَقَا
وكأن الكأسَ فى أنمُلِهِ صفرةُ النرجسِ تملو الورَقا
أصبحتْ شمساً وفُوهُ مغرباً ويدُ الساقى المحيِّى مَشرِقا
فإذا ما غربت فى فمـهِ تركت فى الخـد منه شَفَقا

ومنها فى أوصاف شتى :

وغمامٍ هطلٍ شؤبوبُهُ نادمَ الروض فغنَّى وسَقى
فكأن الأرضَ منه مطبقٌ وكأن النَّصب جانٍ أُطْبِقا
خلع البرقُ على أرجائه ثوبَ وَشْيٍ منه لما بَرَقا
وكأن العارضَ الجَوْنَ بهِ أدهمٌ خلى عليه بَلقا
/ وكأن الريحَ إذ هبَّتْ له طيَّرتْ فى الجو منه عَقْعَقا [١١٢-ب]
فى ليالٍ ضلَّ سارى نجمِها حائراً لا يستبين الطرُقا
أوقدَ البرقُ لهـا مصباحَه فانثنى وجهُ دُجاها مُشرقا
وشدَا الرعدُ حنيناً لحرتْ أكؤسُ المزنِ عليه عرقا
وغدتْ تجذبه الشمسُ وقد ألحفته من سناها نمُرُقا(١)
فكأن الشمس تُحْيِي نفسَه غُرةُ المعشوقِ تُحْيِي الشَّيِّقا

(١) قرأها دورى (ص ١١٦) عرقا .

وكأن الوردَ يعلوه الندى وجنةُ المحبوب تندى عرقا
يتفقّا(١) عن بهار فاقعٍ خِلتُه بالورد يطوى وَمَقا
كالمحبيْن الوصولَيْن غدَا خَجِلاً هذا ، وهذا فَرِقا
ورَنَتْ منه إلى شمس الضحى حدقٌ للنّور تُصبى الحدَقا
وكأن القَطْر لما جادها صار فى الأوراق منها زئبقا

ومنها فى الفخر :

مَن فتًى مثلى لبأسٍ وندًى ومقالٍ وفَعالٍ وتُقَى ؟
شرفى نفسى ، وحَلْيِى أدبى وحُسامى مِقْوَلى عند اللقا
ولسانى عند مَن يَخْبُرُهُ أفعوان ليس يثنيه الرُّقى
ويمينى يُمنُ عافٍ مُعسرٍ جَمعتْ حمـــداً غدا مفترِقا
جَدِّى الناصرُ للدين الذى فرَّقتْ كفّاه عنه الفِرَقا
أشرفُ الأشراف نفساً وأباً حين يعلوه وأعلى مُرتقى
أنا فخـــر العَبْشَمِيِّين وبى جَـــدٌّ من فخرهم ما أخلقا
أنا أكسو ما عَفَى من مجدهم بحُـلَى روقِ شعرى رونقا

[١١٣-١] / وله أيضاً يصف السحاب ، أنشده له أبو الحسن على بن محمد بن أبى الحسن القرطبى فى كتاب « الفرائد فى التشبيه من الأشعار الأندلسية » من تأليفه :

فكأن الغمام صب عميدٌ أنَّ بالرعـــد حُرقةً واشتكاء
وكأن البروق نارُ جواهُ والحَيا دَمْعُه يسيل بكاء

(١) قرأها دوزى : يتفقّا

وله أيضاً :

كأنما إنسانُ أجفانها للخمر من تحييرها مدمنُ
وليس إنساناً ولكنهُ هاروتُ فى مقلتها يسكنُ

وله فى طول الليل :

فما بال صُبحى قد تقارب خَطوُهُ فأبطأ حتى ليس يُرجى قدومُهُ
كأن نجومَ الليل قيّدها الدجى وأوقفها فى موضع لا تريمه

وله فى الرسوم :

رَبْعٌ تربصت(١) النجوم لأهلهِ ورماهمُ ريب الزمان فقَرْطَسا
فكأنه مما تقادم عهدُهُ ربعُ امرئِ القيس القديمُ بعَسْعَسَا

وله فى مثل ذلك :

فبقيتُ فى العرصات وحدى بعدهم حيران بين معاهد ما تُعهدُ
فكأنهن ديار مَىٍّ إذ خلتْ وكأننى غَيْلانُ فيها يُنشِدُ

وله :

وكأن المياهَ فيها ثعابيـ ـن تَجُيْنٍ تَبَعَّثَتْ فى السواقى
وكأن الحصباء فى رونق المـا ء سنا الدرِّ فى بياض التراقى

* * *

(١) فى الأصل ، وفى دوزى (ص ١١٨) : تربعت .

ومن أبناء الأدارسة الحسنيين :

٨٧ - إبراهيم بن إدريس الحسنى

كذا قال فيه ابن حيّان ، وقال الحُمَيدى : إبراهيم بن إدريس العلوى الحسنى المنبوز بالمؤبّل . كان أديباً شاعراً ، وكان فى أيام المنصور أبى عامر محمد ابن أبى عامر ، وعاش إلى أيام الفتنة . أصله من المغرب ، وسكن قرطبة إلى أن سيّره ابنُ أبى عامر عن الأندلس ، فيمن سيّر من أهل بيته بعد مقتل حسن بن قنّون كبيرهم(1) . وهو القائل يخاطب الروانية بقرطبة ، لما رأى غلبة ابن أبى [١١٣-ب] /عامر على هشام المؤيد واستبداده بالأمر دونه :

(١) يشير ابن الأبار بذلك إلى ما كان بين الحسن بن كنون آخر ممثل لسلطان الأدارسة فى المغرب والمنصور بن أبى عامر . والحسن بن كنون هو من أبناء القاسم بن محمد بن القاسم ابن إدريس ، والقاسم هذا – واسمه كنون – هو الذى صم بقايا دولة الأدارسة بعد أن شتت شملها قواد العيديين واحتلوا فاس . فأقام القاسم كنون دويلة قاعدتها حصن صغير يسمى حجر النسر ، وتوفى سنة ٣٣٠ وخلفه ابنه أبو العيش . ولم تستطع هذه الدويلة الإدريسية أن تقوم بنفسها ، فكانت طوراً تخضع للأمويين الأندلسيين وطوراً للعيديين ، ولكنها كانت فى الغالب فى حماية بنى أمية ، وقد بايع أبو العيش لعبد الرحمن الناصر ، وبعونه استطاع أن يمد سلطانه حتى سجلماسة . وكان الناصر قد اسولى على سبتة ، وأراد أن يضم إليها طنجة ليملك بيده مفتاحى الزقاق . وبعد حرب طويلة ، استولى عليها وانتقل أبو العيش إلى بصرة المغرب الأقصى غير بعيد عن حجر النسر ، واستولى قواد عبد الرحمن الناصر على معظم نواحى شمال المغرب الأقصى من تاهرت إلى طنجة . ورأى أبو العيش أنه لم يبق له من الأمر شىء ، فكاتب الناصر واستأذنه فى الانتقال بأهله إلى قرطبة ليشترك فى الغزوات التى كان الناصر يقودها على ممالك النصارى ، وقد اشترك أبو العيش فيها بالفعل واستشهد سنة ٣٤٨ .

وبعد أن غزا جوهر الصقلى المغرب الأقصى غزوته المخربة التى احتل فيها فاس وقضى على كل أثر لسلطان الأمويين فى المغرب (٣٤٨ – ٣٥٠) اضطر الحسن بن كنون أخو أبى العيش وخليفته فى البصرة إلى الدخول فى طاعة العيديين ، فلما انصرف جوهر عاد إلى الأمويين ، فعاد الفاطميون وبعثوا بلقين بن زيرى بجيش كثيف إلى المغرب فدخل الحسن بن كنون فى طاعته . وبعد انصراف بلقين أرسل الحكم المستنصر قائده غالباً الناصرى ، فتحصن منه الحسن =

فيا أرى عجبٌ لمن يتعجبُ   جلّت مصيبتُنا وضاق المذهبُ
إنى لأ كْذِبُ مقلتى فيما أرى   حتى أقولَ غلِطتُ فيما أحسِبُ
أيكونُ حيًّا من أميةَ واحدٌ   ويسوس هذا الملكَ هذا الأحدب ؟
تمشى عساكرُهم حوالَىْ هودجٍ   أعواده فيهن قـردٌ أشهب
أبَنِى أميةَ أين أقمارُ الدجى   منكم ، وما لوجوهها تتغيب ؟

هذا ما أورد ابنُ حيّان فى أخبار الدولة العامرية من شعره .

وقال الُحمَيْدى فى كتابه : رأيت له قصيدة طويلة يمدح بها مؤيد الدولة هذيل بن خلف بن رَزِين صاحب القلاع ويهجو فى دَرجها غيره ، أولها :

للبَيْن فى تعذيب نفسىَ مذهبُ   ولنائبات الدهر عندى مطلبُ
أما ديونُ الحادثاتِ فإنهـا   تأتى لوقتٍ صادق لا تكذبُ
والبين مُغرًى كيدُه بأولى النُّهى   طبعاً تَطبّع ، والطبيعة أغلبُ

ومنهـا :

أيقنتُ أنى للرزايا مطعَمٌ   ودمى لوافدة المـكاره مشربُ
فأنا من الآفات عِرضٌ سالمٌ   وجوانحٌ تُـكوَى وعقلٌ يذهبُ

= ابن كنون فى حجر النسر ، ولكنه استسلم أخيراً وأخذ وجميع أهله إلى قرطبة حيث أكرمه الحكم المستنصر ، ثم اختلف معه فنكبه وأخرجه إلى المشرق حيث نزل على العزيز بالله الفاطمى ، فسيره فى جيش إلى المغرب سنة ٣٧٣ . فلما صار الأمر فى قرطبة إلى محمد بن أبى عامر أرسل قواده وجيوشه إلى المغرب ليحاربوا الحسن بن كنون ، وقد تمكنوا من استنزاله على أمانه المنصور ، ولكن هذا غدر به ولم يمض أمانه وقتله سنة ٣٧٥ . وقد وصف ابن عذارى (البيان المغرب : ٢/٢٨١) مشهد قتله وما صاحبه من رعد وبرق دلالة على الغضب الإلهى لتلك الجريمة . وكانت تلك هى النهاية الأخيرة للأدارسة الحسنيين .

انظر : الاستقصا (الدار البيضاء ١٩٥٤) : ١/١٩٤ — ٢٠٥ .
ابن عذارى ، البيان المغرب : ٢/٢٨١ . وقد روى ابن عذارى نفس الأبيات التى رواها ابن الأبار .

ولم يذكر منها سوى هذه الأبيات ، فيشبه أن يكون فيها ما أنشد ابنُ حيّان ، ويشبه أن يكون قطعة فى المنصور على انفراد ؛ والظاهر أن الحُمَيْدى تركها ولم ير إثباتها .

* * *

ومن رجال المروانية فى هذه المائة :

٨٨ ـ أحمد بن محمد بن أضحَى الهَمْدانى

[١١٤-١] / هو أحمد بن محمد بن أضحى بن عبد اللطيف بن خالد بن يزيد بن الشِمر من همْدان ؛ وخالد يقال له « الغريب » ، وسُمى بذلك لأنه أول مولود من العرب الشاميين بكُورة إلبيرة[١] . كان أبوه محمد بن أضحى صاحب حصن الحَمّة من أعمال إلبيرة زمنَ الفتنة[٢] ، وقام بأمر العرب بعد قتل سعيد بن جُودِىّ ،

(١) ذكر ابن حيان (المقتبس – ملشور أنطونيا ، ص ٣١) خبر محمد بن أضحى ابن عبد اللطيف الهمدانى الثائر أيام الأمير عبد الله ، وماكان بينه وبين سعيد بن جودى من عداوة ، ثم ذكر دخوله فى طاعة الأمير عبد الله واشتراكه فى حرب عمر بن حفصون ، ثم استنزال الناصر له ضمن من استنزل من الثوار واستقدامه إلى قرطبة سنة ٣١٣ حيث عاش فى كنفه . قال ابن حيان : « وكان ابن أضحى هذا مع رجوليته أديباً بيناً يقوم بين يدى الخلفاء فى المحافل والمقاوم ، فيحسن القول ويطيب الثناء ، وله أخبار معروفة » .

وقد ذكر ابن الخطيب فى الإحاطة (بتحقيق الأستاذ محمد عبد الله عنان ، القاهرة ١٩٥٥ ، ج ١ ص ١٥٦ – ١٥٨) أحمد بن محمد بن أضحى هذا وساق نسبه : ابن عبد اللطيف بن غريب ابن يزيد . . الخ ، أى أنه وضع « غريب » موضع « خالد » . وقد فسر لنا ذلك ابن الأبار عندما قال إن خالداً كان يسمى بالغريب . وأورد ابن الخطيب قطعة من الخطبة التى ألقاها أحمد هذا بين يدى الناصر ، وأورد له بيتين لم يوردهما ابن الأبار ، ثم قصيدة « أيا مَلكاً » بأكملها .

(٢) يريد الفتنة الأولى أيام الأمير عبد الله ، انظر التعليق السابق .

وتمسك بموالاة الأمير عبد الله بن محمد إلى آخر مدته ، وأورث عقبَه نباهةً ورياسة انسحبت عليهم دهراً .

وثار منهم القاضى أبو الحسن على بن عمر بن محمد بن مُشرّف بن أحمد هذا بغرناطة فى المائة السادسة ، وسأذكره هنالك إن شاء الله عز وجل .

وقدم أحمدُ بن محمد مع أبيه علَى الناصر عبد الرحمن بن محمد ، باخِعَين بطاعته ، داخِلَين فى جماعته — وكان من أحسن الناس وجهاً ، وأفصحهم لساناً ، وأشهمهم نفساً ، وأوسعهم أدباً — فأجمل الناصرُ لقاءهما ، وأحسن قبولهما ، وأعلى منازلهما ، وأجزل عطاءهما . وقام أحمد هذا يومئذ بين يديه خطيباً ، ثم أنشد فى إثر خطبته :

أيا مَلِكاً تُزْمَى به قضبُ الهندِ ... إذا لمعت فوق المغافر والسَّردِ
ومَن بأسُه فى مَنهل الموت واردٌ ... إذا أنفسُ الأبطال كفَّتْ عن الورِدِ
ومَن ألبس الله الخلافةَ نعمةً ... به ، فأتت النُّعمى فجلَّتْ عن العدِّ
تجلَّى على الدنيا فجَلَّى ظلامَها ... كما انجلتِ الظلماء عن قمر السعد
إمامُ هدًى زيدت به الأرضُ بهجةً ... ملبسةً نوراً كوَشْيَّةِ البُرْد
كفانى لديه أن جعلتُ وسيلتى ... ذِماماً شآىً الهوى مخلصَ الود

وأنشد له صاحب « الحدائق » :

هوًى كدَّر الواشون منه الذى صفا ... ونمُّوا بأفعى الإفك عنى مزخرفا
وشَوْا وأصاختْ أذْنُ خِلِّى فما وفَوْا ... بتبليغه ما لم أقله ولا وَفَى
/ وهلاّ — كما أنصفتُه فى محبتى — ... ثنام على الأعقاب منهم فأنصفا ؟ [١١٤–ب]
فلا كان واشٍ كان داءُ ضميرِه ... هوانا ، فلما أنْ رأى هجرَنا اشتفى
ولا يفرحوا أن أوقدوا الهجرَ جاحماً ... فما قريب ينطفى ، أو قد انطفى

٨٩ — لب بن عبيد الله بن أمية
المعروف بابن الشاليّة ، أبوعيسى

كان أبوه من كبار الثوار فى أيام الأمير عبد الله بن محمد ؛ سماه ابنُ حيّان فى أعلام المخالفين عليه ، وجعله ثانياً لدَيْسَم بن إسحاق صاحب تُدْمِير ، وبعده ذَكر إبراهيمَ بن حجاج صاحب إشبيلية . وكان مَلك جبل شمنتان وما يليها من كورة جيّان ، وامتد إلى حصن قَسْطلونة وغيره ، وانطلقت يده فتبنّك النعمةَ وبنى للبانى الفخمة . وأظهر الإذعان وقتاً ، بعد وَقيعَةٍ جرتْ عليه ، والتزم حمل قطيع من المال فُورق عليه عما فى يده ، فلما رُوخِي عاد إلى غيه فنكث ، ووالَى عميد المخالفين عمر بن حفصون ، وواصله بالصِّهر مِن أسفل ، فزوّج ابنتَه من جعفر ولد ابن حفصون ، ونقلها إليه ببُبَشْتَرُ ، ووصل يدَه بيده ، فاعتز جانبه .

وكان عُبَيْدِيس بن محمود [الشاعر الأديب][1] كاتباً لعبيد الله ، ومتصرفاً فى خدمته . مكثراً من مديحه ، واصفاً لمغازيه ومبانيه وأحواله أوصافَ الشعراء لأكابر الملوك ، يستحسن ذلك منه ويجزل عطيته عليه ، فشعره فى ذلك مشهور ؛ ومنه قوله فى وصف قصره :

قصر لأمير أبى مروان مُنْتَسَخٌ   من جنةِ الخلدِ بالسراء معمورُ
فيه مجالس قد شِيدتْ على عمدٍ   بُنيانها مرمرٌ بالتبر مطرورُ

ونازع الفتحُ بن موسى بن ذى النون عبيدَ الله حصناً أورثهما حرباً ، فغلبه عليه عبيد الله وهزمه وحاز الحصن دونه ، وتيمَّن بحضور ابنه لبّ بن عبيد الله معه فى وجهه هذا ، فقال عُبَيْدِيس فى ذلك شعراً طويلا منه :

---

(١) نقل ابن الأبار هذا الكلام كله عن ابن حيان (المقتبس ص ٩ — ١٠) وأسقط هذه الجملة على أهميتها هنا ، فأتيت بها زيادة فى التعريف بعبيديس بن محمود .

/ جاء البشيرُ بما عم السرورُ بهِ عن الأمير أبى مروان فى السفرِ [١١٥-ا]
فقلتُ ، حين سألناه فأخبرَنا : بالله قل وأعد يا طيّبَ الخبر
بيُمن لُبٍّ أبى عيسى وغزوتهِ فاز الأمير على الأعداء بالظفر

يقول فيه :

قاد الجيوش إلى الأعداء مدرعاً يَصْلَى الوغى بالوغى فى سِنِّ مُثَّغِرِ (١)
من تحته فرسٌ ، فى كفه قبسٌ يرمى الشياطين فى الهيجاء بالشررِ (٢)

وعجزُ البيت الثانى من هذه الأبيات منقول من قول أبى نواس :

يا ذا الذى عن « جنان » ظل يخبرنا بالله قل وأعد يا طيّبَ الخـــبر

ولما غزا الناصر لدين الله عبد الرحمن بن محمد غزوته الأولى إلى جيّان ، خرج إليه عبيد الله مقالصاً (٣) فى طاعته إياه ، فأمر بالقبض عليه وأرسل إلى معاقله مَن ضبطها وحمل عيـاله إلى قُرْطُبَة ، فصار فى الديوان بها فى أعلى اللاحق (٤) . وصرّفه الناصر فى ضروب من خدمته سكن منه فيها إلى نصاحة وثقة ، فصرفه من أجل ذلك إلى معاقله بشمنتان والياً من قِبله ، لالتياثٍ أحسه من أهلها — ولا رعيةَ أجهل منهم — فأصلحها عبيدُ الله وأقام بها إلى أن صرفه ثانيةً عنها وأعاده إلى مصافّه .

وكان ابنُه لُبّ بن عبيد الله أديباً شاعراً حسن التصرف ، وهو القائل ،

---

(١) المثغر هنا كناية عن صغر السن ، لأن المثغر هو الطفل الذى نبتت أسنانه .

(٢) أورد ابن حيان (المقتبس ، ١٠ – ١١) أبياتاً كثيرة أخرى من هذه القصيدة .

(٣) مقالصاً أى منقصا من طاعه ، والمراد أنه قصر فى طاعه الناصر .

(٤) اللحق ، وجمعه ملاحق ، هو المقيد فى دوان العطاء ليصرف له راتب شهرى وما يتبعه ، والمراد أنه تقرر له راتب من أكبر ما كان يعطى لأمثاله من الثائرين الذين استنزلهم الناصر وأتى بهم إلى قرطبة ليعيشوا فى أمان على رواتب تصرف لهم ولذويهم .

أنشده له أبو الحسن بن أبى الحسين القُرْطُبِىّ فى كتاب « الفرائد » من تأليفه فى التشبيه :

صابَحتُها والروضُ يسطَعُ مِسكُهُ فكأنه بالليل بات مغلّقا
والورد يبدو فى الغصون كأنما أضحى يقارب من نداه قَرْقَفا[1]

وله فى الخِيرى :

وكأنما الخِيرى إن أبدى النرجس،[2] أسرارَه عن نشرِ مسكٍ أذفرا
لص يرائى بالنهار زهادةً خوفاً ويقطع ليلَه مُتَشَطّرا

وله :

وراهقةٍ عنها السيوف كأنها عيونٌ يروع الليثَ فيها حَسيرُها
[١١٥-ب] / إذا غشيتها البيض تغشّى بنورها كأن سناها من أذاها مُجيرُها
كأن فؤادى فوق رأسى صلابة فكل حسام ينتحيها كسيرُها

يصف بيضةَ حديدٍ . ومن هذه القصيدة فى وصف ترس :

وممتثلٍ[3] قرصَ الغزالة فى يدى هجمتُ به والخيلُ تدمَى نحورُها
تقلّبُ منه الكفُّ مِغنَطِسَ[4] القَنا فلا آلةٌ إلا إليه مصيرُها

---

٩٠ — موسى بن محمد بن سعيد بن موسى

مولى عبد الرحمن بن معاوية ، الحاجب الوزير ، أبو الأصبغ .

---

(١) القرقف اسم من أسماء الخمر : ويقارب القرقف ، أى يشربها ، مقتبس من قوله تعالى : « ولا تقربوا الخمر » .

(٢) كذا ، والوزن لا يستقيم على هذه الصورة ، ولعل صواب هذا الشطر : « وكأنما الخيرى إذ أبدى لنا » ، كما أن كلمة « النرجس » تبدو مقحمة لا مكان لها فى هذا الموضع .

(٣) أى : وشبيه بقرص الشمس .

(٤) الأصل : مغنطلس ، ولا يستقيم به الوزن .

كان — مع رئاسته وجلالته ، ونباهة سلفه واستعمالهم فى الكُوَر وسنيّات الخطط — من أهل العلم والأدب والشعر . وأول ما تصرّف فيه للأمير عبد الله خطة القُطُع[1] ، ثم وَلى خطة المدينة ، وعُزل عنها ، وأعيد إليها . ولما أفضت الخلافة إلى الناصر عبد الرحمن بن محمد أقره على المدينة ، واستوزره يوم استخلافه ، ثم استحجبه عند وفاة بدر فى سنة تسع وثلاثمائة ، فاضطلع واكتفى .

وكان الوزير عبد الملك بن جَهْوَر يقول : « ما رأيت مثل موسى : لم يجمعه أمير المؤمنين مع أحد إلا كان المستحوذَ على المجلس فى الجد والهزل » .

وتوفى للنصف من صفر سنة عشرين وثلاثمائة — وقيل فى آخر سنة تسع عشرة — فلم يستحجب الناصر بعده أحداً . وكان يحجبه عند قعوده لسلام الأجناد ، ولوفود الأطراف ، ورسل الأمم وأصحاب الخيل والمدينة والشرطة العليا والوسطى[2] على مراتبهم مع سائر الخدَمة . ومن شعره قوله يمدح عبد الرحمن الناصر ويذكر هيبته :

---

(١) القُطُع جمع قطيعة ، وهى فى المصطلح الإدارى الذى يستعمله ابن حيان مبلغ من مال الجباية تتعهد بأدائه سادة النواحى الذين تعجز الدولة عن السيطرة عليهم ، فتتركهم عليها فى مقابل أدائهم إياها . وقد يتعهد المستبد بالناحية بأداء القطيعة دون ثورة أو قطع للطاعة . وكان أولئك المستبلون بالنواحى كثيرين فى الأندلس حتى منتصف حكم عبد الرحمن الناصر . وكان هناك لهذا ديوان — أو « خطة » فى المصطلح الأندلسى — لهذه القُطُع . وهى تشبه من بعض الوجوه المقاطعات فى المصطلح الشرقى ، وتختلف عنها من وجوه أخرى .

انظر : دوزى ، ملحق القواميس ، ٢/ ٣٧٢ .

(٢) صاحب الخيل هو المشرف على شؤون الخيل اللازمة للجيش وما يتصل بها من سرج وقرابيس وما إلى ذلك . وكانت خطة الخيل وظيفة إدارية فى الغالب ، وقد يتولاها قائد من القواد ، وقد يقود صاحبُ الخيل الصوائفَ .

وصاحب المدينة هو حاكمها ، ويراد بها عادة العاصمة قرطبة .

أما الشرطة العليا والوسطى ففى تفسيرهما خلاف . وقد انتهينا من استقراء النصوص إلى أن الشرطة العليا كانت خاصة بأمن الأمير وقصوره وأهل بيته وكبار الناس ، والوسطى تتعلق بأعمال الشرطة المعروفة ، أى الأمن العام فى المدينة نفسها . وفى بعض النصوص ورد ذكر =

إذا ما فُرِّجَت خللُ الستورِ   ولاح وقد تمكن فى السريرِ

ترى الأملاكَ مائلةً لديهِ   بأعناق إلى الغبراء صورِ

كأنهمُ لهيبتــــه قد أوفوا   من الموت الزعاف على شفيرِ

وله :

أبطأتَ بالإذن على عبدكا   فعاذ بالمعروف من تَجْدكا

/قد جُدتَ لى بالوعد ياسيدى   ولم تزل تصدقُ فى وعدكا [١١٦-١]

إن لم يكن من خدمتى شافعٌ   فالخُلْف ما يصلُح مِن عِندكا

وله :

معظَّمٌ تَحْسِرُ الألحاظُ من رَهَبٍ   عنه ، وتلحظه الآمال من رَغَبِ

إذا بدا تضحك الدنيــــا لطلعته   وتتقى الجِنُّ منه سَورةَ الغضبِ

لمـــا ارتقى فى سماء الجود قاد به   إلى التبذُّل فينــــا جوهر الأدبِ

وله :

كان العزاءُ ولىَّ العهد بعد أمير   ن الله ، والمُلكُ وقفٌ بين هذينِ

فصرتُ لما نأتْ عنى وجوهُهما   كالصقرِ أصبح مقصوص الجناحين

أستودع اللهَ مَن نفسى فِداؤُهما   ومُلِّيا العُمَرَ فى الدنيا عزيزيْنْ

تأميلُ هذين نقدٌ ناجزٌ ، وأرى   تأميلَ غيرِهما كالدَّين بالدَّين

أعُدُّ ما حُزتُه من حُسنِ رأيهما   مُلــكاً ، أضاهى به مُلاكَ العراقين

= الشرطة السفلى واختصاصها – فيما يبدو – الأسواق والأحياء الدنيا من البلد . وقد حاولت أن أتعرف ما إذا كان صاحب الشرطة العليا مثلا هو المشرف على الأمن العام فى مصطلحنا الحديث – ومن ثم فهو رئيس الشرطة الوسطى والشرطة السفلى – فلم أستطع تبين ذلك بوضوح ، خاصة وأننى لاحظت أن صاحب الشرطة الوسطى كان فى نفس المكانة التى كان فيها صاحب الشرطة العليا ، وكان يعينهما الأمير أو الخليفة بنفسه .

وحكى ابن حيّان أن موسى بن محمد بن موسى بن حُدَيْر[1] — عمّ الحاجب موسى هذا — وهو المعروف بالزاهد ، كان ممن يُكثر مجالسة الأمير عبد الله ويصل مؤانستَه . وكان حدثاً ظريف المشاهدة ، مليح العبارة ، إخباريًّا ، ممتعاً ، حُفَظَةً لأخبار دولة مواليه بنى أمية ، مفتَنًّا ، مفوهاً ، بليغاً ، يقرض أبياتاً من الشعر حسنة ، بديهةً ورويةً . قال : فشهد مجلس مذاكرة الأمير عبد الله يوماً وهو حافل بأهل الأدب والمعرفة ، وقد أفاضوا فيما كانوا يفيضون فيه من أبواب المذاكرة ، حتى مر ذكرُ الشيب وذمّه — وكان الأميرُ عبد الله شديدَ التكرُّه له — فقال لجلسائه : « أىُّ شىء تروونه فى ذم الشيب أبلغ ؟ » ، فلم يحضر أحدَهم شىء ، إلا موسى بن محمد هذا فقال أحسن ما قيل فيه عندى ، قول الأُوَل :

أقول لضيفِ الشيبِ إذ حلّ مفرقى : نصيبك منى جَفوةٌ وقطوبُ
حرام علينا أن تنالكَ عندَنا كرامةُ بِرٍّ أو يمسَّك طِيبُ

/ فاستحسنهما الأمير وقال له : « اكتبهما يا موسى وزد فيهما ، إن كانت [١١٦-ب] فيهما عندك زيادة » ، فقال : « لا والله يا سيدى ما عندى فيهما مزيد » . وتبطّأ الوصيف بإحضار الدرج والدواة لموسى بن محمد[2] ، وموسى مطرق أن يتأتى[3] له القول فى الزيادة التى استمطرها[4] منه الأمير ، فقال : « قد جاءنى يا سيدى — بسَعْدك — بعضُ الذى أردته » ، واندفع فوصل البيتين بقوله :

(١) من هنا ينقل ابن الأبار عن المقتبس ، ص ٣٤ – ٣٥ .

(٢) الأصل : موسى بن موسى .

(٣) المقتبس (ص ٣٥) : إلى أن تأتى .

(٤) الأصل : أمتنطرها ، والتصويب من المقتبس (ص ٣٥) وابن الأبار ينقل عن ابن حيان هنا حرفاً بحرف .

فياشرَّ ضيفٍ حلَّ بى ، وحلولُهُ يُخَبِّرُنى أنَّ المماتَ قريبُ
وأنَّ جديدى كلَّ يومٍ إلى بِلًى وأنِّىَ من ثوب الشباب سليبُ
فما طِيبُ عيشِ المرء إلا شبابُهُ وليس إذا ما بان عنــه يطيبُ
سأَقريك ياضيفَ المشيب قِرى القِلَى فمالك عندى فى سواه نصيبُ
وأبكى على ما قد مضى من شبيبتى بكاء محب قد جفاه حبيبُ
مضى مُسْلَمًا ـ لهفى عليه ! ـ مدى المدى فليس إلى يوم التنادِ(١) يؤوبُ

فسُرَّ الأمير عبد الله بما أتى به ، وأثنى على قريحته .

وأنشد له أبو عامر السالمى(٢) فى كتاب « حلية اللسان وبغية الإنسان » فى التشبيهات من تأليفه :

ليت شعرى كيف يَفرى لحظُهُ من شِغاف القلبِ باللحظِ الأَكَلْ
طَرْفُهُ ساجٍ ، وفيــه مرضٌ كم صحيــحٍ قد رماه فقتَلْ

---

(١) الأصل : الثناء ، وقد قرأها دوزى : التناء . وصوبناها عن أصلها عند ابن حيان (المقتبس ، ٣٥) .

(٢) أبو عامر محمد بن أحمد بن عامر البلوىّ السالمى الطرطوشى ، من أهل طرطوشة وسكن مرسية ، وسمى السالمى لأن أصله من مدينة سالم ، مؤرخ أديب عمر طويلا فى مرسية وتوفى فيها سنة ٥٥٩/١١٦٣ . ترجم له ابن الأبار فى التكلة ، رقم ٧٢٥ ، والضبى فى البغية ، رقم ٣١ . تنسب إليه كتب فى اللغة والأدب والشعر والتواريخ والحديث كما يقول الضبى ، نقل عنه ابن عذارى كلامه فى غزو النورمانيين للأندلس سنة ٢٢٩/٨٤٣ ، وقد نقل دوزى هذه القطعة فى « أبحاثه » ، الطبعة الثالثة ، ص ٢٥٥ ، ونقل المقرى فى نفح الطيب (طبعة أوروبا) ٨٢/١ فقرة من كلامه عن فضائل الأندلس . وينسب إليه من الكتب ، غير الذى ذكره ابن الأبار : « درر القلائد وغرر الفوائد » وهو أكبر كتبه وأكثرها ذكراً فى المراجع ، وكتاب « السلك المنظوم والمسك المختوم » .

انظر : تعليقات جايانجوس على ترجمته الإنجليزية لجزء من نفح الطيب ، ج ١ ص ٣١٣ ، وفهرس مخطوطات الإسكريال للغزيرى ٤٠/٢ . وذكره حاجى خليفة تحت رقمى ٧٦١٤ و ٩٩٧٥ من طبعة أوروبا وپونس بويجيس ، رقم ١٨٧ ص ٢٢٦ – ٢٢٧ .

مَن مُجيرى من رشاً ألحاظُه إنما تُذْكِرُنى وقعَ الأسَلْ

وقرأت فى تاريخ الحُمَيدى أن صُهيب بن مَنيع — وكان قاضياً بإشبيلية — كان نقْش خاتمه :

يا عليماً كل عيبٍ كن رفيقاً بصُهيبِ

وأنه كان يشرب النبيذ — لعله كان يذهب مذهب أهل العراق — فشرب[1] مرة عند/ الحاجب موسى بن حُدَيْر — وكان من عظماء الدولة [١١٧ – ا] الأموية — فلما غفل أمر باختلاس خاتمه ، وأحضر نقاشاً فنقش تحت البيت المذكور :

واسترِ العيبَ عليه إن فيه كلَّ عيبِ

ورد الخاتم إليه . وختم القاضى به زماناً حتى فطن له .

---

٩١ — أحمد بن عبد الملك بن شُهيد
الوزير ، أبو عمر

هو أحمد بن عبد الملك بن عمر بن محمد بن شُهيد بن عيسى بن شَهيد بن الوَضّاح الأشجعى .

---

(١) الأصل : فشرد ، والتصويب من بغية الملتمس للضبى ، وقد أورد الحكاية بنصها فى كلامه عن صهيب بن منيع (رقم ٨٥٦ ص ٣١٢) .

وترجمة أبي الوليد بن الفرضى لصهيب بن منيع أوفى مما هى عند الضبى ، فقد ذكر فى رقم ٦٠٢ جـ ١٦٨/١ أنه يكنى أبا القاسم وأنه من تلاميذ بقى بن مخلد ومحمد بن وضاح وإبراهيم بن قاسم ابن هلال ومطرف بن قيس وعبد الله بن مسرة ، وأن عبد الرحمن الناصر ولاه قضاء إسبيلية وأنه توفى فى ١٢ رجب ٣١٨ .

وقال الرازى إن جدهم مولى معاوية بن مروان بن الحكم . وكان الوَضّاح مع الضحاك بن قيس يومَ مَرْج راهِط . وشُهَيد بن عيسى هو الداخل إلى الأندلس فى أيام عبد الرحمن بن معاوية ، وتصرّف بنوه الخلفاء فى الخُطَط السنية ، من الإمارة والحجابة والوزارة والكتابة ، إلى انقراض الدولة الأموية بالأندلس .

وتصرّف أحمدُ هذا للناصر عبد الرحمن بن محمد فى ولاية الكُوَر والوزارة وقَوْد الصوائف ، وغزا البَشْكُنْس . وهو أول من سُمى بـ « ذى الوزارتين » . وكان من أهل الأدب البارع . حكى الحُمَيدى عن أبى محمد بن حزم بسندٍ ذَكره أن أحمد بن عبد الملك هذا زار عبد الملك بن جَهْوَر الوزير — وكانا جميعاً يخدمان الناصر عبد الرحمن — فوافقه محجوباً ولم يمكنه الاجتماع به ، فكتب إليه :

أتيناك ، لا عن حاجةٍ عرضتْ لنا إليك ، ولا قلبٍ إليك مشوقِ
ولكننا زرنا ـ بضعف عقولنا ـ حماراً تولى برّنا بعقوقِ

فأجابه ابن جَهْوَر بقوله :

حجبناك لما زرتنا غيرَ تائقٍ بقلبِ عدوٍّ فى ثيابِ صديقِ
وما كان بيطار[1] الشآمِ بموضعٍ يباشر فيه برّنا بخايقِ

وذكرتُ بقول ابن شُهَيد قولَ عبد الملك بن سعيد المرادى الخازن :

ما حمدناك إذ وقفنا ببابكْ للذى كان من طويل حجابكْ
/ بل ذممنا الزمانَ فيك وقلنا : أبْعد اللهُ كلَّ دهرٍ أتى بِكْ ! [١١٧-ب]

(١) عبد الملك بن محمد بن جهور يعير أحمد بن شهيد فى هذا البيت بما يقال من أن جده وضاحاً كان يعمل بيطاراً فى الشام قبل أن يخدم معاوية بن مروان بن الحكم ويدخل فى ولائه .

ولأبي عمر بن شُهَيد :

جريتُ مع العشاق فى حَلْبة الوَجْدِ فقاتهم وصْلى وما عرفوا جهدى
وما نهج العشاقُ فى الحب منهجاً ولا سلكوا إلا السبيل التى أهدى
وما أضمر العشاقُ فى الوجد غايةً من الشوق إلا وهى من بعض ما أبدى
وما ضعفوا عن حملِ ثقلٍ [.....] [....][1] اضطلعتُ به وحدى
أنا فاتحُ المنهاجِ فى سُبلِ الهوى كما عابدُ الرحمٰن[2] فاتحةُ المجدِ
وخاتمـــةُ العشاق شرقاً ومغرباً كما عابدُ الرحمٰن خاتمةُ الرشدِ

---

٩٢ — ابنه عبد الملك بن أحمد
الوزير ، أبو مروان[3]

كان على طُلَيْطِلَة لهشام بن الحَــكم المؤيد ، ومنها خاطبه مهنئاً بمقتل غالب القائد صاحب مدينة سالم فى خلافه . ومن شعره :

---

(١) بياض بالأصل لم أستطع سده من المراجع التى تحت يدى ، لأن أخبار أحمد بن شهيد هذا قليلة ، ويخلط بعضهم بين أحمد هذا وحفيده أحمد بن شهيد الشاعر المشهور أيام الطوائف ومعاصر ابن حزم .

وليس من العسير سد هذا الفراغ بشيء مثل :

وما ضعفوا عن حمل ثقل [عرفته] [وناموا به إلا] اضطلعت به وحدى

(٢) المراد عبد الرحمن الناصر .

(٣) عبد الملك بن أحمد بن شهيد نقطة تحول كبير فى تاريخ بنى شهيد ، فبعد الجلالة التى كانت لآبائه منذ أيام عبد الرحمن الداخل إلى عبد الرحمن الناصر ، نجد عبد الملك بن شهيد وزيراً من وزراء المنصور ونديماً من ندمائه ، بل كان أقرب هؤلاء إليه وأكثرهم اجتهاداً فى مرضاته حتى لقد حاول أن يرقص فى مجلسه رغم سنه العالية ، فتحامل على أصحابه ليسُرَّ المنصور (راجع نفح الطيب للمقرى ، طبعة أوروبا ، ١/٢٦٠ – ٢٦١و٢/١٧٧) . وقد ترجم لعبد الملك بن شهيد من الناحية العلمية والأدبية أبو القاسم خلف بن عبد الملك بن بشكوال فى الصلة

طلع البــدرُ علينا فحسبناه « لَبِيبــا »
والتقينــا فرأينا هُ بعيــداً وقريبا(١)

وله :

قصَّرتَ عن شأوى فعاديْتَنِى أقصِرْ فليس الجهلُ من شانى
إن كان [قد] أغناك ما تحتوى بُخْلاً ، فإن الجودَ أغنانى

٩٣ ـ عبد الوهاب بن محمد بن عبد الوهاب الوزير ، أبو وهب(٢)

هو عبد الوهاب بن محمد بن عبد الوهاب بن عبد الرءوف بن عبد السلام بن إبراهيم بن يزيد بن عبد الله بن جابر بن عمر بن أيوب ، مولى مروان بن الحَكَم .

=(رقم ٧٥٦ ص ٣٤٩) فذكر كيف أخذ عن قاسم بن أصبغ وأبي الحزم وهب بن مسرة الحجارى، بل سمع منه ناس أجلاء مثل أبي عبد الله بن عابد الذى ذكره فى فهرسة شيوخه بكلام كثير وقال إنه كان « أوحد الناس بالتقدم فى علم الخبر والتاريخ واللغة والأشعار وسائر ما يحاضر به الملوك مع سعة روايته للحديث والآثار ، وهو مؤلف كتاب « التاريخ الكبير فى الأخبار على السنين » بدأ فيه من عام الجماعة سنة ٤٠ وانتهى إلى أخبار زمانه المنقطعة بوفاته رحمه الله ، وهو أزيد من ١٠٠ سفر. كانت صحبتى له نحو عشرة أعوام أوفوقها ، إذكان مجاوراً لنا بمنية المغيرة لما استقرب المنصور رحمه الله لقاءه بإسكانه فى منية النعمان بالناحية المذكورة » ، ثم ذكر ـ روايةعن ابن الفرضى ـ أنه توفى ليلة الأحد ٤ ذى القعدة ٢٣/٣٩٣ سبتمبر ١٠٠٤ . وكانت منيته من ذبحة أصابته . وكان فى السبعين من عمره لما توفى .

(١) الأصل : قريباً وبعيداً .

(٢) فى هذا الفصل يورد ابن الأبار موجزاً طيباً جداً لتاريخ ذلك البيت الأندلسى الكبير الذى عرف أفراده ببنى عبد الرءوف ، وكانوا من الطاهرين بين الشاميين من موالى الأمويين .

وزيادة فى التوضيح جعلت لكل رجل من رجال البيت فقرة خاصة . وقد نسب البيت إلى عبد الرءوف ، ولو أنه لم تكن الجد الأعلى ، ولكنه أول من وصل إلى الوزارة من أفراده .

وكان عبد الله بن جابر قاضياً لعمر بن عبد العزيز بالشام ، ودخل الأندلسَ من عقبه عبدُ السلام بن إبراهيم وأخواه أبو المفوز وعُقْبة فتناسلوا بها ، وخدموا الخلفاء وتصرفوا فى الولايات .

وحكى أبو بكر الرازى أن عبد السلام ولد اثنى عشر ولداً . قال : وكان أميناً[1] للأمير عبد الرحمن بن معاوية بكورة إلبيرة ، ويكنى أبا الدِّلهاث .

ووَلِىَ ابنُهُ عبد الرءوف / طليطلةَ وما والاها للأمير عبد الرحمن بن الحَكَم [١١٨-أ] سبعةَ أعوام ، وتصرف فى كثير من الكُوَر ، ثم استوزره فى أخريات أيامه . واستوزره أيضاً الأميرُ محمد بن عبد الرحمن ، وتوفى وهو وزير .

ووَلِىَ عبدُ الوهاب بن عبد الرءوف الكُورَ المجندة وغيرها ، أيامَ الأمراء محمد وابنيه المنذر وعبد الله ، وتوفى بإشبيلية وهو عامل عليها .

ووَلِىَ محمدُ بن عبد الوهاب كورةَ جَيّان ومات بها .

وتصرّف عبدُ الوهاب بن محمد هذا لأمير المؤمنين الناصر عبد الرحمن بن محمد فى الولايات والأمانات ، ثم استوزره . وذكره أبو بكر الزبيدى فى كتاب « طبقات النحويين » من تأليفه ، وقال : كان بصيراً بالعربية ، طالع كتاب سيبويه ونظر فيه . وكان ذا كِبْر عظيم وبأوٍ مفرط ، ويُظهر مع ذلك زهداً .

---

(١) الأمين هو المتولى شؤون المال فى الكورة ، فهو الذى يقوم بجباية الضرائب المختلفة واستنزال نفقات الموظفين والأعمال العامة ورواتب الجند ، وإرسال الباقى (وكان يسمى « الفائض » أو « المستفاض ») إلى الإدارة العامة بقرطبة ، وكانت هذه الإدارة مجموعة من المبانى ملحقة بالقصر يُدخل إليها من باب يسمى باب السُّدّة ، ولهذا عرفت كلها باسم باب السدة ، وكان يتبع الأمين عدد كبير من الجباة والحُسّاب والمشرفين (جمع مشرف) وهم أشبه بالمفتشين الماليين . وقد يسمى الأمين خازناً أيضاً ، ولو أن هذه التسمية تختص فى الغالب بالمتولى لشؤون المال فى قرطبة ، فيقال الخازن والمراد به شىء شبيه بوزير المال . وقد جرت العادة بألا يقتصر على خازن واحد ، بل نجدهم فى الغالب ثلاثة يسمون الخُزّان أو الخَزَنة .

والأمين هنا غير الأمين بمعنى نقيب أهل حرفة من الحرف .

ووَلِيَ الوزارة ، فكان لا يزال يورد على أصحابه من الوزراء مسائلَ من عويص النحو ، حتى بَرِموا به واستعفَوْه من ذلك . وهو القائل ، وكان سِنَاطًا :

ليس بمن ليست له لحيةٌ بأسٌ ، إذا حصَّلته ، لِبْسَا[1]
وصاحبُ اللحيــةِ مستقبَحٌ يشبه فى طلعته التيســا
إن هبتِ الريحُ تلاهتْ بِهِ وماستِ الريحُ به مَيْسا

وله :

قتلتْ عيناكَ عبدَكْ قبل أن تقضيه وعدَكْ
حُلتَ عن عهدِ محبٍ لم يزل يحفظ عهدَكْ
ما لأفعــالك [...] [...] لا تشــبه ندك[2]

وله :

إذا ما بدا يُغْشِى العيون بسُنَةٍ منافية تُغنِي عن الشمس والبدرِ
ووجهٍ إذا ما الأنجمُ الزُّهْرُ أبصرتْ محياه ظنته من الأنجم الزُّهر

وله :

أحْوَذِيٌّ فى مجده أوْحَدِيٌّ ليس يُحكَى سناؤه وسَناهُ
من رآه فقد رأى الغيثَ والليــثَ جميعًا فى بأسه ونداهُ
يستميل العيونَ منــه رواءٌ ترتوى من حيائه وحياهُ[3]

(١) أورد نفس الأبيات أبو بكر محمد بن الحسن الزبيدى فى « طبقات النحويين واللغويين » ، بتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، القاهرة ١٩٥٤ ، ص ٣٢١ . وقد وردت كلمة ليسا فى الأصل لبْسَا ، وهكذا قرأها دوزى ، فصوبتها على أصلها عند الزبيدى .

(٢) البياضان بين المعقوفات واردان بالأصل . وقد وردت « ندك » دون نقط .

(٣) الأصل :

بستميل منه العيــون رؤى وترتوى من حـــائه وحــاه

وهو غير واضح ووزنه غير مستقيم . وقد صوبه دوزى (ص ١٣٠) كما أثبتناه .

إن بدا خِلتَ أنه قمرُ الأر ض وصِنْواه حولَه كوكباهُ

[وله :][1]

/ليهنِى النـاسُ فى مُلـكهِ أن ابنَهَ التاسعُ من بَعدِهِ[2] [١١٨ب]

يقوم فى المُلك مقاماتِهِ ويحتذى فيها على قصده

أوتى حكماً فات فيـه الورى فـكاد أن ينطق فى مهده

حُمِّل أعباء العُـــلَى فاكتفى عفواً ولم يبلغ إلى جهـــده

ودخل يوماً على عبد الملك بن جَهْوَر الوزير فأقعده إلى جنبه ، ومال إليه بحديثه ، ثم دخل الخَرُّوبى[3] فأقعده فوقه ؛ فخرج أبو وهب مغضباً وكتب إليه :

بلوتُك أسْنى العالمَين وأفضلا وأهذبَ فى التحصيل رأياً وأكملا

فقل لىَ : ما الأمر الذى صار مُخْلِى لديك فأضحى مُسقِطاً لىَ مُخْمِلا ؟

---

(١) أضفتها لسياق الكلام .

(٢) هذه الأبيات – كما هو واضح – تهنئة لعبد الرحمن الناصر بابنه الحكم ولى عهده ، والحكم بالفعل هو تاسع أمراء وخلفاء البيت الأموى الأندلسى .

(٣) محمد بن عبد الله الخروبى من كبار رجال « التدبير » أى الإدارة المدنية أيام عبد الرحمن الناصر ، فقد ولاه فى أول سنة لإمارته (سنة ٣٠٠ هـ) خزانة السلاح مع العَقل ، مشتركاً فى خزانة السلاح مع حسين بن أحمد الكاتب (ابن عذارى : ٢/١٥٩) ، وفى السنة التالية ولاه خطة العَرض مع آخرين (ابن عذارى : ٢/١٦٤) ، وفى سنة ٣١٠ رقاه إلى ولاية المدينة أياماً يسيرة (نفس المرجع : ٢/١٨٣) ، وفى سنة ٣١٣ ولاه خزانة السلاح مفرداً بها (نفس المرجع : ٢/١٩١) ، ثم تولى خطة صاحب المدينة سنة ٣١٤ ، وفى هذه الوظيفة مات فى أول صفر منها .

وكان لمحمد الخروبى أخ يسمى أحمد بن عبد الله الخروبى تولى خطة العرض سنة ٣١٠ أيام الناصر (ابن عذارى: ٢/١٨٣) . وكان له ابن يسمى عبد الله بن محمد بن عبد الله الخروبى تولى فى حياة أبيه بعض الوظائف الصغيرة .

و« العَقل » المذكور فى هذا التعليق خطة ، أى وظيفة مالية ، وتسمى « الاعتقال » أيضاً ، اختصاصها الحياطة على أموال المتوفين أو الغائبين أو من تطالبهم الدولة بأموال حتى يتم الفصل فى أمرها . والإشارات قليلة فى النصوص عن هذه الخطة .

تُقدِّم من أضحى تقـــدَّم لومُهُ   لقد ضل هذا من فعالك مشكلا
وما كنت أرضى ـ يعلم الله ـ أننى   أساويه فى الفردوس داراً ومنزلا
فإن كنتَ قد قصرتَ بى عن محلتى   صبرتُ ، وما زال التصبر أجملا
ورحت على الدهر اللئيم ألومهُ   فقد هيض أعلاه وغودر أسفلا
وكنتَ جديراً فى كمالك أن ترى   لمثلى نصيباً من ودادك أجزلا

فأجابه عبد الملك بأبيات منها :

غدرتُك[1] ، إلا أنَّ فَرط محبتى   وإخلاصَ ودى سهَّلا لى التدلُّلا[2]
ظلمتُك فيما كانَ منىَ مجمَلاً   على غير تحصيلٍ وعاتبتَ مجمِلا
تقربتَ من قلبى ، وإن كنتُ آخِراً   وأُخِّرَ عن قلبى ، وإن كان أوَّلا
وما أجهلُ القدْرَ الذى أنتَ أهلهُ   ولا شرفاً أضحى عليك مظلَّلا
فإن عنّ[3] تقصيرٌ بغـــير تعمُّدٍ   فغطِّ عليـــه منعِماً متطوِّلا

[١١٩-١] ٩٤ — أخوه /غالب بن محمد بن عبد الوهاب ، أبو عبد السلام

وَلِى خطة العَرض ، وكتب للحَكم وهو ولى عهد فى حياة أبيه الناصر ؛ ذكر ذلك الرازى . وأنشد له صاحب « الحدائق » :

---

(١) يريد : ظلمتك .

(٢) يريد حملا لى دالة عليك .

وورد هذا اللفظ عند الزبيدى (ص ٣٢١) : التذللا ، ورواية ابن الأبار أصح . وهناك خلافات أخرى بين النصين لا تغير المعنى ، فلم نر الإشارة إليها ، فيما عدا لفظ « ضل » فى الشطر الثانى من البيت الثالث ، فقد ورد عند الزبيدى ظل ، وهو أحسن .

(٣) الأصل عز ، والتصويب من الزبيدى (ص ٣٢٢) وقد أسقط ابن الأبار هنا أبياتاً وردت عند الزبيدى .

جُفون هَمَتْ مذ غاب عنها حبيبُها ونفسٌ بها للشوق نارٌ تُذيبُها
تيقَّنْتُ إذ ودَّعْتها أن مهجتى سيقضى عليها شوقُها ونحيبُها(١)
شققتُ جيوبى يوم بانتْ ، وطالما أطالَ عذابى ما طوتْه(٢) جيوبُها
وللحب حالاتٌ تمرُّ خطوبُها إذا قُرنت بالبَيْن تحلو(٣) خطوبُها
معذِّبتى ، لا تأسفى ، فلعلَّها تعـــود ليالينا القصارُ وطيبُها
ألا ليتَ نفسى تستطيع فداءها ويا ليتَها من كل خيرٍ نصيبُها
يعيبونها عمداً لأسلوَ ذِكرَها وما عاب إلا نفسَه من يعيبها

٩٥ — جهور بن عبيد الله بن أبي عبدة الوزير ، أبو الحَزْم

قال أبو بكر أحمد بن محمد بن موسى الرازى ، فى تأليفه فى الأنساب المسمى بـ « الاستيعاب » : الوزير جَهْوَر بن عبيد الله هو جهور بن عبيد الله بن محمد بن الغَمْر بن يحيى بن عبد الغافر بن حسان بن مالك بن عبد الله بن جابر(٤) .

(١) الأصل ودورى (١٣٢) نحيبها .
(٢) قرأها دورى (١٣٢) : صوته .
(٣) قرأها دورى (١٣٢) يحلو.
(٤) هنا أيضاً يوجز ابن الأبار تاريخ بيت ثالث من بيوت الموالى الشاميين ، وهو بيت أبي عبدة الذى تفرع عنه فيما بعد بيت بنى جهور.
وقد كتب اسم حسان بن مالك ، حسان بن ملك ، والأول أصح بحسب ما نعلم ، وقد صوبت كتابة الاسم كما كتبه ابن الأبار نقلا عن أحمد بن محمد الرازى ، وإلى أن نعثر على كتاب الرازى لا نستطيع القطع بالصورة الصحيحة للاسم .
وبيت بنى عبدة هو بيت حسان بن مالك . =

وكان عبد الله مملوكاً لمروان الحَكم ، أبلى يومَ وقيعة مَرْج راهِط بلاء حسناً فأعتقه .

والداخل من أجداد هذا الوزير حسان بن مالك ، وهو أبو عبدة . وكان دخولُه سنةَ ثلاث عشرة ومائة ، قبل دخول عبد الرحمن بن معاوية بخمس وعشرين سنة . وولد حسان بالمشرق أولاداً قُتلوا ، إلا عبد الغافر لصغره ، فنشأ مع عبد الرحمن بن معاوية ، وتأدب معه بالمشرق . ولما قدم بدرٌ مولى عبد الرحمن بخبره إلى مواليه الشاميين ، استراح به إلى أبي عَبْدة[1] ، فوجَّه ابنَه عبد الغافر إليه[2] .

فلما توطد عبد الرحمن ، استوزر أبا عبدة واستقْوده ، ثم استعمله على [١١٩-ب] إشبيلية قائداً بها ، ومضيقاً على أهل باجة وغيرها ، فملك الغرب أجمع/ خمسةَ أعوام ، إلى أن توفى بإشبيلية ؛ وقبره بها[3] .

= وبعد جهور بن عبيد الله يصبح الاسم الغالب على البيت بيت بنى جهور ، وفى هذا خلاف لما يذكره كثير من المؤرخين من أن بنى جهور هم أبناء يوسف بن بخت من موالى عبد الرحمن الداخل ، وابن الأبار نفسه قال ذلك فى مواضع أخرى من كتابه ، وهذا الموضوع فى حاجة إلى تحقيق لا تتسع له هذه الطبقات .

(١) أى أن بدراً عندما عبر إلى الأندلس من المغرب حاملا إلى الموالى الشاميين خبر وجود عبد الرحمن بن معاوية عند قبيلة نفزة على مقربة من طنجة ، وأنه برغب فى العبور إلى الأندلس ويرجو عونهم ، أفضى بدر بالخبر أولا إلى حسان بن مالك المعروف بأبى عبدة .

(٢) أى أن أبا عبدة حسان بن مالك أرسل ابنه عبد الغافر إلى عبد الرحمن فى ملجئه عند قبيلة نفزة ليطلعه على أحوال الأندلس ويؤكد له استعداد الموالى لتأييده .

(٣) كانت إسبيلية وما يليها من غرب الأندلس ، وأكبر مدنه إذ ذاك باجة وماردة وقورية ، من مراكز الثورة الكبرى على عبد الرحمن الداخل ، وقد اجتهد هذا فى القضاء عليها وتمهيد أمور الغرب طوال إمارته كلها . وقد تزعم الثورة فى إشبيلية عبد الغافر اليمانى رأس العرب اليمنية ، وفى باجة العلاء بن مغيث الجذامى ،وكان قد لجأ إلى الدعوة العباسية ونادى بها ، وقد تمكن عبد الرحمن من القضاء على عبد الغافر وإرغامه على الهرب إلى المشرق حوالى سنة ١٤٥ ، وقتل العلاء بن مغيث بعد معركة عنيفة سنة ١٤٦ ، وولى عليها عبد الرحمن زعيما يمنياً هو أبو الصباح ابن يحيى اليحصبى ، فثار عليه ، وتمكن عبد الرحمن من القضاء عليه أيضاً سنة ١٥٠ . وأما لبلة فقد ثار فيها يمنى آخر هو سعيد اليحصبى المعروف بالمطرى ، واتسع مدى ثورته حتى استولى على إشبيلية ، وقد تمكن عبد الرحمن من القضاء عليه وقتله سنة ١٤٩ . =

وتصرف عبدُ الغافر فى الوزارة للإمام عبد الرحمن ، وبَرِىَ[1] إليه بخاتمه ، إلى أن مات .

قال : وأما عبيد الله بن محمد بن الغَمْر ، فإنه تصرَّف فى الكُوَر وحِجابة الأولاد والمدينة والخيل والكتابة والقيادة ؛ وقد تقدم ذكر ذلك .

قال : وتصرَّف جَهْوَر بن عبيد الله فى الكُوَر والأمانات والقيادة والمدينة والوزارة للناصر .

وقال غيره : كان عبيد الله والد أبى الحزم هذا — مع تحققه بالمعرفة والأدب والبلاغة — ذا بأس وشجاعة وغناء فى الحروب ، وله فتوح جمة ومَقَاوِم حميدة . واستأذن الأمير عبد الله بن محمد فى آخر دولته لقضاء فريضة الحج فأذن له ، وحج ثم انصرف إلى قرطبة فانقبض عن السلطان ، وأخلد إلى الخمول ، وأقام على حاله تلك فى داره إلى أن توفى سنة ست وتسعين ومائتين ، آخرَ أيام الأمير عبد الله .

وتصرف ابنُهُ جَهْوَر بعدَه — فيما ذكره الرازى — وكان شاعراً مكثراً ؛ فمن شعره قوله من أبيات فى تفضيل الورد ، وكأنه يرد بها على ابن الرومى[2] :

= وهذا الخبر الذى يورده ابن الأبار عن تولية أبى عبدة حسان بن مالك قائداً فى إشبيلية والغرب كله يفسر لنا سبباً من أسباب انتصار عبد الرحمن على هذه الثورات كلها .

(١) الأصل : بَرَى ، وقرأها دوزى (ص ١٣٣) : رمى .

(٢) كان لقصيدة ابن الرومى فى تفضيل الورد ومطلعها :

خجلت خدود الورد من تفضيله … خجلا ، تورُّدُها عليه شاهد

صدى بعيد عند شعراء الأندلس ، وقد أورد أبو الوليد إسماعيل بن عامر الحميرى فى « البديع فى وصف الربيع » (ص ٧٠ وما يليها) طائفة من ردود الأندلسيين عليه ومحاولاتهم مضاهاته ، مثل قصيدة أبى عثمان سعيد بن فرج الجيانى ومطلعها :

عنِّى إليك ، فما القياسُ الفاسدُ … إلا الذى أدى العيانُ الشاهدُ

وقصيدة أبى بكر بن القوطية التى مطلعها :

كُسفت خدود النرجس المصفر من … حسدٍ ، وقد يَدْوى العدو الحاسد =

خضعت نواويرُ الرياض لُحسنِه ... فتذلَّلت تنقاد وهى شواردُ
وإذا تبدَّى الوردُ فى أغصانه ... ذأَتْ(١) ، فذا ميتٌ وهذا حاسدُ
وإذا أتى وفد الربيع مبشِّراً ... بطلوع صفْحته فنعم الوافد
ليس المبشَّر كالمبشِّرِ باسْمِهِ ... خبرٌ عليه من النبوة شاهد
وإذا تعرّى الوردُ من أوراقه ... بقيتْ عوارفُه فهنَّ خوالد

وله :

يا عاتباً لى بالصـــدو ... دِ ألا ذكرتَ قبيحَ غدْرِكْ ؟
أخليتَ من قلبى مكا ... ناً كان معموراً بذكْرِكْ
وأنا أحبكَ لو وثِقْـ ... ـتُ وأستديمُ بقاء عُمرك

وله :

/ يا لائماً والـــظلمُ منْـ ... ـهُ ظاهرٌ لِى والفظاعهْ [١٢٠-١]
كم قد ضرعتُ وقد سمعـ ... ـتَ فما لويتَ إلى الضراعه
فلئن رجعتَ كما علمْـ ... ـتُ لأقطعنْ فيكَ الجماعه
ومتى لججتَ على الأذى ... جازيتُ فعلكَ فىَّ ساعَهْ

وله :

أسأتَ ـ لعَمرى ـ إذ أسأتَ بى الظنَّنا ... وألزمتَنى ذنباً شَغلتَ به الذهنا
تجنيتَ فى عَذْلى كأنىَ مذنبٌ ... رُويدكَ ، إن العذلَ قد يوجب الشحْنا
فلا تتجنَّ الذنبَ من غير علةٍ ... فربَ تجنٍ يورث الحقدَ والضِّغنا

= ولم يشر فى هذا الموضع إلى أبيات أبى الحزم جهور بن عبيد الله ، وهى من طائر الشعر فى الأندلس ، وقد رواها معظم مراجعنا .

(١) حملها دوزى (ص ١٣٤) : يزهو ، وقد أخذ ذلك عن « مطمح الأنفس » لابن خاقان (طبعة الجوائب ، الآستانة ١٣٠٢) ص ١٥ .

وإنى امرؤٌ محضُ المودةِ مخلصٌ أُصافى خليلى بالذى هو بى أشفى
وإن [زلّ](١) يوماً فى ودادى أقلته وقارضتُه فى ذاك(٢) بالصحبة الحسْنا
وهل لى ـ فدَتْك النفسُ ـ دونَك راحةٌ وأنت شقيق النفس والأقربُ الأدنى ؟
فثق بى ، ولا تعجل علىّ ، فإننى أدين بما ترضى ، وأعنَى بما تعنَى
ولا ذنب لى ـ فيما علمتُ ـ ولم أكن لأصغى إلى الواشين فى قِيلهم أذْنا

وله :

انظر إلى محنِ الزما ن تَزِدْكَ فى الدنيا اعتبارَا
واسمـــع لنعى الذاهبيـ ن وكن كواحدهم حذارا
واعمـــل بجد الخائفيـ ن ولا تنم إلا غرارا
واعلم بأنك لاحـــقٌ من قد كرهتَ له جوارا
إنّ الليالى ما فتئـ ن تُـكدِّر العيشَ المُعارا
وتفرِّق الشَّملَ الجميـ عَ وتجلِبُ الأمرَ الضِّرارا
لحوادثٌ فيهـا استلبْـ نَ أخاً دَعَوْنَ به فسارا
/ رزء إلى جنبِ اغترا بِ أرثّا فى القلب نارا [١٢٠-ب]
وفجيعةٌ سَلَفَتْ وكا نت محنةً لى واختبارا
بأخٍ شقيقٍ ما أُطيـ قُ على رزيَّتِه اصطبارا

(١) سقطت من الأصل كلمة فى هذا المعنى والوزن ، وقد اقترح زيادتها دوزى (ص ١٣٥ هامش ١) . ولم يترك الناسخ بياضاً .

(٢) جعلها دوزى : « ذلك » ولا يستقيم بها الوزن ، ومن الغريب أنه يتنبه إلى انكسار الوزن فى الشطر الأول ، ويضيف ما يقيمه ، ثم يسىء قراءة الشطر الثانى ويثبت ما يكسر وزنه .

ومنها :

اصبرْ فلستَ ترى على أحدٍ حماه الصبرُ عارا
فالصـــبرُ أنفعُ ذُخرةً لو كنتُ آتيه اختيارا

أنشد أبو نصر الفتح بن عبيد الله الإشبيلى فى كتاب « مطمح الأنفس ومسرح التأنس فى محاسن أهل المغرب والأندلس » من تأليفه أكثر هـذه الأبيات والتى قبلها ، ونسبها لأبى الحزم جَهْوَر بن محمد بن جَهْوَر رئيس قرطبة المتأخر غلطاً منه ووهماً لا خفاء به ، وإنما هى لجده جَهْوَر بن عبيد الله هذا المذكور هنا . ثم أعقب غلطَه بغلط آخر أفحش منه ، فأورد أبياتاً لابن فرج فيه يرثيه ، وأتى بعد ذلك برثاء ابن زيدون فأفرط[1] وخلط ، وألحقَ بالباطل الحقَّ . أما ابن زيدون فرثاؤه لأبى الحزم الأخير صحيح غير معترض ، وأما ابن فرج فموته من مولده مقتربان[2] ، عَمْرَكَ الله كيف يلتقيان ؟ وُلد جَهْوَر بن محمد[3] سنة أربع وستين وثلاثمائة فى المحرم ، وتوفى ابن فرج إثر وفاة الحكم المستنصر بالله فى صفر سنة ست بعدها . وللفتح أيضاً غلط ينضاف إلى ما تقدم فى نسبة بيتين لأبى الحزم هذا ، وأنشدهما الُحمَيْدى لجَهْوَر بن محمد التجيبى أبى محمد المعروف بابن القَلُوِّ ، وهو الصحيح — لأنه ذكر أنه شاهده بالمرية وكتبهما من شعره — وهما :

قلتُ يوماً لدار قومٍ تفانوا : أين سكانُكِ الكرامُ عَلينا ؟
فأجابت : هنا أقاموا قليلاً ثم ساروا ، ولستُ أعلمُ أينا

(١) الأصل : ا . . ط .
(٢) أى أن تاريخ مولد ابن فرج قريب من تاريخ وفاة أبى الحزم بن جهور.
(٣) يريد أبا الحزم بن جهور.

ولم يلق الحُمَيْدى أبا الحزم فيما علمتُ ، وإن كان عاصره . ولعل الفَتْحَ من كتابه استفاد هذين البيتين . واشتباه الأسماء جرّ هذا الخلل ، وعدمُ المبالاة بضبط الموالد والوفيات كثيراً / ما يوجد الزلل[1] . وسيأتى ذكر أبى الحزم [١٢١-١] الأندلسى الأخير فى المائة الخامسة مستوفًى إن شاء الله عز وجل .

---

(١) هذا مثل طيب جداً من تدقيق ابن الأبار وقدرته على استدراك الأخطاء . فأبونصر الفتح بن عبيد الله الذى يذكره هو ابن خاقان ، وهو أقرب عهداً إلى ما يتحدث عنه ابن الأبار ، وكان حرياً ألا يقع فى الأخطاء التى أشار إليها هذا الأخير . وقد رجعت إلى نسخة « مطمح الأنفس » التى بين أيدينا (طبعة الجوائب ، سنة ١٣٠٢) فلم أجد من الأبيات التى ذكرها ابن الأبار إلا قصيدة الورد منسوبة إلى أبى الحزم جهوربن محمد بن جهور ، وقد بدأها ببيت لم يذكره ابن الأبار وهو :

الورد أحسن ما رأت عينى وأذ ... كى ما سقَى ماءُ السحاب الجائد

وقد أعقب ابن خاقان مادته عن أبى الحزم جهور بن محمد بن جهور بمادة عن « ذى الوزارتين أبى الفرج » ولم أستطع التعرف على أبى الفرج هذا الذى لا يكتب عنه ابن خاقان إلا بضع سجعات لا تقدم ولا تؤخر ، بل هو يسميه فى أثنائها أباعامر.

وواضح أن نسخة « المطمح » التى بين أيدينا إنما هى الصغرى ، وكان معتمد ابن الأبار على الكبرى أو الوسطى من نسخ المطمح التى كتبها ابن خاقان . وابن الأبار يشير هنا دون شك إلى أبى عمر أحمد بن فرج الجيانى صاحب كتاب الحدائق ، فهو الذى توفى سنة ٣٦٦/٩٧٦ .

وقد فرّق أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة الضبى فى بغية الملتمس بين جهور بن عبيد الله ابن أبى عبدة وحفيده أبى الحزم جهوربن محمد بن جهور تفريقاً واضحاً ، واختص كلا منهما بمادة (رقم ٦٢٣ ص ٢٤٣ ورقم ٦٢٥ ص ٢٤٤) .

أما جهور بن محمد التجيبى المعروف بابن الفَـلَـتُو فقد ذكره الضبى تحت رقم ٦٢٤ (ص٢٤٤) ونسب إليه البيتين اللذين ذكرهما ابن الأبار . ومن المعروف أن الضبى نقل كتاب جذوة المقتبس للحميدى حرفياً تقريباً . وترجم ابن بشكوال فى الصلة (رقم ٢٩٧ ص ١٣٢) لأبى الحزم جهور بن محمد بن جهور ، أى الحفيد ، دون الجد . وذكر أنه ولد أول المحرم سنة ٣٦٤ وتوفى فى ٢٣ محرم ٤٣٥ .

وترجم كذلك لجهور بن إبراهيم بن محمد بن خلف التجيبى ، وقال إنه أيضاً يكنى أباالحزم وأنه من أهل موررور ، ورحل إلى المشرق للقاء الشيوخ وقال إنه لقيه فى إشبيلية وأجاز له مارواه عنهم . « وكان رجلا فاضلا منقبضاً مقبلا على ما يعنيه ، وتولى الصلاة بموضعه . . وتوفى ببلده سنة ٥٢٦ »

٩٦ ـ أخوه محمد بن عبيد الله

هو أسنُّ من أخيه جَهْوَر ، وجَهْوَر أشهر منه ، وتصرَّف محمد هذا فى الكُوَر والقيادة — قاله الرازى . وأنشد له الُحمَيْدى يخاطب أبا عُمر ابن عبد ربه :

أعِدْها فى تصابيها خداعا[1] فقد فُضَّتْ خواتمها نزاعا
قلوب يستخِف بها التصابى إذا أسكَنْتَها[2] طارت شعاعا

فأجابه :

حقيقٌ أن يُصاخَ لكَ استماعَا وأن يُعصَى العذولُ وأن تُطاعا
متى تكشِفْ قِناعَكَ للتصابى فقد ناديتَ من كشفَ القناعا
متى يمشى الصديقُ إلىّ فِتْراً مشيتُ إليه - من كرمٍ — ذراعا
فجدِّدْ عهدَ لَهْوكَ حين يَبْلَى ولا تُذهبْ بشاشَته ضياعا

---

٩٧ ـ عبد الرحمن بن بدر بن أحمد

كان بدر[3] وصيفاً للأمير عبد الله ، فأعتقه وصرَّفه فى الخطط الشريفة .

---

(١) قرأها دوزى (١٣٧) : جذاعا .

(٢) فى الأصل : سكنتها ، وقد صوبتها للوزن والمعنى . أما دوزى فقد جعلها : سكنت لنــا .

(٣) هو بدر بن أحمد الصقلى وصيف الأمير عبد الله ، وقد سبقت الإشارة إليه . ومن الغريب أن يوصف بدر فى المراجع بالخصى ويكون له رغم ذلك ابنان : عبد الرحمن هذا =

ثم ولاه الناصرُ الوزارةَ والحجابة والقيادة والخيلِ والبُرُد ، وكان ينفرد بالولايات فتُكتب السجلاتُ فى داره ، ثم يبعثها للطبع فتُطبع[1] وتُخرج إليه ، فيبعث فى العمال وينفذون على يديه . ووَلِىَ عبدُ الرحمن هذا الكتابةَ والوزارة والعرض والخزانة للناصر ، وصرفه فى عمارة[2] كورة إشبيلية . ومن شعره :

لسانى كان من أعداء قلبى إذ أُلزمه الذنوبَ بغير ذنبِ
إلى من أشتكى عَدْوَى اعتذارٍ أمَرَّ مذاقتىْ طَعمى وشربى
وأسهرَ مقلتى وأسال دمعى لفرط الوَجدِ ، سَكْباً بعدَ سكبِ ؟

وله :

يا وردةً وسْطَ روضةٍ سَفَرَتْ لو رُمْتُها باللِّحاظ لانتثرتْ
ودرةً فى الجمال مُفرَغَةً لولا حجابٌ يُكِنُّها بَهرت
/دَعْ كبدى فى الضلوع آمنةً وخذ جفونى فإنها نظرتْ [١٢١-ب]

=وعبد الله . وكان عبد الرحمن الناصر عندما تولى الإمارة رقى بدراً إلى الحجابة –أى رئاسة الوزراء– ثم أجرى رزقا – أى قدر مرتباً – لكل من عبد الرحمن وعبد الله قدره ٣٠ ديناراً وازنة . وبعد ذلك بقليل ولى عبد الرحمن بن بدر خطة الخيل ، وفى نفس السنه (رمضان ٣٠٠) استخلف عبد الرحمن بن بدر مع موسى بن محمد بن حدير صاحب المدينه على القصر عندما خرج فى حملة على ناحية جيان ، وفى سنة ٣٠٢ عزل عبد الرحمن عن خطة الخيل ، ثم تنقل فى الوظائف بعد ذلك ، وكانت آخر وظيفة تولاها حكومة إشبيلية .

والراجح أن ابن حيان خلط بين بدر بن موسى – وكان مولى خصياً عاش وخدم أيام عبد الرحمن الناصر وظهر اسمه أواخر أيامه – وبدر بن أحمد . فقد كان بدر بن أحمد هذا فحلا لا خصيا ، كما هو واضح .

(١) أى يرسلها إلى باب السدة لتختم بخاتم الدوله ثم ترد إليه ليرسل بها إلى العمال ليقوموا بالتنفيذ تحت إشرافه .

(٢) كذا فى الأصل . والأصح هنا : عمالة ، وهى آخر الوظائف التى تولاها عبد الرحمن ابن بدر بن أحمد.

٩٨ ــ إسماعيل بن بدر بن إسماعيل بن زياد، أبو بكر

كان مولى نعمة لبنى أمية ، ووَلَىَ إشبيليةَ للناصر عبد الرحمن بن محمد ، وكان أثيراً لديه ، ومنادماً له ، وعاش إلى أول دولة ابنه الحكم المستنصر بالله . وقد حُمل عنه الحديث لسماعه من بَقِيّ بن مخلد والخُشَنى ومحمد بن وَضّاح وطبقتهم ، فاحتاج إليه الناس — ذَكره ابنُ الفرضى فى تاريخه ، وذَكر أن صناعة الشعر غلبت عليه[1] ؛ وهو أحد المكثرين . أنشد له ابن فرج فى « كتاب الحدائق » من تأليفه :

وذى لَجِبٍ كالبحر عبَّ عبابُهُ ... فضاق به رحبُ الفلا والتنائفِ
قريبُ الْخطَى ، نائى المدى ، مالئ الملا ... بجمع تراه واقفاً غيرَ واقفِ
تركنا به أرضَ العدو كأنها ... مجاهل للمرتاد غيرَ معارفِ
غدت بعد سَحْب البِيض فيها ذيولها ... تَجُرُّ ذيول الطامسات العواصفِ

وله فى الناصر :

لو كان يُعبَد دونَ الله من أحدٍ ... ما كان غيرُكَ فى الدنيا بمعبودِ
قد فات قدرُكَ وصفَ الواصفين فما ... ذكراك إلا بتحميدٍ وتمجيدِ
لما ذكرْتُكَ يوماً قلتُ من جذلٍ : ... يا نعمةَ الله فى أيامه زيدى !

---

(١) ذكر ابن عذارى (١٥٩/٢) أن عبد الرحمن الناصر ولى إسماعيل بن بدر كتابته الخاصة فى ربيع الآخر ٣٠٠ . أما ترجمة ابن الفرضى له فهى رقم ٢١٤ ج ٦٢/١ ، وقد أضاف إلى ما رواه عنه ابن الأبار أنه ولى أحكام السوق فحُمد أمره فيها وتوفى فى أول ولاية المستنصربالله سنة ٣٥١ .

وذكر ابن الأبار سوحه ومنهم بق بن مخلد ومحمد بن عبد السلام الخشنى ومحمد بن وضاح ومطرف بن قيس وعبد الله بن مسرة وعبد الله بن يحيى.

وله فى بيعة المستنصر بعد وفاة أبيه الناصر :

لئن غربت شمسٌ لقد طلعتْ شمسُ   فما فى صلاح الأرض رَيبٌ ولا لَبْسُ
بمستنصرٍ بالله دانَ لمُلكِهِ   وأيامِــه الميمونة الجنُّ والإنسُ
تولَّى أميرُ المؤمنـــين فأصبحوا   وما بينهم نجوى بعَدْوى ولا هَمْس
فلا سُقيتْ أرضٌ بغيرِ سحابِه   بِلالاً ، ولا سُرَّتْ لساكنها نفس
وإن شد حِلسٌ لا يكونُ ثيابهُ   فلا نهضت يوماً بمن شده عَنْس

/ وأنشد له الحُمَيْدى عن أبى محمد بن حزم : [١٢٢-١]

أناجي حُسنَ رأيك بالأمانى   وأشكو بالتـــوهُّم ما شجانى
ولى بـ«عسى» و «لو» و «لعل» رَوْحٌ   ينفِّسُ عن كئيب القلب عانِ
ومَحْضُ هوًى بظهر الغيبِ صافٍ   ترى عيـــنى به من لا يرانى
على ذاكَ الزمانِ — وإن تَقضَّى —   ســـلامٌ لا يَبيدُ على الزمانِ
كفانى — يامدى أملى — بعادٌ   تمنيتُ المماتَ له ، كفانى

وله يرثى ابنه :

غرستُ قضيباً زعزعتْه يدُ الرَّدى   فخلوا دموعَ العين تبكِ على غرسى
وهـذا حَمامُ الأيْكِ يبكى هَديلَه   فما لهديلى لا تذوبُ له نَفْسى ؟

وله فيه :

ما حُزنُ يعقوبَ على يوسفٍ   أشـــد من حزنى على أحمدِ
أحمدُ ملحودٌ ، فهل نستوى   وذاكَ لم يُقبَر ولم يُلحَدِ ؟
وكان يرجوه ، وهل أرتجى   هذا وقد غمَّضتُه باليـــدِ ؟

وله فى توتٍ أهداه :

تفاءلتُ بالتـــوت التأنّى لزورةٍ   وذاك فالٌ — ما علمت — صَدوقُ
فأهديتُه غضًّا حكى حدقَ المَها   له منظر بالُحسن منـــه يروقُ
وبعضٌ حكى الياقوتَ منه احمرارُهُ   وما مجُّـــــه للذائقين رحيق
فذا سَبَجٌ — فيما يُرى — لاسودادِه   وذا — لاحمرارِ اللونِ منه — عقيق

٩٩ — عبيد الله بن أحمد بن يَعْلَى بن وهب

ولاه الناصرُ عبد الرحمن بن محمد ما كان بيد أبيه — أحمد بن يَعْلَى ، قائده الجليل المقدار ، الحميد الآثار — من قيادة الجوف (بَطَلْيَوْس وأعمالها) حين نوه بأحمد المذكور ، وولاه طُلَيْطِلَةَ وأعمالَها من الثغر الأدنى ، ورفع رزقه إلى أرزاق الوزراء ، مع مقامه على خطته فى الشرطة العليا ، وسُمى قائد الأعنَّة ، وذلك
[١٢٢–ب] فى صفر / سنة ثلاث وأربعين وثلاثمائة . فأغنى عُبيد الله فى قتال الروم غَناء أبيه ، وتوالت له فيهم فتوح . وكان أديباً شاعراً ؛ وهو القائل من قصيدة :

ترى الأرض فينا لا يَقِرُّ قرارُها   إذا لم يَسُسْها من أميةَ سائسُ
ذوو الهضبات الشُّمِّ والأَبْحُرِ التى   تفيض ملاءً والملوكُ الأشاوسُ
هم ذهبوا بالمكرُمات ولم يزلْ   لهم جبـــل العز القديم القوامس
وهم نزلوا من خِنْدِفٍ(١) حيث تلتقى   رؤوسُ قُصَىٍّ فى الذرى والمغاطس

(١) خندف هى امرأة إلياس بن مضر وقد أنجبت منه مُدْرِكة وطابخة وقَمْعَة ، وعن طريق مدركه بن إلياس اتصل عمود النسب ، أى أنها الجدة العليا لقريش ، وإلى هذا يشير الشاعر . انظر : نهاية الأرب فى معرفة أنساب العرب للقلقشندى (بتحقيق إبراهيم الإبيارى ، القاهرة ١٩٥٩) ص ٢٤٨ . وجمهرة أنساب العرب لابن حزم ، ص ١٨٦ .

وهم غمسوا فى جَفنة الطِّيب قبل أن ... يُرى أحدٌ من قومهم وهو غامِس
وهم أوقدوا حربَ الفجار حفيظةً ... فقامت بها أعياصُهم والعنابس(١)
بهاليـل من إن يستضيف إليهمُ ... بما شيَّدوا إلا الخصال النفائس
إذا سوجلوا لم يحتملهم مساجل ... وإن قويسوا لم يستطعهم مقايس
تطيف بهم ساحاتُ مكةَ فى العُلا ... وتـكنُفُهم منها البطاحُ الأمالِس

وكان أخوه يعلى بن أحمد أديبًا أيضًا ، وسيأتى ذكره .

---

١٠٠ — جعفر بن عثمان المصحفى
الحاجب الوزير ، أبو الحسن

هو جعفر بن عثمان بن نصر بن قوى بن عبد الله بن كسيلة من برابر بلنسية ، ينتمى إلى قيس بالمحالفة .

وذكر ابنُ الفرضى فى تاريخه أباه عثمان وقال فى نسبه بعد نصر : ابن عبد الله بن حُمَيْد بن سلمة بن عَبّاد بن يونس القيسى .

وكان قد أدَّب الحَـكم ، وذلك أزلف جعفراً عنده وأدناه منه فاستخدمه بالـكتابة فى إمارته . ووَلِىَ جزيرةَ ميُورْقة فى أيام الناصر ، ثم تقلد الحَـكمُ

---

(١) الأعياص هم أبو العاصى والعاصى وأبو العيص أبناء أمية الأكبر ابن عبد شمس ابن عبد مناف . والعنابس هم سفيان وأبو سفيان وعمر وأبو حرب أبناء أمية الأكبر ابن أمية ابن عبد شمس بن عبد مناف ، سموا العنابس — أى الأسود — لثباتهم فى حرب الفجار واستطاعتهم نصر قريش على قيس عيلان .

انظر : المصعب الزبيرى ، نسب قريش ، ص ٩٧ .

العقد الفريد ، بتحقيق أحمد أمين وآخرين ، ٣٠٦/٣ .

الخلافةَ فاستوزره ، وأمضاه مع ذلك على كتابته الخاصة ، وضم إليه بعد مدة ولاية الشرطة ، وأخدمه ابنه هشاماً .

[١٢٣-أ] وأقام على ذلك إلى وفاة الحَكم واستخلاف هشام / ابنِه ، فحجبه يومَ قعوده للبيعة ، وذلك يوم الاثنين لخمس خلون من صفر سنة ست وستين وثلاثمائة ، وعن يمينه ويساره الفتَيان جُؤذُر وفائق ، ثم أهل الخطط على منازلهم . وكان القائد محمد بن عبد الله بن أبى عامر — وهو إذ ذاك يتولى الشرطة الوسطى والسكة والمواريث والوكالة[1] — يشرف على عقد الشهادات فى نُسخ البيعة بين يديه ، بعد ما كان القاضى محمد بن إسحاق بن السليم يأخذها على طبقات من شهدها مِن الأعمام وأبنائهم والوزراء وضروب أهل الخدمة ورجالات قريش وأعلام قرطبة — حكى ذلك عيسى بن أحمد الرازى .

قال : ثم لما كان يوم السبت لعشر خلون من صفر المؤرخ ، قلد هشامٌ حجابتَه جعفرَ بن عثمان لقدم صحبته لأبيه المستنصر ، وكان المستنصر قد شرّفه لتأديب أبيه عثمان بن نصر له ، وصرّفه فى الأعمال ، وقدّمه إلى الكُوَر ، ثم استكتبه وهو ولى عهد — وذكر نحواً مما تقدم من خبره — قال : ثم قدّم هشامٌ المؤيدُ ابنَ أخيه هشامَ بن محمد بن عثمان إلى خطة الخيل ، ثم إلى الوزارة ، وولّى بنيه — محمداً ، وعثمان ، وعبد الرحمن — وأخاه سعيداً ، وابنَ أخيه محمداً ، الشرطةَ العليا والوسطى ، فلم ينهض بعبء ما قلده ، وخلف على المدينة ابنه محمداً

---

(١) أى وكالة أبناء الخليفة ، وقد أقيم محمد بن أبى عامر وكيلا للولد (أى الأمير) عبد الرحمن بن الحكم المستنصر فى ٩ ربيع الأول سنة ٣٥٦ ، « وأجرى عليه فى ذلك الوقت ١٥ دينارا فى الشهر مرتباً بالوازنة » . ولما مات عبد الرحمن هذا أقيم محمد بن أبى عامر وكيلا لأخيه هشام ابن الحكم فى ٤ رمضان سنة ٣٥٩ . وكان قبل ذلك قد تقدم للنظر فى أمانة دار السكة فى ١٢ شوال ٣٥٦ ، ثم أضيفت له الخزانة ، ثم قدمه الحكم المستنصر على خطة المواريث فى ٧ محرم ٣٥٨ ، وفى سنة ٣٦١ تولى الشرطة الوسطى .

ابن عذارى ، البيان المغرب : ٢٥١/٢ .

فأساء السيرة . وزكا على المحبة أبو عامر محمد بن أبي عامر ، فبسط المؤيدُ يدَه وقبض يد جعفر بن عثمان ، فأداله وابنَ أخيه .

وقال ابن حَيّان : استطال عليه محمد بن أبي عامر بكفايته ودفاعه العدوَّ المتكالب ، لأول ولاية هشام ووفاة الحكم ، واستظهر على ذلك بمصاهرة غالب القائد مولى الناصر عبد الرحمن بن محمد .

وقد كان غالب — فيما حكى الرازي — شارَكَ جعفرَ بن عثمان في الحجابة ، وصُيِّرَ فراشُه في الصدر ، وعن يمينه جعفر ، وعن يساره أبو عامر للوزارتين . قال ابن حيان : فأدى ذلك إلى القبض على جعفر ، وعلى ولده وأسبابه ، وعلى أخيه هشام وسائر أقاربه ، وطولبوا بالأموال . وكان ابن أبي عامر يحمل جعفراً معه في الغزوات ، تعنيتاً وانتقاماً منه . فلما بان عجزه وضعف ، أُقِرّ بالمطبق إلى أن هلك فيه سنة اثنتين وسبعين وثلاثمائة ، فأسلِم إلى أهله في أقبح صورة — وقيل : قُتل خنقاً[1] . وكان مقدماً في صناعة الكتابة ، مفضلا / على طبقته بالبلاغة . [١٢٣-ب]
وله شعر كثير مدوّن يدل على تمكنه من الإجادة ، وتصرفه في أفانين البيان ؛ وهو القائل :

سألتُ نجومَ الليل : هل ينقضي الدجى؟ فخطَّتْ جواباً بالثريا كخطِّ « لا » !
وكنتُ أرى أنى بآخِرِ ليلةٍ فأطرقُ حتى خِلتُه عاد أوَّلا
وما عن هوًى سامرتُها ، غير أنني أنافسُها المجرَى إلى رُتب العلا

---

(١) أوجز ابن الأبار كلام الرازي وابن حيان هنا إيجازاً شديداً ، وقد أورد هذه الأخبار بصورة أوفى ابن عذارى في البيان المغرب ج ٢ ص ٢٥١ وما يليها .

وأوسع ما لدينا عن هذه الحوادث ما نقله ابن بسام في الذخيرة (القسم الرابع — المجلد الأول ، القاهرة ١٩٤٥) من كتاب « البطشة الكبرى » لابن حيان في تاريخ الدولة العامرية، ص ٣٩ وما بعدها .

وله :

أمَا ـ والهوى ـ ما كنتُ أعرف ما الهوى ولا ما دواعى الشوق حتى تكلَّمَا
دعانى بلفظٍ لو دعا « يَذْبُلاً »[1] به لَلَبَّاهُ مشـتاقاً ووافاه مُغرَما

وله ، ويُروى لغيره :

كلّمتنى فقلتُ : درٌّ سَقيطُ فتأملتُ عِقـدَها هل تناثرْ
وازدهاها تبسُّمٌ فأرتنـا عِقـدَ درٍّ من التبسم آخرْ

وله :

إنْ فاهَ أشربَتِ الضلوعُ هوًى حـتى كأنَّ جميعَها أُذُنُ
لا تُنكروا كلفَ الضلوع بهِ لحديثـه لوجيبها سَكَنُ

وقرأت فى كتاب « القرائد فى التشبيه » لابن أبى الحسن القرطبى منسوباً إليه :

بادرْ ، فإنَّ نذيرَ الغيثِ قد نَذَرا مجـدداً لسرورٍ كان قد دَثَرا
أرْختْ عَزاليه واصْطَرَّت[2] بعُنصرهِ ريحُ الصَّبا واستدرَّت دمعَه فجرى
أوْفَى فبرَّد من حرِّ القلوب كما أوفى علينا حبيبٌ طالما هَجرا
فلاقِهِ بكؤوسِ الراحِ مُترَعةً شكراً له ، فكريمُ القوم من شَكرا

(١) يذبل هو الجبل الذى ذكره امرؤ القيس فى قوله :

فيالك من ليـل كأن نجـومه بكل مغـار الفتل شدت بيذبل

ولكن دوزى قرأها يدبل بالدال المهمله وقال يحاول تفسيرها : Diable, à ce qu'il parait
وكأنه تصور أن هناك علاقة ما بين « دبل » و « دبَابل » أو « ديابولو » بمعنى الشيطان !

(٢) الكلمة غير واضحة فى الأصل ، وأقرب قراءة لها : واصرت ، ولا يستقيم بها الوزن . وقرأها دوزى : وأهزت ولا يستقيم بها الوزن أيضاً ، وكان أقرب لو قال : واهتزت. وقد جعلنها : واصطرت بمعنى صوتت كما فى لسان العرب (مادة صرر) .

وله فى سوسنة :

يا ربَّ سوسنةٍ قد بتُّ ألثمها وما لها غير طعم المسك من ريقِ
مصفرةُ الوَسْط ، مبيضٌ جوانبُها كأنها عاشق فى حجر معشوق

وله فى الخيال :

لئن سلبونى شخصَه ووصالَهُ لما قدروا أن يسلبونى خيالَهُ
إذا حجبتْ عنى الحوادثُ وجهَهُ أقام الهوى لى حيث كنتُ مِثالَهُ

/وله : [١٢٤-أ]

وكم مَهْمَهٍ لا يوجِد الركب مشرعاً قطعتُ ، وبحرٍ شامخ الموجِ أسْفعا
خِضَمٍّ إذا استعلتْ به الشمسُ لم يزلْ يطاولها حتى تملَّ فتخضعا
تغيب وتبدو فيــــه حتى كأنما غدا مَغربا تجرى إليــــه ومَطلعا
إذا ما ارتمت أمواجه خلتَ أنها ذرى الشُّمِّ أمَّتْنا من البرِّ نُزَّعا
تقاذف فى رَحْب الجمال بَسيطُها يَردُّ وفودَ الريح حَسْرى وظُلَّعا

وله فى تفاحة :

لعمرى لئن أهدَيتُ نفسى وما حوتْ فأنت بها منى أحق وأملكُ
ولكننى أهدى التى[1] لا تردها يمينٌ ولا فيها لِذى اللحظ مَتْرَكُ
تناولتُها من غصنها وكأنها من الحسن ذاك التاجُ المتفلِّكُ

وله فى سفرجلة :

ومصفرةٍ تختالُ فى ثوب نَرْجِسٍ وتَعْبَقُ عن مسكٍ ذكىِّ التنفسِ
لها ريحُ محبوبٍ وقسوةُ قلبِهِ ولونُ محبٍّ حُلةَ السقمِ مكتَسِ

---

(١) فى الأصل : التى ، وقرأها دوزى (ص ١٤٤) : يَداً .

فصُفرتها من صُفرتى مستعارةٌ وأنفاسُها فى الطيب أنفاسُ مؤنسى (١)

فلما استَتَمَّتْ فى القضيب شبابَها وحاكت لها الأنواء أبرادَ سُنْدُسِ

مددتُ يدى باللُّطف أبغى اقتطافَها لأجعلَها ريحانتى وَسْطَ مجلسى (٢)

وكان لها ثوب من الزُّغب أغبرٌ يَرِفُّ على جسم من التبر أملس (٣)

فلما تعرَّتْ فى يدى من لباسها ولم تبق إلا فى غلالة نرجس

ذكرتُ بها من لا أبوح بذكرهِ فأذبلَها فى الكف حرُّ تَنَفُّسِى

وله وقد أهديت إليـــه رامشنة ورد فى زمن البرد ، فاستغربها وكتب إلى مهديها :

لعمرك ما فى فطرة الروض قدرةٌ يَحِيلُ بها مجرى الزمان عن القَصْدِ

ولـكنها أخلاقُك الغر نبَّهت بِرَبْعِكَ (٤) فى كانون نائمةَ الورد

---

(١) الأصل : مونس .

(٢) الأصل : مجلس .

(٣) بعد هذا البيت أورد ابن خاقان فى « مطمح الأنفس ومسرح التأنس فى ملح أهل الأندلس » (الجوائب ١٣٠٢) ص ٥ بيتاً آخر هو :

فَبزَّتْ يدى غصبـاً لها ثوب جسمها وأعريتُها باللطف من كل ملبس

(٤) هذه الكلمة ساقطة من الأصل . وقد أكلتها من « البديع فى وصف الربيع » لأبى الوليد إسماعيل بن عامر الحميرى ، ص ١٢٠ . وقد أورد بعد ذلك بيتاً هو :

كأنك قد أمطرتَهـا ديمـةَ الجـد وأجريتَ فى أغصانها كرم العهـد

وقد قدم الحميرى للأبيات بقوله :

« فن المستندر فى الورد قول الحاجب أبى الحسن جعفر بن عثمان المصحفى ، وقد أهدى إليه الوزير زياد بن أفلح ورداً سيق إليه من رَيَّة فى شهر كانون الآخر »

وقال بعد ذلك :

« فلما وصل هذا النظم المستملح إلى زياد بن أفلح بعث إليه بوردة كان احتبسها لنفسه ، فبعث إليه بيتين وهما :

فاجـأنى كانـونُ بالـورد فزادنى وجـداً إلى الوجـد

وردُ العـلا أهـدى لنا وردةً يا حبـذا الورد من الورد »

وله فى الخمر ، وقد أنشد ذلك أبو منصور الثعالبى فى « اليتيمة » :

/صفراء تطرق فى الزجاج فإن سَرتْ ... فى الجسم دبّت مثل صِلٍّ لادغ [١٢٤-ب]

خفيت على شرابها فكأنما ... يجدون ريًّا فى إناء فارغ

عبث الزمان بجسمها فتسترتْ ... عن عينها فى ثوب نورٍ سابغ

وله :

كم ليلة بتُّ أطويها وأنشرها ... ولا أرى فى الذى أقضى بها حرجاً

فى فتية نُجُبٍ صاروا بمعتركٍ ... يجرى النعيم على الصرعى بها خلجا

والجو ملتحف [... ... ...](١) ... والنجم مكحولة ألحاظه دعجا

لَقُوا دُجَى ليلِهمْ فى نورِ(٢) كاسِهمُ ... ونفسوا من خناق الزق فانبلجا

وله :

لِعينيكَ فى قلبى علىَّ عيونُ ... وبين ضلوعى للشجون فنونُ

لئن كان جسمى مُخْلَقاً فى يد الهوى ... فحبُّك غضٌّ فى الفؤاد مصونُ

نصيبى من الدنيا هواك ، وإنهُ ... عذابى ولكنى عليه ضنينُ

وله :

يا ذا الذى لم يدَعْ لى حبُّه رمقاً ... هذا مُحبك يشكو البثَّ والأرقا

لو كنتَ تعلم ما شوقى إليك ، إذاً ... أيقنتَ أن جميعَ الشوق لى خُلِقا

لم يُبصرِ الُحسنَ مجموعاً على أحدٍ ... مَن ليس يبصرُ ذاك الخدَّ والعنقا

وله فى وفاة الناصر عبد الرحمن بن محمد وبيعة ابنه المستنصر بالله الحَكم ابن عبد الرحمٰن :

(١) بياض بالأصل .

(٢) فى الأصل : . . . وكاسهم ، فأكلتها على هذه الصورة .

ألا إنَّ أياماً هفَتْ بإمامها لجائرةٌ مُشْتَطَّةٌ باحتكامها
تأمَّلْ : فهل مِن طالعٍ غير آفلٍ بِرنَّ ، وهل من قاعدٍ لقيامها ؟
وعاينْ : فهل مِن عائشٍ برضاعها من الناس إلا ميِّتٌ بفطامها ؟
كأنَّ نفوسَ الناس كانت بنفسِه فلما توارى أيقنتْ بحِمامها
فطار بها يأسُ الأسى وتقاصرتْ يد الصبر عن إعوالها والتدامها

[١٢٥ - أ] / ومنها له :

إمامٌ تلقَّته الخلافةُ صبَّـــةً إلى نَسَمٍ(١) محمولة عن إمامها
فصارت إليه فى حدود تمامهِ وصار إليها فى حـــدود تمامها
فلم ينتقلْ بالناس يومَ انتقالها إليه سبيلٌ عن محل قَوامها
أتوْه فأعطوْه المواثق عن هوًى تمكَّن فى أبشارها وعِظامها
وناولهم كفًّا يطول الهُدى بها رضا اللهِ فى تقبيلها واستلامها
أناف على الدنيا بعينٍ محيطةٍ وقال : ادخلوا فى أمنها وسلامها !

وله :

يطالعنا فى كل يومٍ بغُرَّةٍ بنو الدين والدنيا معاً يأملونها
إذا ما تراءته العيونُ تواضعتْ لإجلاله عن أن تقل شؤونها
عليها من الرحمٰن نورُ جلالةٍ يقصِّر بالألحاظ أن تستبينها

وله مما قاله بديهاً بين يدى الحكم ، عندما بُشر بولادة ابنه هشام :

اطَّلعَ البدرُ من حِجابهْ واطَّردَ السيفُ من قِرابهْ
وجاءنا وارثُ المعـــالى ليُثبتَ المُلكَ فى نصابهْ

---

(١) الأصل : نسيم ، ولايستقيم به الوزن ، وهكذا صوبه دوزى ، ص ١٤٥ .

بشَّرنا سيـــــدُ البرايا بنعـــمةِ اللهِ فى كتابهْ
لو كنتُ أعطى البشيرَ عُمرى لم أقض حقًّا لِما أتى بهْ

وله فى نكبته :

تأملتُ صَرفَ الحادثات فلم أزلْ أراها تُوافى عند مَقصدِها الحُرّا
فلله أيام مضت لسبيلها فإنىَ لا أنسى لها أبداً ذِكرا
تجافت بها عنا الحوادثُ برهةً وأبدت لنا منها الطلاقةَ والبِشرا
ليالىَ لم يدرِ الزمانُ مكانَنا ولا نظرتْ منا حوادثُه شزْرا
وما هذه الأيامُ إلا سحائبٌ على كلِّ حالٍ تُمطر الخيرَ والشرا

/ وله : [١٢٥-ب]

أُجارى[1] الزمانَ على حالهِ مجاراةَ نفسى لأنفاسِها
إذا نفَسٌ صاعـــدٌ شفَّها توارت به بين جُـــلّاسها
وإن عكفت نكبةٌ للزمان عكفتُ بصدرى على راسها

وله يستعطف المنصور محمد بن أبى عامر ، وكتب إليه بها من محبسه :

هبنى أسأتُ ، فأين العفو والكرمُ إذ قادنى نحوكَ الإذعانُ والندمُ ؟
يا خيرَ مَن مُدَّتِ الأيدى إليه ، أما ترثى لشيخٍ نعاه عندكَ القلم ؟
بالغتَ فى السُّخْط فاصفح صفح مقتدرٍ إنّ الملوكَ إذا ما استُرحموا رَحِموا

هذه الأبيات متنازَعة ، ينسبها إلى المصحفى جماعة ، وقد وجدتُها منسوبةً إلى أبى عمر بن دَرّاج القسطلى ، وذكر أبو إسحاق إبراهيم بن القاسم الرقيق فى

---

(١) الأصل : أجار . وقرأها دوزى (ص ١٤٦) : أجازى .

تاريخه أنها لكاتب إبراهيم بن أحمد بن الأغلب[(١)] . وكلاهما أساء الردّ على من قالها وتمثّل بها ؛ أما إبراهيم فقال ، لجهله وفظاظته وقلة رحمته : « إن الملوك إذا ما استُرحموا قتلوا ! » و بعث إليه من قتله . وقرأت فى « كتاب الافتخار » لأبى بكر عَتيق بن خلف القيروانى ، أن إبراهيم بن أحمد لما قرأ رسالة كاتبه إليه من محبسه ، قال : " يكتب إلىّ « هبنى أسأت » وهو قد أساء ؟ والله لو كتب إلىّ بقول الأول :

ونحن الكاتبون وقد أسأنا فهبنا للكرام الكاتبينا

لعفوت عنه " ، ثم أمر به فجُعل فى تابوت وأحرق بالنار وهو حى ![(٢)] وأما ابنُ أبى عامر فأمر عبدَ الملك بن إدريس[(٣)] أن يجاوبه عن هذه الأبيات ، فقال :

---

(١) لم نجد هذه الأبيات فى ديوان ابن دراج ، ووجدتها عند ابن عذارى منسوبة إلى محمد بن حيون المعروف بابن البريدى كاتب إبراهيم بن أحمد بن الأغلب (البيان المغرب : ١٣١/١).

وقد روى ابن بسام نفس الأبيات فى الذخيرة (القسم الرابع – المجلد الأول ، القاهرة ١٩٤٥) ص ٥١ دون أن ينبه إلى شىء مما نبه إليه ابن الأبار ، وهذا من الشواهد الكثيرة على سعة اطلاع ابن الأبار بالقياس إلى علامة جمّاع كابن بسام .

(٢) لم يذكر ذلك ابن عذارى ، وهو ينقل أيضاً عن أبى إسحاق القاسم بن الرقيق ، وإنما قال : « ثم أمر – قبحه الله – به فجُعل فى تابوت حتى مات ، رحمه الله تعالى » . البيان المغرب : ١٢٢/١ .

(٣) هوأبو مروان عبد الملك الجزيرى أحد شعراء المنصور محمد بن أبى عامر وابنه المظفر ، وهو معدود بين كبار شعراء عصره وأدبائهم . ومن الطريف أن عبد الملك الجزيرى سارع إلى الرد على أديب مثله هو جعفر بن عثمان المصحفى متكلما بلسان طاغية جبار ؛ فأرادت المقادير أن يلقى نفس الميتة على يد عبد الملك المظفر بن المنصور بن أبى عامر ، إذ أنه مازال يسعى حتى وصل إلى الوزارة أيام المظفر ، ودفعه حقده على عيسى بن سعيد القطاع ، أكبر وزراء المظفر ، إلى التآمر على هذا الأخير مع فتاه الصقلبى طَرَفة ، ففشل فيما سعى إليه وقبض على طرفة وعليه ، وأودع نفس المطبق الذى مات فيه جعفر المصحفى ولقى نفس النهاية فى شوال سنة ٣٩٤ . قال ابن حيان : « أخبرنى أبو خلف بن حسين قال : سألت الذى تولى قتل الجزيرى فى محبسه ، –

الآن يا جاهلاً زلّتْ بك القدمُ   تبغى التكرمَ لما فاتك الكرمُ ؟
أغريتَ بى مَلِكاً لولا تثبّتُه   ما جاز لى عنده نُطق ولا كلم
فايأسْ من العيش إذ قد صرت فى طبقٍ   إن الملوك إذا ما استُنقموا نقموا
نفسى إذا سخِطتْ ليست براضيةٍ   ولو تشفّع فيك العُرب والعجم

ويقال إن الأبيات لابن أبى عامر . وكلتا الفعلتين من أفعال الجبابرة الذين أطغتهم النعمة ، ونزعت من قلوبهم / الرحمة . [١٢٦-أ]

وللمصحفى لما يئس من المنصور وصفحه :

لا تأمننّ مِن الزمان تقلّباً   إن الزمانَ بأهله يتقلبُ
ولقد أرانى والليوثُ تخافُنى   فأخافنى مِن بعدِ ذاكَ الثعلبُ
حَسْبُ الكريم مذلةً ونقيصةً   ألا يزالَ إلى لئيمٍ يَطلبُ
وإذا أتت أعجوبةٌ فاصبرْ لها   فالدهرُ يأتى بعدُ ما هو أعجبُ

وله :

لى مـــدةٌ لا بدّ أبلغُها   فإذا انقضتْ أيامُها متُّ
لو قابلتنى الأُســدُ ضاريةً   ـ والموتُ لم يُقدَرْ(١) ـ لما خِفتُ
فانظر إلىّ وكن على حذرٍ   فبمثلِ حالكَ أمسِ قد كنتُ

ـ فجعل يصف لى سهولة ما عاناه منه لقَضَافته وضعف أسره ، ويقول : « ما كان الشئ إلا كالفَرّوج فى يدى ، دققت رقبته بركبتى ، فما زاد أن نفخ فى وجهى » ، فعجبت من جهل هذا الأسود » . الذخيرة لابن بسام ، القسم الرابع ـ المجلد الأول ، ص ٣١ ـ ٣٦ .

(١) فى الذخيرة (القسم الرابع المجلد الأول ، ص ٥١) :
* والموت لم يَدْنُ لما خِفت *
وفى نسخة أخرى : لم يقرب .

١٠١ — محمد بن عبد الله بن أبى عامر
الحاجبُ ، المنصورُ أبو عامر

هو محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن عامر بن أبى عامر بن الوليد ابن يزيد بن عبد الملك المعافرى ، أمير الأندلس فى دولة المؤيد بالله هشام بن الحكم المستنصر بالله ، والغالب عليه . أصله من الجزيرة الخضراء ، ولسلفه بها قدر ونباهة ، وقدم قرطبة شابًا ، فطلب بها العلم والأدب وسمع الحديث . وكان أبوه — أبو حفص عبد الله — قد سمع الحديث أيضاً ، وصحب أبا محمد الباجي الراوية فى الأخذ عن الشيوخ بقرطبة ؛ وقد ذكرتُه فى كتابى الموسوم بـ « التكملة لكتاب الصلة لابن بشكوال »[١] .

وكانت للمنصور همة ترمى به المرامى ، ويحدث نفسَه بإدراك معالى الأمور ، ويزيد فى ذلك حتى كان يحدِّث من يختص به بما يقع له من ذلك ، فتم له مرادُه . وكان أحد أعاجيب الدنيا فى ترقِّيه والظفر بتمنِّيه : تصرَّف أولَ أمره فى الوكالة لصبح أم هشام ، والنظر فى أموالها وضِياعها ، والجد ينهض به ، والأقدار تساعده . إلى أن توفى الحَكم وقُلِّد هشامٌ الخلافةَ وهو صغير .

ولما انتقض العدو على إثر ذلك ، وخيف الاضطراب ، ولم يكن عند المصحفى

(١) راجع ترجمة أبى حفص عبد الله بن محمد بن عبد الله بن عامر المعافرى والد المنصور محمد بن أبى عامر فى تكملة الصلة لابن الأبار رقم ١٢٥١ جـ ١ ص ٤٣٧ ، وقد قال فيه بعد أن ذكر شيوخه : «ورحل إلى المشرق فأدى الفريضة ، وكان من أهل الدين والخير والصلاح والزهد والقعود عن السلطان ، أثنى عليه الراوية أبو محمد الباجى وقال : كان خير صديق أنتفع به وينتفع بى ، وأقابل معه كتبه وكتبى ، ومات منصرفَه من حجه ، ودفن بمدينة طرابلس المغرب ». وذكر أيضاً أنه مات برقادة آخر خلافة الناصر.

غَناء ولا دفاع ، ضَمِن محمد بن أبى عامر لصبح أم هشام سكونَ الحال وزوالَ الخوف واستقرارَ المُلك لابنها ، على أن يُمَدَّ بالأموال ويُجعلَ إليه قودُ الجيوش ، إلى ما كان بيده من الخطط السنية . وهو — بقوة نفسه وسعادة جَده — / [١٢٦ب] يَعِدُ النصر ولا يمترى فى الظهور ، ويستعجل الأسباب المعينة على الفتح ، حتى أُسعفَ ولقى العدو فهزمه . ووالى غزوَ بلاد الروم عالىَ القدم ، منصورَ العلم ، لا يُخفق له مسعًى ولا يؤوب دون مغنم — كَرةً بعد أخرى — إلى أن صار صاحب التدبير ، والمتغلبَ على جميع الأمور . فدانت له أقطار الأندلس كلها ، وأمِنتْ به ، ولم يضطرب عليه منها شىء أيامَ حياته ، لحسن سياسته وعظم هيبته .

وكان ربما أنذر خاصته بما يكون وراءه من الفتن ، حتى ليكدِّر عليهم مجالس أنسه بما يلقى من ذلك إليهم ، فوقع الأمر على ما توقع ، وجرى القدر بما قدر على ذلك . فما زال يبطش بأعدائه ، ويسقط مَن فوقه بقهره واستيلائه ، إلى أن صار الخليفةُ حينئذ — هشام بن الحَكم — ليس له من الأمر غير الاسم خاصة ، فما ظنك برجاله ومواليه الذين منهم[١] كان يرهب وبهم كان يتمرس ؟ هذا ونصرته على النصارى متوالية ، وغزواته فى كل صائفة متصلة ، أزيد من خمسين — عدَّها ابنُ حَيَّان فى كتابه الموضوع فى أخبار الدولة العامرية[٢] ، وجعله لمن شاء خَزَلَه عن تاريخه الكبير أو ضمه إليه — حتى أذعن له ملوك الروم ورغبوا فى مصاهرته . تناول ذلك كلَّه بتأييد إلٰهى مدة طويلة ، وأورثه بنيه وقتاً قصيراً .

فأما أبو مروان عبد الملك المظفر منهم ، فقام بالدولة مقام أبيه ، وأغنى فى غزو

---

(١) كذا فى الأصل ، والأصح هنا : الذين بهم كان يرهب .

(٢) فى الأصل : الناصرية ، ولم نسمع أن ابن حيان كتب كتابا خاصا عن عبد الرحمن الناصر ، ولكن الثابت أن له كتاباً فى أخبار الدولة العامرية يسمى « البطشة الكبرى » وعنه نقل ابن بسام ما أورده فى « الذخيرة » من تاريخ محمد بن أبى عامر .

العدو ، إلا أن مدته لم تطل . وبلغت الأندلسُ فى أيامه نهاية الكمال ، وكان على أهلها أسعدَ مولود . حكى ابنُ حيّان عن زعيم المنجمين على عهد الحَكم[1] ، أنه نظر فى مولد عبد الملك هذا وهو طفل ، فأشار مِن بَعد سعادته إلى أمرٍ كبير لم يدركْ هو آخرَه ، فعجبَ مَن شاهَده مِن جودة إصابته ، وذلك أنه قال : « لم يولد قط بالأندلس مولود أسعد منه على أبيه ، وعلى نفسه ، وعلى حاشيته ، نعم ! وعلى أهل الأندلس طرًّا ، وعلى أرضها طرًّا ، فضلا عن ناسها . وإنها لا تزال كذلك حالَ حياته ، وإذا هلك فما أراها إلا بالضد »[2] ، فكان كذلك .

وأما أبو المطرف عبد الرحمن الناصر أخو عبد الملك ، فإنه وَلِىَ الحجابةَ بعده ، فلم يقم إلا يسيراً حتى قام عليه المهدى محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر ، فقُتل وصُلب . وانبعثت الفتنُ على الأثر ، فما خمدت نارُها
إلا فى النادر ، / إلى وقتنا هذا — وهو سنة [...][3] أربعين وستمائة . وقد [١٢٧-أ]
استولى الرومُ فيه على الأندلس بأسرها ، مع الجزائر الشرقية المضافة إليها ، بين صلح وعنوة .

وشؤم عبد الرحمن الناصر[4] هو الذى جرّ افتراقَ الجماعة ، وجرّأ على خلعان الطاعة ؛ وعلى رِجله كان الفسادُ العام ، لما استشرف إلى الخلافة ، واستقل خطةَ الحجابة ، ولم يرض إلا بالإمامة . فداخل هشاماً المضعوف ، وطالبه بأن يجعله ولىّ عهده ، ويلقى إليه بجميع أمره ، فاستفتى فى ذلك فقهاء قرطبة وعلماءها

(١) هو أحمد بن فارس البصرى المنجم زعيم الصناعة بها على عهد الحكم ، كما قال ابن بسام — راوياً عن ابن حيان — فى الذخيرة قسم ٤ مجلد ١ ، ص ٥٩ .

(٢) نقل ابن الأبار ذلك عن ابن حيان . راجع المرجع السابق ، ص ٥٩ — ٦٠ .

(٣) أسقط الناسخ هذا الرقم سامحه الله . . كان هذا يحدد لنا تاريخ كتابة الحلة السيراء بالضبط .

(٤) المراد عبد الرحمن بن أبى عامر الذى اتخذ لنفسه لقب الناصر ، ويلقب أيضاً بالمأمون .

حينئذ ، فسوّغوا له ما طلب واحتجوا بقوله صلى الله عليه وسلم : « لا تقوم الساعة حتى يخرج رجل من قحطان يسوق الناس بعصاه » — وكان ابن أبي عامر معافريًّا قحطانيًّا — فقالوا : عسى أن يكون الذى وَعد به رسولُ الله صلى الله عليه وسلم . وجدَّ فى ذلك السعى الخبيث أبو العباس بن ذكوان(١) القاضى وأبو حفص ابن برد الكاتب(٢) ، حتى قال فيهما ابن أبي يزيد المصرى :

---

(١) أبو العباس أحمد بن عبد الله بن هرثمة بن ذكوان بن عبد الله بن عبلوس بن ذكوان الأموى ، قاضى الجماعة بقرطبة على أيام المنصور محمد بن أبي عامر وابنه عبد الملك المظفر بن أبي عامر وأخيه عبد الرحمن بن أبي عامر ، وهو أول الموقعين على الوثيقة التى استصدرها عبد الرحمن بن أبي عامر بن هشام المؤيد بتوليته العهد الخليفة هشام المؤيد . وقد أثنى عليه معظم من ترجموا له (الضبى ، رقم ٤٢٥ ص ١٧٤ والنباهى : المرقبة العليا ، ص ٨٤ وابن سعيد فى « المغرب » ، رقم ٢١٠ جـ ١ ص ١٤٤ وأعمال الأعلام لابن الخطيب ، ص ٤٩) . وأسرة بنى ذكوان أسرة فقه وقضاء ، وقد علت منزلته عند عبد الرحمن بن أبي عامر حتى قلده الوزارة إلى جانب القضاء ، وكان يكتب عنه : من الوزير قاضى القضاة ، وهو أول من كتب عنه بذلك من قضاة الأندلس . وقد ظل جليل القدر إلى وفاته فى ٢١ رجب سنة ٤١٣ . وأبو محمد ابن حزم يتنقصه وينقده نقداً شديداً .

(٢) أبو حفص أحمد بن محمد بن أحمد بن برد الكاتب ، المعروف بابن برد الأصغر. ذكر الحميدى فى الجذوة (بتحقيق محمد بن تاويت الطنجى ، القاهرة ١٣٧٢) أنه كان مولى لأحمد بن عبد الملك بن عمر بن شهيد ، أديب وشاعر اشتهر بأسلوبه المسجوع المثقل بزينة اللفظ ، ويعتبر من أوائل من أدخل هذه الطريقة فى الأندلس . وقد شارك فى السياسة وخدم المنصور ابن أبي عامر وابنيه عبدالملك وعبد الرحمن، وعلا أمره فى أيام هذا الأخير حتى وصل إلى الوزارة . لم يقدم لنا الذين ترجموا له شيئاً نافعاً عن حياته ، ولكن الحميدى يذكر أنه لقيه مراراً زائراً لأبي محمد على بن أحمد بن حزم وأنه توفى سنة ١٠٢٧/٤١٨ ، ونسب إليه الحميدى كتباً فى علوم القرآن ، وذكر له ابن بسام معاصره كتاب « سر الأدب وسبك الذهب » ونقل فقرات طويلة منه ومن شعره ، ومن كلامه فى أغراض شتى .

انظر : ابن بسام ، الذخيرة ، قسم ١ مجلد ٢ ص ١٩ وما بعدها .
ياقوت ، معجم الأدباء (طبعة أحمد فريد رفاعى ، القاهرة) ٥/٤١ — ٤٣ .
الضبى ، بغية الملتمس ، ص ١٥٣ (كلاهما نقل كلام الحميدى دون زيادة)
ابن سعيد ، المغرب : ١/٨٦ وتعليق الدكتور شوقى ضيف .

إن ابن ذكوان وابن بُردٍ قد ناقضا الدينَ بَعْدَ عمدِ
وعاندا الحق إذ أقاما حفيد شَنْجُه[1] وليَّ عهدِ

ولم يقم كذلك إلا أربعةَ أشهر — فى ما ذكر الحُمَيدى وغيره — واختل أمره وأسلمته الجيوش ، فكان من خبره ما تقدم ذكره .

وكان مولد المنصور محمد بن ابى عامر سنة سبع وعشرين وثلاثمائة ، وفيها كانت الهزيمة العظيمة بالخندق[2] على عبد الرحمن الناصر ، فأخذ الله بثأر

---

(١) إشارة إلى ما هو معروف من أن أم عبد الرحمن بن محمد بن أبي عامر كانت بنت شانجه الثانى ابن غرسية الأول ابن شانجه الأول وهو الملقب بأباركا ملك نبارة Sancho Garcés II (Abarca) . وقد أسلمت هذه الأميرة بعد زواجها بالمنصور وتسمت باسم عَبْدة ، وأنجبت عبد الرحمن حوالى سنة ٣٧٤/٩٨٤ ، وأطلقت عليه – تدليلا – مصغر اسم أبيها ، أى سانشويلو Sanchuelo (بالعربية شنجول) . وقد أعقبت هذا الزواج هدنة بين قرطبة والبشكنس ، وأقبل سانشو جارثيس فى زيارة رسمية لحميه فى قرطبة فى سبتمبر سنة ٩٩٢/رجب ٣٨٢ .
وقد ذكر ابن الخطيب فى أعمال الأعلام (ص ٦٣) شانجو غرسيس هذا وقال : المعروف بـ « رِى فَرْجه » Rey Abarca .

انظر : تعليق الدكتور مكى على القصيدة رقم ١٠٧ من ديوان ابن دراج ، ص ٣٩٥ .

ابن عذارى ، البيان المغرب (بتحقيق ليڤى پروفنسال) جـ ٣ ، ص ٣٨ و٤٢ .

ابن الخطيب ، أعمال الأعلام (بتحقيق ليڤى پروفنسال) ص ٧٩ .

Dozy, *Recherches* (3e édition) I. 188-192.

LÉVI — PROVENÇAL, *Histoire de l'Espagne Musulmane* (2e éd, Paris, 1950) II, 241 - 242, 292.

(٢) دارت معركة الخندق بضعة أيام ، ولكنها بلغت ذروتها وتقرر مصيرها فى ١١ شوال ٣٢٧/ أول أغسطس ٩٣٩ عند مدينة سنت مانقش (سيمانقاس Simancas) وقد سميت باسم الخندق بسبب خندق كان عبد الرحمن الناصر قد أمر بحفره تحت أسوار سيمانقاس حتى يحصر عنده قوات العدو الهاربة فى حالة الهزيمة . وكان عبد الرحمن قد احتفل بالاستعداد للمعركة احتفالا ضخما وحشد لها نحو ١٢٠ ألف جندى وسماها لهذا « غزاة القدرة » لأنه عول على أن يجعلها قاضية على رذمير الثالث Ramiro III ملك ليون . ولكن معظم جيش المسلمين كان من المطوعة والقوات غير النظامية ، ثم حدث خلاف بين قادة الجيش من الأندلسيين وصقالبة عبد الرحمن ، ولهذا فعندما شدت قوات ليون على المسلمين فى اليوم الأخير للمعركة تراجعوا وتخاذل بعضهم وولوا الأدبار ، حتى إذا وصلوا إلى الخندق تساقطوا فيه وقتلوا =

الإسلام على يدى المنصور ، وكانت وفاته سنة اثنتين وتسعين وثلاثمائة . خرج غازياً ، وقد وقع فى مرضه الذى مات فيه ، فاقتحم جليقية من تلقاء مدينة طليطلة ، ومرضُه يخف وقتاً ويثقل أوقاتاً ، وقويت عليه العلة بأرض قشتيلة ، فاتُّخذ له سرير من خشب يُحمل على أعناق الرجال ، قطع بذلك أربعة عشر يوماً ، حتى وصل إلى مدينة سالم ، فوجه ابنه عبد الملك ليخبر هشاماً بما ترك عليه أباه ، وتوفى ليلة الاثنين لثلاث بقين من شهر رمضان من السنة المذكورة . قيل : ودفن بمدينة سالم وقبره بها ؛ وكان عليه مكتوباً :

آثارُه تُنبيك عن أخبارِه   حتى كأنك بالعِيان تراهُ
تاللهِ لا يأتى الزمانُ بمثله   أبداً ، ولا يحمى الثغورَ سواهُ

/ وعلى ما كان عليه من الهيبة والرهبة ، فقد كان له حلم واحتمال ، مع محبة [١٢٧-ب] العلم وإيثار للأدب وإكرام لمن ينتسب إليهما . يحكى أن أبا محمد الباجي الراوية دخل عليه وقال : « أصلحك الله يا حاجب ، وحفظك ووفقك وأحسن عونك » ، فرد عليه ابنُ أبي عامر أجملَ رد ، وبجّله ووقّره وأدنى مكانَه حتى أقعده إلى جانبه ، وقال له : « كيف أنت اليوم وحالك ؟ » فقال له : « بخيرِ ما كنت به »(١) ثم قال له الباجي : « أى والدٍ كان لك رحمة الله عليه ! كان والله

= بالألوف ، وأسرع عبد الرحمن ناجياً بنفسه فى فل الجيش . وتلك هى المعركة الوحيدة التى خسرها عبد الرحمن الناصر ، وكانت آخر غزوة غزاها بنفسه .

انظر : الأخبار المجموعة ، ١٥٥ - ١٥٦ .

نفح الطيب (طبعة أوربا) ١/٢٢٨ .

ابن عبد المنعم الحميرى ، الروض المعطار ، ٩٩ - ١٠٠ .

DOZY, *Recherches*, I, 156 - 170.

LÉVI - PROVENÇAL, *op. cit*, 56 - 59.

والمراجع الوافية المعطاة فى هذين المرجعين .

(١) الأصل : فكنت به .

— ما علمتُ — من أهل الخير والعافية ، والصلاح والعفة ، والحرص على الطلب والمعرفة . اختلف معى إلى محمد بن عمر بن لبابة ، وإلى أحمد بن خالد ، وإلى محمد بن فُطَيْس اللبيرى وغيرهم . وكان لى خيرَ صديق وصاحب : أنتفعُ به ، وينتفعُ بى ، وأقابلُ معه كتبَه وكتبى[1] . ولم يكن فضوليًّا البتة . وأما أنت فلم تمتثله ، وأدخلتَ يدك فى الدنيا ، فانغمستَ فى لُجِّها . وطلبتَ الفضول ، فعلمتَ أخباراً كثيرة[2] ، وأوبقت نفسك والله يا مغرور ، وعزَّ علىَّ انتشابك » ، فقال له ابنُ أبى عامر : « يا فقيه ، هكذا صاحب الدنيا : لا بد أن يخلط خيراً بشر ، ويأتى معروفاً ومنكراً ؛ والله يتوب على من يشاء برحمته » . وسأله الباجى إثر هذا رفع الغرامة عن ماله بإشبيلية ، فأمر بإسقاطها ، ووصله ببدرة دراهم كاملة ، ومنديل كسوة[3] تشا كله ، فيها خلعة تامة . ومن شعره يفخر :

رميتُ بنفسى هولَ كل عظيمةٍ وخاطرتُ ، والحر الكريمُ مخاطرُ
وما صاحبى إلا جنان مشيعٌ وأسمر خطى وأبيض باترُ
ومن شيمى أنى على كل طالبٍ أجودُ بمالٍ لا تقيه المعاذرُ
وإنى لزَجّاء الجيوش إلى الوغى أسود تلاقيها أسود خوادرُ
لَسُدْتُ بنفسى أهلَ كل سيادة وكاثرتُ حتى لم أجد من أكاثرُ

---

(١) أورد ابن الأبار هذه الفقرة فى ترجمته لأبى حفص عبد الله بن محمد بن أبى عامر (رقم ١٢٥١ ج ١ ص ٤٣٧) ، وقد ذكرناه فى تعليقاتنا آنفاً .

(٢) انظر عن نظام الجاسوسية الذى وضعه المنصور : أعمال الأعلام لابن الخطيب (بتحقيق ليفى پروفنسال ، بيروت ١٩٥٦) ص ٧٦ — ٧٧ .

(٣) الأصل : منديل كشره ، والصواب ما أثبتناه . وليس المراد بالمنديل ما نريده به اليوم فى الاستعمال الجارى ، وإنما قطعة قماش كبيرة توضع فيها الأشياء ونلف ، والمراد أنه أعطاه كسوة لائقة به ملفوفة فى منديل . انظر عن استعمال اللفظ فى هذا المعنى :

DOZY, *Dictionnaire detaillé des noms des vêtements chez les Arabes*, Amsterdam, 1845, p. 416.

وما شِدْتُ بنياناً ، ولكن زيادة على ما بنى عبدُ المليك وعامرُ
رفعْنا المعالى بالعوالى حديثَهُ وأورثناها فى القديم مَعافرُ

قال ابن حَيّان : هذا لأنه محمد بن عبد الله ، ونسبه كما تقدم . قال : وعبد الملك جده هذا هو الداخل إلى الأندلس / مع طارق بن زياد ، مولى موسى [١٢٨-١] ابن نصير ، فى أول الداخلين من المغرب ؛ وهو فى قومه وسيط .

وقال الُحمَيدى : قال لى أبو محمد على بن أحمد — يعنى ابن حزم — الفقيه : كان المنصور أبو عامر محمد بن أبى عامر مَعافِرِىّ النسب من حِمْيَر ، وأمه تميمية وهى بُرَيْهة بنت يحيى بن زكرياء التميمى المعروف بابن بُرْطال ، ولذلك قال فيه أحمد بن دَرّاج — هو أبو عمر القسطلى — من قصيدة له فيه :

تلاقت عليه من تَميمٍ ويَعْرُبٍ شموسٌ تَلألأَ فى العلا وبدورُ
من الحميرين الذين أكفُّهمْ سحائبُ تهمى بالندى وبحورُ(١)

وللمنصور — لما اشتد سلطانه وتوالى ظفره — وكتب به إلى صاحب مصر يتوعده :

مَنعَ العينَ أن تذوقَ المناما حُبُّها أن ترى الصَّفا والمَقاما
لى ديون بالشرق عند أناسٍ قد أحلوا بالمَشْعَرَين الحراما
إن قَضَوْها نالوا الأمانى وإلا جعلوا وزنَها رقاباً وهاما
عن قريبٍ ترى خيولَ هشامٍ يبلغُ النيلَ خطوُها والشآما

وله :

ألم ترنى بِعتُ الإقامةَ بالسُّرَى ولِينَ الحشايا بالخيولِ الضوامرِ ؟

(١) راجع ديوان ابن دراج ، بتحقيق الدكتور مكى ، ص ٣٠٢ .

تبدَّلْتُ بعد الزعفرانِ وطِيبِهِ صدا الدِّرع من مستحكمات المسامرِ
أرونى فتًى يحمى حماىَ وموقفى إذا اشتجر الأقرانُ بين العساكر
أنا الحاجب المنصور من آل عامرٍ بسيفى أقُدُّ الهامَ تحت المغافر
تِلادُ أمير المؤمنين وعَبدُهُ وناصحُه المشهودُ يومَ المفاخر
فلا تحسبوا أنى شُغلت بغيركم ولكنْ عَهدتُ[1] الله فى قتل كافر

وأهدى المنصور إلى أبى مروان عبد الملك بن أحمد[2] بن شُهَيْد الوزير عقيلة من عقائل الروم يكنفها ثلاث جوار — وقد سأله ذلك عند صدره من بعض غزواته — وكتب إليه معهن يداعبه :

قد بعثنا بها كشمسِ النهار فى ثلاثٍ من المَها أبكارِ
فاجتهدْ واتَّئد فإنك شيخٌ خفىَ الليلُ عن بياض النهار[3]
[١٢٨-ب] / صانك الله عن كَلالك فيها فمن العــار[4] كَلَّةُ المسمار

فافتضهن أجمع فى ليلته ، وكتب إليه :

قد فضضنا ختامَ ذاك السِّوار[5] واصطبغنا من النجيع الجارى

---

(١) كذا فى الأصل ، وفى يتيمة الدهر لأبى منصور عبد الملك الثعالبى (طبعة محيى الدين ، القاهرة ، بدون تاريخ) ، ٦٢/٢ :

* ولكنْ أطعتُ اللهَ فى كل كافر *

(٢) الأصل : عمر بن شهيد وهو خطأ ، وقد صوبت الاسم من الذخيرة ، قسم ٤ مجلد ١ ص ١٦ ، وقد وردت نفس الأبيات هناك ، ص ١٨ — ١٩ . وقد سبقت ترجمته .

(٣) الذخيرة ، قسم ٤ مجلد ١ :

فاتئد واجتهد فإنك شيخ قد جلا الليلَ عن بياض النهار

(٤) الأصل : الصدر ، والتصويب من الذخيرة .

(٥) كذا فى الأصل وفى مخطوط الذخيرة ، وقد صوبه المحققون إلى : الصوار.

ونعمنا فى ظــــل أنعم ليل ولهـــونا بالدر أو بالدرارى(١)

وقضى الشيخ ما قضى بحسام ذى مضاء عضب الظُّبي بتارِ

فاصطنِعْه ، فليس يُجزيك كفراً واتخِذْه سيفاً على الكفارِ

قال ابن حيّان : وكانت حجابة المنصور خمساً وعشرين سنة ، وعمره خمساً — أو ستًّا — وستين سنة .

١٠٢ – عبد الله بن عَمرو بن أبى عامر ، أبو حفص

كان أبوه عمرو — وهو الملقب بـ « عَسْكلاجة » — صاحب المدينتين(٢) فى أيام هشام المؤيد ، بتقديم ابن عمه المنصور محمد بن أبى عامر . ثم وَلِى بلادَ المغرب بعد ذلك فاشتد سلطانُه هنالك ، واستنزل حسنَ بن القاسم العَلَوى الإدريسى وأنفذه إلى الأندلس . وكان صارماً مهيباً جباراً قاسياً(٣) ، وقتلَه(٤) ابنُ عمه المنصور بتنقصه إياه وغضِّه منه وتَسَخّيه عليه واحتجاز الأموال دونه

(١) الذخيرة :

وصَبَوْنا فى ظــل أطيب عيش ولعبنـــا بالدر أو بالـــدرارى

(٢) أقام المنصور بن أبى عامر ابنَ عمه عمرو بن عبد الله بن أبى عامر على مدينة قرطبة عقب توليه هو الشرطة العليا لكى تتم له السيطرة على شؤون الأمن والحراسة فى العاصمة ، وكان محمد بن أبى عامر قد سلك فى حكومة المدينة سياسة العنف والشدة حتى أقر الأمن فيها ، ثم استناب عن نفسه ابن عمه هذا فسار سيرته (ابن عذارى، البيان : ٢/٢٦٦ – ٢٦٧) وعند تمام بناء مدينة الزاهرة أقامه عليها ، فأصبح يلقب بصاحب المدينتين .

(٣) كان ذلك فى الغالب سنة ٣٧٥ ، وقد روى ابن عذارى إرسال المنصور جيشاً كثيفاً فى تلك السنة إلى المغرب للقضاء على ماكان يحاوله حسن بن كنون من الخروج عن طاعة الأمويين كما سبق أن رويناه . وحسن بن القاسم المذكورهنا هو حسن بن كنون بن القاسم ، وقد قتله المنصور غدراً بعد أن استسلم على أمان وقيل أن يذهب إلى قرطبة . البيان المغرب : ٢/٢٨١ .

(٤) أى قتل عَمراً أبا المترجم له هنا .

[بعد أن][1] استقدمه من المغرب ، وذلك فى جمادى الآخرة سنة خمس وسبعين وثلاثمائة .

ومن شعر أبى حفص هذا يذم المظفرَ عبدَ الملك ، لما زوّج « حبيبة » بنت ابن عمه عبد الله بن يحيى بن عبيد الله بن أبى عامر — وهى بنت أخته « بُرَيْهَة » — من عبد الملك بن قند مولاهم :

عـــربىٌّ مزوِّجٌ عبدَه بنتَ أختهِ
قبّح الله فعلَ ذا ورماه بمقتـــهِ

وقد قيل إنهما لعبد الملك بن يحيى ، أخى عبد الله بن يحيى المذكور .

---

١٠٣ — زياد بن أفلح
مولى الناصر عبد الرحمن بن محمد

كان من وزراء الدولة العامرية وكبار رجالها ، وتوفى فى أولها سنة ثمان وستين وثلاثمائة — ذكر ذلك ابنُ حيّان فى تاريخه الكبير ، وذكر فى « الدولة العامرية »[2] أنه كان على المدينة ، وأن جُؤذُراً الفتى الحكمى تحيّن ركوبَ

---

(١) أضفت هاتين الكلمتين للسياق .

(٢) إشارة إلى كتاب ابن حيان الخاص بالدولة العامرية ، وهو المعروف بـ « البطشة الكبرى » وقد احتفظ لنا بأجزاء منه ابن بسام فى الذخيرة (قسم ٤ مجلد ١) ص ٣٩ وما بعدها ، وابن الخطيب فى أعمال الأعلام (بيروت ١٩٥٦) ص ٤٨ وما يليها ، وابن عذارى فى البيان المغرب جـ ٢ ص ٢٥٣ وما يليها . ولكن ما ينقله ابن الأبار هنا لا يوجد فى أى من تلك المراجع . وله لهذا أهمية كبرى ، رغم إيجازه . وإليك تفصيله :

بعد أن استقر الأمر على أن يظل هشام المؤيد خليفة بعد أن تخلص جعفر المصحفى ومحمد بن أبى عامر من المغيرة بن عبد الرحمن الناصر ، شعر صقالبة القصر وعلى رأسهم الفتيان =

زيادٍ هذا إلى داره بطرف المدينة ، حين توصّل إلى هشامٍ المؤيد ، عازماً على الفتك به ، عند مداخلته الجماعةَ الذين اجتمعوا على خلعه ، بتدبير عبد الملك ابن القاضي منذر بن سعيد صاحب خطة الرد ، فبُطش بجُؤذَر / وقُبض عليه بمبادرة [١٢٩-ا]

جؤذر وفائق بأن الأمر صار فى الحقيقة إلى المصحفى وابن أبى عامر ، تعاونهما صبح أم المؤيد . فأخذا يعارضان هذا الثالوث الذى استأثر بالحكم . وتنبه ابن أبى عامر لخطر الصقالبة ، فما زال يضايقهم حتى استصدر من هشام أمراً بعزل جؤذر وفائق عن رياستهما ، فعرضا الانصراف عن القصر مع أتباعهما فأجيبا إلى ما طلبا وانتقلا إلى دورهما فى المدينة . وكان يلى المدينة إذ ذاك زياد بن أفلح المترجم له هنا ، وكان فى الباطن من الناقمين على الثالوث الحاكم المتوجسين شراً من ابن أبى عامر.

وبعد أن تمكن محمد بن أبى عامر من إسقاط جعفر المصحفى والانفراد بالحجابة سنة ٣٦٧/ ٩٧٨تبين لجؤذر وفائق وشركائهما أنه لابد من معاجلة ابن أبى عامر ، فدبروا فى السنة التالية مؤامرة ترمى إلى أقصاء هشام المؤيد عن الخلافة والمناداة بحفيد لعبد الرحمن الناصر يسمى عبد الرحمن ابن عبيد الله . وقد اشترك فى المؤامرة زياد بن أفلح وعبد الملك بن منذر بن سعيد البلوطى ، وكان يلى خطة الرد فى قرطبة ، والشاعر يوسف بن هارون الرمادى . وفشلت المؤامرة ، وخاف زياد بن أفلح أن يفتضح أمره فألقى بزملائه المتآمرين فى السجن . ويفهم من رواية ابن الأبار أن جؤذراً لم يسجن ، وحاول أن يغتال زياد بن أفلح انتقاما منه على الصورة الواردة فى النص . ولم يوفق جؤذر فى ذلك لأن أحمد بن محمد بن عروس (ويبدو أنه كان يتولى وظيفة كبرى من وظائف الشرط) قبض عليه ، فأسرع زياد بن أفلح — وكان فى داره — مخافة أن يتكلم جؤذر ويفضحه ، ولكن يبدو أن هذا تكلم ، ولهذا وبخ ابن عروس زياد بن أفلح «وتعاونا فى النازلة» أى على كتمان الأمر . وقد قتل عبد الرحمن بن عبيد الله بن الناصر عقب ذلك . أما عبد الملك بن منذر فقد اتهم بالزندقة والاعتزال ، وأُفتى عليه بآية الحرابة كما يقول ابن الأبار ، فأشار زياد بن أفلح بصلبه تقرباً لابن أبى عامر ، فصُلب عند باب السدة فى منتصف جمادى الثانية ١٨/٣٦٨ يناير ٩٧٧ . وتوفى زياد بن أفلح بعقب ذلك . أما الشاعر الرمادى فقد هرب واختفى حتى عفا عنه المنصور.

انظر: طوق الحمامة لابن حزم ، طبعة ليون برشير مع ترجمة فرنسية (الجزائر ١٩٤٩) ص ١١٤ — ١١٥ .

ASIN PALACIOS, *Abenmasarra y su escuela*, en [*Obras Escogidas*, 1, 124.

LÉVI - PROVENÇAL, *op. cit.* II, 216 - 218.

بالإضافة إلى المراجع المذكورة فى أول هذا التعليق .

أحمد بن محمد بن عروس إلى تلافى الأمر . قال : ووافى زياد على إثر ذلك فوبخه ابن عروس ، فأخذ فى الاعتذار وتعاونا على النازلة ، وما سَلِم زياد من التهمة . وحُكى أن عبد الملك بن منذر فى هذه القصة — لما أفتى عليه بآية الحرابة ورَدّ إلى الخليفة الأمر فيما يختار له من العقوبة — أشار صاحب المدينة زياد بن أفلح هذا بأن يُصلب ، استبلاغاً فى المثلة — يبغى بذلك التقرب إلى ابن أبى عامر ونفى التهمة عنه — فعمل برأيه ، وذلك فى سنة سبع وستين وثلاثمائة . وزياد هو القائل :

وأصبحتِ الدنيا بأوْبتك الرضا لدىّ كوَصلِ صانعٍ لقفا الصّدِّ
ولِمْ لا ، ودهرى كلُّه بك مونقٌ ؟ أرقُّ — إذا ما شئتَ — من طُرّتى بُردِ

---

١٠٤ — فَرْحُون بن عبد الله
يُعرف بابن الوَبْلة(١)

وهو محمد بن عبد الله بن عبد الواحد ، ويُشهَر بفَرْحُون . كان والياً على شنترين بغرب الأندلس ، فى أيام الحَكم المستنصر بالله أو ابنه هشام المؤيد بالله ، وقدم عليه أبو عمر يوسف بن هارون الرمادى منتجعاً ، فأمر بإنزاله ، فقصّر به متولّى ذلك ، فكتب إليه الرمادى :

أيها العارض والمُهْـ ـدِى لمستسقيه وَبْلاَ
حين لا يهدى إذا ما اُسْـ ـتُسْقِىَ العارض طَلاّ

---

(١) الأصل : الدبله ، والتصويب من دوزى ، ص ١٥٥ .

قائداً أفنت مغازيـ ـهِ العِدا سبياً وقتــــلا
إنَّ ضيفاً قاصداً قلـ ـت له : أهلا وسهلا
قد توسعت له فيـ ـما يَسُرُّ الضيفَ نُزْلا[١]
ما له فرش على الأر ض سوى وجه مُصَلَّى
فأنا لولا [اصطبار][٢] ردَّ منه الوعرَ سهلا
لم تجـد عيني لنومٍ بمبيتِ السوءِ كَحْلا

فوردت الأبيات على فرحون وهو خارج إلى الغزو ، فخجل من ذلك ، وأمر له بما طلب ، وقرن ذلك بجارية ، وكتب إليه معتذراً من التقصير :

أيها الســـيد أهلا بالذى أهديتَ أهــلا
ما يُناوِيك مُنــــاوٍ إن وصلتَ القولَ وصلا
شاعراً نَدْباً نبيــــلا محسناً جِــدًّا وهزلا
ما تولَّى الشعرَ إلا ردَّ منه الوعرَ سهلا
شِعرُه سَحٌّ ووَبْلٌ إذ يكونُ الشعرُ طَلاّ
محكَمٌ غضٌّ بديعٌ لا يكادُ الدهرَ يَبْلَى
/فله ما قلتُ أهــلا ثم رحباً ثم سهلا [١٢٩-ب]
أيها الســـيد مهلا بأخيك المحضِ ، مهلا[٣]
إن شكواكَ إلينـا ولَّدَتْ فى النفس خَبْلا
ونفَتْ نومى فلمـــا تـكتَحِل عيناىَ كَحْلا

(١) قرأها دوزى : خزلا ، وصوبها إلى : خذلا .

(٢) بياض بالأصل ، وقد أكملته بما يناسب الوزن والمعنى .

(٣) الأصل : أهلا ، ولكن السياق والمقابلة مع الشطر الأول يقتضيان هذا التعديل .

ما على عمدٍ ولكنْ (م) ـا جَهِلْنا الأمرَ جهلا
وظنَنّا بالعـكازى(١) إنه أكرمُ بذلا
فابسُطَنْ عذرى وإن لم أكُ لِلأعذارِ(٢) أهلا
يا أخى أنت ومولًى وقليلٌ لك مولَى
قد بعثنا بفراشٍ فاهجرنْ وجهَ المصلَّى
ووصلناه بغيْدَا ء كبدرٍ يتجلَّى
فتفضَّلْ بقبولٍ لا عدمتَ الدهرَ فضلا
ووَرَا ذلك منى سترى فضلا وفضلا

وله أيضا :

يارسولى أبلغْ إليها شكاتى واستَنِلْها ولو بقاءَ حياتى
قل لها : قد قضى هواكِ عليهِ فهو ميت ، أو مؤذنٌ بالمماتِ
فالْحَظيهِ تَرَىْ إذا شئتِ مَيْتاً كان يحيا بأيسر اللحظاتِ
واعجبى أن تكونَ لحظةُ عينٍ منكِ تُهدى الحياةَ للأمواتِ

---

١٠٥ — على بن وَداعة بن عبد الودود السلمى ، أبو الحسن

قال فيه الحُمَيْدى : أميرٌ كان قريباً من الأربعمائة . وقال ابن بسام ، وذكر صاعداً اللغوى : انتهت به الحال إلى أن أُغرِم ، فاستغاث علىَّ بن وداعة ، أحدَ الفرسانِ الأبطال ، ونبهاء الدولة كان فى ذلك الأوان . قال : ومن شعره فيه :

---

(١) كذا فى الأصل ، ولعله اسم الشخص الذى وُكِلَ إليه إنزال الشاعر والحفاوة به .

(٢) الأصل : فابسطن عذرى وإنى لم أكن للأعذار أهلا

والبيت على هذه الصورة مختل الوزن ، وقد أبدل دوزى (ص ١٥٧) كلمة « للأعذار » بـ « للعذر » ، وما أثبتناه أصلح وأقوم .

أبا حسنٍ ، ربيعةُ من سُلَيْمٍ　　سِنَانٌ زانَ عاليةَ الرماحِ
وإنى عائذٌ بك من هناةٍ(١)　　تَحُشُّ دعائمى تحت القِداحِ
فكُرَّ على ابن عمك وانتشلْهُ　　فليس حِمى ابنِ عمك بالمباحِ
فإن الجار عندك بين جَنْبَىْ　　عُقَابِ الدَّجْنِ كاسرةِ الجناحِ
نظلّك طالعًا ببنى سُلَيْمٍ　　عليها عند مفتضَحِ الصباحِ
إذا ساورتَ قِرْنَكَ فى مِكَرٍّ　　جعلت له ذراعَك كالوشاحِ

ومن شعر ابن أبى وداعة :

زار الحبيب فمرحبًا بالزائرِ　　أهلا ببدرٍ فوق غصنٍ ناضرِ
/قبَّلتُ من فرحى تُرابَ طريقِهِ　　ومسحتُ أسفلَ نعلِهِ بمحاجرى　　[١٢٠-أ]
وخشيت أن يَنْقَدَّ أخمصُ رِجلِهِ　　من رقةٍ فبسطتُ أسْودَ ناظرى

---

(١) فى الأصل بالتاء المفتوحة ، وصححناها كما أثبتناه . والهناة الداهية ، وقد حسب ناشرو الذخيرة أنها مستعملة هنا جمعاً لأنهم قرأوا الكلمة الواردة بعدها تَحتَتْنَ . وصحة قراءتها كما هى هنا.
انظر : الذخيرة (قسم ٤ مجلد ١) ص ٣٨ .

وقد روى ابن بسام فى الذخيرة (نفس المرجع ص ٣٧ وما بعدها) تفصيل ما جعل صاعدا يستغيث بعلى بن وداعة ، وخلاصته أن صاعد بن الحسن بن عيسى البغدادى ساءت حاله بعد العز الذى كان فيه أيام المنصور ، و « طولب فى أخريات تلك الدولة ، وانتهت به الحال إلى أن أُغرِم فى خبر طويل » فاستغاث بعلى بن وداعة شعراً ونثراً ، فما انتفع بعلى بن وداعة ، ولا كانت فيه شفاعة ، فتوجه إلى الخليفة هشام يرجوه معاونته ، ثم قُتل ابن وداعة ولم يبق عند صاعد أمل ، إذ اضطربت الأحوال وارتجت الفتنة وضاع أمر صاعد « بين غلاء السعر ورخص الشعر » .
ورفض رجال هشام المؤيد أن يأذنوا لصاعد فى مبارحة الأندلس خوفاً من لسانه ، فخرج مستخفياً ولجأ إلى أبى زيد البكرى صاحب جزيرة شلطيش سنة ٤٠٣ ، ومن هناك ذهب إلى صقلية حيث تحسنت حاله ، ثم عاد إلى الأندلس ليأخذ أهله وعياله ، ومدح الخليفة المستعين فلم يظفر منه بطائل ، فعاد إلى صقلية وتوفى فيها سنة ٤١٠ .

١٠٦ – يَعْلَى بن أحمد بن يعلى

كان أبوه من رؤساء الدولة الأموية وقوادها الجِلّة ، وكان يَعْلَى هذا في دولة المنصور أبي عامر محمد بن أبي عامر . ومن شعره ، وقد بَعث إليه بورد مبكر :

بعثتُ من جَنَى بوردٍ غضٍّ له منظرٌ بديعُ
قال أناس رأوْهُ عندى : أعجلَه عامُنا المُريعُ
قلتُ : أبو عامرٍ المعلَّى أيامُه كلُّها ربيعُ

وتوفى سنة ثلاث وتسعين وثلاثمائة . وله يرثى أبا على البغدادى من أبيات :

أمات العلمَ موتُ أبى علىّ منارِ العِلم والفضل الرضِيِّ
سأبكى بعدَه سرًّا وجهراً كما يبكى الولىُّ على الولىِّ
ولو لم أبكه حزناً ووجداً إذاً ما كنتُ بالرجل الوفىِّ
إذا قلبٌ خلا من حب مَيْتٍ فقلبي ليس عنه بالخلىِّ

وله :

إنى هجرتُ الغانياتِ جميعاً ونزعتُ عن كَلَفى بهنّ نُزوعاً
ورفضتُ لذّاتى فصرتُ لناصحٍ بعد الإبابة[1] سامعاً ومطيعاً
ونَهى النُّهى قلبي فأقصر وارعوى واعتاض بعد الكبرياء خشوعاً

ورأيتُ رشدى واضحاً بعد العمى فنكصتُ عن غىّ الضلالِ رجوعاً

يا حسرةً ساعاتُها ما تنقضِى كيف النجاةُ وقد أسأتُ صنيعاً ؟

* * *

ومن ملوك إفريقية ورجالهم فى هذه المائة :

١٠٧ – محمد القائم أبو القاسم بن المهدى عبيد الله

/ قد تقدم الاختلافُ فى نسب عبيد الله إلى الحسين بن على ، رِضوانُ الله [١٣٠–ب] عليه ، فمن مُسَلِّمٍ ما ادعاه ومن دافِعٍ له فيما حكاه ، وهو الأكثر وهو الأصح والأظهر .

واختُلف أيضاً فى اسم القائم هذا ، فقيل عبد الرحمن وقيل حسن وقيل محمد ، وبهذا الاسم كان يُذكر فى الأمداح[1] ، قال على بن محمد الإيادى التونسى :

أعجبْ بأسطولِ الإمامِ محمدٍ وبحسْنه وزمانه المستغربِ

لبِسَتْ به الأمواجُ أحسنَ منظرٍ يبـدو لعين الناظر المتعجبِ

وتقدم أيضا ذِكرُ وروده المغربَ مع أبيه وما قيل فى تبنّيه وهو يومئذ

(١) أشار إلى الاختلاف فى اسمه محمد بن على بن حمّادُه فى كتابه « أخبار ملوك بنى عبيد وسيرتهم » (بتحقيق م . فوندرهايدن ، بارس – الجزائر ، ١٩٢٧) ص ١٢ ، ورجح أن صحة الاسم محمد واستدل على ذلك بأن أبا القاسم القائم عندما سار إلى المغرب الأوسط فى حياة أبيه فى صفر سنة ٣١٥ لحرب محمد بن خزر الزناتى ومن تبعه من زناتة اختط مدينة المسيلة وسماها « المحمدية » باسمه ، وهذا يدل على أن اسمه محمد ، بخلاف من يقول إن اسمه عبد الرحمن .

حَدَث . ثم بويع له بالخلافة بعد عبيد الله للنصف من شهر ربيع الأول سنة اثنتين وعشرين وثلاثمائة وأخفى القائم موته[١] سنة .

وكان فى حياة أبيه — على الخلاف فيه[٢] — أظهرَ منه فى خلافته ومصيرِ الأمر إليه : غزا قبل ذلك الإسكندريةَ فى عسكر عظيم فملَكها مع الفيوم وصار فى يديه أكثرُ خراج مصر وضيَّق على أهلها وحاربه مؤنسٌ الخادم بها . وكان خروجُه من رَقّادة فى سنة إحدى وثلاثمائة ، ولستٍّ بقين من جمادى الأولى سنة ثلاثمائة وَصَله جيشُ حباسة[٣] بن يوسف صاحب المهدى فى مائتى مركب فنزل فسطاطَ مصر والإسكندريةَ ، وقَوِىَ على مؤنسٍ[٤] بالرجال والأموال ، وشخص لحربه فكانت بينهما وقعة قتل فيها خلق من الفريقين ، ثم انصرف حباسة[٥] ومن معه عن الإسكندرية راجعين إلى المغرب بعد هزيمة وقعت على المغاربة .

---

(١) أى أنه أخفى موت أبيه سنة . وقد أشار ابن عذارى إلى حزن القائم على أبيه حزناً شديداً فى ص ٢٠٨ (جـ ١) من البيان المغرب .

(٢) أى على رغم الخلاف فى بنوته له . ويحتمل أيضاً أن يكون المراد : على الخلاف فى أمر عبيد الله نفسه .

(٣) الأصل : حباشة ، والأصح ما أثبتناه . وقد كتبه ناشرو « النجوم الزاهرة » حَبَاسة بفتح الحاء ، والأغلب الضم . راجع المناقشة فى ضبط الاسم فى « النجوم » : ١٧٢/٣ .

(٤) مؤنس الخادم القائد العباسى الطائر الصيت ، وقد سماه ابن حَمَّادُه « مؤنس الخادم الذى يعرف بالفحل أو يدعى المظفر» (ص ١٢) .

(٥) هذا التفصيل من ابن الأبار يحل خلافاً كبيراً بين المؤرخين ، فبعضهم (مثل الطبرى والكندى) يقولون إن القائد كان حباسة بن يوسف ، وبعضهم الآخر (مثل عريب بن سعد وابن خلكان والمقريزى) يقولون إن القائد كان القائم ، وانفرد أوتيخا بالقول بأن عبيد الله المهدى أرسل ابنه القائم بجيش مدداً لحباسة بعد استيلائه على الإسكندرية والفيوم (انظر المناقشة عند حسن إبراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ، القاهرة ١٩٥٨ ص ١١٣ هامش ١) .

وقد فصل ابن عذارى (البيان المغرب : ١٧١/١ — ١٧٢) أخبار هذه الحملة تفصيلا شافياً ، وذكر السبب فى قتل المهدى لحباسة بن يوسف وعروبة بن يوسف وجميع قرابتهما . وهناك تفاصيل أخرى عن هذه الحملة فى « أخبار بنى عبيد » لمحمد بن على بن حماده ، ص ١١ — ١٢ .

ثم غزا فى حياة أبيه ثانيةً ، وعند وصوله إلى الإسكندرية — وذلك فى شهر ربيع الآخر سنة سبع وثلاثمائة — خرج عاملُ المقتدر عنها ودخل الجيزة[1] من أرض مصر فى خلق عظيم .

وكتب القائمُ إلى مكة وإلى مَن حولَها يدعوهم إلى طاعته ويعدهم الجميلَ، وقال : « نحن أهل بيت الرسول ، ومن أحق بهذا الأمر منا ؟ » ، وضمّن الكتابَ أبياتاً يقول فيها :

أيا أهل شرق الله زالت حلومُكمْ ... أم اصّدعت من قلة الفهم والأدبْ ؟

فويحاً لكم خالفتمُ الحقَّ والهُدى ... ومَن حاد عن أم الهداية لم يُصِبْ

/ فيا مُعرضاً عنى وليس بمُنصفى ... وقد ظهر الحق المبينُ لمن رغِبْ [١٣١-ا]

ألم ترنى بِعتُ الرفاهــةَ بالسُّرَى ... وقمتُ بأمر الله حقًّا وقد وجبْ

فلما وصل إليهم الكتاب بعثوا به إلى المقتدر ، فأرسل إلى أبى بكر الصُّولِى بعد قراءته الرسالةَ والشعر ، فدفع إليه الشعر وقال له : جاوِبه عنــه ، فكتب إليه :

عجبتُ وما يخلو الزمانُ من العجبْ ... لقول امرىءٍ قد جاء بالمَيْن والكذِبْ

---

(١) الأصل : الجزيرة ، والتصحيح من « القضاة والولاة » للكندى ، بتحقيق روفن جست ، ص ٢٧٥ . والثابت من مراجعنا أن القائم لم يستطع دخول الجيزة ، إذ ظل فيها « تكينُ » عامل مصر حتى وصلت عساكر المهدى ومراكبه فى النيل قادمة من الإسكندرية ، وانتصر تكين على القائم وظفر بمراكبه فى شوال ٣٠٧ ، ثم أقبل إلى مصر مدد بغداد يقوده مؤنس الخادم فى محرم ٣٠٨ ، واستمر القتال بين الجانبين ، وفى أثنائه استولى القائم على الفيوم وجزيرة الأشمونين وعدة بلاد ، فأتت نجدة أخرى من بغداد يقودها جِنِّى الخادم المعروف بالصَّفْوانى ، فكانت بين الجانبين حروب طويلة فى الفيوم والإسكندرية ، ثم انصرف القائم عن مصر إلى برقة عائداً إلى إفريقية ، وعزل تكين عن ولاية مصر فى ١٣ ربيع الأول ٣٠٩ .

انظر : أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ٣/١٩٥ – ١٩٧ .

وجاء بملحونٍ من الشعر ناقصٍ فسحقاً له من مدعٍ أفضلَ النسبْ
فمَن أنت يا مَهدى السفاهةِ والخَنا فقد قمتَ بالدين الخبيث وبالريَب

فلم يجيبوه . وهى قصيدة طويلة ، منها فى ذكر الخلفاء من بنى العباس :

ومعتَمِدٍ من بعــدهِ وموفقٍ يردُّ من إرثِ الخلافة ما ذهبْ
نوازِلُهم[1] فى كلِّ فضلٍ وسؤددٍ وإن لم يكن فى العَدِّ منهم لمَن حَسَبْ

أنشدها أبو إسحاق إبراهيم بن تميم القيروانى الحصرى فى كتاب « زهر الآداب وثمر الألباب » من تأليفه . وقد أجرى ذِكر الموفق أبى أحمد بن المتوكل ومَدْح ابن المعتز له ، قال : ويلقب بالناصر وبالموفق ، كانت حاله قد ترقّت فى أيام المعتمد إلى غاية لم يبلغها الخليفة[2] . وقد ذكره الصولى فى قصيدته لصاحب المغرب ، وقد اقتص[3] خلفاء بنى العباس من أولهم ، وذكر البيتين . والموفق هذا هو الذى قتل صاحب الزنج القائم بالبصرة ، بعد مواقعات كثيرة ومحاربات شديدة ، وفى ذلك يقول ابن الرومى فى قصيدته الطويلة الجليلة :

أبا أحمدٍ أبليت أمةَ أحمدٍ بلاءً سيرضاه ابنُ عمكَ أحمدُ
حصرتَ عميدَ الزنج حتى تخاذلت قواه وأودى زاده المتزود
فظلَّ ــ ولم تقتلْه ــ يلفظ نفسَهُ وظلَّ ــ ولم تأسرْه ــ وهو مقيَّد
فما رُمتَه حتى استقلَّ برأسهِ مكانَ قناةِ الظهر أسمرُ أجرد

---

(١) الأصل : موازٍ لهم . والصوب من « زهر الآداب » للحصرى القيروانى ، بتحقيق زكى مبارك ، ١٩٣/٣ .

(٢) فى « زهر الآداب » للحصرى القيروانى (بتحقيق الدكتور زكى مبارك ، القاهرة ، بدون تاريخ) ، جـ ٣ ص ١٩٣ : خليفة .

(٣) فى الأصل : اقتصر ، والتصويب من زهر الآداب ، نفس الجزء والصحيفة .

/ وكان صاحب الزنج يدعى الانتماء إلى بيت على رضى الله عنه ، ومنحاه [١٣١-ب]
نحا العُبيديون بعدَه ، وينال من بنى العباس نيلَ هؤلاء منهم ، وفى ذلك يقول :

لَهْفَ نفسى على قصورٍ ببغدا دَ وما قد حَوتْه من كلّ عاصِ
وخمورٍ هناك تُشرب جهراً ورجالٍ على المعاصى حِراصِ
لستُ لابن الفواطم الغُرّ إن لم أُجلِ الخيلَ بين تلك العِراصِ

وقرأتُ فى كتاب أبى الحسن على بن بحر بن أبى السرور الروحى الإسكندرى أن المهدى عبيد الله سيّر ولىّ عهده أبا القاسم ابنَه إلى مصر دَفعتين : الأولى فى سنة إحدى وثلاثمائة ، قال : وعاد فى سنة اثنتين وثلاثمائة ، والثانية سنة ست وثلاثمائة ، وحُكى أنه ملَكَ الإسكندريةَ فيهما .

وقال غيرُه : فى أيام عبيد الله بَطَل الحجّ وأُخذ الحجرُ الأسود ، أخذه القرامطةُ وأقام عندهم اثنتين وعشرين سنة إلا شهراً ، وقتل المقتدر ببغداد وأظهر عبيدُ الله عندما بلغه الخبر أن دعاته قتلوه بأمره ، وجلس لذلك مجلساً[١] .

وحَكى الصولى أن الذى قتله رجل من أهل المغرب بربرى يقال له عليّون الصّنهاجى ، رماه بحربة — وهو على فرسه يُصلح بين الجند — فى ظهره فخرجت من صدره ووقع ميتاً .

وكان « القائمُ » فى حياة عبيد الله القائمَ بالأمور والد[ولة] ، فلما أفضت

---

(١) وردت نفس العبارة فى تاريخ بنى عبيد لابن حمادُه ، فأكلتها منها (ص ١٧) . وما قاله عبيد الله السيعى لا يستبعد ، والخبر الذى يرويه ابن الأبار عن الصولى بعد ذلك يقوى هذا الاحتمال . ويقويه كذلك ما جاء فى النجوم الزاهرة (٣/٢٣٣) : « وكان غالب عسكر مؤنس (القائد الذى خرج على المقتدر وقُتل المقتدر وهو يحاربه ، وهو نفسه مؤنس الخادم) من البربر ، فلما انكشف عن المقتدر أصحابه ، جاءه واحد من البربر فضربه من خلفه ضربة سقط منها إلى الأرض ، فقال : ويلك ! أنا الخليفة ! ، فقال : أنت المطلوب ! وذبحه بالسيف ، وشال رأسه على رمح . . . » .

الخلافة إليه ظهر أبو اليزيد[١] الخارجي مخلد بن كيداد عليه فعجز عن مقاومته ولم يستقل بمدافعته ، فتغلب على البلاد فى جموع البربر الملتفة عليه إلى أن حصره فى المهدية . وأبو يزيد من بنى يَفْرَن[٢] ، ويُقال إن الذى قُتل فى فتنته أربعمائة ألف . وللإنذار به والتحدث بخروجه[٣] بنى « المهديةَ » عبيدُ الله وجعلها دار ملكه وقرار سلطانه . وقال بعد تحصينها وعند انتقاله إليها : « اليوم أمنت على الفواطم »[٤] ، يريد حُرَمه .

وكان قيام أبى يزيد فى آخر خلافة القائم سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة ، وتوفى القائم يوم الأحد لثلاث عشرة خلت من شوال سنة [أربع وثلاثين وثلاثمائة] .

[١٣٢-أ] / وكان[٥] القائم وَلَّى ابنَه إسماعيلَ عهدَه وفوضَ إليه أمرَه ، وذلك فى سنة أربع وثلاثين ، وأدخل عليه جماعةً من وجوه كتامة ورؤسائهم فقال : « هذا مولاكم وولى عهدى والخليفة من بعدى ، وهو صاحب هذا الفاسق وقاتله » ، يعنى أبا يزيد[٦] .

وقال ابن حيّان فى تاريخه « المقتبَس من أنباء أهل الأندلس » : وفى العشر الأواخر من ذى الحجة منها — يعنى سنة أربع وثلاثمائة — قدم محمد بن محمد ابن كُليب من القيروان فحكى أن أبا القاسم بن عبيد الله الشيعى صاحب المهدية

(١) المشهور « أبو يزيد » بدون أداة التعريف .

(٢) الأصل : يغرن ، والصواب بالفاء كما أثبتناه ، واسمه الكامل كما أورده ابن عذارى (البيان المغرب ، ٢١٦/١) : مخلد بن كيداد بن سعد الله بن مغيث بن كرمان بن مخلد بن عثمان ابن وُرِيمت بن تبقراسن (فى نسخة أخرى: تنفراس) بن سميدان ابن يَفْرَن .

(٣) يقال إن عبيد الله المهدى تنبأ بخروج أبى يزيد بن كيداد ، وأنه بنى « المهدية » لتكون حصناً له ولدولته عند قيامه .

(٤) المشهور أنه قال : « الآن أمنت على الفاطميات » .

(٥) الأصل إن .

(٦) وردت نفس العبارة عند ابن حمادُه فى تاريخ بنى عبيد ، ص ٢١ .

هلك فيها وهو محصور من قبل أبى يزيد مخلد بن كيداد اليفرنى النكارى المعروف بصاحب الحمار القائم عليه فى جموع البرابرة ، وأن شيعته قدّمت إسماعيلَ ولده ، وأنه فارس شجاع أبى النفس ، أقدم على أبى يزيد وجموعه ولاقاه بمدينة سوسة فانهزم أبو يزيد قُدّامه إلى القيروان ثم إلى سبيبة . زاد غير ابن حيان : وما زال يتبعه إلى أن ظفر به حيًّا وقيذاً بالجراح فمات منها وهو فى أسره ، فأمر به فسُلخ وطيف به .

وإسماعيل المنصور هذا أبو الطاهر ، وابنه أبو تميم معد بن إسماعيل المعز لدين الله ، كانا خطيبين مفوهين ، ولم أقف لهما على شعر أكتبه فى هذا المجموع ، وسيأتى ذكرهما بعدُ إن شاء الله . وكانت خلافة القائم اثنتى عشرة سنة وسبعة أشهر ، وتوفى وهو ابن خمس وخمسين سنة ومولده بسَلَمية .

١٠٨ — تميم بن معد بن إسماعيل بن محمد بن عبيد الله ، أبو على

شاعر أهل بيت العُبيديين غير منازَع ولا مدافَع ، وكان فيهم كابن المعتز فى بنى العباس غزارةَ علم ومَعَانة أدب وحسنَ تشبيه وإبداعَ تخييل ، وكان يقتفى آثاره ، ويصوغ على مناحيه فى شعره أشعارَه . ولّاه أبوه المعز لدين الله معد بن إسماعيل المنصور عهدَه ، وبه كان يُكنى ، فخُلع برأى جوهر الصقلى لأنه كان عقيماً لا يولد له ، ووَلِىَ أخوه عبد الله فتوفى فى حياة أبيه ، ثم وَلِىَ العهدَ أخوه أبو المنصور نزار العزيز بالله ، وانتقلا من إفريقية إلى مصر بانتقال أبيهما معد ابن إسماعيل فى آخر سنة إحدى وستين وثلاثمائة .

وشِعر تميم مدوّن ، ومحاسنه كثيرة ، وتصرفاته بديعة . ووقع منه فى كتابَىْ

الحصرى « زهر الآداب وثمر الألباب » و « نُور الطَّرف ونوْر الظَّرف » كل نادر غريب .

[١٣٢-ب] /وكان تميم لما استقر بمصر وتوفى أبوه فى شهر ربيع الآخر سنة خمس وستين [وثلاثمائة] ووَلِىَ أخوه نزار يمدحه ويداريه طلباً للسلامة منه ، لأنه لم يكن يأمن عاديته[١] بسبب انخلاعه عن العهد . وكذلك كان ابن المعتز يدارى المعتضدَ والمكتفى ابنَه ويمدحهما ويمدح عمه الموفق رغبة فى التخلص منهم ، لأنه كان أهلا للخلافة فعصمه الله بذلك من هؤلاء ، وقُدِّر أن طاح على يدى المقتدر بعد أن بويع له من الليلة التى قبض عليه فى صبيحتها ، ولقب بالراضى بالله — وقيل بالمنتصف بالله — وذلك يوم الخميس لليلتين خلتا من شهر ربيع الآخر سنة ست وتسعين ومائتين .

ومن شعر تميم فى أخيه نزار :

يا ابنَ الوصىِّ المرتَضَى ، يا ابنَ الإما ... مِ المجتبَى ، يا ابنَ النبىِّ المرسلِ[٢]

ما بال مالِك ليس يرميه الندى ... إلا يوافق منه موضع مقتلِ ؟

أنت المحصِّل[٣] فى زمانٍ أصبحتْ ... أملاكُه كالقول غير محصَّلِ

لو لم تكن فى جحفلٍ لغدوتَ من ... عَزَمات رأيك وحدِها[٤] فى جحفل

عجباً لأبصارٍ تراك ولو درتْ ... مقدارَ فضلِك كن عنك بمعزل

(١) فى الهامش بخط مخالف : غائله .

(٢) راجعت هذه الأبيات على أصل القصيدة كما وردت كاملة فى « ديوان تميم بن المعز لدين الله الفاطمى » (دار الكتب المصرية) ١٩٥٧ ، ص ٣١١ وما بعدها ، وقد أورد ابن الأبار مختاراته منها على غير نسقها فى القصيدة ، وهذا البيت والأربعة الأبيات التالية له وردت فى آخر صفحة ٣١٣ وأول ٣١٤ .

(٣) المحصِّل ، كما ورد فى الشروح الصافية المعلمة على متن الديوان : المميِّز ، وأصل التحصيل إظهار اللب من القشر وتمييزه عنه .

(٤) الديوان ، ص ٣١٤ : وحدها .

وهي قصيدة طويلة . ومنها فى وصف فرس له يدعى السرور :

نعم المعين على الوغى فى مأزقٍ ... لَبِسَتْ به الأبطالُ نَقْعَ القَسْطَلِ[1]
فرسٌ أشَمُّ[2] المَنْكِبَيْن مُقابِلٌ[3] ... يرمى الجنادل من يديه بجندلِ
تُنبيك[4] عن أنسابه أعضاؤهُ ... حُسناً ، وعن أخراه عِتقُ الأوّل
وكأنما مبيضٌ أعلى وجهِهِ ... وجبينه ضوءُ الصباحِ المقبل
وكأنَّ دفّةَ [سَرجِه ولجامِه][5] ... [شُدّا][6] على ظهر السِّماك الأعزل
ويسابق البرقَ [المُثارَ بخَطوِه][7] ... ويَزيدُ فيه على الصبا والشَّمْأَل
صافى الصهيل كأنَّ [فى ترجيعِه][8] ... غرد يغنى فى الثقيل الأول
ذو قَوْنَسٍ [مالتْ نواحى عُرفِه][9] ... مستشرِفُ الأعلى رحيبُ الأسفل
وكأنما فَلَقُ الصباحِ بوجهِهِ ... ماءٌ بدا مترقرقاً فى جدول

---

(١) هذا هو مطلع القصيدة كما وردت فى الديوان ، ص ٣١١ ، وعنوانها هناك : وقال يمدح الخليفة العزيز بالله ، ويصف فرساً يدعى « السرور » .
والمأزق : الموضع الضيق الذى يُقتتل فيه ، والنقع : الغبار الساطع المرتفع ، والقسطل : الغبار فى الحرب .
(٢) الأشم : العالى المرتفع .
(٣) مقابل : كريم النسب من أبويه ، أصيل فى طرفيه .
(٤) الأصل : تغنيك ، والتصويب من الديوان (ص ٣١١) .
(٥) لم يرد منهذا الشطر فى الأصل إلا : وكان ذو ، فصححته وأكملته من الديوان (ص ٣١٢) .
(٦) ساقطة فى الأصل .
(٧) ساقطة فى الأصل .
(٨) لم يرد من هذا الشطر فى الأصل إلا الكلمات الثلاث الأولى ، هكذا : صافى الصهيل كأنه .
(٩) وهذا أيضاً لم يرد منه إلا الكلمتان الأوليان ، هكذا : ذو قوس .
والقونس : أعلى الرأس ومقدمه ، وقونس الفرس : ما بين أذنيه ، وهو عظم ناتئ بينهما .

وله يمدح أخاه :

ألسنا [بنى] بنتِ النبىِّ الذى به   تخلَّص من زَيْغ العمى الثقَلانِ[١]
أليس أبونا خِدنَه ووصيَّه   وفارسَه فى كل يوم طِعانِ
فكُفُّوا بنى العباسِ عنا جِمَاحَكُم[٢]   فقد طالما خُنتم بكل مكان[٣]
[١٣٣-أ] / متى لم تكونوا دوننَا وتُسابقوا   بصالحنا[٤] فى كل يوم رهان
بمَن نُصر الإسلامُ فى يومِ خيبرٍ   ويومَ حُنينٍ والقنا مُتَدان ؟
أليس علىٌّ كان كاشفَ غمِّها   وما كان للعباس ثَم يَدان
ومَن فرَّجَ الغمَّاء عن وجه أحمدٍ   بمكةَ لما رِيعَ كلُّ جَنان
فبات على ظهر الفراش بديلَه   يقيه ردى الأعداء غيرَ جبان
وكم مثلها من مفخرٍ وفضيلة   حواها علىٌّ وهو ليس بِوَان
وإن[٥] قلتم إنا جميعاً لهاشم   فما تستوى[٦] فى الجثة العَضُدان
فلِمْ[٧] تدفعون الحقَّ والحقُّ واضحٌ ؟   دنا منكم ما كان ليس بدان
أمية كانت قبلَكم فى اغتصابها   أحقَّ ، فبادت[٨] وارتدَّت بهوان

(١) اختار ابن الأبار هذه الأبيات من قصيدة لتميم فى مدح أخيه العزيز مطلعها :
دعانى ، فليس الرأى ما تريان   نهانى الحجا من كل ما تصفان
وقد ورد المصراع الأول من هذا البيت فى الأصل محرفاً هكذا :
* ألسا بيت النبى الذى به *
(٢) الأصل . جماكم .
(٣) ورد هذا الشطر فى الديوان ، ص ٤٤٩ هكذا :
* فقد آن أن نغزو بكل مكان *
(٤) الديوان : لصالحنا .
(٥) الديوان (ص ٤٥٠) : فإن .
(٦) الديوان : يستوى .
(٧) الديوان : فكم .
(٨) الديوان : فبارت .

أخذتم بغصبٍ إرثنا وصعدتمُ منابرَ ما كانت لكم بأمانى(١)
وجئتم بأسماء يروق استماعُها وألفاظِ حُسنٍ ما لهن معان :
رشيدٌ ولم يرشَدْ ، وهادٍ وما هَدَى لحقّ ، ومأمونٌ بغير أمان
ومعتصمٌ لم يعتصم بإلٰهه ومقتدرٌ لم يقتدرْ ببيان
ومعتضدٌ بالإفكِ خاب اعتضادُه ومنتصرٌ بالبَغْيِ غير معان
أصيخوا فقد قام « العزيزُ » الذى له(٢) تذلُّ خطوبُ الدهر بعد حِران
كأنَّ رواقَ العزّ(٣) من نور وجهه سماء بدا فى أفقِها القمران
أغرُّ كنصلِ السيفِ يُمضِى اعتزامَه بكل رقيقِ الشفرتين يَمان
كأن المنايا والعطايا نوافلٌ يجود بها من مُنْصُلٍ وبنان
حويتَ أبا المنصور كلَّ فضيلةٍ وأمسكتَها دون الورى بعِنان
كأنك فى سياك إذ قمتَ خاطباً وأعيُنُنا طرًّا إليك رَوَانِ
شبيهُ نبىِّ اللهِ جدِّك أحمدٍ ويشبهُ فرعُ البانةِ الغُصُنان
وكم عَلَوِىٍّ فاطمىٍّ مفضَّل ولكنهمْ ما فيهمُ لك ثان
ومن يدَّعى منهم مكانَك فى العلا فقد جاء بالبُهتان والهذَيان
إذا ما كفاك اللهُ ما أنت متَّقٍ شفانىَ مما أتقى وكفانى
وإنى لسهمٌ من سهامك ماطرٌ(٤) على كل من عاداك سُمٌّ سِنان
/ أراك بعينِ النصحِ فى كل حالةٍ على كل ما فيه(٥) اعتقدت ترانى [١٢٢-ب]

(١) الأصل : بأمان ، والتصويب من الديوان .
(٢) الديوان : [الذى] به .
(٣) الديوان : الملك .
(٤) الأصل : قاطر ، والتصويب من الديوان ، ص ٤٥١ .
(٥) الديوان : فيك .

ومن ذا الذى يرعاك رعياً تودُّه[١] على كل غيثٍ أو بكل عيان[٢]؟
أخ وولىٌّ مشفق وابنُ والدٍ شفيقٌ ومـــدّاحٌ بكل لسان[٣]

وكان العزيز يُوالى إكرامه ويُجزل عطاءه ويعامله بما قتله[٤] علماً من صدق وده وإخلاصه فى مدحه .

ويحكى أنه تنزه إلى « بركة الحَبَش » فلما قرب من قصور أخيه تميم سأل عنه ، فأسرع إليه مَن عرّفه ، فخرج راجلا حافياً حتى لقيه ، فسلم عليه بالخلافة ، وقال : « يا أمير المؤمنين ، قد وجبت على عبدك الضيافة » ، قال : « نعم » ، ودخل إلى بستانه وقد أمر بجَنِيبةٍ من الجنائب التى كانت بين يديه ، وأقسم على تميم أن يركبها ويسايره ، فلما توسط البستان نظر إلى ثمر يلوح الذهبُ عليه ، فتعجب منه واستطرفه ، ودنا من شجرة فأخذ منها ليمونة واحدة ، فقرأها وإذا عليها مكتوبٌ بالذهب :

أنا الليمونُ قد غُذِيَتْ عروق ببردِ الماء فى حرزٍ حريزِ
حَسُنْتُ فليس يحْسُنُ أن يُحَيِّى بأمثالى سوى الملكِ العزيزِ

فجعلها فى كمه وقال : هـــذه ضيافتى عندك . وانصرف إلى قصره فبعث إلى أبى جعفر بن مهذب[٥] صاحب بيت المال ، فقال له : « ما عندك من الدنانير ضرب هذه السنة ؟ » — وكان ذلك فى أولها — فقال له : « مائة ألف وستون

(١) الديوان : على بوده .
(٢) فى الأصل : عيانى .
(٣) فى الأصل : لسانى .
(٤) كذا فى الأصل ، والمعنى مفهوم رغم نبو كلمة « قتل » هنا ، إذا صحت قراءتى لها .
(٥) ورد الاسم فى الأصل : جعفر بن مغرهب ، وجعلها مولر : قرهب . وقد غلب على ظنى أن المراد هنا هو أبو جعفر بن حسين (أو أبو جعفر حسين) بن مهذب ، وقد ذكره المقريزى (الخطط ٢/١٦٤ واتعاظ الحنفا ، ص ١٣٩) ووصفه بأنه صاحب بيت المال أيام المعز . والغالب أنه استمر على هذه الوظيفة أيام ابنه العزيز.

ألفاً » ، فأمره بحملها من ساعته إلى الأمير تميم مع راشد العزيزى ، وقال له : أمير المؤمنين يقرأ عليك السلام ويقول لك : استعن بهذا على مؤونتك . فقبَّل الأرض وبعث إليه من الغد قصيدة حسنة يمدحه فيها ويشكره .

وكانت أيام العزيز بمصر أعياداً ، رفاهيةً ودعةً وتمهُّداً . فكان تميم إذا جاء الليل أمر مائتى فارس من عبيده بحراسة الناس الخارجين فى أيام النيروز والميلاد والمهرجان وعيد الشعانين وغير ذلك من أيام اللهو التى كانوا ينحون فيها على أموالهم رغبة ويخرجون إلى بركة الحَبَش متنزهين ، فيضربون عليها المضارب الجليلة والسرادقات / والقباب ، ومنهم من يخرج بالقِيان والمُسْمِعات والمخدَّرات ، [١٣٤-١] وخيلُ تميم تحرسهم فى كل ليلة إلى أن ينصرفوا ويركب تميم فى عُشاري[1] تتبعه أربعة زوارق وأكثر ، مملوءة فاكهة وطعاماً ومشروباً ، فإن كانت الليالى مقمرة وإلا كان معه من الشمع ما يعود به الليل نهاراً ، فإذا مر على طائفة واستحسن من غنائهم صوتاً أمرهم بإعادته ، وسألهم عما ينقصهم فيعطيهم ، وربما رغبوا إليه أن يُسمعهم من غنائه ، فيقف عليهم ويأمر من يغنى لهم ، وينتقل عنهم إلى غيرهم فيفعل هذا عامةَ ليله ، ثم ينصرف إلى قصوره وبساتينه على هذه البركة ، فلا يزال على هذه الحال حتى تنقضى هذه الأيام ويفترق الناس[2] .

ولتميم يفخر :

---

(١) العشارى طراز من السفن متوسطة الحجم كان يستعمل فى الأنهار والبحار للرحلات الصغيرة . وقد تلحق بالسفن الكبيرة لتكون قوارب نجاة ، وقد ورد ذكرها عند المقريزى والنويرى وابن جبير وابن بطوطة وعبد اللطيف البغدادى ، أى أنها كانت معروفة فى الشرق والغرب على السواء ، وعن العرب أخذها الأوربيون ، فسميت فى إيطاليا باسمها العربى usciere (أوشييرى) وفى إسبانيا esquife de nave . ويبدو أنها سميت عشاريات لأنها كانت تتسع لعشرة أشخاص .

انظر : دوزى ، ملحق القواميس : ٢/١٣٠ .

(٢) روى هذا الخبر بنصه المقريزى فى الخطط : ٣/١٤٥ .

لا تُبطر السراء لى خلقا ولا أغدو على ضرائها متخشعاَ
لى فى المشارق والمغارب جولةٌ يغدو بها قلبُ الزمان مصدّعاَ

وله :

ليَهْنِ المعالى أننى أنا ربُّها وأنى إذا مارُمتُ صعباً تيسرَا
غذتنى ـ مذ كنتُ ـ النبوةُ والهدى فحسبىَ أن كانا هُما لىَ عُنصرا

وله :

وإنى لألقى كلَّ خطب بمهجةٍ يهون عليها منه ما يتصعَّبُ
وأستصحبُ الأهوالَ فى كل موطنٍ ويُمزج لى السمُّ الزعافُ فأشربُ
فما الحرُّ إلا مَن تَدَرَّع حزمَه ولم يك إلا بالقَنا يتنكب(١)
خليلىَّ ما فى أكؤسِ الراح راحتى ولا فى المثانى لذتى حين تُضرب(٢)
ولكننى للمدحِ(٣) أرتاحُ والعلا وللجود والإعطاء أصبو وأطرب
ومَن بين جنبيه كنفسى وهِمتى يُرجِّى له(٤) فوقَ الكواكب مركب

وله فى التشبيه :

علّلانى بها فقد أقبل الليـ لُ كلونِ الصدودِ من بَعد وصلِ

(١) الأصل : يتكسب ، والتصويب من يتيمة الدهر للثعالبى ، ١/٤٢٧ . وقد وردت فى الديوان أيضاً : يتكسب (ص ٤١) .

(٢) كذا أيضاً فى مخطوطتين مما اعتُمد عليه فى نشر الديوان ، وفى الباقى : تُطرِب ، وقد أخذ المحققون بهذه الرواية الأخيرة .

(٣) الديوان (ص ٤٢) : للمجد ، وهو أجود .

(٤) الديوان : يروح له ، وقد وضعها المحققون بين قوسين ، للدلالة على أنهم لا يرتاحون لهذه القراءة .

وانجلى الغيمُ بعد ما أضحكَ الرو ضَ بكاء السحابِ فيه بوَبْل
عن هلال كصَولجان نُضارٍ في سماء كأنها جامُ ذَبْل(١)

/وله : [١٣٤-ب]

[رب صفراء علّلتني] بصفرا ء ، وجنح الظلامِ مُرخى الإزارِ(٢)
وكأنَّ الدُّجى غدائرُ شَعرٍ وكأن النجومَ فيها مَدارِى(٣)

وله :

وانجلى الغيمُ عن هلالٍ تبدَّى في يد الأفق مثلَ نصف سِوارِ

وله :

كأن السحاب الغر أصبحن أكؤساً لنا ، وكأن الراحَ فيها سنا البرق
إلى أن رأيتُ النجمَ(٤) وهو مغرِّبٌ وأقبل راياتُ الصباح من الشرق
كأن سوادَ الليل والصبحُ طالعٌ بقايا مجالِ الكُحل في الأعين الزُّرق

وله :

ما ترى الليلَ كيف رقَّ دُجاهُ وبدا طيلسانُهُ ينجـــابُ

---

(١) الذبل (كما ورد في شروح الديوان ، ص ٣٣٨) عظام ظهر دابة بحرية يتخذ منها الأسورة والأمشاط والخواتم وغيرها .

(٢) لم يرد من الشطر الأول من هذا البيت إلا «بى صفر» ، فأكملته وقومته من الديوان (ص ١٨٣) ، وقد ورد الشطر الثاني من هذا البيت هكذا :

* ءَ وجنح الظلام جـون الإزار *

وفي نسخة أخرى: مُرخَى الإزار.

(٣) ورد لفظ «مدارى» في الأصل دون ياء ، وقد قومته من الديوان (ص ١٨٣) .
وورد في هامش الديوان المطبوع : المدارى جمع مدراة ، وهى المشط .
والبيتان من قصيدة في الغزل ، وقد ترك ابن الأبار بين البيت الأول والبيت الثاني بيتين وردا في الديوان .

(٤) الأصل : النجوم ، والتصويب من الديوان .

وكأنَّ الصباحَ فى الأفقِ بازٌ والدجى بين مخلبيه غرابُ

وله :

ألا سَقِّنيها(١) قهـــوةً ذهبيةً فقد ألبسَ الآفاقَ جُنحُ الدجى دَعجْ
كأن الثريا والظلامُ يحفُّها(٢) فصوصُ لجينٍ قد أحاط بها سَبَجْ
كأن نجومَ الليلِ تحتَ سوادهِ -إذا جَنّ- زنجىٌّ تبسم عن فَلَجْ

وله :

كأن كؤوس الشَّرْبِ وهى دوائرٌ قطائعُ ماء جامدٍ تحمل اللهبْ
فبتنا نسَقِّى الشمسَ والليلُ راكدٌ ونقرُب من بدر السماء وما قرُبْ
وقد حجب الغيمُ الهلالَ كأنهُ ستارةُ شَرْبٍ(٣) خلفَهاوجهُ مَن نُحِب
كأن الثريا تحت حُلكة ليلِها مداهنُ بلّوْرٍ على الأفقِ تضطرب

وله :

خذها إليك - ودع لومى - مُشَعْشَعَةً من كفِّ أحْوَى(٤) أسيلِ الخدِّ مُذهبِهِ
وانظر إلى الليل كالزنجى منهزماً والصبحُ فى إثرهِ يعدو بأشهبِهِ
والبدرُ منتصِفٌ(٥) ما بين أنجمهِ كأنه مَلِكٌ فى صـــدر موكبِه

وله :

أوفَى فأشرقتِ البـــلادُ لنورهِ حُسناً وأرسلَ بالشفاء رسـولا(٦)

---

(١) الديوان (ص ٨٦) : ألا سَقِّيانى .
(٢) الديوان (ص ٨٦) : يحثها .
(٣) الديوان (ص ٦٢) : سِرْبِ ، وشرحها الناشرون ، هامش ٥ ، هكذا : ويعنى بها جماعة .
(٤) الديوان (ص ٧١) : أقنى .
(٥) الديوان (ص ٧١) . منتصب .
(٦) هذه الأبيات غير واردة فى الديوان .

/ ما كنتُ أحسِبُ أنَّ بدراً قبلَها ... نقل الخُطى كِرماً وعاد عليلا [١٣٥-١]
يا علةً زار الحبيبُ من أجلها ... لله أنتِ ، لقد شَفَيْتِ غليلا

وله ، وهو من مختار شعره فى النسيب :

أأعذل قلبى ؟ وهو لى غيرُ عاذلٍ ... وأعصِى غرامى وهو ما بين أضلعى[١]
ومن لى بصبرٍ أستزيلُ به الجَوى ... ولا[٢] جَلَدى طَوْعى ولا كَبِدى معى
نَأَوْا والأسى عنى بهمْ غيرُ مُنْتأٍ ... وودعتُهم والقلبُ غيرُ مودِّعِ[٣]

وله :

يا مُعطِشى من وصالٍ كنت واردَه
هل فيك لى رحمة إن صِحتُ : « واعطَشى[٤] ! » ؟
أنتَ الحياةُ التى تحيا النفوسُ بها ... حقًّا فإن فقدتْك النفسُ لم تعِشِ

توفى تميم فى خلافة أخيه العزيز سنة أربع وسبعين ، وتوفى العزيز سنة ست وثمانين وثلاثمائة[٥] .

---

(١) الديوان ، ص ٢٦٧ :
أأعذر قلبى وهو لى غير عاذر ... أم اعصى غرامى ، وهو ما بين أضلعى
(٢) الديوان : وما .
(٣) الديوان : مودعى .
(٤) هذه الأبيات غير واردة فى الديوان .
(٥) قال ابن خلكان فى الوفيات (١/٢٧٠) إنه « توفى فى ذى القعدة سنة ٣٧٤ ؛ وزاد العتقى فى تاريخه أنه توفى يوم الثلاثاء مع زوال الشمس لثلاث خلت من الشهر المذكور ، وأن أخاه العزيز نزار بن المعز حضر الصلاة عليه فى بستانه ، وغسله القاضى محمد بن النعمان وكفنه فى ستين ثوباً . . وقال عبد الملك الهمدانى فى كتابه الذى سماه « المعارف المتأخرة » إنه توفى سنة ٣٧٥ والله أعلم . وقال غيرهما إنه ولد سنة ٣٣٧ » .

١٠٩ — خليل بن إسحاق بن ورد ، أبو العباس

مولده بطرابلس وهو من أبناء جندها ، وكان فى أول أمره يطلب العلم والأدب ويصحب الصوفية ويبيت فى المساجد ، إلى أن خالف أهلُ طرابلس بلدِه سنة تسع وتسعين ومائتين ، فكان هو المتولى لعذابهم وأَخْذ أموالهم ، وذلك فى أول دولة عبيد الله المهدى . واتَّبع القائمَ أبا القاسم محمد بن عبيد الله المهدى فى مسيره إلى محاربة أهل مصر ، وهو إذ ذاك ولىُّ عهدٍ فلحقه بالإسكندرية ، وكان المتولى لجباية الأموال والنظر فيها ، وانصرف إلى المهدية فقُدِّم على خيل إفريقية ، وكان أمرُ جندها إليه مع النظر فى البحر .

وخرج إلى صقلية والياً على أهلها فأهلكهم جوعاً وقتلا ، وهرب كثير منهم إلى بلد الروم . وكان يقول بعد وصوله إلى إفريقية مفتخراً : « المكثر يقول إنى قتلت وأهلكت ألفَ ألف ، والمقلل يقول ستمائة ألف » . وكان خروجه إليها فى أول دولة القائم سنة خمس وعشرين وثلاثمائة .

وقد كان المهدى عبيد الله سخط عليه فى آخر دولته نخاف ، ولما توفى أمَّنه القائمُ واستعمله ، فجار أشد الجور ، « ونعوذ بالله من الحور بعد الكَوْر ! »[1] .

[١٢٥—ب] ثم إن القائم/صرفه عن صقلية واستقدمه منها ، وقدَّمه لحرب أبى يزيد الخارجى ، وأخرجه إلى مدينة القيروان فى ألف فارس من وجوه العبيد ، فأساء معاملتهم حتى أضْغَنهم ، ودبروا عليه . وقصده أبو زيد فدخل القيروان وحصره بداره إلى أن أخذه وأصحابه فاعتقلهم ثم قتلهم جميعاً بباب أبى الربيع وأمر بهم فصُلبوا .

(١) حديث نبوى شريف ، والحور هو النقصان ، والكور الزيادة .

ومن شعره يمدح المهدى ويناقض مروان بن أبى حفصة :

قف بالمنازل واسألنْ أطلالَها ماذا يضرُّكَ إن أردتَ سؤالَها ؟
هل أنتَ أولُ مَن بكى فى دِمنةٍ دَرَستْ وغيَّرتِ الحوادثُ حالها ؟
يا دارَ زينبَ هل تَرُدِّين البُكا عن مقلةٍ سفحتْ عليك سِجالَها ؟
بُدِّلتِ بالإنسِ الخرائدِ كالدُّمَى وحشَ الفلاة ظِباءَها ورئالَها
ولقد عهدتُ لآل زينبَ حَبْرةً فيها ، ودنيا أقبلت إقبالها
بيضاء ناعمةً يحول وِشاحُها وتَهزُّ دقةُ خصرها أكفالها
ولها قوامٌ كالقضيب وفوقَه جَعْـدٌ يصافح كفُّه خَلخالها
وكأنَّ فى فمها بُعيدَ رقادها عسلاً أصاب من السماء زُلالها
ولقد عصَيتُ عواذلى فى حبها والنفسُ تعصى فى الهوى عُذّالها

ومنها :

صلى الإلهُ على النبيِّ محمـــدٍ وعلى الإمامِ وزادَه أمثالَها
إن الإمامَ أقام سُنةَ جـــدِّه للمسلمين كما حَـــذَوْتَ نِعالها
أحْيا شرائعَها وقوَّم كُتْبَها وفُروضَها وحرامَها وحلالهـــا
وهدى به اللهُ البريةَ بعدما طلب الغواةُ الظالمون ضلالها
إنّ الخلافةَ يا ابنَ بنتِ محمدٍ حطّتْ إليكَ عن النبيِّ رحالها

وله وقد افتصد القائمُ :

قل للطبيب الذى أوصى ليفصده رفقاً ولا زلتَ بالإسعاد ترتفقُ
/ كيف استطعتَ ترى بالله طلعته ومِن سنا نورِه ما يُشرِق الأفقُ ؟ [١٣٦-١٠]
أم كيف تُخرج من كفٍ تقبِّلُها دماً ومنها بحارُ الجودِ تندفق ؟

إنى لأعجبُ من كفٍ مَسَسْتَ بها خيرَ الورى كيف لم يَنبُتْ بها الوَرِق

وله عند توديع القائم فى خروجه إلى القيروان وكتب بها إليه :

وما ودعتُ خيرَ الناسِ طُرًّا ولا فارقتُه عن طيبِ نفسِ
وكيف تطيبُ نفسى عن حياتى أفارقُها ، وعن قمرى وشمسى ؟
ولـكنى طلبتُ رضاه جَهْدى وعفوَ الله يومَ حلولِ رمسى
فعاش مملَّكاً ما لاح شمسٌ على الثَّقَلين من جنٍّ وإنس

وبعد وروده القيروان كان من قتله وصلبه ما كان ، وما أفظع[1] مصرع من احتقب الاثم والعدوان !

١١٠ — جعفر بن فَلَاح[2] الـكُتَامى ، أبو الفضل

هذا من رجال الدولة العبيدية ، ولم يقع إلىّ من خبره ما أذكره هاهنا سوى امتداح أبى القاسم بن هانئ إياه ، وحسبه بذلك نباهة وكفاه ، وذَكر ابنَه إبراهيمَ معه فى مدحه . وفى بعض النسخ التى وقفت عليها من شعر ابن هانئ

(١) الأصل : ولما أفضع .

(٢) الأصل : بَلّاح . وجعفر بن فلاح بن أبى مرزوق قائد مشهور من قواد الدولة الفاطمية فى عهدها الأول ، وكان يعمل أولا تحت إمرة جوهر الصقلى ، وقد بعثه هذا إلى الشام ليقضى على بقايا الإخشيديين ، وكان الحسن بن طغج قد تحصن بالرملة وملكها ، فسار إليه جعفر بن فلاح وهزمه فى ذى القعدة ٣٥٨/ سبتمبر ٩٦٩ وأسره وبعث به إلى الفسطاط ، حيث أرسل إلى المغرب ومات هناك سنة ٩٨٢/٣٧١ . وأخذ جعفر يستعد للمسير إلى دمشق ، فشعر الحسن بن أحمد القرمطى بأن الفاطميين خطر يهدد سلطانه ، خاصة وقد سار جعفر بن فلاح إلى طبرية ثم دمشق ودخلها سنة ٣٥٩ ، وأسقط الدعوة للخليفة العباسى ، وخطب للمعز الفاطمى ، فسار إليه القرمطى والتقى به فى ٦ ذى القعدة ٣٦٠/ سبتمبر ٩٧١ فأسر جعفر وقتل.=

أن الممدوح إبراهيم بن جعفر لا أبوه جعفر ، ووجدتُ منسوباً إليه :

ويومٍ كأنّ الغيمَ تحتَ سمائهِ   حكى مقلتى سَحًّا ولم يَحْكِنى ضَنًا
كأنّ الغوادى بالمثانى نضحنهُ   وألبسْنَه ثوباً من الخزّ أدكنا

١١١ – يحيي بن على بن حمدون الجُذَامى بن الأندلسى(١)

وله ولأبيه ولأخيه جعفر بن على رئاسة معروفة ونباهة فى أيام العبيدية مذكورة ، وعلى بن حمدون هو الذى بنى المسيلة من بلاد الزاب الأكبر وسكنها ابنُه جعفر فعظم شأنه .

ولأبى القاسم محمد بن هانئ الأندلسى فيه وفى أخيه يحيي مدائح شهيرة ، وكان(٢) لما خرج من الأندلس إلى بنى علىّ هؤلاء وقع ، وإليهم قصد ، / إلى [١٣٦–ب] أن أعْلَقُوه بالمعز مَعَدّ بن إسماعيل فاستفرغ فيه شعرَه وقصر عليه مدحَه(٣) .

= وجعفر من زعماء الكتاميين ورجالهم الذين شادوا بناء الدولة الفاطمية . وكان ابنه أبوالحسن على بن جعفر بن فلاح من كبار وزراء الدولة الفاطمية بعد ذلك ، وكان يلقب بوزير الوزراء ذى الرياستين ، الآمر المظفر قطب الدولة .

المقريزى ، اتعاظ الحنفا (بتحقيق الدكتور جمال الدين الشيال) ص ١٥٥ (هامش ٥) – ١٦٧ – ١٨٠ – ٢٤٨ – ٢٤٩ .

ابن منجب الصيرفى ، الإشارة إلى من نال الوزارة (القاهرة ١٩٢٤) ص ٣٠ – ٣٢ .

البيان المغرب لابن عذارى : ١/ ٢٣١ .

(١) الأخبار التى يوردها ابن الأبار هنا تكمل ما لدينا من أخبار بيت بنى حمدون ، ومعظمها عند ابن عذارى (البيان المغرب ، ٢/ ٢٤٢ – ٢٤٤) وابن الخطيب (أعمال الأعلام ، ٦٠ – ٦٢) . وقد نقل ابن عذارى عن محمد بن يوسف الوراق (ص ٢٤٣) نسبهم وطرفا من أوليتهم فقال إن جدهم الأكبر عبد الحميد كان الداخل إلى الأندلس من الشام ، ونزل فى إلبيرة ، ثم انتقل حفيده حمدون ، جد جعفر ويحيى ، إلى بجاية ودخل فى دعوة الشيعة . انظر بقية الخبر هناك .

(٢) المراد هنا ابن هانئ الشاعر .

(٣) هذه الفقرة ظاهر فيها أسلوب ابن حيان مؤرخ الأندلس .

وهرب جعفر إلى الأندلس بعد مقتل زيرى بن مناد الصنهاجي ، ولحق به أخوه يحيى فأقاما مكرمين عند الحَكَم المستنصر بالله إلى أن سُعى بهما إليه ، فسخط عليهما وأمر بإزعاجهما ومَن معهما رَجّالةً من منازلهم إلى المُطبق بمدينة الزهراء ، والنداء عليهم بما كفروا من النعمة . وظهر من شهامة يحيى وتجلُّده فى هذه المحنة ما شُهر ، فكان ينادى على نفسه معارضا للمنادى : « لا ، بل جزاء مَن آثر بنى مروان على وَلَدِ فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم » . ونُميَتْ فى الوقت إلى مَعَدٍّ بن إسماعيل وهو فى القيروان فأرْضَتْه وعطَّفته على آل على بن الأندلسى .

ثم إن الحَكَم عفا عنهما بسعى عبد الملك بن القاضى منذر بن سعيد البَلُّوطِيّ صاحب خطة الردّ وتلطُّفِه فى الاستشفاع بهشام بن الحَكَم فيهما ، وهو إذ ذاك طفل ، فأطلقا من مُعتقَلهما ، وتراجعت حالُهما .

وحَظِيَ جعفر فى أيام هشامٍ عند المنصور محمد بن أبى عامر — بعد وفاة الحَكَم — وخُصَّ به ، ثم قُتل فى طريقه إلى قصر العُقاب[1] حسبما يُذكَر فى آخر هذا المجموع بحول الله ، فرجَّم الناسُ فيه الظنون ، وأظهر ابنُ أبى عامر الحزنَ عليه وهو المتهم به .

(١) عندما أراد المنصور بن أبى عامر التخلص من غالب الناصرى قائد الثغر وشيخ الموالى ، فكر فى استقدام جعفر وعلى ابنى حمدون ، وهما من موالى بنى أمية ، وكانا يحكمان منطقة طنجة وسبتة باسم "هشام المؤيد الأموى ، فأخذ المنصور يستحثهما على المجىء إليه ، فعبر إليه جعفر منهما ، تاركاً شؤون العدوة بيد أخيه يحيى . وأنزله المنصور عند مجيئه فى قصر العقاب بقرطبة « بعد أن أعد له ما يصلح له فيه » ، وكان جعفر قد أتى بقوة من مقاتلة البربر تبلغ ٦٠٠ فارس ، فاشتد بهم ساعد محمد بن أبى عامر على غالب . وبعد أن تخلص المنصور من غالب ، دبر الخلاص من جعفر بن حمدون ، فدعاه إلى وليمة وقدم له الشراب فأفرط فيه ، وأرصد له من قتلوه وهو عائد بالليل إلى منزله فى قصر العقاب سنة ٣٧٤ ، وقد تظاهر المنصور بالحزن عليـه .

ابن عذارى ، البيان المغرب ، ٢/٢٨٠ — ٢٨١ .

ودعا يحيى بن على أخاه وألهاه(١) إلى أن قال لابن أبى عامر أولَ لقيَة لقيَه غِبَّ قتل أخيه : « قد علمنا مَن قتَله ، وهذا جزاء مِثله ، ولا مُقام بأرضك بعدَه » ، فقال له ابنُ أبى عامر : « لولا أن أصدِّق ظنَّك فى أخيك لألحقتُك به ، فاخرج إلى لعنة الله غيرَ مكلوء ولا مصاحَب ! » ووكل به من أزعجه فخرج إلى العُدوة . وسبق الإخبار عنه حذراً من بَلقِّين بن زيرى بن مناد فصار إلى سَجلماسة ثم ركب الصحراء إلى مصر ، فقبله العزيز بالله أبو المنصور نزار ، وهو يومئذ الخليفة بها ، وأدخله فى يوم زينة ، ثم جعل يعترف بالزلة ، ويسأل الصفح والإقالة ، فقال له نزار : « كلَّتك بالزهراء قد أتت على ذلك كله »

وعلم بَلقِّين — واسمه يوسف(٢) ، ويكنَّى أبا الفتوح — نفوذَ يحيى إلى مصر فقامت عليه القيامة ، وعثر على ابن له عامر(٣) تخلف عنه بالمغرب فقبض عليه

---

(١) العبارة هنا مضطربة . وقد ورد اللفظ هنا : ولهه ، فقومته على هذا النحو للسياق . وواضح أن هنا شيئاً ساقطاً ، والمعنى مفهوم على أى حال . فإن المنصور دعا على بن حمدون ليطمئن من ناحيته ؛ وكان يخشى ثورته عليه وانضمامه إلى العبيديين بعد أن قتل أخاه . ولكن يحيى ظل على إيمانه بأن المنصور قتل أخاه ، فجعل يلمح بذلك . وكان يحيى أكبر من أخيه وأعظم ، وقد سبق أن وفد على الخليفة المستنصر سنة ٣٦٠ خالعاً طاعة العبيديين وقادماً إليه بطاعة زناتة — وكانوا أتباعه — فاستقبله الحكم استقبالا عظيما وولاه العدوة هو وأخاه جعفر ، فظلا هناك إلى أن استعان بهما المنصور ، فقدم عليه جعفر منهما .

ابن عذارى ، البيان المغرب ، ٢/٢٤٣ — ٢٤٤ .

(٢) هو بلقين يوسف بن زيرى بن مناد الصنهاجى القائد المعروف الذى استخلفه الفاطميون على المغرب عند انتقال المعز إلى مصر ، وهو منشئ دولة بنى زيرى فى إفريقية .

انظر عنه : ابن عذارى ، البيان المغرب ، ١/٢٢٨ وما بعدها .

ومن الطبيعى أن يغضب بلقين عندما يسمع أن العزيز نزار قد استقبل خصمه يحيى بن على ابن حمدون زعيم زناتة وعدو الصنهاجيين وأنه عفا عنه وأكرمه بعد الذى كان منه .

(٣) لفظ عامر هنا غير مفهوم ، وقد يكون اسم ابن لجعفر بن على بن حمدون . وقد تكون صحة اللفظ « غامر » بمعنى مغمور .

وقتله . ولم تطل به(١) المسرة بعد قتل جعفر حتى فاجأته المنية ، فهلك فى سنة ثلاث وسبعين وثلاثمائة .

[١٣٧-١] ومن شعر يحيى بن على ، وأنشده أبو عامر السالمى فى كتاب التشبيهات / من تأليفه قوله يصف فرساً :

ومتمَّماً فى خَلقِهِ لم يُبْخَسِ عارى الأديم من الملاحة مُكتسِ
صَلَّت إليه الخيلُ فهو إمامها وهو المقدَّمُ عندها فى الأنفسِ
وكأنَّ لونَ أديمه من سَوْسَنٍ وكأنَّ لونَ لجامه من نَرْجِسِ

تم بعون الله

الجزء الأول من كتاب

الحلة السيراء

ويليه الجزء الثانى وأوله ترجمة :

سليمان بن الحكم بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر المستعين بالله ، أبى أيوب .

(١) أى بأبى الفتوح يوسف (بلقين) بن زيرى ، فقد توفى فى موضع يسمى واركنفو فى المغرب فى ٢١ ذى الحجة ٣٧٠ (ابن عذارى ، ١/٢٣٩) .

فهرس الجزء الأول

صفحة

المائة الأولى من الهجرة

المائة الثانية

المائة الثالثة

المائة الرابعة

صفحة

IBN AL-ABBĀR

Al-Ḥulla al-Siyarā'

Edition Critique

par

HUSSAIN MONÈS

Professeur à l'Université du Caire,
Directeur de l'Institut d'Etudes Islamiques de Madrid.

Volume I

Editeur

La Société Arabe de Publications, 47 Rue Naguib al Rīhānī.
Le Caire, 1963.

6701

514